

الداعية الكبير الشيخ

محمد إلياس الدهلوي

ودعوته إلى الله

تأليف فضيلة الشيخ العلامة

أبي الحسن علي الحسني الندوي

رحمه الله تعالى

تقديم فضيلة الشيخ

محمد منظور النعماني

رحمه الله تعالى



وبذيله كتاب

الشيخ

محمد إلياس الدهلوي

حياته ومنهجه في الدعوة والتبليغ

تأليف فضيلة الشيخ الدكتور الداعية الإسلامي

عبد الخالق بيرزادة "حفظه الله"



مكتبة الإيمان

الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس الدهلوي ودعوته إلى الله

مكتبة الإيمان

الداعية الكبير الشيخ

محمد إلياس الدهلوي

ودعوته إلى الله

لازالت شبه القارة الهندية الباكستانية عالما مجهولا للقارئ العربي لقلة ما كتب عنها باللغة العربية ، ولضحالة معلوماتنا عن طبيعة الصراع الفكري فيها بين القوى الوثنية ، أو البقايا الإستعمارية والتيار الإسلامي هنالك .

في هذا الكتاب يعرض المؤلف (وهو من علماء شبه القارة) ـ ولأول مرة ـ لسيرة أبرز أئمة الدعوة في القرن العشرين في شبه القارة وهو العلامة الداعية الشيخ / محمد إلياس الكاندهلوي ـ رحمه الله ـ الذي جعله الله سبحانه وتعالى سببا في إحياء عمل الدعوة والتبليغ ، ووالد العلامة الداعية الشيخ / محمد يوسف الكاندهلوي ـ رحمه الله ـ مؤلف كتاب (حياة الصحابة رضي الله عنهم) ، يعرض المؤلف لنشأة الشيخ محمد إلياس ونسبه وأساتذته والعوامل المؤثرة في حياته ومنهجه ومشاركته في مقاومة الإستعمار الإنجليزي ، والتيارات الوثنية ، والحركات المعادية للإسلام ، حيث اجتمعت كل القوى الوثنية والإستعمارية واتفقت على القضاء على الإسلام في جنوب شرقي آسيا ، وذلك طوال الثلاثمئة عام الأخيرة ، والتي شهدت أكبر وأخطر ارتداد عن الإسلام ، والتي لولا جهود الأئمة والدعاة لصار الإسلام بها أثرا بعد عين ، وذلك لقرب عهد القوم بالوثنية ومحاصرتهم بالمؤامرات الإستعمارية والوثنية ، ولذا قام العلامة الداعية الشيخ / محمد إلياس الكاندهلوي ـ رحمه الله ـ بتقديم خطة جديدة للدعوة إلى الله والإصلاح الشامل للمجتمع الإسلامي حتى ينقذ المسلمين من هذا الخطر المحدق ، وبلور الشيخ محمد إلياس خبراته وفقهه في منهج عملي يحتوي على ست نقاط رئيسية مستمدة من الكتاب والسنة الشريفة ومنهاج الصحابة رضوان الله عليهم .

عكف المؤلف ـ لسنوات طويلة ـ على دراسة منهج الشيخ محمد إلياس رابطا إياه بحياته والظروف المحيطة به ، حتى أخرج هذا الكتاب الذي يعد مرجعا وافيا لكل من يهمه الإطلاع على تاريخ الدعاة والدعوة الإسلامية ، ومناهجها العلمية والعملية ، وأصولها وتوجهاتها ، وهو بذلك يعد عملا تاريخيا ، وفقهيا ، ذا طابع وتناول علمي ، طالما المكتبة الإسلامية العربية في مسيس الحاجة إليه .



مكتبة الإيمان للطبع والنشر والتوزيع

الداعية الكبير الشيخ

محمد إليـــاس الدهـــــــلوي

ودعوته إلى الله

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

أبي الحسن على الحسنى الندوى

رحمه الله تعالى

تقديم

فضيلة الشيخ

محمد منظور النعماني رحمه الله

وبذيله كتـــــــاب

الشيخ

محمد إليـــاس الدهـــــــلوي

حياته ومنهجه في الدعوة والتبليغ

تأليف

فضيلة الشيخ الدكتور الداعية الإسلامي

عبد الخالق بيرزادة

حفظه الله

الداعية الكبير الشيخ

محمد إلياس الدهلوي

ودعوته إلى الله

تأليف

العلامة الإمام الشيخ

أبي الحسن على الحسنى الندوى

ـ رحمه الله تعالى ـ

تقديم الكتاب

لفضيلة الشيخ

محمد منظور النعماني

بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم الكتاب لفضيلة الداعية الكبير الشيخ محمد منظور النعمانى ـ رحمه الله ـ

منشيء مجلة (الفرقان) .

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لانبى بعده ، وبعد : فقد كنا نتردد برهة من الدهر فى تأليف كتاب عن حياة الشيخ محمد إلياس الكاندهلوى ـ رحمه الله ـ فقد كان الشيخ يوصينا ويؤكد علينا بأن لا نربط بين شخصيته ودعوته وحركته ، ولم يكن يسمح ـ إطلاقا ـ بأن تكون الدعوة إلى شخصيته .

حتى إنه كان فى آخر أيام حياته لم يكن يرضى بأن يذكر اسمه فى التعريف بحركته .

كان ذلك مؤسسا ـ عدا إخلاصه وتواضعه وإيثاره وتحفظه الشديد ـ على مصالح دعوية بعيدة المدى ، ولكننا وأهل الدعوة والعاملين فى هذه الحركة لم ننجح فى ذلك ، ولم نستطع الإلتزام به ، فكثيرا ما كانت مصالح الدعوة تقتضى أن يُذكر مؤسسها حتى يهتم بها من كان يعرف شخصية المؤسس وإخلاصه وربانيته وتزداد بها ثقته ، ويحسن بها ظنه .

كما كان يلزم أحيانا لشرح أصول الدعوة وقواعدها وما ظهرت من نتائج باهرة فى تطبيقها، ذكر تجارب الداعى الأول مؤسس الحركة الشخصية ومراحل الدعوة وتطوراتها التى مرت بها فى أيام مؤسسها ، ولم يكن بد حينئذ من ذكر إسم الشيخ وجهوده الجليلة ، وكان ذلك فى أكثر الأحيان فى مصلحة الدعوة وفائدتها .

ولايزال كاتب هذه السطور والمؤلف يذكر بأننا كنا نعاتب أحد أصحاب العلم والفضل والكتابة (بدلهى) عتابا وديا ، على عدم حضوره لمركز

الدعوة وقلة اهتمامه بها ، وكنا نحاول إقناعه بذكر أهمية هذه الدعوة وعظمتها ، فلما تطرقنا إلى ذكر شخصية الشيخ الوقور المحترمة وربانيته الصادقة وآراء كبار العلماء المعاصرين فيه ، رأينا أن الدعوة أصبحت فى نظره ذات ثقل وخطورة ، ومكانة ، ولم يؤثر فيه شيء كتأثير ذلك .

لقد شعرت من خلال تلك التجارب والمصالح الدينية المتعددة بضرورة التأليف فى سيرة الشيخ وتاريخ دعوته وحركته أثناء مرضه الشديد الذى لم يكن يرجى البرء منه .

وكان فضيلة الشيخ أبو الحسن على الحسنى الندوى نازلا بالمركز فى آخر أيام مرض الشيخ . فلما أبديت له مكنون ضميرى ألفيته يحمل هذا الهم ويفكر هذا التفكير ، بل قد بدأ يسجل بعض المواد المهمة ، ثم مالبث الشيخ أن ارتحل إلى رحمة الله الواسعة ، وقوى هذا الإقتراح ، وأصبح أمرا مبرما .

وكان فى آخر أيام حياة الشيخ ـ رحمه الله ـ قد اجتمع لخدمته وزيارته الأخيرة جميع العاملين والزملاء القدامى فى هذه الحركة وأقارب الشيخ وذوو رحمه ، وكاد هذا العقد الفريد أن ينفرط ، وأوشك الجمع على التفرق ، ولم يكن بوسع أحد أن يقول :

إن هذه المجرة سوف يزدان بها الفضاء مرة ثانية ، فاستفاد الشيخ أبوالحسن الندوى من تلك الفرصة السانحة أيما إفادة ، وجمع المعلومات المهمة ـ التى لايمكن بدونها تأليف كتاب عن حياة أى شخص عن الشيخ ـ من ذوى قرابته وأصحابه القدامى .

وسألهم أسئلة مهمة جمع عن طريقها مواد قيمة ، وجزئيات وتفاصيل كثيرة ، واستفسرهم عن السنين ، وضبط مراحل الدعوة وتطورات الحركة .

وقد حمل معه من مركز الدعوة بنظام الدين (بدلهى) مجموعة قيمة من

الرسائل التى كتبها الشيخ ـ رحمه الله ـ إلى كثير من أصحابه والتى ملأ به بعضا من الفراغ فى سيرته .

وكانت أكبر مجموعة من الرسائل وأفضلها فيما يتعلق ببيان مبادىء الدعوة وأصولها عند الشيخ نفسه ، فقد كان الشيخ ـ رحمه الله ـ قد وجه أهم رسائله وأكثرها توضيحا وتفصيلا فى شرح دعوته وبيان حركته ـ فى حدود علمى ـ إلى المؤلف نفسه، وقد استفاد منها المؤلف كل افادة ، كما بعث إليه كثير من الأحباب والأصدقاء ـ بعد علمهم باشتغاله بتأليف عن حياة الشيخ ـ بجملة رسائل الشيخ عندهم ، وقد أفادت وأضافت مادة قيمة .

وأتت أكبر مساعدة وأنفعها فى هذا الصدد من العلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى ـ رحمه الله ـ فقد جمع المواد التاريخية المتعلقة بحياته بجد واهتمام وتحقيق ، حتى صرفت أحيانا الأيام والليالى فى البحث عن سنة أو تاريخ لحادث والتحقيق فيه ، واستخراج الأشياء والحلقات المفقودة من مذكراته ، وأوراقه وكتاباته القديمة ، وهكذا استكمل هذا الكتاب .

ثم حصلت له مجموعة أخرى كبيرة عندما كان الكتاب ماثلا للطبعة الثانية باهتمام العلامة المرحوم وعنايته . وقد زيد فيها عدد كبير من المقتطفات فى هذا الكتاب ، نفخت فى الكتاب روحا جديدة وأمدته بقوة عالية ، وهكذا فقد كانت تأييدات من الله تترى فى إنجاز هذا العمل ، واجتمعت له من المادة التاريخية مالم يكن بالحسبان .

وبعد أن تمت المسودة وأصبحت معدة للطباعة ، رأينا من الضرورة أن يعرض هذا الكتاب على أصحاب الشيخ القدامى ومن كانت له معرفة خاصة به ، حتى نزداد ثقة واطمئنانا بأن كل ماجاء فيه من الأحداث والتصريحات تستند إلى أصل صحيح ، وقد قرىء ـ لأجل ذلك ـ هذا الكتاب فى إحدى رحلاتنا إلى ميوات فى شهر ديسمبر عام 1944 عدة مرات ، وزيد فى تهذيبه وتوثيقه .

والمؤلف ـ رحمه الله ـ كان من أجدر الناس وأقدرهم على تأليف كتاب في حياة الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس ـ رحمه الله ـ فقد كان موضع ثقته وعطفه الخاص ، لوجود روابط دينية ودعوية بين أسرة الشيخ وأسرة الشيخ أبي الحسن الندوى، وكان يقوم فى كثير من الأحيان بدور المترجم والمعبر عن فكرته ودعوته بالخطابة فى الجماهير، والحديث إلى العلماء ورجال التعليم الدينى ، والمثقفين بالثقافة العصرية ، وقد جمع رسائله فى كتاب مفرد واطلع الشيخ على ماكتبه الشيخ أبوالحسن فى التعريف بمبادئه وأسس دعوته فارتضاه .

ولذلك جاء هذا الكتاب فى مكانه وأوانه وصدر عن قلم خبير ، وكاتب بصير ، تقبله الله ونفع به .

محمد منظور النعمانى . لكناؤ ـ الهند .

الباب الأول

مولده ونشأته . أسرته وبيئته . دراسته وتربيته .

مولده ونشأته :

كانت ولادة الشيخ محمد إلياس الكاندهلوى فى سنة 1303 هـ ، وقد عاش أيام طفولته فى خؤلته (في كاندهلة) إحدى قرى الجامعة فى مديرية " مظرفنكر " فى ولاية " إترابراديش " بالهند) .

وعند والده الشيخ محمد إسماعيل فى " بستى نظام الدين" بدهلى الجديدة .

كانت أسرته مهد العلم والدين والورع ، حتى أن قصص حرص السيدات فى هذه الأسرة على العبادة والتلاوة والذكر ، ومواظبتهن على الأوراد والتسبيحات ، وإحياؤهن الليالى ، وقيامهن بتلاوة السور القرآنية ، مما لاتسمو إليه همة كثير من الذكور فى هذه الأيام ، فقد كن يحافظن على السنن والنوافل بما فيها صلاة التراويح فى رمضان ، وكان شهر رمضان المبارك ربيع القرآن الكريم ، حيث يتذوقن تلاوة القرآن ويتلذذن به .

وكانت المجالس والمحافل فى هذه الأيام فى داخل البيت وخارجه معمورة بقصص وحكايات العلامة الشيخ عبدالعزيز الإمام ولى الله الدهلوى ، والسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد [1] ، وقصص أسرتها ، كانت أحاديث تدور على الألسنة ، والأمهات وربات البيت يتلون على الصغار هذه القصص الباعثة للروح والمثيرة للإيمان والحنان ، وذلك مكان

(1) قائد حركة الإصلاح والجهاد الكبرى فى القرن الثالث عشر الهجرى فى الهند ، ليرجع إلى كتاب المؤلف " إذا هبت ريح الإيمان " ورسالة " الإمام الذى لم يوف حقه من الإنصاف والإعتراف " طبع دار الرسالة فى بيروت وطبع " المجمع الإسلامى العلمى " فى الهند .

القصص المسلية والسمر الممتع الملهى الذى اعتادته كثير من البيوتات والأسر .

والده :

والده هو العالم الربانى الشيخ محمد إسماعيل الذى ينتمى إلى أسرة كريمة عريقة فى العلم والدين ، ينتهى نسبها إلى سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكانت إقامته بدلهى الجديدة ، وأما مسقط رأسه ووطنه الأم العريق فهو قرية : " جهنجهانة " فى مديرية " مظفرنكر" فى ولاية " إترابراديش " ، وقد تزوج بعد وفاة زوجته الأولى فى أسرة معروفة بحب العلم والتمسك بالدين ، يلتقى نسبها [1] فى قرية "كاندهلة " مما جعله يتردد إليها كثيرا ، وصارت له كالوطن .

عاش حياته فى العزلة والخلوة والعبادة ، وكانت العبادة والتلاوة ، وخدمة الغادين والرائحين من المسافرين ، وتعليم القرآن والدين ، شغله الشاغل فى ليله ونهاره ، فقد كان على قمة من التواضع وإنكار الذات ، حتى إنه إذا رأى أجيرا كادحا يستثقل الحمل ، ويشكو العطش ، يضع حمله عنه بيديه ، وينزع الماء بالدلو من البئر بنفسه ويسقيه ، ثم يركع ركعتين شكرا لله الذى وفقه لخدمة عباده دون جدارة واستحقاق .

يواظب على الأذكار والأدعية المأثورة فى الحديث المختلف الأوقات والأحوال ، وعجنت طينته بحب الهدوء والسلام ، ومعاشرة الناس فى

---

(1) كان كبير هذه الأسرة ومن أعلامها ورجال القرن الثالث عشر الهجرى الكبار ، المفتى إلهى بخش الكاندهلوى من كبار تلاميذ مسند الهند الإمام عبدالعزيز (إبن الإمام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوى المشهور بولى الله الدهلوى المحدث) ولد فى 1162 هـ ، وتوفى فى 1245 هـ ، كان المرجع فى الفتوى ، يقول الشعر بالعربية والفارسية والأردية ، وله نحو أربعين مؤلفا بالعربية والفارسية ، راجع السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد فى شيخوخته، واتصل به اتصالا وثيقا مما يدل على إخلاصه وعلو همته .

جو الحب والوئام والإنسجام ، فلم يشك من أحد قط ، وظل موضع الحب والإعجاب والثقة من العلماء ، وقاد مختلف طبقات المسلمين الذين كان بينهم خلاف شديد وكراهية متبادلة لايصلى بعضهم خلف بعض .

بداية الإتصال بمنطقة " ميوات " :

ولاتصاله بمنطقة " ميوات " (التى جعلها إبنها العظيم البار الرشيد الشيخ محمد إلياس الكاندهلوى فيما بعد أكبرمجالات جهده الدعوى ، وصب فيها عصارة محاولاته) قصة طريفة تبعث على الأذكار ، وهى أنه خرج يوما يبحث عمن يجلبه إلى المسجد، ويصلى معه بالجماعة ، فوقع بصره على عدد من المسلمين ، فسألهم ماذا ينالون من الأجرة ؟

فأشاروا إلى الكمية التى كانوا ينالونها فى يومهم ، فقالوا : أفما يغنيكم أن تجدوا هذه الكمية ههنا، ولاتتعبوا أنفسكم بذلك العمل ؟ فقالوا : ذلك مانبغى ، فأدخلهم المسجد ، وجعل يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الصلاة ، ويدفع إليهم الأجرة التى كانوا ينالونها يوميا ، ويشغلهم بقراءة القرآن ، وتعلم الصلاة وآدابها وأحكامها ، حتى عودهم على الصلاة وخرجهم عليها ، فشغلوا بها عن العمل ، وكان هؤلاء هم نواة مدرسة " مسجد الكوخ " التى ازدهرت فيما بعد ، ومنذئذ ظل يتعلم فيها 10 ـ 12 ميواتيا على الأقل ، يقيمون فى المدرسة ،

ويأكلون من مائدة الشيخ محمد إسماعيل رحمه الله .

واستأثرت به رحمة الله فى 4 من شوال سنة 1315 هـ ، الموافق 26 من فبراير سنة 1898 م ، وكانت جنازته مشهودة ، صلى عليه الناس مرات عديدة ، ومن شدة الزحام تأخر دفنه كثيرا عن الوقت المحدد .

خلف رحمه الله ثلاثة من البنين : الشيخ محمد ـ وهو أكبر أشقائه ، وكان من زوجته الأولى ـ والشيخ محمد يحيى ، والشيخ محمد إلياس ، من الزوجة الثانية أمه :

كانت أمه السيدة صفية حافظة للقرآن الكريم ، وقد حفظته بعد الزواج ، حين كان ابنها الشيخ محمد يحيي رضيعا ، كانت تتلو القرآن كله ، وعشرة أجزاء زيادة عليه كل يوم فى شهر رمضان المبارك ، وعلى ذلك فكانت تتلو القرآن فى كل رمضان أربعين مرة ، وذلك بجانب القيام بشئون البيت ووظائفه ، بل كانت يداها مشغولتين بعمل من الأعمال وهى تتلو القرآن ، وأما الأذكار الدائمة التى كانت تواظب عليها إلى جانب القيام بالعمل البيتى ، فالإنسان يقضى العجب منها ، فقلما يقدر عليها رجل قوى متفرغ صاحب همة عالية وعزيمة .

طفولة الشيخ محمد إلياس وثقافته البيتية :

تعلم الشيخ محمد إلياس فى الكتاب ، وقرأ القرآن الكريم ، كعادة الأطفال فى أسرته ، ثم حفظ القرآن فى صباه ، وكان حفظ القرآن عرفا متبعا فى الأسرة ، حتى ماكان يوجد فى الصلاة بالجماعة فى صف ونصف صف فى المسجد المجاور غير حفاظ القرآن الكريم إلا المؤذن وحده .

كانت توجد فيه منذ الصبا مسحة من روح وفاء الصحابة وولائهم ، وقلق واضطراب ، واحتراق للدين والدعوة ، حتى كان العلامة الشيخ محمود حسن المعروف بشيخ الهند (شيخ الحديث بدار العلوم بديوبند سابقا) يقول : إنى كلما أرى الشيخ محمد إلياس أتذكر الصحابة رضى الله عنهم .

جُبِل الشيخ محمد إلياس على الحمية الدينية (التى زادت ونمت واتخذت صورة منظمة فيما بعد) ثم أشعلت الجمرة الإيمانية وأثارت الغيرة الدينية فى قلبه بيئته التى نشأ فيها ، وقصص العلماء الربانيين والمؤمنين الصادقين التى كانت تتلى فى بيته ، حتى غدا تصدر عنه فى صباه أعمال لاتصدر عادة عمن كان فى سنه ، يقول تربه ورفيقه فى الكتاب الأستاذ رياض الإسلام الكاندهلوى : حينما كنا تلميذين فى الكتاب، جاء يوما بخطب وقال : تعال ياأخى رياض الإسلام نجاهد ضد التاركين للصلاة .

إقامته بكنكوه :

انتقل أخوه الأوسط مولانا محمد يحيي إلى العالم الربانى المصلح الكبير الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى فى قرية "كنكوه " فى مديرية " سهارنفور " بأترابراديش ـ الهند ـ ولازمه ، يتعلم ويتخرج فى التزكية والتربية الروحية ، ويتشرب الدين .

أما الشيخ محمد إلياس فظل يتقلب بين خؤولته فى كاندهلة وبين بستى نظام الدين أولياء [1] فى دهلى ، حيث كان والده مقيما لايبرح ، وكان من إقباله الكبير على العبادة ، وعطف والده عليه ، لايتمكن من التعلم والدراسة ، فعرض الشيخ محمد يحيي على والده أن يرسله معه إلى " كنكوه " لأنه لايتمكن من الإقبال على الدراسة بصورة منظمة مشيعة ، فسمح بذلك والده ، وذهب إلى " كنكوه " فى 1314 هـ أو فى أوائل 1315 هـ يقرأ على أخيه .

كانت " كنكوه " عندئذ منتجع الصالحين والأتقياء والعلماء ، وتمتع الشيخ محمد إلياس بمعايشتهم وصحبة الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى ، ولاتخفى على الحكماء وأهل الخبرة ما تمثل هذه المجالس والمحافل الدينية ومعاشرة الأخيار والأبرار من التأثير فى القلوب والنفوس ، واليد فى إثارة العواطف الدينية وإذكاء الفهم الدينى والشعور الإسلامى ، كانت هذه البيئة التى عاشها الشيخ محمد إلياس فى مستقبل حياته ، عاملا أساسيا فى تكوين حياته الدينية والإيمانية ، أمضى فيها خير أيام حياته ، التى يتأثر فيها المرء من الظروف والملابسات ، والبيئة والمكان كثيرا ، قدم "كنكوه " وهو فى 10 أو 11 من عمره ، ولما توفى الشيخ الكنكوهى فى 1323 هـ وكان شابا يافعا فى 20 من سنه ، وعلى ذلك فقد قضى (رحمة الله عليه)

---

(1) اسم الحى المشهور فى دهلى.

عشر سنوات كوامل فى صحبة الشيخ (رحمه الله) .
كان أخوه الشيخ محمد يحيي الكاندهلوى أستاذا خبيرا ، ومربيا محنكا ، فركز عنايته على أن لاتحول دراسته النظامية بينه وبين الإفادة من تلك المجالس الخيرة ، فقد روى الشيخ محمد إلياس نفسه ، أنه كان العلماء والمتخرجون على الشيخ الكنكوهى يحضرون ، فربما كان شقيقى محمد يحيي يوقف درسى ، ويقول : إن درسك الآن أن تجلس إلى هؤلاء الشيوخ وأن تصغى إلى حديثهم

بيعة الشيخ الكنكوهى والتخرج عليه فى التربية والإحسان :

كان من عادة الشيخ الكنكوهى أنه ماكان يسمح لطلبة العلم بالبيعة، والذين هم يعيشون أيام التحصيل والدراسة ممن لم يبلغوا أشدهم ، لكنه قبل بيعة الشيخ محمد إلياس وهو متعلم نظرا إلى ماكان يتمتع به من الكفاءة الغنية، وتوطدت العلاقة بين الشيخ وتلميذه الروحى ، وصار يحن كل منهما إلى الآخر حنانا لايسمح أن يفارق صاحبه ، مما مكن الشيخ محمد إلياس أن يفيد إفادة كاملة .

أسلوب الشيخ محمد يحيي فى التعليم والتربية :

كانت طريقة الشيخ محمد يحيي فى التعليم والتربية طريقة مبتكرة ، فما كان يدرس فى المراحل البدائية الكتب الدراسية ، بل كان يملى القواعد والمبادىء الصرفية والنحوية ، على الترتيب والتدريج فكان يبدأ بالكلمات الخفيفة القصيرة إلى الصعبة الطويلة النفس، وكان يركز على اللغة والأدب والتضلع منهما منذ البداية .

وكان أول مايدرس فى كتاب " جهل حديث " (مجموعة أربعين حديثا) لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم المشهور بولى الله المحدث الدهلوى ،

والجزء الأخير من القرآن الكريم .
وكان يضغط على تعميق الصلاحية العلمية ، وغرس حب الدراسة فى قلب الطالب ، وإيجاد الهواية العلمية عنده ، وماكان يعنى بإنهاء المقررات الدراسية ، وكان يهتم بأن لايكون عند الطالب من الكتب الدراسية إلا ما لا يتحلى بالحواشي والشروح ، وماكان ينتقل بالطالب من كتاب إلى آخر إلا حين يطمئن إلى أنه أصبح يقدر على فهم وتفهيم صفحات من الكتاب بدون معونة من أستاذه، ويبذل عناية خاصة بإتقان اللغة العربية، وتكوين الإستعداد العلمى، ومن هنا كان المتخرجون عليه يتسمون بروح الإتقان والتعمق والكفاءة العلمية .

انحراف الصحة ، وانقطاع الدراسة ثم الإقبال عليها بعد عودة الصحة :

كان الشيخ ضئيل الجسم نحيله ، وأصيب بانحراف فى الصحة أيام إقامته بكنكوه فى سبيل الدراسة والتحصيل ، وأصيب بصداع فى الرأس ، صار لايستطيع معه أن يحنى رأسه ، أو يسجد حتى على الوسادة ، وظل يقاسى ذلك شهورا طويلة ، كان يداويه ابن الشيخ الكنكوهى الطبيب الأستاذ مسعود أحمد ، الذى كان يسلك طريقة غريبة فى العلاج ، فكان يمنع المريض عن الماء ، وكذلك كان مع الشيخ محمد إلياس ، وظل يلتزم تلك الحمية وتقيد بهذه الوصية الطبية (بفضل ما أوتى من قوة الصبر والصلابة ، والعزيمة وقوة الإرادة التى ظلت سمته فى حياته) على حين تراجع المرضى أمام هذه الحمية القاسية ، وظل سبع سنوات لايصيب من الماء ، وخمس سنوات لايتناوله إلا قليلا .

ومن أجل هذا المرض المضنى ، ولاسيما الضعف الذى أصاب الذهن وقوة التفكير ، إنقطعت دراسته ولم يكن هناك رجاء فى إتمام الدراسة فيما بعد ، وكان الشيخ يساوره قلق دائم وحزن قائم من أجل هذا الحرمان ، والأخوة المحبون يشيرون عليه باستجمام ، ولما كثر طلبه للدراسة والحاجة

إليها ، قال له أخوه يحيي يوما : ماذا ينفعك أن تتعلم بعد هذا الضعف وانحراف الصحة ؟ ؟

فأجاب : وماذا ينفعنى أن أعيش جاهلا ؟ ؟

وأخيرا استسلم الناس لإلحاحه ، وبدأ يتعلم للمرة الثانية .

وفاة الشيخ الكنكوهى :

فى سنة ١٣٢٣هـ، انتقل الشيخ الكنكوهى إلى رحمة الله ، ولما لفظ أنفاسه الأخيرة ، كان الشيخ عند رأسه يتلو سورة يس ، وقد أثر هذا الحادث الأليم أبلغ تأثير وأعمقه على قلب الشيخ محمد إلياس ، حتى كان يقول : أصابنى فى حياتى حزنان لاعهد لى بهما ، حزن وفاة والدى ، وحزن وفاة شيخى وسيدى الكنكوهى ، ويقول : قد قضيت وطرى من البكاء ، واستنفدت ماء الشئون حين وفاة سيدى الكنكوهى .

إتمام دراسة الحديث الشريف :

ارتحل فى سنة ١٣٢٦ه إلى ديوبند ، وحضر دروس العلامة الشيخ محمود حسن المعروف بشيخ الهند ـ رئيس هيئة التدريس وشيخ الحديث بدار العلوم ديوبند ـ فى صحيح البخارى وجامع الترمذى .

وبعد ذلك بأعوام أتم دراسة الحديث ، وقرأ بقية الصحاح الستة على أخيه الشيخ محمد يحيي فى ظرف أربعة أشهر .

الإمعان فى العبادة ، والحرص على السنن والنوافل :

بعد ما توفى الشيخ الكنكوهى، أصبح الشيخ يقضى أوقاته فى صمت وسكوت ، حتى تمضى عليه أيام لاينبس ببنت شفة ، يقول الشيخ محمد زكريا بن يحيي : كنا نقرأ عليه الفارسية فى هذه الأيام ، وكنا نحضر بكتابنا الذى نقرأ فيه ، وندله على موضع درسنا بالإصبع .

الإتصال بالشيخ خليل أحمد السهارنفورى :

وبعد وفاة الشيخ الكنكوهى اتصل بالشيخ خليل أحمد السهارنفورى ـ صاحب " بذل المجهود فى حل ألفاظ أبي داوود " وبايعه[1]، وذلك على إشارة من الشيخ محمود حسن رحمه الله ، وتلقى التربية الروحية ، وتخرج عليه فى التزكية القلبية والإحسان .

ونمضى نقرأ ، فإذا أخطأنا فى القراءة أشار إلينا بطرف إصبعه بإغلاق الكتاب ، وإنهاء الدرس ، وكان غرضه من ذلك أن نعيد المطالعة والنظر فى الكتاب ، ثم نحضر من جديد .

وكان فى هذه الأيام يكثر من صلاة النفل، يقضى الفترة فيما بين المغرب والعشاء فى الصلاة ، وكانت سنه حين ذاك تتراوح بين ٢٠ إلى ٢٥ سنة .

عاطفة الجهاد :

كانت عاطفة الجهاد مشتعلة فى قلبه بجانب الإكثار من الذكر والسنن والنوافل والعيش فى العبادة ، والمتصلون به يعرفون أن دورا من أدوار حياته لم يخل من تلك العاطفة ، وحماسة الجهاد والعزيمة مما دفعه إلى أن يبايع الشيخ محمود حسن بيعة الجهاد .

مكانته فيما بين العلماء والمشايخ :

كان موضع احترام فيما بين المشايخ والعلماء ، يحترمه الكبار ويجلونه رغم

(1) كانت البيعة ـ ولاتزال عند الشيوخ المربين الراسخين فى العقيدة الصحيحة والعلم بالكتاب والسنة ـ توبة من الكفر والشرك والمعاصى والبدع ، وعقد عزيمة على اتباع الكتاب والسنة والفرائض الدينية ، والأذكار المأثورة ، وفى ذلك تشحيذ للعزم وتجديد للإيمان والربط بالله والرسول ، وقد نفع الله بذلك خلقا كثيرا لايعد ولايحصى ، لم يكن لهم طريق ميسر لتجديد الإيمان والربط الوثيق بالدين خصوصا فى البلاد العجمية والبيئات الموبوءة ، إلا هذا الطريق.

صغر سنه ، كان الشيخ يحيي ـ أخوه الأوسط ـ أكبر منه سنا ، وما كان يعامله معاملة الكبير مع الصغير ، بل كان فى سلوكه معه إجلال وتقدير .

كان نحيل الجسم ، فما يستطيع أن يقوم بأشغال تتطلب المشاق وإجهاد الجسم ، وإنما يقضى أوقاته فى عبادة ربه ودراسة الكتب ، وأما مولانا محمد يحيي فكان رجل جد وكد ، يقدر على تحمل الصعوبة والكدح الجسمانى ، كانت لهم مكتبة تجارية وكانت هى الوسيلة الوحيدة التى تدر لهم الرزق ، وتوفر لهم المعاش ، والشيخ يحيي وحده يتولى إدارتها والإشراف عليها ، والقيام بأمورها ، قال له يوما رجل يقوم بأعمال هذه المكتبة فى حب وإخلاص :

إن الشيخ إلياس لايسهم فى عملنا ، فلماذا لاتحمله مسئولية تضطره إلى العمل ؟ لنه كذلك ينتفع بالمكتبة ؟!

وتلقى الشيخ يحيي هذا الإقتراح بكراهية شديدة ، وقال : أو ماتعلمون أنه قد جاء فى الحديث : عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: رَأَى سَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ لَهُ فَضْلاً عَلَى مَنْ دُونَهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إلا بِضُعَفَائِكُمْ» [(1)] . أعتقد أنى إنما أرزق بهذا الولد .

كان الكبار من العلماء والمشايخ يعرفون تقواه وورعه وروح الإنابة التى كان يمتاز بها ، فكانوا يقدمونه للإمامة بالناس فى الصلاة على ملأ من كبار العلماء ، فقد اتفق على أنه اجتمع فى (كاندهلة) كل من المربى الكبير الشيخ عبدالرحيم الرائفورى ، والشيخ المحدث الكبير خليل أحمد السهارنفورى ، والشيخ الكبير أشرف على التهانوى ، ووافاهم وقت

(1) رواه البخاري.

صلاة العصر ، وقدموا الشيخ محمد إلياس ليؤم بهم ، فقال الأستاذ بدر الحسن ـ أحد كبار الأسرة ـ ممازحا ما أطول القطار وأثقله ، وما أخف القاطرة ، فأجاب أحد الحاضرين ولكن القاطرة قوية على خفتها .

التدريس فى مدرسة (مظاهر علوم) بمدينة سهارنفور :

فى شوال عام ١٣٢٨ هـ قام معظم أساتذة مدرسة مظاهر علوم برحلة الحج والزيارة ، وعُيِّن مكانهم كثير من المدرسين الجدد ، وبهذه المناسبة تم اختيار الشيخ مدرسا فيها ، وبعد عودة الأساتذة القدامى من رحلة الحج ، استقال المدرسون الجدد ، ولكن الشيخ بقى مدرسا فيها .

وكلف فى هذه المدرسة تدريس كتب دراسية ما قرأها على الأساتذة فى دور التحصيل ، ولكنه نجح كل النجاح فى عمله التدريسى ، بفضل جهده البالغ وكفائته العلمية وشغفه بالدراسة والمطالعة ، ورجوعه إلى التعليقات والشروح الطويلة .

الزواج :

كان زواجه فى ٦ من ذى القعدة سنة ١٣٣٠ هـ الموافق ١٧ من أكتوبر سنة ١٩١٢ م بعد صلاة عصر يوم الجمعة المبارك فى (كاندهلة) على بنت الشيخ رؤوف الحسن ، وحضر تلك المناسبة السعيدة زبدة العلماء والمشايخ ، أمثال الشيخ خليل أحمد السهارنفورى ، والشيخ عبدالرحيم الرائفورى ، والشيخ اشرف على التهانوى ، وألقى الشيخ اشرف على التهانوى بهذه المناسبة خطبة قيمة بعنوان (فوائد الصحبة) تكرر طبعها وتوزيعها .

حجته الأولى :

أراد الشيخ خليل أحمد السهارنفورى فى سنة ١٣٣٣هـ أن يرتحل للحج ، وكذلك بعض كبار العلماء والمربين ، ولما بلغ الشيخ محمد إلياس هذا

الخبر ثار فيه الحنين إلى الحج وبرحبه الشوق ، يقول : إنى أرى الهند مظلمة بعد مغادرة أمثال هؤلاء العلماء .

وكان يحول بينه وبين تحقيق تلك الأمنية العزيزة اللذيذة ، عوائق وصعوبات ، فى مقدمتها الحصول على السماح من الوالدة الموقرة ، والأخ الوسط الشيخ محمد يحيى ، ثم توفير النفقة وما تكلفه الرحلة الكريمة ، ولكن الله الحكيم يسر له المهمة ، وذلل له الصعاب ، ووفر له كل سهولة واستطاع أن يحوز هذه السعادة ، ويعود إلى الهند فى ربيع الثانى سنة ١٣٣٣هـ وظل مشغولا بعمل التدريس فى مدرسة (مظاهر علوم) .

وفاة الشيخ محمد يحيى الكاندهلوى :

فى ١٠ من ذى القعدة سنة ١٣٣٤ هـ انتقل شقيقه الأوسط الشيخ محمد يحيى إلى رحمة الله ، ونزلت هذه الكارثة كالصاعقة على الشيخ محمد إلياس ، وكانت محنة لصبره وقوة تماسكه ، لأنه لم يكن شقيقه فحسب ، بل كان كذلك مربيه وشيخه العطوف وأستاذه الشفوق ، وقد شاطره هذا الحزن المرير جميع أحبائه ودائرة أصدقائه والمرتبطين به بوجه من الوجوه ، فقد كان الشيخ محمد يحيى موضع الحب والتقدير ـ من أجل مزاياه وخصائصه الكثيرة ـ بين الأنام ، ولكن الشيخ محمد إلياس لم ينس مرارة هذا الحزن قط ، وبقى يعضه ويدمى قلبه ، ويؤلم نفسه طول حياته ، وكلما تذكره أثار فى قلبه ذكريات حزينة ، واندفع يذكر صفاته وفضله ، وغناءه فى لذة تفوق الوصف ، وكأنه يغيب عما حوله ، وينسى كل ماعنده سوى الشيخ محمد يحيى ، ومايتعلق به ، وكان يخص بالذكر شموله وما كان يمتاز به من حب المسالمة ، وروح افعتدال والتوازن وموهبته للجمع بين العناصر المتضادة والأجناس المتصارعة ، وذكاءه العجيب ، وصحة فهمه وسلامة طبعه ، رحمهما الله تعالى .

الباب الثانى

الإقامة فى بستى نظام الدين فى دلهى والعمل التدريسى ، وإدارة المدرسة

وفاة الشيخ محمد يحيي :

وبعد وفاة الشيخ محمد يحيي ، وافى الشيخ محمد الأجل ـ وهو أخوه الأكبر ـ فى ليلة الجمعة ٢٥ ربيع الثانى سنة ١٣٣٦ ﻫ .

كان الشيخ محمد مثالا للحلم والتواضع ، والرأفة والرحمة ، والخشية والإنابة ، يصدق عليه قول الله تبارك وتعالى : (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا)[1] .

يحب العزلة ، ويعيش فى الإنقطاع ، لم يؤذ أحدا بيد أو بلسان ، لايهمه إلا عمله ، يعيش حياة البساطة والزهد والقناعة ، ينوب عن والده ويخلفه فى " مسجد الكوخ"[2] ، فى بسنتى نظام الدين بدلهى الجديدة .

فقد كانت هناك مدرسة بدائية أسسها والده ، يتعلم فى الأغلب طلاب من " ميوات " وكان الإتكال على الله والإنابة إليه هو رأس مال تلك المدرسة .

اقتراح الأخوة بانتقاله إلى " نظام الدين " :

كان الشيخ محمد إلياس مقيما فى دلهى لخدمة أخيه المريض مولانا محمد ، وكانا نازلين فى حارة " قصاب بوره" فى دلهى القديمة ، فى المسجد الذى يدعى بـ " نواب والى مسجد " (مسجد النواب) وفيه توفى الشيخ محمد ، وحمل جثمانه إلى " نظام الدين" ودفن بها .

وبعد وفاة الشيخ محمد ، أصر المحبون والمخلصون على الشيخ محمد إلياس

(1) سورة الفرقان _ الآية 63 .

(2) هو الإسم المشهور للمسجد لبساطته وابتعاده عن الزخرفة والفخامة.

أن يقيم فى " نظام الدين " ويخلف أباه و أخاه فى التعليم والتربية ، ويملأ الفراغ الذى وقع بوفاتهما فى هذه المنطقة ، التى تقع فيها المدرسة التى بناها والده ، وعمرها أخوه ، وأكد الحاضرون أنهم لايألون جهدا فى تقديم أية معونة تحتاج إليها المدرسة ، وفعلا قد فرضوا مبالغ يقدمونها شهريا بانتظام وقد رضى الشيخ محمد إلياس بقبولها فى ضوء مبادىء وشروط التزمها إلى آخر حياته ، أما انتقاله إلى " نظام الدين " وإقامته المستقلة فيها ، واستقالته من مدرسة " مظاهر علوم " بسهارنفور التى كان مدرسا فيها فإنه علق كل ذلك على إذن الشيخ خليل أحمد السهارنفورى .

وبعد انتهائه من دفن أخيه مضى إلى" سهارنفور" وأخبر الشيخ السهارنفورى بالوضع الذى كان يواجهه ، وسمح الشيخ السهارنفورى بارتحاله إلى نظام الدين نظرا إلى المصالح الدينية ، وبفعل إلحاح الأخوة المحبين ، لكنه أشار عليه بأن لايستقيل من " مظاهر علوم " ويقدم طلبا بأجازة سنة كاملة ، فإذا طابت الإقامة بنظام الدين ، واستتب الرأى على ذلك فإنه يمكن الإنقطاع الكلى من المدرسة فى كل وقت.

وقوع انحراف خطير فى الصحة :

وأخذ الشيخ برأى الشيخ السهارنفورى ، وقدم الطلب إلى عميد المدرسة ، وجعل يستعد للإرتحال إلى نظام الدين ، إذ ألم به مرض شديد ، وانطلق فى الثانى من جمادى الأولى سنة ١٣٣٦ ه من " سهارنفور" إلى " كاندهلة " واشتد المرض بكاندهلة وأصيب بدورة مرض " ذات الجنب" الشديدة ، جعلت السرة تقطع الرجاء من حياته ، وتخاذل جريان الدم فى العروق ، وبردت يداه ورجلاه ، وجعل الناس يرددون " إنا لله وإنا إليه راجعون " ، لكن الله الحليم الكريم تكرم عليه بالإفاقة ، وبدات الحالة تتحسن ، وعادت إليه صحته كاملة بعد أيام ، لأن الله سبحانه وتعالى قدر أن يجرى على يديه الخير الكثير ، ويتم عن طريقه

عمل دينى دعوى كبير .

ارتحاله إلى " نظام الدين " :

وبعد ما عوفى ارتحل إلى نظام الدين ، وكانت تلك المنطقة مقفرة تتعطش إلى السكان ، وكان المسجد محاطا بالغابات الموحشة ، والأشجار الكثيفة ، يحكى الأستاذ احتشام الحسن الذى كان يعيش مع الشيخ منذ صباه الخبر فيقول :

(كنت أخرج من المسجد أبحث عن إنسان ، أقر برؤيته عينى ، وأمتع نظرى ، وأؤلف قلبى ، فلئن وقع نظرى على إنسان ، كنت أفرح فرح من أهدى إليه هدية مستطرفة غالية ، ولم يكن هناك إلا مسجد من الجص والأجر وكوخ ، وحجرة ، ومبانى فى ناحية الجنوب من ضريح الشيخ الكبير نظام الدين الذى يقع على غلوة من المسجد يقيم فيها طوافون حول الضريح ، ومدرسة فى المسجد بناها والد الشيخ ، وطلاب من " ميوات " وغير " ميوات " كل ذلك كان مادة العمران لتلك المنطقة الواسعة) .

لم تكن للمدرسة موارد مستقلة تسير بها عجلتها ، وكان الإعتماد على الله والثقة بعونه وعلو همة عميدها ، هو كل مايحرك دفتها ،

كانوا يعيشون فى خشونة وضيق ، قد لايجدون مايسدون به رمقهم ويقيمون به صلبهم ، لكن الشيخ كان راضيا مسرورا ، لاتدهشه الضراء ولاتزعجه الفاقة ، ولايفت فى عضد همته ضيق العيش ، وقد يقول للطلبة فى صراحة أنه لايوجد اليوم قوت ، فمن شاء فليقم.. بملح وغيره ، غير أن الشيخ لم يكن تنال منه صعوبة الحياة هذه ، وكان يخوف زملاءه من السعة التى كان يرجوها بعد هذا الضيق ، سنة الله فى خلقه ، (ولن تجد لسنة الله تبديلا)، ومن شاء فليرتحل، وماكان أحد تحدثه نفسه بمغادرة المدرسة ، بفضل التربية الروحية التى كانوا يتلقونها ، قد يصيبون من ثمار أشجار الغابة ، ويقضون بها حاجتهم إلى الطعام ، ويحتطبون

بأنفسهم فى الغابة ويخبزون بها بأيديهم ، وقد يتناولون الخبز بدون إدام وماكان يهتم بتحسين ظاهر المدرسة ، وتشييد المبانى ، وقد بنى بعض تجار دهلى على محاولة زميله القديم وأحد طلاب المدرسة القدامى الحاج عبدالرحمن [1] حجرات فى فرصة غياب الشيخ عن " نظام الدين " ، ولما عاد الشيخ محمد إلياس إلى نظام الدين ، ورأى البناء الجديد ، سخط كثيرا ، ولم يحادث الشيخ عبدالرحمن إلى مدة ، وقال إن التعليم هو كل شيء فى المدرسة ، وقد جربت أن التعليم انهار منذ أن ارتفع البناء فى المدرسة الفلانية .

وقد أتاه مرة تاجر كبير فى دهلى ، يلتمس منه الدعاء ، وقدم إليه مبلغا كبيرا ، فأبى أن يقبله ، ولكن الشيخ عبدالرحمن قبله نظرا إلى ضرورات المدرسة ولما اطلع الشيخ على ذلك أصبح فى قلق واضطراب ولم يقر له قرار حتى أعاد المبلغ إلى صاحبه ، كان يقول للشيخ عبدالرحمن : إن العمل الدعوى والدينى لايتم بالروبيات والمال ، ولو كان كذلك لأوتى النبى الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كمية موفورة من المال والثروة)

---

(1) ولد الحاج عبدالرحمن فى بيت هندوكى فى " ميوات " وتشرف فى صباه برؤية النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وأسلم على يد الشيخ محمد ـ أخ الشيخ محمد إلياس الأكبر ـ وتعلم الدين وقرأ القرآن عليه فى مدرسته ب " نظام الدين " وبايع الشيخ خليل أحمد السهارنفورى، وظل عون الشيخ محمد ويده اليمنى ومستشاره، طول حياته، ونصير الشيخ محمد إلياس وزميله فى عمله الدينى من بعده، وكان الشيخ يثنى عليه كثيرا ، ويشيد بذكره ويراه يد دعوته وحركته .

وكان يمتاز بعرض الدعوة فى غير المسلمين، وكان له ذوق خاص فى هذه الناحية ، وكان حكيم " ميوات " الإسلامى، أسلم على يديه أكثر من ألف شخص ، وأسس لهؤلاء مدرسة خاصة فى " سنكار " ومن مآثره العظيمة تطهير المجتمع الميواتى من التقاليد الغير إسلامية ، توفى رحمه الله فى ١٣٦٤ هـ ..

العبادة والمجاهدة :

وكانت تلك الأيام أيام عبادته ، ومجاهدته ، وذوق إنابته ، وكان ذوق العبادة قد توارثه من سلفه وتجلى فى أيام إقامته بنظام الدين أكثر من ذى قبل ، يقضى معظم أوقاته فى الخلوة ومناجاة الله .

وإذا أراد أن يبدأ درس الحديث الشريف توضأ ، ثم صلى ركعتين ، ويقول : (إن حرمة الحديث وعظمته تتطلبان أكثر من ذلك ، وذلك أقل مايجب أن يصنعه المشغولون به ، ولايقطع درس الحديث الشريف بالكلام والحديث مع الناس ، ولايلتفت إلى أحد جاء فى موعد الدرس مهما كان عظيما) .

الإنهماك فى التعليم وتربية الطلاب :

كان يُعنى عناية كاملة بالدروس ، وتربية الطلاب ، يدرس الطلاب فى اجتهاد بالغ ، وقد يدرس فى " مستدرك الحاكم " قبل صلاة الصبح .

كان له رأى خاص ، وأسلوب شخصى فى التعليم والتربية ، يُركز على المطالعة والتحضير ، ويقول لابد أن ينظر الطلاب فى الدرس قبل القراءة على الأستاذ نظرة عميقة حتى لاتبقى حاجة إلى وضع الأصبع والتصحيح ، أو الإرشاد والتوجيه ، ويبذل اهتماما كبيرا بإتقان اللغة العربية وآدابها وتنفيذ قواعدها ومبادئها من الصرف والنحو عمليا ، وما كان يتقيد بالمقررات الدراسية فى عامة المدارس فى الهند ، فقد يدرس كتبا لاتتداولها مدارس أخرى ، ويختار أساليب جديدة مفيدة ، تقرب الفهم والإساغة إلى الطلاب ، وتيسر عليهم مهمة الحفظ والإستظهار .

الباب الثالث

بداية عملية الإصلاح والدعوة والتعليم والتبليغ فى منطقة ميوات

المنطقة التى تقع فى جنوبى عاصمة دهلى ، والتى يقطنها أمة " ميو " تدعى بـ " ميوات " وتشتمل على مديرية " جورجانوه) وإمارات " ألور ") و " بهرت بور") الهندوكية ، وناحية من مديرية " متهرا ") إحدى مديريات الولايات المتحدة لاكره و " أوده " فى الهند ، وظلت حدود هذه المنطقة تختلف انضواءاوامتدادا كحدود جميع المناطق فى العالم ، فقد كانت فى القديم مختلفة عما هى عليه اليوم .

أمة " ميو " :

يذهب المؤرخون إلى أن أمة " ميو" تنحدر من سلالة هندية عريقة ولايمتون إلى السلالة " الآرية " بصلة ، وعلى ذلك فإن تاريخهم أعرق وأذهب فى أعماق التاريخ من أسر راجبوت الهندية المنحدرة من السلالة " الآرية" .

كانت أمة " ميو" منبع الفساد والإيذاء ، والنهب فى أول أمر الدولة الإسلامية فى دهلى ، يسومون الناس سوء العذاب ، ويصبون عليهم أشد النكال ، ويغيرون على دهلى من خلال الغابات المترامية الكثيفة ، وكانت أبواب أسوار المدينة تغلق قبل أن يمد الليل رواقه إتقاء لشرهم ، ولاتحدث نفس أحد بالخروج من ألسوار ، وكانوا يدخلون المدينة بحيلة أو بأخرى ، ويتحينون فرص النهب والغارة ، وكان أهل المدينة فى قلق من أمرهم ، ويعيشون وضعا مخوفا مستمرا ، فوجه إليهم غياث الدين بلبن (م ٦٨٦ هـ) جيشا كبيرا ، يغزوهم ويسكت نأمة شرهم ، فقتل منهم عدد وجيه ، ونصبت مراكز الخفارة فى أرجاء المدينة ، يقوم بعمل الخفارة

فيها " الأفغان " القوم الذين عرفوا ببطولاتهم ومغامراتهم وقطعت الغابات حول دهلى برجال العسكر ، وحولت إلى مزارع وحقول ، وبعد ذلك يسكت التاريخ عن ذكر ميوات طيلة قرن .
بعد تلك الفترة الطويلة ، ظل المحاربون الميواتيون المغامير يريقون دم أهل دهلى ويقلقون بال الحكومة المركزية ، مما أحوجها إلى القيام بالإجراءات الإصلاحية الرادعة ضدهم ، ويخص التاريخ بالذكر منهم ـ فى هذا الشأن ـ البطل الطموح " ناهر " وخلفاءه الذين أقاموا حكومة مستقلة لهم فى ميوات بطولتهم ومجهودهم الكبير ، تحولت إلى إمارة و " إقطاعية " بعد ماغزتها الحكومة المركزية فى دهلى ، ويأتى فى هذا الصدد ذكر " لكهن بال ") المعروف بحروبه ومغامراته ، الذى وضع يده على منطقة " ميوات " وضواحيها تقريبا ، وأسلم فى عهده فيروز شاه (م ٧٩٩ هـ) .
أما أمة " ميو " فمتى أسلمت ؟ ؟
وما الحوادث والوقائع ، أو مالعوامل التى دفعها إلى الدخول فى حظيرة الإسلام ؟ ؟
ثم أن الأمة كلها أو جلها ، اسلمت مرة واحدة أو تدريجيا فى ظرف قرون ؟
إنها أسئلة لايمكن الإجابة المشبعة عليها ، لن تاريخ تلك الأمة البدائى ، ولاسيما تاريخ إسلامها فى ظلام متكاثف ، وليس هناك مصدر يمكن الإستناد إليه والإعتماد عليه إلا الروايات والحكايات التى تتضارب هى الأخرى .

وضع أمة " ميو " الدينى والخلقى :

بلغت أمة ميو من الإنحطاط الدينى ـ بحكم تهاون المسلمين فيما يتعلق بشأنهم وجهل أمة ميو ـ إلى نهاية ليس بعدها إلا الردة القومية ، وقد شعر المؤرخون من غير المسلمين أيضا (الذين كان ينبغى أن يكون شعورهم فى

هذا الشأن أقل وأبلد من شعور المسلمين) ببعد ميو عن الإسلام ، ونقدم فيما يلى مقتطفا يدل على غاية الإنهيار الدينى والخلقى ، والبعد عن الإسلام وقلة افتنباه لما يتصل به .

يقول الرائد" باؤلت " الذى كان ضابط افدارة فى منطقة " ألور") فى المعجم الجغرافي لمنطقة " ألور" الصادر فى سنة ١٩٧٨ م .

كان أهل منطقة " ميوات " مسلمين إلا قليلا ، لكن أصنام قراهم هى نفس أصنام الملاك من الهنادك ، يحتفلون بكثير من أعياد الهنادك ، أما أيام العيد الكبير " هولى" فهى أيام هزل ومزاح ، وتحرر وانطلاق ، وهو من أهم العياد عند الهنادك كالمحرم وعيد الفطر ، والخامس عشر من شعبان عند المسلمين ، وكذلك يحتفلون ب " جنم اشتمى" و " دسهرا " و " ديوالى " ويوجد عندهم ناسك برهمى لكتابة " بيلى جهتى " واختيار تاريخ الزواج ، ويتسمون بأسماء هندوكية إلا كلمة " رام " ويكثرون من إلحاق كلمة " الخان" فى نهاية أسمائهم ، ولكن أعجاز أسمائهم زاخرة بكلمة " سنكه " ويحتفلون فى منطقة " أماوس " إتباعا للطبقات الهندوكية المتخلفة فى الإحتفال بالعطلة وينفضون أيديهم من العمل كليا ، وعند ما يحفرون بئرا فيبدؤون بصنع صُفة باسم " بروجى " أو " هنومان" ولكنهم حينما يريدون النهب والغارة فلا يبالون بقدسية الأمكنة الهندوكية المقدسة ، ومعابد الهنادك ولئن لفتت أنظارهم بتلك المناسبة إلى قدسيتها ، يقولون فى صراحة ودون تأجيل : أنتم " ديو" (صنم) ونحن " ميو " ، إن " ميو " فى جهل أى جهل بدينهم (الإسلام) لايوجد من يعرف كلمة (لاإله إلا الله) إلا القليل النادر ، وأما المصلون فهم فى عدد أقل من ذلك ، ولايعرفون شيئا من أحكام الصلاة ولا مواقيتها .

وكل ما أسلفنا إلى ههنا فهو يتعلق ب " ألور" وأهلها ميو ، أما المنطقة الإنجليزية (مديرية " جورجانوه") فإن الوضع المتعلق بشأن التقليد

بالواجبات الدينية جيد إلى حد ما من أجل المدارس وكذلك فى بعض الأمكنة من " ألور " التى توجد فيها مساجد ، فإن الإلتزام بالواجبات الدينية أكثر من غيرها ، وبعضهم يعرفون كلمة (لاإله إلا الله) وبعضهم يصلون أيضا ، وبعضهم يميلون إلى الحصول على الثقافة والإلتحاق بالمدارس ، وكما أسلفنا فإن الإجراءات الأولية فى الزواج يشاركها البراهمة ، لكن الإجراءات الجذرية يقوم بها القاضى ، أما الملابس ، فإن الرجل يرتدى " دهوتى " و " كمرى" والسروال وعلى ذلك فإن ملابسهم هندوكية فى الواقع وقد يستخدم الرجل حلى الذهب .

ويقول فى موضع آخر : إن " ميو " أشباه الهنادك فى عادتهم ، تشذ المساجد فى قراهم ، ففى محافظة " تجارة" لاتوجد مساجد فى قريتيهم الإثنتين والخمسين إلا ثمانية مساجد ، نعم توجد لديهم معابد كمعابد مساكينهم الهنادك ، يقدمون إليها القرابين كصنيع الهنادك ويعبدون فى الخامس عشر من شعبان فى كل قرية الأعلام باسم السيد سالار مسعود غازى .

وجاء فى معجم مديرية جور جانوه الجغرافى الصادر فى١٩١٠م :

"لايزال أهل " ميو " حتى الآن متخاذلين ولامبالين جدا فيما يتعلق بالإسلام ، إنهم يشاركون جيرانهم فى معظم التقاليد والأعراف ولاسيما التقاليد التى تبعث اللذة والسرور ، يبدو أن مبادئهم أن يحتفلوا بأعيادهم وأعياد الهنادك ، ولايقومون بواجبات إحدى الديانتين ، ووجد منذ مدة قريبة دعاة دينيون ، وبدأ بعض " ميو" يصومون رمضان ويبنون المساجد فى القرى ويصلون وبدأت نساؤهم يستبدلن بملابسهن هندوكية سراويل ، وكل ذلك من تباشر النهضة الدينية " .

وجاء فى معجم " بهرت بور " :

" إن تقاليد " ميو " مركبة من تقاليد الهنادك والمسلمين ، فهم يختنون

وينكحون ، ويدفنون موتاهم ويؤمنون بهرائج، يزورون ضريح السيد سالار مسعود غازى ، والحلف الذى يتم تحت العلم الذى باسمه يرونه أمتن الأحلاف ، ويرون البر به من أكمل الواجبات ، ويقومون بالرحلة إلى أمكنة مقدسة أخرى فى الهند ، يزورونها ويتبركون بها ، ولكنهم لايقومون برحلة الحج أبدا ، وأما أعياد الهنادك فهم يحتفلون ب " هولى " و " ديوالى " ولايتزوجون فى أسرة واحدة ، ولايورثون المرأة ، ويسمون الأطفال بأسماء هندوكية إسلامية ، وكلهم جاهلون غير مثقفين ، ويوجد فيهم مغنون ، يمنحونهم جوائز ثمينة ويكرمونهم بمبالغ كبيرة ، وهناك أغانى تتعلق بالحياة الريفية والفلاحية ومواضع الزراعة ، ينشدونها فى لذة وطرب ، أما لغتهم فهى شديدة اللهجة ، ولايختلف الخطاب للرجل والمرأة ، ولاتوجد صيغ على حدة لكل منهما ، ولديهم عادة استخدام المسكرات والمواد التى تبعث النشاط ، وهم متوهمون ، ضعيفوا الإيمان واليقين ، ميالون إلى الأوهام والظن والتخمين ولكن الآن لم تعد تلك العادة ، وكان النهب والغارة حرفتهم ، ولئن كانوا قد تساموا عن ذلك ، ودخلهم الإصلاح ، لكنهم معروفون بسرقة الحيوانات والبهائم والثور والبقر " .

مزايا " ميو" القومية :

وعلى الرغم من هذا الإنحطاط الدينى والتفسخ الخلقى ، فإن هذه الأمة تمتع بمزايا وعادات وخصائص وصفات ، لايتميز بها إلا الأمم الكريمة ، وكذلك فإن المفاسد الخلقية ، والنقائص التى دخلت فيها ، هى مما ينشأ فى الأمم ذات البطولة والشهامة والطموح ، بفقدان التوعية والتربية الدينية ، والجهل والإنقطاع عن العالم المتمدن والجهل بالدين ، ذلك الذى كان قد نشأ فى العرب فى الجاهلية ، فقد اتجهت المحاسن والمواهب الطبيعية اتجاها شاذا من أجل فساد المجتمع وتحولت الشجاعة والجرأة القومية إلى عادة النهب والغارة وقطع الطريق ، والبطولة والمغامرة تجلتا فى الحروب

الداخلية والتحارب والتصرع إذ لم يجدا مجالا لائقا توضع فيه ، وكذلك لم تستخدم الغيرة والحمية الطبيعية فى موضعها ، فتحولت حمية جاهلية واستخدمت فى الإحتفاظ بالكرامة المصطنعة ومعايير وموازين مخترعة ، وأخطأت بالشهامة والطموح مواضعها ، فكان لها صولة وجولة فى الأعمال القومية التافهة ، ولم يستخدم الذكاء والنشاط والفطانة استخداما طبيعيا كريما فكان لذلك كله عمله فى العمليات الإجرامية ، والعمال غير الشرعية .

وخرق عصا الطاعة ، على كل فكانت المواهب تضيع هدرا ، فى أغراض تافهة ، ولكن الأمة لم تتجرد من الكفاءة الطبيعية .

فقد كانت ـ ولاتزال ـ البساطة ، والمجاهدة ، والعزم ، والفعالية ، والصلابة ، والأصالة هى التى يمتاز بها الميواتى عن المسلمين من سكان المدن والقرى المتمدنة ، وكأن الصلابة والأصالة هما اللتان حالتا بينهم وبين الردة ، حتى حين تباعدوا عن الإسلام إلى آخر غاية ، وهبت عواصف التقاليد الهندوكية فيهم إلى آخر نهاية .

ومن مزايا هذه الأمة أنها ظلت فى حظيرة الجهل والخمول مدة قرون ، تعيش فى عزلة عن العالم مهجورة مطمورة ، مجهولة مغمورة ، ولانجد فى تاريخ الهند الطويل أمة فى هذا العدد الهائل تعيش على غلوة من العاصمة المركزية ، وتكون خاملة مجهولة إلى هذا المدى ، وكانت نتيجة ذلك أنه قلما ضاعت قواها الفكرية والعملية ، وبقيت مصونة منخورة إلى حد كبير ، وإذا كانت ألواح قلوبهم خالية من رسوم الصلاح والفلاح ، والفضل والكمال والحسن والجمال ، فإنها بقيت صافية من كتابات خاطئة مميتة دقيقة يستعصى محوها ، وتتعسر إزالتها ، وكأن هذا الحقل لم يزرع بعد ، ولم تمسه يد الفلاح ، أما العادات الفاسدة ، والأوهام الخاطئة ، والتقاليد الجاهلية ، والأعراف الهندوكية ، فكانت كالزبد يذهب جفاءا ، أو كغثاء

السيل ماله من قرار ، أو كحشائش شيطانية متطفلة نبتت على أرض مهجورة منذ قرون طويلة ، وكانت هذه الأمة فى القرن الرابع عشر الهجرى أشبه ماتكون بالعرب فى الجاهلية .

الإتصال بأمة " ميو" :

قد أسلفنا أن الإتصال بميوات، كان قد بدأ فى حين حياة الشيخ محمد إسماعيل والد الشيخ محمد إلياس، ولم يكن هذا الإتصال أمرا اتفاقيا رهين الصدفة، بل كان تقدير الله العزيز الحكيم العليم ، هيث ألهم الشيخ محمد إسماعيل أن يلقى عصا الغربة فى بستى نظام الدين باب ميوات ومدخلها، وبذلك فبذر الله حُب الأسرة الكريمة التى ينتمى إليها الشيخ محمد إلياس فى قلوب سكان ميوات ، حتى أصبحوا يرتمون فى حضنه مدفوعين بالحب والود ، يحدوهم الإعجاب والتقدير وهم أولئك الذين لم يستطع الملوك والسلاطين أصحاب الجنود والبنود ، والسلطة المطلقة ، والسيطرة المخوفة أن يسخروهم ويكبتوا من جماحهم ويخففوا من غلوائهم .

وعلى كل فلما علم أهل الميوات أن المكان الشاغر بموت الشيخ محمد إسماعيل والشيخ محمد عاد مشغولا بالشيخ محمد إلياس ـ ابن الشيخ محمد إسماعيل وأخى الشيخ محمد ـ بدأوا يترددون إلى نظام الدين من جديد ، وأكثروا من الإختلاط والإحتكاك ، وعرضوا على الشيخ محمد إلياس أن يشرفهم بزيارة منطقتهم ويمنحهم فرص الإستفادة .

التعليم الدينى هو العلاج الوحيد :

كان الشيخ محمد إلياس يرى أن الطريق الوحيد لإصلاح " ميوات " هو بث التعليم الدينى فى المجتمع الميواتى ، حتى يطّلع الميواتيون على أحكام الإسلام وتعاليم القرآن ، ويزول الجهل المخيم ويتبلج الصبح الصادق ، وينسحب الليل الغاسق ، الذى أعمى عقولهم وأبصارهم .

وسلك الشيخ محمد إسماعيل من قبل نفس الطريق ، فقد أدخل كثيرا

من أبناء الميواتيين فى مدرسته بنظام الدين ، وفقههم فى الدين ، وأرسلهم إلى " ميوات " دعة هُداة يعلمون الآخرين ماتعلموا ، وإليهم يرجع الفضل ـ بعد فضل الله سبحانه وتعالى ـ فيما أشرق من نور الإصلاح فى هذه المنطقة ، وظهرت من بوادر الخير والميل إلى الدين هنا وهناك .

ولكن الشيخ محمد إلياس أراد أن يخطو خطوة أخرى ، ويقيم فى " ميوات " نفسها كتاتيب ومدارس حتى يعم الشعور بالدين ويتوسع نطاق الخير والصلاح الذى بدأت بوادره ، بدءا فى حركة أشمل وأوسع وأعمق للإصلاح والتبليغ والتجديد الدينى فى البلاد .

الإشتراط لزيارة " ميوات " :

وماكان يريد الشيخ أن ينزل على أهل " ميوات " كضيف مبجل وشيخ مكرم يمتثل الناس بين يديه ويتبركون به ، ويسعدون برؤيته ويتشرفون بإقامة مآدب فخمة له ، ويدعو لهؤلاء وهؤلاء ويثنى عليهم ويذكرهم بالخير ولاشيء وراء ذلك ، كما جرت العادة وأصبح عرفا فى أوساط ترتبط بعالم دينى أو شيخ صالح عن طريق البيعة أو المواعظ والزيارات ، وإنما أراد أن تكون زيارته مبدأ خير ، ومبعث صلاح وبداية طريق لإحداث تغيير جذرى فى الوضع الفاسد المفسد الذى يعيشه المسلمون فى تلك البلاد ، فيعودوا إلى الإسلام من جديد ، وكان يرى آنذاك أن الطريق الأمضى لذلك فتح مدارس وكتاتيب فى كل أنحاء ميوات كى يتعرف الجيل الميواتى على الإسلام .

وقد ذكر الشيخ مرات عديدة ، انه لما أصر عليه كثير من أهل ميوات المخلصين أن يزور منطقتهم اشترط عليهم إقامة كتاتيب ومدارس ، وأكد لهم أنه سوف لايزور مالم يعدو بذلك .

وما كان عمل أصعب وأشق على الميواتيين ، وقتذاك من تلك الفعلة ، فكان النزول عند هذا الشرط أثقل وأبهظ شيء عندهم ، فقد كانوا

يدركون أنه لاشيء أشق على الميواتيين من أن يصرفوا أطفالهم عن الأعمال التى تدر لهم المكاسب المادية ، إلى التعليم ، ومن هنا تراجع الذين كانوا يدعون الشيخ محمد إلياس إلى زيارة ميوات ، وهدأت حماستهم ، وكلما عرضوا عليه الزيارة ، ردد عليهم نفس الشرط ، وكان ميواتى ذكيا فوعد بإيفاء الشرط ظنا منه أنه عندما ينزل الشيخ فى منطقتنا سنفكر فى إيفاء شرطه ونبذل لذلك مجهودنا ونواجه المشكلة بمايشاء الله .

بدأ إقامة مدارس وكتاتيب :

زار الشيخ محمد إلياس منطقة ميوات وطالبهم بإيفاء الشرط ، وبعد إصرار متواصل وسعى كبير ، ومحاولات مستمرة بذلها أهل ميوات ، تم فتح كتاب واحد تلته كتاتيب ومدارس أخرى كثيرة .

كان الشيخ يطلب إلى الميواتيين أن يجودوا عليه بأطفالهم فحسب ، أما نصب المدرسين وفقهاء الكتاتيب وتوفير رواتبهم فكل ذلك إليه ، وليس شيء من ذلك عليهم ، ولكن الميواتيين ـ الذين معظمهم فلاحون ـ ماكانوا يرضون بأن ينفض أطفالهم أيديهم من أعمال الفلاحة والقيام على تربية البهائم والمواشى ويجلسون فى الكتاتيب يتعلمون ، فما كانوا يقيمون لذلك وزنا ولايحسبون له حسابا ، وما كان عندهم حرص على الدين ، أو معرفة بالتعليم والثقافة ، حتى يرضوا فى هذه السبل بتضحية متواضعة ، أو إيثار قليل ، بل كانوا يرون فى كل ذلك خسارة لا خسارة بعدها ، وضياعا لجهودهم ، وخطرا على آمالهم وأغراضهم . ومن هنا مست الحاجة إلى بذل جهود كبيرة فى سبيل إقناعهم وإرضائهم بأن يسمحوا لصغارهم يجلسون للقراءة فى الكتاتيب واستنفدت العملية مجهودات كثيرة .

وتمكن الشيخ فى هذه الزيارة من إقامة عشرة (١٠) كتاتيب ، وتلتها كتاتيب كثيرة حتى بلغ عددها فى موات إلى مئات .

توفير نفقات تلك الكتاتيب :

لم يبدأ الشيخ العمل الدينى " كعمل شعبى " تعود جميع تكاليفه ومسئولياته على الشعب وحده ، وإنما قام به كعمل شخصى لايبالى بإنفاق أحب ما عنده من مال ، وأعز أوقاته فى سبيله، إنه ما كان يؤمن فيما يتصل بالعمل الإسلامى ، بأن هذا شخصى وذاك شعبى ، قدم إليه أحد المخلصين مبالغ قائلا : إصرفوا هذا فى الغرض الشخصى، فقال :(أيها السادة ، مانكون منصفين مع أنفسنا مالم ننصف مع الله ورسوله ، ولانكون قد أدينا حقنا ، مالم نؤد حق الله ، واستعبرت عيناه ، وقال : آه لم نقدر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم حق قدره) .

وكان ذلك مبدأه الأصيل ، فقد وضع فى العمل الدينى الذى بدأ من ميوات كل ماكان يملكه من ممتلكات ، ورثها كابرا عن كابر ، أو حصل عليها عن طريق الهدية ، وما قَبِل معونة أحد فى هذه السبل إلا عند ما اضطرته الأوضاع .

الباب الرابع

الحركة الشاملة فى ميوات لإثارة الإيمان وإشعال جمرة الحب والحنان

.

انقطاع الأمل فى الكتاتيب والإصلاح الجزئى :

الشيىء الحقيقى الذى جعل الشيخ محمد إلياس يعتلى المكان المرموق فيما يتعلق بالعمل الإسلامى (هو الهمة) فلم تستقر طبيعته القلقة على مرحلة بدائية للإصلاح والدعوة ، ولم يقر له قرار ما لم يبلغ به إلى المرحلة الأصيلة التى كان يريدها ويسمو إليها .

وبدأ الشيخ محمد إلياس يدب إليه اليأس مما كان يتم من الإصلاح الجزئى والتعليم عن طريق الكتاتيب ، وشعر بأن الجهل المطبق ، والظلام المخيم على البلاد واللادينية السارية فى المجتمع ، كل ذلك يعمل عمله فى تلك الكتاتيب أيضا ، وأن الطلاب لايتم إصلاحهم وتربيتهم الدينية على ماينبغى ، ثم إن الجهل الذى يموج من حولهم كالبحر إلى مئات من الأميال . يجرفهم بحيث لايعود لهم عين ولا أثر .

ولايوجد عند القوم الحرص على الدين، حتى يبعثوا أولادهم للتحصيل والتعليم مندفعين راغبين، ويدعوهم يجلسون فى الكتاتيب، وبما أنهم لايتمتعون بمعرفة ماهو الدين، فإنهم لايقدرون هؤلاء الطلاب الذين يتخرجون فى الكتاتيب ، وينبتون يحملون إليهم الهداية والدعوة ، ولايستمعون إلى مايقولون، ولايخضعون لما يدعون ، إذا فلاتؤثر تلك الكتاتيب تأثيرا ما فى حياتهم .

ثم إن هذه الإهتمامات كلها مصروفة إلى هؤلاء الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، ولم تكلفهم الشريعة بشىء ما، أما الرجال الذين هم موضع الخطاب فى الشريعة والأحكام، والذين هم موضع سخط الله من أجل الإهمال للدين

والرغبة عن العمل ، والتطبيق ، فليس لهم نصيب فى هذه التدابير كلها . على أن هذه الكتاتيب والمدارس مهما كانت كثيرة ، لاتغطى ضرورة القوم المترامية الأطراف ، ولايمكن عن طريقهما تعليم جميع القوم وتربيتهم الإسلامية ، ولايمكن أن يكونوا جميعا طلابا فى الكتاتيب ، يلتحقون بها ، ويدرسون فيها ، منصرفين عن أشغال الحياة ووسائل كسب المعاش .

وقد حرص الشيخ فى زيارته لميوات على حسم النزاعات والصراعات الكثيرة التى كانت لاتعرف النهاية منذ القديم، وقد نجح فى ذلك نجاحا كبيرا ، بفضل حكمته ولباقته الدينية ، وربانيته وروحانيته ، كان أهل " ميوات " يقولون :

ما لهذا الرجل الذى ليس إلا مجموعة من عدة عظام . يصلح كل قضية يتدخل فيها ؟ ؟!!

وينزل الخصمان عند رأيه مهما كان كل واحد أبيا عصبيا ، لايعرف اللين والمرونة ؟!

وظل الشيخ على اتصال " بميوات " يقوم برحلات متكررة إليها ، وظل أهل " ميوات " يستفيدون منه علميا ودينيا ، ويبايعونه ويتخرجون عليه فى التربية والإحسان ، لكنه كان يشعر بأن العمل الدينى اليوم كقطعان من الغنم إذا ساقها الراعى ونعق بها من جانب خرجت من جانب آخر ، وإذا حصرها من جانب مرت من جانب ثالث ، إذا تم إصلاح جزء بقيت أجزاء كثيرة لاتعد دون أن يتناولها الإصلاح ، وتفككت عرى الحياة التى إنما هى عبارة عن الإيمان والحرص على الدين ، الأمر الذى لايعرف الناس قدره منذ عهد عريق فى القدم .

وتوصل بعد تجارب طويلة ودراسات عميقة إلى أن إصلاح الخواص وتقدم بعض الأفراد فى الدين والورع ، ليس علاج المرض الحقيقى .

الحجة الثانية، وتغير الإتجاه فيما يتعلق بالعمل الدينى والدعوى :

إنطلق فى شوال سنة ١٣٤٤هـ ليمضى إلى الحج ، فى رفقة الشيخ خليل أحمد السهارنفورى ، ولما انتهى الحج وعزم الرفقة على مغادرة المدينة المنورة ، وجدوا الشيخ محمد إلياس فى قلق عجيب لاعهد لهم بذلك ، ولم يرض بطريق ولا بآخر أن يفارق المدينة، وبعد أيام شكا الرفقة ذلك إلى الشيخ خليل أحمد فقال : لاتطلبوا إليه الرحلة ، فإما أن تنتظروا حتى يعزم هو على الرحلة ، وإما أن ترتحلوا أنتم ودعوه وشأنه ، فإن له شأنا لاتدركونه ، وأخيرا قرر الرفقة انتظاره حتى يرتحل .

وقد شرح الله صدر الشيخ فى تلك الزيارة الكريمة لبدء عمل دعوى ، وحركة دينية شاملة ، بقى أياما لايقر له قرار ويفكر فى وعورة الطريق وضعفه وضآلته وصعوبة العمل ، لكنه صح عزمه على ذلك وتأكد إنه سيكون نصر الله حليفه ، وارتحل من المدينة المنورة بعد ما أقام بها خمسة أشهر ، ووصل إلى " كاندهلة " فى ١٣ من ربيع الآخر سنة ١٣٤٥هـ .

بداية جولات دعوية :

وبعد عودته من الحج ، بدأ يقوم بجولات دعوية ، ودعا الآخرين أيضا إلى القيام بتلك الجولات ، ودعوة الجماهير إلى تعليمات الإسلام الأولية ، وفرائضه كالتوحيد ، والصلاة ، وكانت مثل هذه الدعوة غير معهودة لدى الناس ، وكان لهج عامة الناس بدعوة الدين مما يستغرب ، ولكن بعض الناس قاموا بهذا العمل على خجل وحياء .

وعقد مرة حفلة دعوية فى قرية " نوح" بميوات ، وطلب من الناس بهذه المناسبة أن يخرجوا جماعات إلى مختلف الأنحاء ، ويقوموا بالدعوة ، ولكن الحاضرين استمهلوه لمدة شهر حتى يعدوا عدتهم وياخذوا أهبتهم ، وبعد مضى شهر كامل كونوا جماعة ، وحددوا القرى التى سيزورونها ،

وتقرر أن الجماعة تصل بجولة بعد أسبوع يوم الجمعة إلى قرية " سوهنى" فى مديرية " جورجانوه" وتتخذ خطة العمل للأسبوع الآتى .

وعلى ذلك صلوا الجمعة جماعة فى " سوهنى" وأعدوا برنامج عمل للأسبوع القادم ، ثم جرت تقوم بالجملة ، وصلت الجمعة الثانية فى قرية " تاورد " وصلت الجمعة الثالثة فى " نكينة" فى محافظة "فيروزبور " وقد شهد الشيخ فى كل من هذه الجمع ، واسهم فى اتخاذ البرنامج الآتى .وعلى هذا الأسلوب ظل العمل الدعوى يتم فى منطقة ميوات ، وكانت الجماعات الدعوية تعقد من حين لآخر حفلات دعوية ، توجه بهذه المناسبة دعوة الحاضرين فيها إلى مراكز الدين والدعوة والإرشاد والتعليم فى خارج ميوات أيضا.

حجته الثالثة :

فى عام ١٣٥١هـ قام برحلة الحج للمرة الثالثة ، ورأى هلال رمضان فى نظام الدين فى دهلى ، وصلى التراويح على محطة دهلى ، وبعدما أدى الصلاة ركب القطار إلى "كراتشى " ومنها سافر إلى الحجاز، وكان برفقته فى الرحلة السعيدة الشيخ احتشام الحسن الذى يقول فى رسالة له إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى، وهو يتحدث عن أشغال الشيخ محمد إلياس :" سيدى ! إن الشيخ يقضى معظم أوقاته فى رحاب الحرم ، ودائما تنعقد الجلسات الدعوية ويدور الحديث حول الدعوة والتبليغ ، وذلك هو الموضوع الوحيد ، الذى يتحدث عنه الشيخ فى كل مكان "

وغادر مكة المكرمة فى الثانى من محرم الحرام سنة ١٣٥٢ه الموافق ٢١ أبريل سنة ١٩٣٣م إلى المدينة المنورة وتشرف بالزيارة ، وعاد إلى الهند فى الثانى من جمادى الأولى سنة ١٣٥٢ه وهو أكثر ثقة بإفادة مايقوم به من العمل الدعوى وأشد حماسا له ، وإيمانا به ، فعمل على تصعيده أكثر من ذى قبل .

جولتان فى ميوات :

وبعد عودته من الحج قام بجولتين فى " ميوات " مع جماعة كبيرة ، وكان برفقته فى هاتين الرحلتين مائة شخص على الأقل ، ويحتشد الناس فى أمكنة مختلفة ، ويكون التجمع كبيرا ، كانت الجولة الأولى لمدة شهر كامل ، والجولة الثانية لأقل من شهر ، وكان يوزع الناس خلال الرحلة فى جماعات ويدفعها فى مختلف القرى لتقوم بالجولة الدعوية .

الجماعات الدعوية تؤم المراكز الدينية :

أدرك الشيخ ـ بما له من تجربة طويلة ، وألمعيته وفراسته ـ أن الفلاح الميواتى المسكين لايمكنه تفريغ الوقت ليتعلم الدين ، وهو فى حصار بيئته وأعماله وأشغاله ، وليس يرجى فى الوقت القصير الذى قد يفرغه ولا يتمتع فيه بالهدوء المطلوب والإنقطاع المقصود ، أن يغمر قلبه ونفسه تأثير الدين وتعاليمه وتتشرب روحه بما تتغير به حياته ، ويحدث فيها الإنقلاب الصالح المرجو ، ولايصح أن نطلب منهم أن يلتحقوا جميعا بالكتاتيب والمدارس ، ومن غير المعقول تماما أن نأمل أن المواعظ والخطب ستحدث إنقلابا فى حياتهم ، وتجعلهم ينتقلون من الحياة الجاهلية إلى الحياة الإسلامية ، يقع بها تحول كامل فى أخلاقهم وعاداتهم ، ونفسيتهم وعقليتهم ، وأفكارهم وعواطفهم ، وينقلب ميزان الكره والحب لديهم .

لكنه يريد أن يتحقق كل ذلك ـ ولابد ـ فما السبيل إليه ؟

إنه يرى أن الطريق الوحيد أن يخرجوا جماعات ـ لمدة ـ إلى مراكز الدين والعلم ، وأن يقوموا بعمل تصحيح الكلمة ، والدعوة إلى الصلاة فى الجماهير والجهلاء ، وعلى ذلك فإنهم يستظهرون الدرس الذى تلقوه ، والقطعة التى قرأوها ، وأن يجلسوا إلى أهل العلم والدين هناك ، ويستمعوا إلى مايدور فى مجالسهم من حديث العلم والدين ، ويدرسوا أعمالهم اليومية حتى جلوسهم ونهوضهم ، ونومهم وصحوتهم وحركاتهم وسكناتهم ، وبذلك

فإنهم يكونون قد تعلموا الدين وتلقوا تعاليمه على طريقة طبيعية كالطفل يتعلم اللغة والمنطق ، وكالمرء يتلقى الأدب والثقافة .

ثم أنهم يعمرون ـ خلال تلك الرحلات التى قد لايجدون مثل هذا الهدوء فى غيرها ـ أوقاتهم بتلاوة القرآن الكريم ، وتعلم المسائل والأحكام ، والإطلاع على المندوبات والمستحبات ، والإستماع إلى سيرة الصحابة وأحوالهم ، وعلى ذلك يعودون إلى أوطانهم وقد تلقوا شيئا كثيرا فى تلك المدارس المتنقلة .

غير أن هذا العمل كان صعبا جدا ، ذلك أن انتزاع الناس من أشغالهم وعزلهم عن الأهل والعيال وإبعادهم عن الوطن الحبيب ، ليس عملا هينا ، لاسيما أولئك الذين تقربوا إلى الدين قليلا بعد جهد جهيد ، واستنفد كسبهم مجهودا كبيرا .

ثم إنه لم تكن هناك ثقة فى أن هؤلاء يتلقون فى كل مكان يقصدونه بحفاوة وإكرام ومواساة وأخوة ، وأن جهلهم وسذاجتهم ، وقرويتهم تدع الناس يعاملونهم معاملة العطف والرأفة والكرم ، أم معاملة السخط والغضب والعتاب ، ويواجهونهم بالسخرية والإستهزاء .

كان يرى الشيخ أن المنطقة الغربية (مديريتى مظفرنكر وسهارنفور) من ولاية " أترابراديش " من مراكز العلم والدين ، ومنتجع العلماء والصلحاء ، وليس هناك منطقة أجدر ، بتعلم الدين وكسب التعليم الدينى ، عن طريق معاشرة رجالات العلم والدين ، والصلاح والورع ، وبالعيون والأسماع والأفئدة ، من هذه المنطقة .

كان يعتقد أن الجهل والإهمال ، وفقدان الحمية الدينية ، والعاطفة الإسلامية ، كل ذلك رأس المفاسد ، والعلاج الوحيد أن يخرج الميواتيون لإصلاح نفوسهم وتعلم الدين وإيجاد العاطفة الصالحة ، ـ التى تبعث المرء على إيثار الدين على الدنيا ، والآجل على العاجل ، وعلى السعى وراء

ذلك ـ إلى خارج منطقتهم ، لاسيما إلى المناطق الغربية فى الولاية الشمالية
.

يقول الشيخ محمد إلياس فى رسالة له إلى أحد الميواتيين :
(........عزيزى ! إن جهل المرء وغفلته وقعوده عن السعى وراء الحق ، كل ذلك مفتاح كل فتنة ، ومادام الرجل يتصف بهذه الصفات فى طبيعته وعقليته وعواطفه ، سترى نهوض فتن لايأتى عليها الحصر ، ولاتستطيع أن تصنع شيئا وتغير وضعا ، وللقضاء على الفتن الحاضرة ، وسدا للمنافذ أمام الفتن القابلة ، لابد من التركيز على الخروج إلى " أترابراديش " تدريبا على تحقيق المهمة التى يجرى العمل بتحقيقها اليوم فى بلدكم ، وليس هناك سبيل غير هذا السبيل) . وكان يرجوا أن هذه الدعوة ستعود تتمتع عن هذا الطريق بتبنى العلماء والأتقياء فى تلك المنطقة وإشرافهم ، ويطلعون هم بدورهم على ما يعانيه هؤلاء المساكين من أبناء الإسلام فى منطقة ميوات المنقطعة المنطوية على نفسها من البؤس والشقاء ، والحيرة والضياع ، والبعد عن الإسلام والجهل التام بتعاليمه ، فيثير كل ذلك فى قلوبهم العطف على حالهم ، ويستقطب لفتتهم الكريمة نحوهم ، ثم إنه كان يؤمن بأنه لابد أن تكون الدعوة حظية بإشراف العلماء وتوجيههم ، وكان يراها عرضة بدون ذلك للخطر والمحنة .

وانطلاقا من هذه الحكمة أراد أن يكون وطنه "كاندهلة" المنزل الأول لأولى جماعة تبليغية ، وذلك أنه وطنه ، يعيش فيه أهله وذووه ، وأولو قرباه الذين يعرفونه ويعرفهم ، وهو مركز أهل الورع والعلم .

الجماعة الأولى تتوجه إلى "كاندهلة " :

دعا الناس ـ وقد أظلهم رمضان المبارك بإشراقته النورانية والقرآنية ـ أن يتأهبوا للرحلة إلى كاندهلة ، ويهيئوا الآخرين لذلك ، وكانوا يعرفون خطورة "كاندهلة " من حيث كونها مركز العلم والدين ، وأهل القلوب

واليقين ، فعز عليهم أن يقصدوها مبلغين دعاة ، ويجهزوا الجهلاء والدهماء يؤمونها موجهين مرشدين ، يتلقوا الأمر فى شيء من التنكر والإستغراب ، وما نشطوا لتنفيذه .

إلا أن الشيخ بذل فى هذا السبيل كل جهده ، لأنه حينما كان يطمئن إلى فكرة ويراها فى صالح الأمة ، وحان الوقت ، كان يركز عليها كل عنايته ولايقر له قرار ، ولا يهدأ له بال ، ولا يهنأ له شراب ، ولا يطيب له طعام ، حتى تتحقق ، فما وسع المخلصين له أن يقابلوا أمره بالزراية والإعراض والرفض .

توجهت الجماعة ـ التى كانت مكونة من عشرة أفراد أخيار ـ وأكد عليهم الإلتزام بالذكر والدعاء ، والإنابة والإلتجاء ، وقوبلت فى كاندهلة بحفاوة وإكرام بالغين .

الجماعة الثانية إلى " رائيفور " :

ثم دعا الناس للرحلة إلى " رائيفور" وتوجهت الجماعة إلى رائيفور ، ووجدت فيها أنصارا وتجاوبا وانسجاما ، فقد كانت من مراكز الصلاح والدين والعلم ، متنورة بنور العبادة ، والإخبات والإخلاص ، بفضل عبد من عباد الله الصالحين ، وهو الشيخ المربى الكبير عبدالقادر الرائفورى [(1)] خليفة الشيخ الكبير عبدالرحيم الرائفورى .

---

(1) كان من كبار المربين ، والعلماء الصالحين المصلحين ، الذى انتفع به خلق كثير من أهل الهند وباكستان ، فيهم كبار العلماء والزعماء والقادة السياسيين ، كان يجمع بين الإتصال بالله والإخلاص والإنابة والدعوة إليه ، وبين التفقه والوعى المدنى والسياسى ، ومرونة العقل ورحابة الصدر ، ومعرفة الحقائق وواقع الأمة والبلاد ، ليرجع للتفصيل ولمعرفة خصائصه وفضله كتاب المؤلف " ربانية لا رهبانية " توفى فى تحيان فى لاهور سنة ١٣٨٢هـ (أغسطس ١٩٣٢م) . (ص ٣٧ ـ ٦٠).

جولات منظمة فى ميوات :

أعد الشيخ خريطة ميوات ، وخطط فى مناطقها للجولات ، وأمر أن تسجل المسافة بين منطقة ومنطقة ، وقرية وقرية ، وأسماء العرقين والإقبال فى القرى ، ومن هم فى الأكثرية الفعالة من ألقوام والأجناس فى القرى .

وعقدت حفلة دعوية كبيرة فى " جتورا " فى محافظة " فيروز بور " وتكونت ستة عشرة جماعة ، ونصب على كل منها أميرا ، وعلى كل أربع منها " أمير الأمراء" ونظمت لهذه الجماعات كلها رحلات وجولات فى ربوع ميوات فى وقت واحد ، وحددت مناطق لكل أربع منها ، وكان يحضر فى كل منزل مراقبون من نظام الدين يستطلعون الأحوال ويلقون الخطب ، واحتشدت الجماعات كلها فى " فريد آباد " وحضرها الشيخ ، وعقدت حفلة كبيرة وتوجهت ستة عشرة جماعة دعوية إلى مختلف الأمكنة ، وتجمعت فى جامع دهلى الكبير معرجة على مناطق مختلفة ، وعقدت فيه حفلا ، ثم تكونت جماعات وتوجهت إلى سونى بت و بانى بت ، وإلى منازل أخرى .

واستمر العمل فى ميوات على تحريض الناس للقيام بالرحلة ومغادرة الوطن ، والجولات من أجل الدعوة إلى الدين وتعليمه وتعلمه ، وكان ذلك هو هم الشيخ والأمر الوحيد الذى يشغل باله ليل نهار ، وكان يعرض هذه الدعوة على الناس قائما وقاعدا ، وواقفا وسائرا ، ومسافرا ومقيما ، وعقدت حفلات كثيرة فى ميوات ، وعرضت فيها الدعوة وحدها بأساليب كثيرة ، وعناوين شتى ، يؤكد الشيخ للناس أن ذلك هو ركيزة رقيهم فى الدين والدنيا ، حتى قل تنكرهم لهذا العمل وانبعثت البعثات والجماعات فى أنحاء ميوات .

وكان التركيز على إنه لابد أن تعم الدعوة إلى ذلك فى البلد كعموم التقاليد

والأعراف وعقدت لذلك حفلات واجتماعات ، وتكونت جماعات وقامت بجولات فى أنحاء ميوات والولاية الشمالية تبرع الناس لذلك بأوقاتهم ، وقد عرف الناس لأول مرة هذا النوع من التبرع ، التبرع بالأوقات والأسابيع والشهور ، فقد كانوا لايعرفون إلا التبرع بالأموال والنقود .

وكان الشيخ يهدف إلى إثارة روح الإخلاص والإيثار فى العاملين للدعوة ومجال التبليغ وتعويدهم على الخسارة فى التجارة والزراعة بجانب الدعوة إلى الله ، وفى ميوات عرف الناس لأول مرة أن يرضوا بنقصان مايتعلق بدنياهم من أجل الدين ، وإن كان الله تبارك وتعالى لم يبتلهم بذلك ، ولم يرزأهم فى دنياهم حينما شغلوا بنشر دينه وتبليغ دعوته ، وقد رأى العائدون من الرحلات والجولات الدعوية زيادة فى كل ما كانوا يمارسونه من التجارة والزراعة والفلاحة ، أو أى نوع من التعاطى فى الحياة ، وشاهدوا البركة بأم أعينهم .

تبشير شامل بالدين فى ميوات :

وقد عم فى مدة قليلة بفضل هؤلاء الدعاة المتطوعين الذين كانوا يتجولون من ناحية إلى ناحية ومن قرية إلى قرية ، حاملين عروضهم وزادهم ومتاعهم على أكتافهم ، الإقبال على الدين، وانبعثت روح الإخلاص والتقوى ، والحرص على تعاليم الإسلام فى هذه المنطقة الواسعة المترامية الأطراف التى ظلت مظلمة عبر قرون لم يشرق فى ربوعها نور الإيمان واليقين ، وقد حظيت بانقلاب عجيب فى العقيدة وتقلب فى القلب والعقلية والنفسية ، لم يعرف له نظير فى الماضى القريب والبعيد ، ولو أن حكومة إسلامية بذلت كل مالديها من وسائل وإمكانات ونصبت كثرة كاثرة من العلماء والمربين من أجل تقريب الدين إلى الناس ، أو فتحت مئات وآلاف من الكتاتيب والمدارس من أجل تعليم الدين ، لما استطاعت أن تكسب النجاح فى نشر الدين فى جزء من أجزائها فى هذه

السهولة ، واللباقة والدقة والحكمة ، حقا إن أحداث التحول فى الحياة يفوق الوسائل المادية وتعجز عنه الإمكانات المادية مهما كثرت وعمت . إن الطريق الصحيح الناجح لنشر الدين إنما هو الطريق الذى سلكه الرعيل الأول فى فجر الإسلام ، حينما كان الجيش الإسلامى يحمل زاده ومتاعه وسلاحه على ظهره ، ويعد كل ذلك بنفسه ومن عنده ، وعلى حسابه ، ويحدوه إلى ميدان المعركة وساحة الجهاد الحنين إلى الشهادة والفوز برضا الله تعالى ، والرغبة فى ثوابه وأجره ، وعندما كان الدعاة إلى الله والمبلغون برسالته ، يقومون بمسئوليتهم منطلقين من خشية الله ، وصادرين عن حب الله ورسوله ، الذى ملك عليهم قلوبهم وخالطت بشاشة نفوسهم ، فيؤدون عملهم كفريضة شخصية ، ومسئولية ذاتية ، وفى أمانة ونزاهة وإخلاص وإيثار .

وكانت هذه الحركة الدينية فى ميوات تواكبها مسة من هذه الروح المباركة ونفحة من نفحاتها ، ولو رأى أحد هؤلاء المبلغين يحملون مسوحهم ، ويستأبطون أجزاء القرآن ويلفون الحمص أو ارغفة فى ناحية من ردائهم ، وألسنتهم رطبة بذكر الله ، وعيونهم تنم عن السهر وإحياء الليالى فى العبادة ، وسيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، وتشف أيديهم وأرجلهم عن الكد والكدح ، لتمثلت أمامه قصة أصحاب الوفاء من الصحابة الأبرار الذين بعثهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه لتعليم القرآن وتبليغ الإسلام ، فقتلتهم أيدى الكفار الآثمة عند بئر معونة .

تقلب الجو :

وبدأ الجو الميواتى يتغير شيئا فشيئا ، وبدت آثار هذا التغيير فى مختلف مظاهر الحياة ، ونواحى السلوك والعادات ، وصلحت الأرض وأصبحت تبشر ، بأنها تنمو وتترعرع وتخضر وتثمر فيها الدعوة الإسلامية وتعاليم الدين وأحكام الإسلام ، ولم تعد هناك حاجة إلى الجهاد والكفاح من أجل كل

مايتعلق بالدين ، نعم كانت هناك من بقايا الجاهلية ومخلفات التقاليد والأعراف ، مايدعو للعمل على الإصلاح ، ولكن المناطق التى بذلت فيها المحاولات الإصلاحية لم تكن تحتاج إلى جهد كبير للقضاء على شيء لايمت إلى الدين بصلة . بل كان يكفى أن يقال للناس أن ذاك ليس من الدين فى شيء فينتهون عنه عن آخرهم .

وكان الشيخ محمد إلياس يرى أن ذاك هو الترتيب الصحيح فيما يتعلق بالقيام بنشر الدعوة وتبليغ الرسالة أن يكون العمل فى الناس على إثارة الإيمان واليقين ، وإيجاد الحرص على الدين ، وتخريجهم على استعذاب خسارة ما إذا كانت تلحق بما يتعلق أو لاهم من أجل عقباهم ، وإذا تمت كل تلك المراحل فإنهم ـ بدورهم ـ يقبلون على جميع الدين ويحرصون على تطبيقه بجميع أجزائه فى واقع حياتهم وسلوكهم .

وفعلا قد أتت الجهود الدينية ـ التى بذلت فى ميوات على هذا الأسلوب والمنهج ـ أكلها فى مدة غير طويلة وبدأت مظاهر الصلاح والإقبال على الدين تتجلى فى حياة الميواتيين بحيث لو أن أحدا عمل على تربية واحد منهم طوال خمسين سنة أو أكثر ، على غير هذا الترتيب ، لما نجح هذا النجاح الكبير فى تخريجه على الدين ، بل ربما كانت النتيجة معكوسة سلبية .

وعلى كل فقد حدث الإقبال الشامل على الدين ، وبدت آثاره فى السلوك ، حتى أن المنطقة التى لم تعرف المسجد ، غنيت بالمساجد فى كل ناحية ، وانبثت شبكة الكتاتيب والمدارس ، وكثر حفاظ القرآن الكريم ، ووجد عدد وجيه للعلماء والخريجين فى العلوم الإسلامية ، وعمت الكراهية لكل مايتصل بالهنادك والهندوكية من الملابس والتقاليد ، والشعائر ، ورسخ فى القلوب تقدير الوضع الإسلامى ، وحرص الناس على إعفاء اللحى ، وانتهت التقاليد الجاهلية فيما يتعلق بالزواج ، وقل الربا والتعاطى

الربوى ، وشذ من يحتسى الخمر ، وقل النهب والغارة ، وقطع الطرق وانخفضت إلى حد مدهش نسبة الجرائم الخلقية ، والإضطرابات والصراعات والخصومات ، وكذلك ذبلت البدع والخرافات والتقاليد غير الإسلامية ، وعادات الفسق والفجور ، لأن كل ذلك لم يجد الجو الملائم له ولا التربة الصالحة فى حقه .

وقد تحدث عجوز ميواتى عن تلك الحقيقة فى بلاغة وبكلمات عميقة ذات دلالات دقيقة لامزيد عليها وذلك عندما سأله الشيخ المقرىء داوود : ماذا يجرى الآن فى منطقتك ؟

قال الميواتى العجوز : " لا أدرى إلا شيئا واحدا أن الأمور التى كانت تستنفد جهودا جبارة ولا يتحقق شىء منها ، عادت الآن تتم دون محاولة ، وأن الأمور التى من أجل القضاء عليها كان يبذل أقصى الجهود وتشعل الحروب وتخاض المعارك ، وتكون النتيجة صفرا ، أصبحت الآن تغيب دون سعى " .

كان الشيخ يرى أن العامل الأكبر فيما حدث من تغير فى حياة الميواتى هو خروجه من منطقته ورحلته إلى المراكز الدينية فى " اترابراديش" .

يقول فى رسالة [1]:" قد كان لرحلات الجماعات الدعوية إلى مناطق الولاية الشمالية تأثير أى تأثير ، فغنه على قلة الأفراد ، الذين قد لايبلغ عددهم إلى مائتين ـ الذين قاموا برحلات تبليغية وعلى قلة الوقت الذى ليس بشىء مقابل الوقت الذى يصرفه الناس فى بيوتهم وأوطانهم ، كان من التأثير ماجعل الناس تدور على ألسنتهم كلمة " الإنقلاب العظيم " وبدأ مشاعر الناس فى منطقتكم ـ من أولى الجهالة العمياء الصماء البكماء الخبيثة تتحول مشاعر طيبة دفعتهم إلى نشر الدين "

---

(1) باسم الشيخ محمد عيسى من سكان " فيروز بورنمك " بميوات.

غير أن الشيخ كان يرى أن الميواتى لئن لم يجعل الخروج من منطقته جزءا لاينفك من حياته ، وعدل عن السعى والتحرك من أجل الدين ، فسيعود إلى أسوأ مما كان عليه من ذى قبل ، لأن ميوات قد غدت من أجل نهضة دينية وصحوة إسلامية ـ محط الأنظار فى العالم ، وقد يكون ملأ هذه النظرات الشر والخبث ، ثم ارتفاع الخمول والجهل يفرض أعمال الحذر والحيطة أكثر من قبل.

يقول فى رسالة 2 [1]:" إن المجتمع الميواتى لايمكن أن يذوق طعم الدين ولذة الإيمان ما لم تنهضوا بكل اهتمام من أجل العمل على تحريض الناس على أن يجعلوا مغادرة أوطانهم لمدة أربعة أشهر ، مبلغين متجولين من بلد إلى بلد ، جزءا لاينفك من حياتهم .

إن الكلمة التى تحققت إلى الآن ، كانت خفيفة وطارئة ، ولو قعدتم عن العمل لهبط القوم حتى عن المستوى الذى كانوا عليه من قبل ، وذلك أن الجهل كان كحصار ، وكانت الأقوام من حولهم من شدة الجهل والخمول لايحسب لهم حسابا ، ولاتلقى إليهم بالا ، أما اليوم فقد يمكن أن يكونوا فريسة الأقوام والملل إذا لم تقم من حوله حصارا منيعا ، وسياجا حديديا من الدين "

الحجة الأخيرة والقيام بالدعوة فى الحرمين الشريفين :

كانت أمنية الشيخ الأثيرة ـ التى ظلت قائمة إلى آخر أيام حياته ـ أن يمضى إلى مركز الإسلام ومهد الإيمان ، إذا رسخ العمل الدعوى فى الهند ، فى جماعة من زملائه ويقوم ليعرض الدعوة هناك لأن ذلك هدية ثمينة لهم ، وهم أحق بذلك ، وسيتلقونها بترحاب وفى سرور قائلين : (بضاعتنا ردت إلينا) ثم هم بدورهم يحملونها إلى كل بيت وقرية فى العالم .

(1) باسم الشيخ محمد عيسى المذكور.

وقويت عزيمته وتأكدت إرادته فى هذا الشأن فى سنة ١٣٥٦ه ، وارتحل ينوى الحج فى الثامن عشر من ذى القعدة [1].

وقد كان الحديث فى الباخرة حول الدعوة والتبليغ ، ومناسك الحج ، وفى طريقه من جدة إلى مكة نزل ب " بالبحرة " وجمع نخبة من الناس فيها وتحدث إليهم ، وكان الحديث موضع احترام واعتبار عندهم ، وبما أن أيام الحج قد حانت ، وشغل بتوفير الأسباب والبحث عن المنزل الذى ينزل فيه ، فلم يتمكن فى مكة المكرمة من حديث فى الدعوة والتبليغ ، ولكنه اجتمع بحجيج من مختلف الأقطار فى منى وحادثهم فى الموضوع ، وألقى حديثا فى لقاء كان له أحسن الأثر فى القلوب .

وبعد الإنتهاء من الحج تشاور فى الموضوع مع بعض العلماء الهنود من أولى الحكمة والتجارب ، فعارضوا فكرة عرض الدعوة نظرا إلى وضع الحجاز ، ولكن الشيخ شفيع الدين [2] أيد الرأى وأشار بالبدء فى العمل ، وقال : إنى أرجو رجاءا كبيرا أن نصر الله سيكون حليف هذا العمل . وكان اللقاء مع جماعة من حجيج البحرين وجرى تبادل الرأى فيما يتعلق بالموضوع ، فوعدوا بإسهامهم فى العمل فى وطنهم ، وكذلك كان الحديث مع نخبة تجار الحجاز الهنود ، فقابلوا الفكرة أولا بالتنكر والإستغراب ، ولكنهم بعد أخذ ورد رضوا بالعمل إلى حد كبير ، واتفق رأيهم ورأى جميع الأخوة على الحصول على السماح أولا من جلالة الملك (عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل

(1) ونصب للإشراف على العمل الدعوى فى الهند ابن أخيه الشيخ المحدث محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوى.

(2) كان من خلفاء الشيخ الكبير الحاج إمداد الله المهاجر إلى مكة ، من سكان بلدة نكينة فى مديرية " بجنور" فى أترابراديش (الولاية الشمالية) بالهند ، هاجر من الهند إلى مكة المكرمة واستوطنها وكان من عباد الله الذين أخلصوا عملهم لله.

سعود) وتقرر أن تعرض عليه الأغراض والأهداف مكتوبة باللغة العربية ، وقد اجتمع الشيخ احتشام الحسن فى هذا الصدد بدوره بشيخ الإسلام عبدالله بن حسن والشيخ ابن بليهد

وبعد أسبوعين فى الرابع عشر من مارس سنة ١٩٣٨م ذهب الشيخ محمد إلياس والحاج عبدالله الدهلوى ، والشيخ عبدالرحمن مظهر شيخ المطوفين ، والشيخ احتشام الحسن ليجتمعوا بجلالة الملك ، وقابلهم الملك بإكرام ، واستقبلهم نازلا عن بساطه ، وأدنى مجلسهم ، وعرضوا عليه أغراضهم ، فتحدث إليهم الملك مدة أربعين دقيقة على التوحيد ، والتمسك بالكتاب والسنة ، واتباع الشريعة ، ثم ودعهم فى حفاوة وإكرام .

وأوجز الشيخ احتشام الحسن أهداف الدعوة فى مقال ، وعرضها على رئيس القضاة شيخ الإسلام عبدالله بن حسن آل الشيخ ، فقد اجتمع بالشيخ محمد إلياس والشيخ احتشام الحسن بدورهما ، فأيد الفكرة تأييدا حارا ، وأكد لهما تقديم العون والدعم ، لكنه أوقف السماح ببدأ العمل على سمو الأمير فيصل بن عبدالعزيز آل سعود .

وفى أيام النزول بمكة المكرمة كانت الجماعة تقوم بالجولة الدعوية وتجتمع بالناس على الإنفراد صباحا ومساءا ، وتقنعهم بالفكرة ، وتهيؤهم للعمل ، وعقدت حفلات ، تحدث فيها باللغة الأردية الشيخ إدريس والشيخ نور محمد .

وقد أكد الشيخ للرفقة أن يصرفوا أوقاتهم فى الدعوة والتبليغ ، ويركزوا عنايتهم على ذلك أكثر من العمرة والعبادات الأخرى ، لأن ذلك خير أوان ومكان للعمل الدعوى فى أقدس ربوع على ظهر الأرض .

وكان لقاء مع نخبة الناس والعلماء ، طرح فيه الشيخ سؤالا عن سبب تدهور المسلمين اليوم ، وكل أجاب بما رأى ، وأخيرا وضع الشيخ النقاط على الحروف ، ووضع الإصبع على مواضع الضعف ، وضرب على الوتر

الحساس ، ودعا الناس إلى العمل الذى نهض به ، فكلهم وافقوه .

تأييد من رجل ربانى :

يقول الشيخ محمد يوسف ابن الشيخ محمد إلياس : بينما نحن جلوس فى منزلنا إزاء باب العمرة ، وكان الشيخ محمد إلياس يتحدث إلينا ، ونحن مصغون إليه ، إذ طلع علينا رجل ووقف بالباب وقال :" إن العمل الذى تقومون به أوصيكم بالإستمرار فيه ، لأن فى ذلك أجرا وجائزة ، ولو اطلعتم عليها لطرتم فرحا ، ومتم جزلا " .

ولم يلبث الرجل أن مضى ، ولم ندرى من هو ؟ ، أما الشيخ فبقى يتحدث ولم يلتفت إليه بتاتا .

وفى الخامس والعشرين من صفر سنة ١٣٥٧هـ غادر مكة المكرمة إلى المدينة المنورة على سيارة ، ووصل إليها فى صباح السابع والعشرين من صفر ، وبدأ يقوم فيها بمحاولات دعوية ، لكنه علم أن سمو أمير المدينة المنورة لا يملك السماح بمثل هذا العمل ، وأنه سيرسل الأوراق إلى مكة المكرمة ، ويأخذ بالأمر الذى يصدر منها ، وقد اجتمع الشيخ محمد إلياس مع الشيخ السيد محمود والشيخ احتشام الحسن بسمو أمير المدينة المنورة ، ووضع أمامه أهدافه فأشاد بها وحبذها .

وجرى الحديث والنقاش فى الموضوع مع أناس كثيرين من مختلف الطبقات ، وقد أم الشيخ من أجل هذا الغرض " قباء" مرتين ، وتحدث فيها فى حفلة واستعد عدة أفراد للعمل .

وذهب مرتين إلى " أُحد " وألقى الشيخ نور محمد والشيخ محمد يوسف

[1] خطابا باللغة العربية استمع إليه الناس فى ترحيب وإشادة، وكان الإحتكاك بأهل البداوة أيضا وكان العمل فى الأطفال أن ينطقوا بكلمة الإسلام صحيحة، والإرادة تتشجع حينا وتنهار حينا آخر، وتتأرجح بين اليأس والرجاء ، لكن تلك الرحلة أكدت الشعور بالحاجة إلى هذا العمل حتى فى ديار العرب .

العودة إلى الهند :

وظل الشيخ فى أيام إقامته بالحجاز على اطلاع على تفاصيل العمل ومسيرته فى ميوات ودهلى عن طريق الخطابات والرسائل التى يرد عليها فى انتظام ، ويوجه ويرشد ، ويحرض ويرغب .

ثم عقدت نيته على العودة إلى الهند ـ على إشارة من أهل الرأى والخبرة ـ بعد ما دامت الإقامة بالمدينة المنورة خمسة عشر يوما ، ووجه من الهند رسالة إلى رجل فى مكة المكرمة ردا على التساؤل الذى ثار فى قلبه حول عودته إلى الهند ، نثبتها هاهنا ، لنها تدل على شيء من التفصيل :" صاحب الفضيلة ، حفظكم الله ورعاكم ، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته "

إن الباعث على العودة أنى كنت قد أشرت على الأخوة ببعض أساليب العمل من أجل البدء فى العمل على أسس متينة ، وذلك ذات صباح بعد ما مضت على الإقامة بالمدينة المنورة خمسة عشر يوما ، لكن جميع أولى الرأى أجمعوا على أنه لابد من قضاء عامين كاملين من أجل إحكام العمل هناك ، وترسيخ جذوره ، وقد وافقت على الفكرة تماما ، لكن فى

---

(1) هو ابن الشيخ محمد إلياس الذى خلفه بعد وفاته ، وتقدم العمل الدعوى ونشاطه فى حياته تقدما كبيرا ، ليرجع إلى سيرته بقلم السيد محمد الثانى الحسنى المرحوم ، توفى فى ذى القعدة سنة ١٣٨٤هـ (٢أبريل ١٩٦٥م).

هذه الإقامة الطويلة هناك كان خطر ضياع الجهود التى بذلت فى الحجاز فى هذا السبيل فى الهند ، ومن ثم تأكدت إرادتى أن أجعل العمل فى الهند ، بحيث أتمكن من العمل فى الحجاز فى اطمئنان وانقطاع ، وعلى ذلك ، فإن العودة إنما هى من أجل إقامة مؤقتة ، ولئن كنتم تحملون حبا لدين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وألما على ضياعه ، وتريدون فى إخلاص أن تحافظوا عليه ، وترون أن دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم أفضل وأنفع مما أنتم فيه مشغولون ، وأن هذا الطريق الذى بدأنا نسلكه للعمل الدعوى صحيح عندكم ، فلابد أن تقووا إيمانكم عن طريق التضحية والفداء فى هذا السبيل ، منطلقين من الفهم المباشر للمبادىء ، وداعين الناس إلى تفهمها " .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

محمد إلياس

نظام الدين ـ دهلى .

الباب الخامس

رسوخ جذور العمل الدعوى فى ميوات والقيام بالدعوة خارج ميوات

.

صعد الشيخ فى " ميوات " نشاطاته الدعوية بعد ما عاد إلى الهند ، وأكثر من الرحلات والجولات وعقد الحفلات والندوات ، وتسيير الجماعات التبليغية ، وإيفادها إلى اترابراديش ، ومدنها وقراها ، وأقبل أهالى المدن من المسلمين إلى هذا العمل ، وبدأ العمل على إثارة روح العمل الدعوى فى أهل دهلى أيضا ، طمعا فى أجر الله وحرصا على رضاه وثوابه ، وتكونت الجماعات الدعوية فى كل حى من أحيائها وبدأت الجولات الدعوية فى كل أسبوع .

إنطباعات الشيخ القلبية وسبب إقباله على هذا العمل :

حينما درس الشيخ ما يعيشه أهل المدن ، توصل إلى النتائج الآتية ، والحقائق المرة التالية التى جعلته كأنه يتقلب على أحر من الجمر .

١ـ لاشك أن المدن لاتزال تمتع بروح الدين ، ولكنها فى نقص مستمر ، وانكماش دائم .

إن التدين كان قد انتقل من الجمهور إلى كمية من المسلمين ، ثم ضاق نطاقه على مر الأيام لينحصر فى الخواص ، ثم تقلص ليستأثر به أخص الخواص ، ثم انحسر حتى انحصر فى بعض الأفراد والسعداء هنا وهناك ، ولايزالون ينقصون ولايزيدون .

لاشك أنه قد يتجمع فى موطن واحد، عدد لابأس به من المتدينين، والصلحاء، مما يجعل المسلمين يستبشرون، وتقر أعينهم، ويطيبون نفسا ويقولون فى أنفسهم : نحن فى خير مادام هذا النموذج العالى من الدين والورع ، والزهد والصلاح فى هذه الكثرة ، على الرغم من ذلك كله ،

فإن التدين وروح الإقبال على الدين ، فقدْ فقدَ اسمه الشمول ، ولاتزال هذه الروح فى ضعف وانهيار سريع، مما يشكل خطر غيابها كليا مع غياب هذه الفئة القليلة ، والقلة الضئيلة من المتدينين حتى تكون نقطة فى اليم ، أو كذرة ضائعة فى الصحراء المترامية الأطراف .

إن السر والبيوتات التى كانت مركز العلم والمعرفة ، والهداية ، والإرشاد ، وروح الإيمان ، والإحتساب ، والدين واليقين ، تتوارث العلم والدين ، والزهد منذ قرون ، وتتنقل هذه الروح من القلب إلى القلب ، ومن النفس إلى النفس ، ويتنور المشعل من المشعل ، قد أصبح هذا المشعل يفقد زيته ، ينطفيء نوره وكل من يموت يترك وراءه فراغا لن يملأ ، وكان الشيخ على اطلاع شخصى على ما تعانيه قرى " مظفرنكر" و " سهارنفور " ودلهى المنتجة للرجال والمخرجة للأبطال ، من الإنحطاط الزائد ، وكان يبدى على ذلك قلقه البالغ وأسفه الشديد ، يقول فى رسالة غراء :" وا أسفاه ! إن الزمان صار ضنينا بأولئك الذين كانوا يتلذذون بذكر الله ، ويتذوقونه وتغيب الباقية من الذين تخرجوا على ذلك بملازمة الأبرار ومعاشرة الأخيار ، ولا يخلفون من يسد مسدهم " .

وكان الشيخ يريد تلاقى ذلك بالعمل على تعميم روح التدين فى عامة المسلمين ، وأن يوجد فى المسلمين خواص المتدينين الذين يكونون على قمة من الخلاص ، وروح الإيمان والإحتساب ، قد كان ذلك من قبل فى كل العهود الإسلامية ، ولابد أن يكون ذلك اليوم ، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .. وكذلك حال التعليم ، أنها أسوأ من حال الإقبال على الدين ، فكان يرى أنه لابد من تعميم التعليم الدينى ، حتى لايعود مسلم جاهلا بأوليات الدين وضرورياته ، ومبادئه وأحكامه ، التى هى قوام الإسلام ، وعلى ذلك يحصل كل من أبناء الإسلام من العلم على ما لابد منه لكى يعيش مسلما ثم لابد أن يتخرج فيهم متعمقون فى علوم

الكتاب والسنة ، وأصحاب دراسات عالية واختصاص فى العلوم والفنون
.

٢ـ صار المشغولون من المسلمين فى المدن ، يرون الدين صعبا عسيرا ، لأنهم قد ظنوا أن الدين معناه الإنقطاع التام عن الدنيا وكان ذلك شيئا غير موجود ، كان الدين مما لايمكن الأخذ به ، فأقبلوا على الدنيا بقلبهم وقالبهم وتركوا الدين وشأنه ، لاتحدث به نفوسهم ، ومما يدعو للأسف ، أنهم اطمئنوا إلى حياتهم غير الإسلامية واسترسلوا إليها على علم منهم أنها غير إسلامية مادية محضة ، وعلى ذلك فلم يبق فى حياتهم نصيب لله ربهم وخالقهم ، وغنما كل ما فيها للنفس والمادة والمعدة ، وغدت حياتهم تلك التى جاء فى الحديث فى شأنها " ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم " .
وقد بلغ بهم الإنحطاط الدينى إلى أنهم حينما ينبههم أحد على سوء حالتهم ، يقول بعضهم صراحة " إننا ماديون ، لاتهمنا الدنيا " وبعضهم يتجرأ فى القول والصراحة : فيقول نحن عباد البطن وكلاب الدنيا ، لانتهالك إلا عليها .
وكان الشيخ يعرف ـ ككل رجل عنده علم من الشريعة ، وإلمام بروح الإسلام ـ أن الدين ، إنما هو عيش الحياة ، والتعاطى فيها ، والقيام بالأشغال ، وإقامة العلائق فى ظل أحكام الإسلام وحسب مايقتضيه الدين والقرآن ، لكن ذلك يحتاج إلى قليل من العلم والعناية ، وكان الشيخ يرى أنه لابد من تبليغ هذه الحقيقة فى المسلمين ، لأن ذلك هو السبب الوحيد فى انحراف الكثرة الكاثرة من المسلمين عن الدين ، واسترسالهم إلى المادة ، وعبادة النفس والشهوة .
يقول فى رسالة :" .... إن مفهوم الدنيا ، صار مفهوما خاطئا جدا فى الأذهان ، إن الإشتغال بأسباب الحياة ليس دينا ، فإن الدنيا قد لعنت ،

والله سبحانه جل عن أن يأمر بشيء ملعون ، وعلى ذلك فإن السعى عدا المأمور به ظنا أن ذلك مأمور به من الله ، ومعرفة بالحلال عن الحرام ، وتقديرا وتعظيما للمأمورية كل ذلك هو الدين، واقبال على الحوائج والشعور بها مع غض البصر عن أمر الله ، وظنها ضرورية من أجل سبب آخر دون الأمر الإلهى ، كل ذلك هو الدنيا " .

وكان يشبه الدين بلعاب الفم الذى بدون كمية قليلة منه لايجد الإنسان لذة فى الطعام والشراب ، ولايستطيع أن يسيغهما ، وتلك الكمية من اللعاب موجودة عند كل إنسان ، وكذلك هذا القدر الضرورى من الدنيا موجود لدى كل مسلم ، وإنما الحاجة إلى أن يخرجه فى أشغاله ، وعلائقه الدنيوية حتى تطيب دنياه ، ويستقيم دينه .

٣ـ وكذلك أصبح الناس يظنون منذ مدة أن التعليم الدينى لايمكن الحصول عليه إلا بكتب ومقررات دراسية على أساتذة ومدرسين ، وفى مدارس ومعاهد ، أقيمت لهذا الغرض خاصة ، وبقضاء أعوام عديدة فى جد واجتهاد مضن ، وإذا كان الجلوس ـ فى المدارس لمدة ثمانية أو عشرة أعوام أو تزيد ـ متعلما ، لايمكن ، فقرر المسلمون جلهم أن التعليم الدينى لم يكتب فى حظهم ، وأنهم يعيشون جاهلين بأحكام الإسلام ومنعزلين عن تعاليم الحديث والقرآن .

صحيح أن التعليم الدينى يحصل عليه فى المدارس ، إلا أن ذلك هو ما يتصل بدراسة عالية ، واختصاص ، وتعمق ، لكن جميع أفراد المسلمين لايمكنهم قط أن يبلغوا هذه المنزلة ، وليسوا جميعا فى حاجة إلى هذا القدر من العلم والمعرفة .

إن القدر الضرورى من التعليم الدينى يمكن كل مسلم أن يحصل عليه مع كل ما هو فيه من الأشغال والعلائق الدنيوية ، قد كان الصحابة رضوان الله عليهم ـ إلا أصحاب الصفة الذين كانوا فى عدد ضئيل جدا ـ فى

أشغالهم وعلائقهم ووسائجهم من الأهل والعيال ، كان فيهم تجار ، وفلاحون ، وأصحاب مهن وحرف وصناعات ، وكانت عليهم تكاليف الحياة والعائلة والبيت ، ولم تكن هناك فى المدينة المنورة مدرسة تقوم بتعليم العلوم الدينية ، ولو كانت لما أمكنهم جميعا أن ينتسبوا إليها تلاميذ ومتعلمين ، ويمضوا فى رحابها أعواما طويلة ، ولكن كانوا كما يعلم ذلك كل الناس ويتمتعون باطلاع على الأحكام وعلى ما لابد منه من الدين ، من المسائل والفضائل ، والفرائض والواجبات والمندوبات ، والحلال والحرام .

فمن أين يأتى لهم هذا القدر الضرورى من التعليم الدينى ؟؟ !!!

إنما تأتى لهم من صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، والإختلاف إلى مجالسه ، والجلوس إلى من كان يفوقهم علما ، والإحتكاك بأهل الدين والورع ، والعلم والتقوى ، ودراسة حركاتهم وسكناتهم ، ومصاحبة بينهم فى السفر والحضر ، والحروب والجهاد ، وتعلمهم الأحكام وقت الإبتلاء بها والحاجة إليها ، وعيشهم فى الجو الدينى والإيمانى ، ولاشك أن هذه المنزلة العالية ، والقمة الشامخة التى كانوا عليها ، لايمكن لإنسان اليوم أن يسمو إليها ، ولكن مما لايختلف فيه اثنان ، أنه ليس هناك طريق أمثل وأشبه فى العلم والعمل والقول إلا الطريق الذى سلكوه ، فلنسر على طريقهم بإذن الله .

وكان الشيخ محمد إلياس يرى أن الطريق إلى ذلك أن يدعى المسلمون عامة ـ تجارا وفلاحين وموظفين ومشتغلين بعمل من الأعمال ـ إلى تفريغ جزء من أوقاتهم من أجل تعلم الدين ، وأن يؤدوا زكاة أوقاتهم كما يؤدون زكاة أموالهم ، وأن يفارقوا البيئة التى قد جربوا طوال عمرهم أنهم ماقدروا فيها على إحداث تغير ملموس فى حياتهم ، وما استطاعوا أن يتعلموا حتى مبادىء الدين وأحكامه الأولية الضرورية على الرغم من شعورهم بأنها ضرورية ، وعزمهم بعض الأحيان على تعلمها ، ولايزال المرء على موقف

الجهل وقلة العلم الذى كان عليه منذ عشرين أو خمسة وعشرين سنة ، فلا تغير ولا اختلاف ، ولا تبدل ولا انقلاب ، فمن كانت صلاته خاطئة لاتزال خاطئة منذ خمسة عشر عاما مثلا ، والذى لم يكن يعرف صلاة الجنازة ، أو دعاء من أدعية الصلاة أو جزءا من أجزاء الصلاة ، لايزال جاهلا بها على الرغم من الإستماع إلى مئات الخطب الدينية وشهود الحفلات الدعوية ، ومجاورة العلماء ، واحتفال الأسواق والمكتبات بالكتب الإسلامية ، مما دل دلالة أكيدة صارخة على أنه وإن كان هناك إمكان عقلى لحدوث تغير فى حياته مع العيش فى تلك البيئة ، ولكن التجربة على عكس ذلك .

وإذا فإنه لابد أن يهاجر لوقت محدود من تلك البيئة الراكدة غير الإسلامية إلى بيئة إسلامية حية نشيطة متحركة، حتى يعيش فيها متحررا من قيود البيئة الأولى وأغلالها من تأثير سيء، ويجد فرصة من أشغاله المرهقة ، وتثور فيه العاطفة الدينية التى ضعفت واضمحلت من أجل معاكسة البيئة ومزاحمة الأشغال والأعمال ، ويصحو فيه الوعى الدينى والشعور الإسلامى الذى كان قد خمد ، ويندفع إلى الدين يتعلمه ويطبقه فى واقع حياته .

٤ـ وكان يرى أن طراز الحياة الإسلامية الأصيل أن يسهم المرء المسلم فى العمل الإسلامى وخدمة الإسلام ، وتعزيز شأنه ورفع منارته ، مساهمة شخصية ، أو يساعد العاملين فى هذا المجال عازما على مساهمة شخصية مهما سمحت له الظروف بذلك ، وأن لاينقطع عن ذلك إلا لعذر شرعى ملحّ ، أو لمصلحة دينية ، ولوقت محدود ، وكان يعتقد أن الحياة المدنية الهادئة المشغولة بالتجارة وشئون الحياة المادية وحدها ـ وقد كان يصفها فعلا ب " حياة الهدوء" مقابل حياة الهجرة والجهاد ـ حياة غير طبيعية حائدة عن الصراط الإسلامى المستقيم .

إن الحياة المدنية غدت منذ مدة طويلة حياة تجارية مادية صرفة ، تتسم بكسب المعاش والإخلاد إلى الحياة الدنيا ، والأكل والشرب ، ولاشيء غير ذلك ، وكان الشيخ يتألم منها ، ويود أن لو عاش أهل المدن أيضا حياة " الهجرة والنصرة " وأن يكون ذلك عرفا متبعا لديهم .

كان لايؤمن بالتقسيم فيما يتعلق بالحياة الإسلامية والعمل الإسلامى ، حيث يعمل بعض الناس على خدمة الإسلام ، على حين يكون البعض منقطعين إلى دنياهم يتقدمون فيها أشواطا بعيدة ، وإلى تجارتهم وحرفتهم وصناعتهم ، وما إليها ، يتقنونها ويحذقون فيها، ويتربعون مكان الأستاذية ، أما الإسلام فيكفيهم من جانبه أن يتقدموا إلى المسلمين بعض الأحيان بمعونة مادية مما يفيض عن حاجتهم .

كان الشيخ محمد إلياس يرفض هذا التقسيم ، ويقول : " إذا كان الناس لايؤمنون بذلك فيما يتصل بدنياهم فلماذا يريدون فيما يتعلق بالدين ؟

وهل يرضخون أن يتوزعوا عمليات الأكل والشرب ، واللبس مثلا ، فيأكل أحدهم ويشرب أحدهم ، ويلبس أحدهم ، ويكفى الكل ؟؟!!

لا ، إن كل واحد منهم ، يرى كلا من هذه الأشياء ضروريا بالنسبة إليه بصورة شخصية ، فكذلك التقيد بواجبات الدين ومسئولياته ، وتعلم ما لابد أن يكون ضروريا ، لكل واحد من أبناء الإسلام إلى جانب كسب المعاش والإنشغال بشئون الحياة " .

إقامة الميواتيين بدهلى :

من أجل ذلك كله كان يرى القيام بدعوته ـ فيما بين مسلمى المدن ـ حاجة ملحة ، وكان يريد أن يعرضها عليهم عرضا متحمسا قويا ، لكنه كان يرى أن المواعظ والخطب وحدها لاتغنى غناءا فى هذا الشأن ، وإنما الحاجة إلى نماذج عملية من دعاة الإسلام ممن يتمثل الإسلام فى حياتهم وسلوكهم ، فأما بدون ذلك فإن الخطب والمواعظ تضر ولاتنفع ، يقول فى

رسالة :" ما لم تكن نماذج عملية أمامهم ، لاتحرك الخطب المنطلقة من المنابر ساكنا منهم ، ولاتدفعهم إلى العمل ، وإذا لم يكن هناك تنظيم لهم للدخول فى العمل بعد الخطبة ، فإنهم يتعودون على الإباء وإساءة القول ، ولايتأدبون فى استخدام الألفاظ " .

وانطلاقا من ذلك كله ، بدأ يبعث جماعات الميواتيين إلى مدينة دهلى ، وإلى أمكنة رئيسية أخرى ، وكانت تقيم فى مدينة دهلى إقامة طويلة ، وواجهوا صعوبات وعوائق فى بداية الأمر ، فقد لايسمح لهم القائمون على شئون المساجد بالمبيت فيها ، وقد لايتمكنون من قضاء الحوائج إلا إذا وجدوا ملجأ فى مسجد إلا بعد تجرع مرارة الحنظل ، وقد ينالهم الناس بالقول البذىء ، ويشكون منهم شكاية مصطنعة ، فربما يضيقون ذرعا ، ويتجرون من معاملة أهل المدن معهم ، فيشكون ذلك إلى أمرائهم ومسئوليهم ، فيشفعون لهم إلى السكان ، ويجاملونهم ، ويتملقون لهم ، وقد يمسحون دموع إخوانهم الميواتيين بالنصح والإقناع ، والقول العذب الجميل ، غير أن ذلك كانت محنة يومية ، وجهادا قبل جهاد يقومون به كل يوم [(1)] ، لكن الصعوبات زالت مع الأيام ، وبدأت نظرة الناس إليهم تتغير ، وأصبح الميواتيون يوما موضع الحب والإحترام بفضل تضحيتهم وإيثارهم ، وحماسهم وإخلاصهم .

الإقبال على العلماء :

وقد قرر الشيخ منذ أول يوم أن هذا العمل الغريب الدقيق الحساس ـ

---

(1) وقال الشيخ مرات: أن الشيخ داوود ـ الذى كان يكون فى أغلب الأحيان وسيطا بين سكان المدينة والميواتيين الدعاة ـ قد ضاقت نفسه يوما بعد ما انهالت عليه الشكاوى من أهل المدينة والميواتيين ، وتألم قلبه ، وبكى بكاءا طويلا ، وكان الشيخ يقول : أن بكاؤه قد شق الطريق ، وسهل العمل ، وباركه ..

الذى هو مشفوع بشيء كثير من مراعاة دقيقة ـ لايمكن الإطمئنان إليه مالم يدخل فيه أهل العلم والصلاح ، يشرفون عليه ويقومون بتوجيهه ، كان يود أن يقبل عليه من هم أهل لذلك ، ويضعوا مواهبهم فى تصعيد هذا العمل حتى تترسخ جذور دوحة الإسلام ، ويتقوى ساقها ، وتخضر أغصانها وأوراقها .

ولايريد من العلماء أن يسهموا فى ذلك بالخطب والمواعظ فحسب ، بل كان يريد منهم أن يقوموا بمحاولة نشر الإسلام ، وتبليغ الدين على طريق السلف ، بجولات ورحلات وزيارات ولقاءات ، يقول فى رسالة إلى الشيخ المحدث محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوى : " إنى أرى منذ مدة ، أن هذا العمل لايصل إلى مرحلة الكمال والتمام مالم تتنبه الطبقة المثقفة ، وتؤم الشعب ، وتقرع أبواب بيوتهم ،وتحتل بهم ، وتتجول من قرية إلى قرية ، ومن مدينة إلى مدينة كالدهماء ، لأن لحركة أهل العلم وعملهم تأثيرا فى قلوب الشعب لن يكون لخطبهم الحماسية النارية ، إن حياة السلف تدل على ذلك ، وذلك شيء لايخفى على أهل العلم أمثالكم .... "

وكان يعتقد بعض العلماء والشيوخ الذين يعملون مدرسين ، أن مساهمة المدرسين والطلاب فى هذه المحاولة الدعوية ، والإصلاحية ، تكون عائقة لهم فى سبيل الأشغال العلمية ، والدراسية ، والتقدم العلمى ، غير أن المنهاج الذى كان يريد الشيخ أن يسير عليه الطلاب والمدرسون فيما يتعلق بهذا العمل الدعوى ، كان فى الواقع منهاجا لهم مستقلا لرقيهم العلمى ، وإتقانهم لما يدرسون أو يتعلمون يقول فى رسالة :" إن هذا الدين المبارك إنما ينمو ويترقى بقدر رقى العلم ونموه ، وفى ظلال رقى العلم وتقدمه ، فإذا كان هناك فى حركتى ما يمس العلم وينال من المحاولة العلمية ، فإن فى ذلك خسرانا مبينا لى ، إنى لا أهدف من التبليغ إلى منع المتقدمين فى العلم ، أو مسهم بالضر ، بل إنما أريد أنهم فى حاجة إلى تقدم أوفر وأكثر

، وأن المكانة التى يصلون إليها اليوم فى الرقى العلمى لايكون غناءا لهم "
.

كان الشيخ يريد أن يتحرك الطلاب من خلال هذا العمل الدعوى تحت إشراف أساتذتهم على أنهم كيف يؤدون مايجب عليهم نحو العلم ، وكيف ينفعون الخلق بما تعلموه حتى يكونوا فائزين بعلم نافع لهم ولعباد الله ، يقول فى رسالة :" .... ياليته قد تم التمرن فى أيام التحصيل على القيام بعملية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تحت إشراف الأساتذة ، فتكون علومنا نافعة مثمرة ، ولا نأسف فيما بعد أنها كانت نفاية وخواء وتحولت ظلمة وجهلا وضلالا ، إنا لله وانا إليه راجعون " .

على كل فإنه أراد أن تصل دعوته إلى الدوائر التى تمتاز بالعلم والتدين فوجهها إلى المراكز العلمية والدينية .

مبادىء العمل الدعوى فى المراكز الدينية :

أوفد الشيخ الميواتيين إلى " ديوبند " و " سهارنفور" و " رائفور " و " تهانه بون" وأكد عليهم : أن لايتحدثوا بالدعوة والتبليغ فى مجالس المشايخ ، وأن يقوم خمسون أو ستون شخصا منهم بالجولات الدعوية فى القرى المجاورة ، وأن يتجمعوا جميعا بعد أسبوع فى البلدة ، ثم يتفرقوا منها جماعات إلى القرى والأرياف ، ولايذكروا الدعوة عند الشيوخ الكبار بأنفسهم إلا أن يسائلوهم ، يقول فى رسالة إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى : "إن لى أمنية أعيشها منذ مدة طويلة ، أن تؤم هذه الجماعات الدعوية زوايا المشايخ ، وأن تستفيد منهم متقيدين بآداب الزوايا ، وأن تقوم بالدعوة فعلا خلال ذلك فى أوقات خاصة ، فى قرى مجاورة وأرجوكم أن تحددوا طريقا لذلك من قبل مع المتشاور مع الواردين من تلك النواحى ، ومن الغلب أن يحضر هذا العقد مع عدة رفقاء ، وأنوى التوجه بهذه المناسبة إلى " ديوبند " و " تهانه بهون " " .

إقتناع أهل القلب واليقين بهذا العمل الدعوى :

وعلى ذلك فقد زالت تلك الشكوك والشبهات التى كانت تساور بعض أهل اليقين والإحسان ، فيما يتعلق بهذا العمل واقتنعوا به .

كذلك كانت الجماعات فى " تهانه بهون " تعمل فى القرى المجاورة ، وكان الواردون يتحدثون إلى الشيخ أشرف على التهانوى [1] عن أعمال الجماعات ، وخدماتها ومنجزاتها ، وعن المبادىء التى تلتزمها ، ومظاهر الخير والبركة التى شهدتها تلك الأمكنة نتيجة تجوال تلك الجماعات ونزولها فى تلك المواطن ، وكان الشيخ التهانوى فى شك كبير من ذلك، لأنه كان يعلم أن العلماء والأفاضل الذين تخرجوا فى المدارس ، وقضوا فى سبيل التعليم ثمان أو عشر سنوات أو أكثر ، ولم يقدروا بعد كل جهد جهيد ، أن يكسبوا نجاحا كبيرا فى هذا المجال ، بل كانت النتيجة معكوسة ، ونجمت فتن جديدة ومفاسد كثيرة ، فكيف بهؤلاء الميواتيين الذين لم يتلقوا التعليم والتربية البتة ، إستطاعوا أن يقوموا بهذا العمل العظيم الدقيق ....

على كل فكان الشيخ التهانوى لايطمئن إلى ذلك ـ بحكم طبيعته المتحفظة المتأنية الحكيمة ـ ويخاف أن تكون هذه المحاولة نواة فتنة جديدة ، ولكن أخيرا حصل له الإقناع فى هذا الشأن بما تتابع عليه من أخبار البعثات الدعوية الطيبة ، وبما رأى بأم عينيه من تباشير الخير والبركة التى ظهرت من أجل عملها ، ومن هنالك عندما أراد الشيخ محمد إلياس أن يتحدث مع الشيخ التهانوى فى هذا الصدد ، قال التهانوى : " لاحاجة إلى

---

(1) المربى الكبير والمصلح العظيم سماحة الشيخ أشرف على التهانوى صاحب مؤلفات ورسائل يبلغ عددها إلى ثمان مائة مؤلف ، بين كتاب ورسالة على الأقل ، توفى إلى رحمة الله تعالى فى ١٧ من رجب سنة ١٣٦٢هـ .

الدلائل ، لأن الدلائل إنما تقدم من أجل تقرير شيء وتأكيده ، وقد تأكدنا من جانب هذا العمل ، واقتنعنا به عن طريق نماذج عملية ، فنحن فى غنى عن كل دليل ، وأحمد الله ، وقد حولتم اليأس رجاءا " .

ومما كان يجعل الشيخ التهانوى لا يطمئن إلى ذلك ، إنه كان يفكر أن هؤلاء الميواتيين أنى لهم أن يقوموا بمسئولية عرض الدعوة والتبليغ دون علم ودراسة وتربية ، ولكن زال شكه ذلك حينما أكد له الشيخ ظفر أحمد التهانوى [1] أن هؤلاء المبلغين لايتعرضون لشيىء غير الذى تعلموه وتمرنوا عليه بصورة عملية حماس الشيخ محمد إلياس وعزيمته وقلة إقبال العلماء :

وقد رسخ إيمان الشيخ محمد إلياس بهذا العمل وإفاديته ، وزاد حماسه ، وقويت عزيمته ، على الحين الذى كان أهل العلم والفضل ، لايقبلون عليه إقبالا لائقا ، مما كان يقلقه ويؤلمه كثيرا ، وكان اعتقاده يزداد مع الأيام أن هذه المحاولة الدعوية التى نهض بها هى علاج كل فتنة ، ودواء كل داء ، وحل كل مشكلة ، يقول :" لا أدرى أية قوة أستخدمها للإفهام والإقناع ، وبأى لسان أصارح ، وبأية قوة أثبت فى ذهنى وبأى حيلة أحول المعلوم البديهى الواضح كل الوضوح مجهولا ، أو أجعل المجهول معلوما ، إنى أؤمن إيمانا كاملا بأنه ليس هناك" سد سكندرى عال " أمام هذا التيار الجارف ، والسيل العرمرم من الفتن العمياء ، والظلمات المتراكمة ، إلا المساهمة فى هذه المحاولة التى نهضت بها بكل قوة ، وبكل حماسة وعاطفة ، وبالقلب والقالب ، وبصرف كل جهد وعناية إليه " .

ويبدى عن هذا القلق ، ويدل على هذا الخطر الذى كان يلمسه فى رسالة أخرى يقول فيها :" من العبد الحقير الفقير محمد إلياس ، الحمد لله

(1) ابن أخت الشيخ أشرف على التهانوى والعالم الجليل والمؤلف الكبير مؤلف كتاب " إعلاء السنن " توفى فى باكستان فى ٢٣ من ذى القعدة ١٣٩٤هـ ..

الذى بعزته وجلاله تتم الصالحات ، أللهم لك الحمد شكرا ، ولك المن فضلا ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد :

فإنى لاأجد الكلمات التى أبدى بها عن القلق البالغ الذى يرافقنى ، وأنا أكتب إليكم هذه السطور ، صديقى الحبيب ، الأمر الذى أريد تسجيله أنه إذا كان من فضله القيام بهذه الحركة ، ما نلمسه من رضا جل وعلا ، ونصره وعونه ، وتقربه وفضله وكرمه، فإنه فى نفس الوقت نخاف بقدر ذلك ، الحرمان والخسران ، واللوم والشؤم ، والشقاء ، من أجل عدم تلقى هذا الضيف الإلهى المبجل بإكرام لائق وحفاوة مستوفاة " .

إلا ان الشيخ كان يتألم فى قلبه ، ويذوب توجعا فى داخله ، ويحاول إلى حد ممكن أن لايبوح بكلمة شكوى من ذلك ، ولم يكن موقف الشيخ أن يحمل المسئولية أحدا ، بل عندما يشكوا أحد من غير العلماء إهمالهم وقلة حماسهم فى هذا الشأن ، يرد عليه الشيخ بقوله :" أيها الأخوة .... إذا كنتم لاتملكون أن تنفضوا أيديكم من الأشغال التى ترونها بدوركم أنها مادية صرفة ، فكيف بهؤلاء العلماء أن يتنازلوا عن الوظائف التى يرونها ـ عن جدارة واستحقاق ـ أنها فى صالح صميم الدين والمصلحة الإسلامية ؟! "

أسباب قلة إقبال العلماء :

وكانت هناك أسباب فيما كانت هذه الدعوة لاتستقطب من اهتمام لائق ، ولا تتلقى من عناية مستحقة .

١ـ كان العهد عهد الحركات والدعوات ، وكانت القلوب والأذهان مصروفة إليها ، فكان من الصعب أن يقبل الناس على حركة الشيخ الهادئة الجادة البناءة ، فى العهد الذى يموج بالحركات الصارخة ذات الضجيج والضوضاء ، وكانت تجربة الحركات والدعوات المرة التى عاشها الناس ، تقف حجابا دون نظرهم ، إلى حركة الشيخ محمد إلياس نظرة الأمل والإعجاب .

٢ ـ لم يكن الناس يعرفون عن هذه الدعوة إلا معرفة ضئيلة غير مشبعة ، ولايعرف فصها ونصها إلا المتصلون به ، أما المترامون ولاسيما عامة أهل العلم ، فكانوا لايعرفون عنها شيئا ، وذلك أنه لم تكن هناك عناية ما بما تلقاه الدعوة من نجاح ، وتحققه من خير ، وتنشره من بركة ، وتشهده من نتائج سارة .

٣ ـ وكانت كلمة " التبليغ " التى كانت عنوان هذه الدعوة ، والكلمة الكثيرة الإطلاق عليها ، تقف سدا منيعا دون فهم عمقها وشمولها وحقيقتها بعيدة المدى ، فكان الناس لايقبلون عليها ظنا أنها حركة كحركات سطحية أخرى كثيرة تطلع وتغرب صباح مساء ، أو يرونها فرض كفاية ، يكفى قيام بعض الأفراد به عن البعض الآخر .

4ـ ـ كان الشيخ محمد إلياس هو الشخص الوحيد الذى يعرض هذه الدعوة على أهل العلم والطبقة المثقفة ، وكان يأتى حديثه ملتويا غامضا دقيقا ، مشتملا على معانى عميقة ، ممدا بلفتات وإشارات بارعة ، أضف إلى ذلك العقدة التى كانت فى لسانه ، وحماسه الزائد ، وعاطفته الملتهبة ، فكان الواردون الجدد الذين كانوا يفاجئون بذلك لأول مرة ، وقد يواجهون اضطرابا فكريا ، واستحياشا عقليا ، ولايتوصلون إلى عمق الدعوة وأصالة الفكرة ، ومغزى الحركة .

ثم إنه كانت قد تجرى على لسانه معان فى غاية السمو والعمق ، لا تشتمل عليها الكتب المدرسية المتداولة، وكانت تلك المعانى تأتى بكلمات غير عادية لايصطلح عليها الناس عامة ، مما يجعل العلماء قد لا يتقاربون إلى الدعوة فى الفرصة الأولى ، ولايسعهم أن يصرفوا فى ذلك فرصة ثانية .

٥ ـ وما كان الناس ليعلقوا على الشيخ أملا كبيرا ، عندما كانوا يرون أن الواقفين بجانبه إنما هم هؤلاء الميواتيون السذج ، كانوا يرون الشيخ كمرشد وشيخ طريق ومرب روحى لهؤلاء الميواتيين قد استطلع أن ينفخ فيهم

روحا دينية جديدة ، ويثير فيهم معان الإيمان واليقين .

وربما كان ذلك من الخير ـ نظرا إلى بعض النواحى المهمة ـ فقد أتاح ذلك لهذه الحركة أن تجتاز مرحلة التقدم والإزدهار الطبيعى مصونا فى سياج الخمول والمجهولية وكان ـ الله العليم الحكيم ـ قد أراد لهذه الحركة بصورة خاصة أن لا تكون محط الأنظار ، ومصرف اللفتات ، ومهبط العنايات ، إلا فى أوانها .

التألم القلبى :

ولكن الآن قد آن لهذا المنبع الفياض أن يطفح ويسيل ، ويسقى القاصى والدانى ، وأن يعم القريب والبعيد ، ويتوسع نطاقه .

وكانت الدعوة تسيطر على أعصاب الشيخ ، وتملك عليه عقله وقلبه ، وتكثر على لسانه معن علمية عالية ، ويتوصل فكره يوما إلى أساليب ومناهج جديدة متنوعة للدعوة ، ويجد تأييدها فى المآخذ الأصيلة من الكتاب والسنة وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وحياة الصحابة رضوان الله عليهم ، وفى ناحية أخرى لم يكن يستمع إلى هذه العلوم والمعارف ويحاول إساغتها وتشربها إلا فتية من شباب المثقفين والميواتيين السذج الذين تربوا فى حضنه وتخرجوا فى صحبته ، أولئك الذين ما كان لهم عهد بالمصطلحات العلمية الجارية على لسانه .

ولئن كان الميواتيون لايسيغون هذه المعانى العلمية السامية الدقيقة ، لكنهم كانوا متجاوبين مع هذا العمل الدعوى روحيا ، يفوقون أهل العلم وسكان المدينة فى قوة الإرادة والعزيمة وقدرة العمل والتحرك ، وكانوا عصارة جهود طويلة ، ومحاولات مضنية متواصلة ، وضعها الشيخ فى تخريجهم طوال عشرين سنة تقريبا ، فكانوا مادة الحركة ، ووقود الدعوة .....وكان الشيخ يدرك هذه الحقيقة ، وقد اعترف بذلك مرات عديدة ، يقول فى رسالة إلى زملاء ميواتيين :

" قد وضعت كل ما أملكه من قوة وهمة فيكم أيها الأخوة الميواتيون ، وعُدت لاأملك إلا رصيدا ، إلا أن أضحى بكم أنتم ، فأدركونى وساعدونى . "

ويقول فى رسالة أخرى :" إن المنصرفين إلى الأشغال الدنيوية ، فى كثرة كاثرة ، أما مهاجرة الوطن ومفارقة الأهل والعيال فى سبيل نشر الدين فقد وفق الله لذلك اليوم الميواتيين وحدهم " .

إتصال توافد الجماعات التبليغية إلى سهارنفور :

وكان يريد أن يضع المراكز العلمية والدينية فى مديرية " سهارنفور " فى الإعتبار ، ويود أن تكون مساهمة رجال العلم والدين وعامة المسلمين فى تلك المنطقة فى هذا العمل اوفر ، وقد دأب يحرضهم على ذلك باللسان والبيان ، وفعلا كانوا يشتركون فى عدد لابأس به فى الحفلات الدعوية التى كانت تعقد من حين لآخر فى ميوات ، وكان نصيب أساتذة مدرسة مظاهر علوم بمدينة " سهارنفور " فى ذلك أكبر ولاسيما الشيخ المحدث محمد زكريا بن يحيي الكاندهلوى ، والشيخ عبداللطيف عميد المدرسة ، لكن الشيخ محمد إلياس كان يريد أن ترتفع نسبة المساهمة والإشتراك ، فأكثر من إيفاد الجماعات الدعوية إلى " سهارنافور" وما جاورها .

الجولات التبليغية فى مناطق " مظفرنكر " و " سهارنفور " :

وقام مع أساتذة " مظاهر علوم " بالجولات الدعوية فى مناطق " سهارنفور " من " بهت " و " مرزافور" و " سليم فور " وفى قرى أخرى وعقد حفلات واجتماعات .

وخرج بجماعة تبليغية كبيرة العدد ، وقام بجولة تبليغية فى نواحى " كاندهلة" فى الفترة مابين الثالث عشر من جمادى الأولى ، والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣٥٦هـ ، وكون جماعات دعوية وبثها فى المناطق ،

وقد تغلبت فى هذه الرحلة عليه عاطفة أداء الحقوق نحو المواطنين ، ولم يكن عنده طريق أقوم لهذا الأداء إلا القيام بالتبليغ فيهم ، لأنه كان يرى ذلك خير هدية يقدمها أحد إلى أحد .

وقرر فى سنة ١٣٥٩هـ أن يتتابع توافد جماعات الميواتيين إلى " سهارنفور" ولايغادرها الجماعة الأولى إلا حين تصل إليها الجماعة الثانية ، وكانت الجماعات والبعثات الدعوية تقم فى مبان مدرسة " مظاهر علوم " وبعد سنة كاملة استأجر بناء مستقل سنة ١٣٦٠هـ لهذا الغرض خاصة .

ورأيت الجماعات تواصل زياراتها لتلك القرى والبلدان الآهلة بالعلم والدين إلى حد كبير ، وقد يكون الميواتيون الأميون ، موضع الإنتقاد والسخرية وينظر إليهم نظرة الإستغراب ، ويتساءلون : كيف يكلفون بالدعوة والإصلاح ، وهم بدورهم فى حاجة إلى الإصلاح والتعليم ؟ ؟

مما اضطر الشيخ محمد إلياس إلى أن يجلى الحقيقة ، ويضع النقاط على الحروف ، فقال فى رسالة :" .... لاتظنوهم ـ الميواتيين ـ مصلحين ، وإنما هناك شيء واحد لابد أن تتعلموه منهم ألا وهو مفارقة الأهل والوطن من أجل نشر الدين ، وأما فى غير هذا الشيء ، فلابد أن تروهم فى حاجة إليكم ، وإنما ينتقدهم الناس لأنهم يرونهم مصلحين " .

توافد الناس من مناطق بعيدة :

فى ٥٩ ـ ١٣٥٨هـ نشرت مقالات فى بعض المجلات والجرائد عن هذه الدعوة والحركة ، وتسامع بها الناس كثيرا فى مناطق نائية عن ميوات ودهلى فتوافد كثير من الناس ، ممن كانوا يحرصون على هذا النوع من العمل الدعوى ، أو على خدمة دينية على أى طريق ، واجتمعوا بالشيخ محمد إلياس وزاروا منطقة ميوات ، وكان من هؤلاء السعداء بعض أساتذة دار العلوم ندوة العلماء بلكهنؤ ، وقد جذبت إلى ذلك انطباعاتهم

عن هذه الدعوة أناسا آخرين ، وقد عبر بعض أولئك الذين اطلعوا على الدعوة باكتشاف جديد ، وتساءلوا فى دهشة واستغراب .

كيف أن هذا العمل الكبير ظل يتم غلى هذه المدة الطويلة فى هذا الصمت والخمول ؟ ؟

وأبدى الشيخ سروره البالغ على توافد هؤلاء الضيوف الجدد ، وتلقاهم بكل ماعنده من حفاوة بالغة ، وعلى ذلك فقد بدأت الطبقة المثقفة والمشتغلون بالعلم والتعليم والتدريس يقبلون على هذه الحركة ، واحتفى بهم الشيخ إحتفاءا جعلهم فى حيرة واستعجاب ، فقويت رغبتهم فى العمل ، وكثر إقبالهم .

تنسيق العمل الدعوى فى مدينة دهلى :

ولتنسيق العمل الدعوى فى مدينة دهلى ، وتصعيد نشاطاته ، نصب الشيخ الحافظ مقبول حسن أميرا على جميع الجماعات التبليغية فى دهلى ، وانتظمت الجماعات ، وانضبطت الجماعات وزادت فعاليتها ، بمحاولات الحافظ مقبول حسن والحافظ فخر الدين .

وقرر الشيخ أن تجتمع الجماعات كلها ليلة الجمعة فى المقر الدعوى فى " بستى نظام الدين " بدهلى ، وتجتمع يوم الأربعاء الأخير من كل شهر فى المسجد الجامع الكبير ، وتتحدث عن منجزاتها ، وتتخذ البرنامج كما يأتى مع التشاور فيما بينها ، كل ذلك تنشيطا للعمل ، وزيادة للإتصالات فيما بين الأعضاء والعاملين ، وقد كان الشيخ يشهد هذه الإجتماعات واللقاءات ويحاول أن يشهدها علماء وصلحاء آخرون ، وكان يوجه دعوة عامة للحضور فى نظام الدين ليلة الجمعة ، وكل من يقضى ليال فى نظام الدين ، ينشأ فى قلبه تجاوب روحى مع هذه الدعوة ، وفى أغلب الأحيان يتناولون العشاء فى نظام الدين جماعيا ، وكان الشيخ يتحدث إليهم فى الموضوع قبل صلاة العشاء وبعدها ، وربما يتحدث بعد صلاة الصبح

أيضا ، وقد يطلب من بعض العلماء والخطباء الآخرين من الحضور ممن كان فيهم بأنه يوفى حق التعبير عن أغراض الدعوة ، وقد يحضر صلاة الصبح من لم يحضروا صلاة العشاء ، من وجهاء مدينة دهلى ، والطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ، وبعض أساتذة " الجامعة الملية " بدهلى ، ولاسيما الدكتور ذاكر حسين [1] ، الذى كان يحضر صلاة الصبح ، ويعود بعدها ليستمع إلى حديث الشيخ ، وكانت تزداد نسبة الحاضرين فى اجتماع تلك الليلة مع الأيام ، مما نفخ فى العاملين روح العمل والنشاط ، وتتحرك روح الإقبال على الدعوة فى الواردين الجدد .

دبيب روح الدين فى تجار دهلى :

كان تجار مدينة دهلى متصلين بالشيخ اتصالا وثيقا ، أما الشيوخ المتقدمون فى السن منهم ، فكان اتصالهم مستمرا منذ أيام والده وأخيه الأكبر ، والشباب منهم توارثوا هذا الحب والإعجاب من سلفهم وشيوخهم ، وكثير منهم عقدوا الإتصال معه بأنفسهم .

على كل فإن الذين تبنوا دعوة الشيخ ـ بعد الميواتيين ـ وأحبوا الشيخ حبا جما وأخذوا بأمره فى كل احترام واعتبار ووقار ، ووفقوا إلى خدمته والبر به ، أكثر من غيرهم على الإطلاق ، هم هؤلاء التجار فى مدينة دهلى ، كانوا يواصلون الحضور فى مجلس الشيخ بنظام الدين ، وخصوصا فى ليالى الجمع ، وفى الأغلب يقضون الليالى هناك ، ويشهدون الإجتماعات التبليغية فى الميوات بالباصات، وقد يحملون الطعام الذين صنعوه فى دهلى معهم للأخوة العاملين ، ويقومون بجولات دعوية فى

(1) من رجال التربية العاملين، مدير الجامعة الملية بدهلى، ومدير الجامعة الإسلامية بعليكراه بعد ، ثم اختير واليا لولاية بهار، وأخيرا كان رئيس الجمهورية الهندية، مات فى ٣ مايو سنة ١٩٦٩ م ..

المناطق المجاورة مع إخوتهم الميواتيين .

وكان الشيخ يحضر مناسباتهم فى حب وعطف ، لكنه ما كان يتغافل لحظة عن وظيفته فى أية مناسبة وأى مكان ، وأى أوان ، كان يعطف على صغارهم عطف الآباء على الأبناء ، ويقاسمهم المسرات ويشاطرهم الأحزان والآلام ، ولكنه لايفوت فرصة دون إصلاحهم وشغلهم بالوظيفة الأصيلة ، ويعامل كبارهم ـ ولاسيما الذين كانت لهم علاقة مع والده وشقيقه الأكبر ـ معاملة الإحترام والإكرام ، ولكن يعاتبهم إذا رأى إهمالا منهم فى جنب الدعوة إستنادا إلى العلاقة ، ولكن ذلك كله ما كان ينال من علاقتهم وحبهم .

وزاد إقبالهم على الدين ، وتمسكهم بالشريعة ، وانصهارهم فى بوتقة الإسلام والإيمان ، وتعاليم الحديث والقرآن ، من أجل إسهامهم فى الدعوة والتبليغ ، واحتكاكهم بالعلماء ورجال الدين فى الرحلات ، واختلافهم إلى الشيخ ، واتصالهم به اتصال الحب والإعجاب ، والطاعة والإنقياد ، وظهر فى تعاطيهم ، وأخلاقهم ، وعاداتهم ، ومظاهر سلوكهم وحياتهم ، تغير ملموس ، وما كان الشيخ يتعرض للجزئيات والفروع ، وإنما كان يعرض الأصول والمبادىء ، ولكنهم أقبلوا على الدين بأجزائه وجزئياته ، يطبقونه فى واقع حياتهم ، ويمثلونها تمثيلا عمليا صادقا ، لأنهم أحبوا الدين وأعجبوا به إعجابا كبيرا ، وتجلت قيمته فى عيونهم ، ومن أجل ذلك كله إمتازوا عن إخوانهم الآخرين ، حتى إذا رىهم الناس عرفوا أنهم من المتصلين بالشيخ محمد إلياس والمسهمين فى دعوته وحركته ، وبلغ بهم التغير إلى أن التجار الذين كانوا يكرهون أن يوظفوا أصحاب اللحى فى دكاكينهم ، عادوا يعفون اللحى بأنفسهم ، والذين كانوا يرون فى كون موظفيهم مواظبين على الصلاة ضياعا لأرباحهم ، وكسادا لتجارتهم ، بدأوا يقومون بجولات تبليغية فى أوقات تفتح فيها الدكاكين ويكثر فيها الإقبال عليها ، ويتقاطر فيها المشترون

، ولم يعودوا يكرهون المشى على الأقدام ، حاملين أمتعتهم وفرشهم على كواهلهم فى الأسواق وعلى مرأى من الناس ولم يشعروا بالذل والعار والسنار فى افتراش الغبراء ، وغمز أرجل الأصدقاء وصنع الطعام بأيديهم ، والتردد على أبواب الفقراء والمحتاجين والمجردين من حارة إلى حارة ، ومن حى إلى حى ، على كل فتحولت حياة كثيرين كليا ، فما هى التى كانوا يعرفونها ويعيشونها ، وذلك أن البيئة قد تغيرت ، فتغيرت العقلية والنفسية .

إقبال الأثرياء وموقف الشيخ المبدئى منهم :

تسمع بهذا العمل الإسلامى العظيم تجار المسلمين فى دهلى وخارج دهلى ، واطلعوا على نفقاته الكبيرة وتكاليفه الباهظة ، فعرضوا على الشيخ معونات مادية كبيرة ، ومبالغ خطيرة ، ولكن كان موقف الشيخ منهم مبدئيا حاسما ، كان الشيخ يؤمن بأن المادة لايمكن أن تقوم مكان الإنسان قط ،إنه ككناسة تتجمع من احتكاك الأيدى البشرية فأنى لها أن تسد مسد الإنسان الذى لايقوم ، فكان يقول لكل من يقدم إليه معونة مادية :

إننا لانحتاج إلى أموالكم ، وإنما نحتاج إلى أنفسكم أنتم ، وكان لايقبل إلا معونة من يسهم فى العمل مساهمة عملية ، وكان يرى أن ذلك هو الطريق المطلوب الصحيح لدى الشريعة الإسلامية للإنفاق فى سبيل الله ، وكان ذلك هو المتبع فى فجر الإسلام ، فإن الذين نرى أسمائهم لامعة فى رأس قائمة المنفقين فى سبيل الله وإعلاء كلمة الله فى الأرض ، هم أولئك الذين كانوا فى طليعة المسهمين فى العمل الإسلامى مساهمة عملية ، بصورة شخصية .

وجملة القول : أن الشيخ إنما كان يقبل المعونة المادية ممن كانوا يسهمون فعلا فى حركته الإصلاحية والدعوية ، الذين كان يثق بإخلاصهم وحبهم ،

وكان فى طليعة هؤلاء السعداء فى مدينة دهلى الشيخ الحاج محمد نسيم الذى كان يتجر فى الأرز ، والشيخ محمد شفيع القريشى ، وغيرهما .

إجتماعات " ميوات " الدعوية :

وفى الأغلب كانت تعقد حفلة فى كل شهر فى مكان بميوات ، وحفلة كبيرة فى كل عام بمدرسة مدينة " نوح " يشهدها الجماعات التبليغية فى دهلى ، وتجار دهلى ، والمقيمون بنظام الدين ، وكثير من أساتذة وعلماء " مظاهر علوم " بسهارنفور ، ودار العلوم بديوبند ، ودار العلوم ندوة العلماء بلكهنئو ، و " مدرسة فتحبورى" بدهلى القديمة ، ويحضرها الشيخ مع رفقته جميعا ، ويشغل الطريق كله بالحديث الدعوى ، ومبادىء العمل الدعوى ، بأسلوب حكيم ملأه الحماس والعاطفة والتألم ، وكان الرفقة ـ الذين كان جلهم من الأعضاء العاملين ـ يشعرون كأنهم يستمعون إلى حفلة متنقلة ، بدأت من نظام الدين ، وستنتهى بالوصول إلى المنزل .

وما أن كان أهل القرية يتسامعون بوصول الشيخ ، حتى يتقاطرون إليه خارج المدينة يستقبلونه ، ويتلقونه فى موجة من الفرح والسرور ، يصافحونه ويعانقونه فى حب وإعجاب ، ويدخل هذا الجمع الحاشد ـ وفيه الأطفال والشباب والشيوخ ـ القرية ، فيتحلق حوله مئات من الناس ، ويصافحهم الشيخ فى حب وحنان ، ويعانق بعضهم أيضا ، ويمسح بيديه على رؤوس بعض منهم ، ثم يجلس فيهم ويحادثهم .

وكان يقضى الأوقات كلها بمر أيام هذه الحفلات والإجتماعات فيما بين هؤلاء الميواتيين المساكين ، ويبيت فى حجرة من المسجد ، او إزاء فنائه ، ويمضى النهار كله ومعظم أوقات الليل فى الحديث معهم .

ويزيد نشاطه وانتعاشه ، وقوته وحماسه مع الدخول فى ميوات ، وكانت العلوم والحقائق والمعارف تفيض على لسانه ، وكان الميواتييون يستمعون

إليها وهم آذان صاغية وقلوب واعية ، وتنفذ فى قلوبهم وتتذوقها نفوسهم ، أساغوها أو لم يسيغوها ، وكان الشيخ لايتوقف لسانه ، ولا يهدأ باله ، ولا يستجم إلا قليلا ، فكان يعود من ميوات وهو محطم ممزق ، وقد تصيبه الحمى ويغص بالكلام .

وتطبع هذه الإحتفالات والإجتماعات الجو كله بطابع الإيمان واليقين والروحانية والربانية ، والإشراقة والنورانية ، يؤثر على القلوب ، ويرقق النفوس ، مهما كانت قاسية أبية ، وتعود البيئة آهلة بالذكر ، والمساجد معمورة بالذاكرين والركع السجود ، ولايجد المرء مكانا فى المسجد إذا أبطأ قليلا ، وقد تقوم الصفوف على الشوارع والطرق ، ويكون الهجيع الأخير من الليل ووقت السحر معنى طيبا جذابا بصورة خاصة ، يبعث الإيمان ويغذى الروح ، وحيث كان يبيت هؤلاء الميواتيون ، الحريصون على دينهم ، الغيورون على عقيدتهم ، المتذوقون لحب الله ورسوله فى فناء المسجد ولا يظلهم إلا السماء ، ولايغطيهم إلا الندى ، والأيام أيام برد قارس ، وشتاء قاتل ، ويستمعون إلى الخطب والأحاديث الدينية صامتين صامدين ، لايبرحون مكانهم ساعات طوالا ، فى ليلة مطيرة شاتية ، وتحت خيام متقطرة ، وأشجار متمطرة .

وكانت الخطب والمواعظ فى أمثال تلك الحفلات فى درجة ثانوية ، ولاتكون مقصودة منشورة ، وإنما المطلوب هو محاولة تكوين الجماعات الدعوية ، وإرسالها إلى الأرجاء ، وكان ذلك هو المقياس الذى يقاس به نجاح الإجتماعات وإخفاقها ، حيث يوضع فى الإعتبار ، كم جماعة تكونت وخرجت ؟؟ ، وكم وقتا ستشغله فى الجولات والرحلات الدعوية ؟؟ ، وكم جماعة تهيأت للخروج إلى خارج المنطقة إلى الولاية الشمالية وما إليها ؟؟ ، وكم جماعة رضيت بالتجوال فى داخل المنطقة والقرى المجاورة ؟؟ ، وذلك هو الشىء الوحيد الذى يطلبه الشيخ من الحاضرين والمستمعين ،

ويراقب الإجتماع بنفسه من هذه الناحية ، ويرى كم طلبا إلى الحضور لذلك ، وكم ألح عليهم فى هذا الشأن ، ثم أن الميواتيين المحنكين فى العمل التبليغى ، والأعضاء العاملين من مقيمي نظام الدين ، يجمعون أقيال القبائل الميواتية ، وعريفى الأسر والبيوتات ، ووجهاء المناطق فى ناحية ويتحدثون إليهم فى الموضوع ، ويستعينون فى إعداد الجماعات التبليغية الجديدة .

ولايطيب له طعام ولاشراب ، ولايهدأ له بال ، ولايكتحل بنوم ، ما لم يتم هذا العمل ، ولم يكن ليغادر القرية ، مالم يطمئن من هذه الناحية ، ولئن اطمأن من هذا الجانب ، عزم على العودة إلى نظام الدين ، ثم لايمنعه من الرحلة إصرار المستضيفين ، ولا إلحاح المخلصين ، ولا ما أصابه فى سبيل المهمة من تعب ونصب .

وأعضاء الأسرة العاملة فى المقر الدعوى بنظام الدين ، كانوا يحضرون القرى التى تعقد فيها الإجتماعات ، قبل مواعيد الإحتفالات ، ويعملون على تهيئة الجو ، وتمهيد الرض ، ويثيرون الحرص ـ بالجولات والزيارات ـ فى الناس على الحضور فى الإحتفال ، والرغبة فى الإستماع ، والجدارة للإستفادة مما سيلقى فى الإجتماع من خطب ومواعظ .

ويقيمون بعد الإجتماعات أياما ، يستغلون أولئك الذين استعدوا للخروج فى الجولات والرحلات الدعوية ، ولايعودون إلى نظام الدين إلا حين تتم جميع المراحل ، ويتم التخطيط وبرمجة العمل الدعوى ، وتحديد مناطق الجولات وإيفاد الجماعات .

وكان سكان القرية يوفون حق القرى والإكرام ، ويستضيفون الحاضرين ـ القابلين من ميوات وخارج ميوات ـ الذين يبلغ عددهم إلى الآلاف ، فى سماحة وشهامة ، إلى أيام ، وعلى الرغم من ذلك لايشبع طموحهم ، ولاترضى رغبتهم فى الإكرام ، ويتأسفون على انفضاض الإجتماع ، ومغادرة

الضيوف ، إن شهامتهم جددت ذكرى العرب الأجواد ، الذين عجنت طينتهم بالقرى وإكرام الضيف [1] .

وقد خرج الشيخ هؤلاء الميواتيين على إكرام المسلم أيا كان أصله وفصله ، وعلى تعظيم واحترام أهل العلم والدين، وبلغت بهم التربية على هذا الجانب إلى أن كل ميواتي يرى كل وافد من الخارج كأنه محسنه الديني الذي تلقى منه الدين والإيمان، وكثير من الوافدين يعودون يتأسفون على حالهم وقد يخافون على أنفسهم النفاق والرياء حينما يدرسون ما يتمتع به الميواتيون السذج القرويون، من حماس ديني، وغيرة إيمانية، وعاطفة إسلامية ، وروح الإخلاص، والحب والود ، والتواضع وإنكار الذات ، ورقة القلب وتألم الصدر ، والحرص على العبادة والذكر، وما يتجلى في حياتهم من السلوك الإسلامي والطابع الإيماني والقرآني .

وقد سأل الشيخ رجلا قد عاد من مثل تلك الحفلة الدعوية في ميوات : ماذا وراءك ؟ فقال : ياسيدي ! عدت استحيي أن أسمي نفسي مسلما بعد ما رأيت هناك من مظاهر الحياة الإسلامية الأصيلة .

الإحتفال الدعوى الكبير في " نوح " :

عقد احتفال كبير في ٨ ، ٩ ، ١٠ من ذي القعدة سنة ١٣٦٠هـ ـ الموافق ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ من نوفمبر سنة ١٩٤١ م في بلدة " نوح " بمديرية " جرجانوه " وشهدها حشد إنساني هائل لم تشهد ميوات في مكان واحد وآن واحد قط ، يقدر عدد الحاضرين من ٢٠ ـ ٢٥ ألفا ،

---

(1) وكان مضيف الشيخ في بلدة " نوح " الشيخ الحاج عبدالغفور ، كان ينزل دائما عليه ، مع رفقته الكثيرين بمناسبة الإجتماعات ويقريهم الحاج عبدالغفور في سخاء نفس ورحابة صدر ، وكان رحمه الله من خلفاء الشيخ الكبير الحاج امداد الله المهاجر إلى مكة المكرمة ، انتقل إلى رحمة الله تعالى في ١١ رجب ١٣٦٠هـ ..

وجلهم قد حضروا " نوح" من مسافة ٣٠ أو ٤٠ ميلا ، ماشين على الأقدام ، حاملين معهم أفراشهم وأرودتهم وأقواتهم ، ولا يقل عدد الضيوف الحلضرين من خارج ميوات عن ألف شخص الذين كانوا نازلين فى مبنى " معين الإسلام " يتناولون الطعام فى رحابها .

وصلى بالناس الجمعة فى سرادق الإحتفال الشيخ المحدث القائد المجاهد حسين أحمد المدنى المتوفى فى ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٧٧هـ وكانت الجمعة فى جميع مساجد البلدة أيضا ، ولكنها لم تسع المصلين فصلوا فى الشوارع والطرق ، والسطوح ، وسقوف الغرف والعلالى ، وتوقف سير المرور .

وبدأ الإحتفال بعد صلاة الجمعة ، ولارئيس ، ولا لجنة الإستقبال ، ولا العاملين رسميا على إقامة النظام وتنسيق الإحتفال ، وتنظم الحضور ، ولكن كانت جميع الإجراءات والمداولات تتم بصورة منظمة وعلى أحسن ما يرام ، ويتجلى فى القائمين على الإحتفال نشاط وحماس لاعهد بهما للعاملين الرسميين فى عامة الإحتفالات والمؤتمرات ، الذين يرتدون أزياء خاصة وشهد الإحتفال سكان دهلى فى عدد كبير .

وبعد انفضاض الإحتفال أبدى المفتى فضيلة الشيخ محمد كفاية الله [(1)] . ـ الذى حضر الإحتفال ـ انطباعاته ، فقال : قد شهدت ـ ولاأزال ـ كل نوع من الإحتفالات والندوات والمؤتمرات الدينية والسياسية لكنى ما شهدت حفلة كهذه الحفلة فى سعادتها وبركتها وعظمتها .

وكان الإحتفال فى الواقع زاوية إسلامية حية ، كان معظم الحاضرين فيها

(1) من كبار علماء الهند ورجال الفتوى ، ومن كبار القدة والزعماء المسلمين فى حركة التحرير ، كان رئيس جمعية العلماء فى الهند مدة طويلة ، توفى إلى رحمة الله تعالى فى ١٣ من ربيع الثانى سنة ١٣٧٢هـ .

رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار ، عبادا فى الليل ، وخدمة بارين فى النهار ، وكان الجمع بين هذا وذاك من أهداف هذه الدعوة .

وكان الشيخ ـ بجانب جلسات هذا الإحتفال ـ يتحدث إلى الحاضرين فى موضوعه قياما وقعودا ، وبعد كل صلاة الجماعة ، وكان يدعو مع الحاضرين بعد الصلوات دعاء الخاشع الخائف ، المضطر ، المستجير الذى ذلت رقبته لربه ، وخضع له رأسه ، وآمن به قلبه ، ولايقل هذا الدعاء من خطبة مستقلة ، مؤثرة مرفقة .

الجماعات التبليغية إلى الخارج :

وتوجهت الجماعات التى تكونت من الميواتيين ، وتجار دهلى ، وتلاميذ المدارس إلى الأنحاء المختلفة ، وإلى مناطق الولاية الشمالية ، ولاية " بنجاب" من " خورجة" و " على جراه " و " أكره" و " بلندشهر" و " ميرته" و " بانى بت"و " سونى بت"و "كرنال" و " رهتك" وتكررت الجولات فى بعض الأمكنة ، إذا اقتضت الضرورة ، وتكونت فيها جماعات جديدة ، وبدأ الناس يتوافدون من هذه المناطق إلى المقر الدعوى فى نظام الدين بدهلى .

الجماعات الدعوية إلى "كراتشى " :

وتوسع نطاق العمل مع الأيام ، وتوجهت على دعوة من بعض المخلصين الذين تأثروا بالدعوة جماعتان إلى " كراتشى " الأولى فى صفر سنة ١٣٦٢هـ الموافق فبراير سنة ١٩٤١م ، والثانية فى أول أبريل ، وجرى العمل فى "كراتشى" و "السند " وقامت جماعات جديدة عديدة فى أحياء كراتشى .

وكان الشيخ يتمنى كثيرا أن يعم هذا العمل فى المنطقة الساحلية ، لأنه كان يسكنها كثير من العرب وأناس من بلاد أخرى ، فكان يريد أن تنبث

دعوته عن طريق هؤلاء إلى تلك البلاد، ولاسيما البلاد العربية .

الرحلة إلى مدينة لكهنؤ وزيارتها الدعوية :

كان طلاب دار العلوم ندوة العلماء ، وأساتذتها ، يقومون بالعمل الدعوى فى " لكهنؤ " وما جاورها منذ عام ١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠هـ ، على طريق الشيخ محمد إلياس ، وحسب مبدئه وتوجيهاته ، وكانوا يزورون الشيخ فى مقره الدعوى بنظام فى أيام العطلة وكثير من المناسبات ، وكان الشيخ يحبهم كثيرا ، وتوطدت علاقتهم معه، وكان الشيخ يتابع أخبار ما ينجزون من العمل الدعوى فى رغبة وحرص ، ويعطف عليهم بصورة خاصة .

ورضى الشيخ أن يزور لكهنئو على دعوة منهم فى رجب سنة ١٣٦٢هـ ، وحضر لكهنئو قبل قدوم الشيخ جماعة الميواتيين وتجار دهلى الذين كان يتراوح عددهم بين ٣٠ أو ٤٠شخصا، حتى تعمل على تهيئة القلوب والأذهان بالتجوال فى أحياء المدينة ، حتى تكون زيارة الشيخ مثمرة نافعة ، وموضع الإستفادة الكاملة ، وأقامت الجماعة فى مبنى دار العلوم ندوة العلماء .

وكان برنامج الجماعة أنها كانت تخرج كل يوم بعد صلاة العصر إلى المدينة ، وتقوم بالجولة بعد صلاة المغرب ، فى حى من أحياء المدينة ، وبعد صلاة العشاء فى مسجده تتحدث عن مبادئها وأهدافها فى خطبة أو خطبتين ، ثم تعود بعد تكوين جماعة جديدة إلى المنزل ، ثم تتناول العشاء ، ويستمر ذلك إلى نحو الساعة الثانية عشرة ليلا .

ثم تشغل بعد صلاة الفجر بالتعليم ـ الذى كان أهم برامج الرحلات التبليغية ـ وتصرف بعض الوقت فى التجويد وتصحيح مخارج الحروف ، وتنفق بعض الوقت فى تعليم الأحكام الدينية والحديث عن الفضائل ، وبعض الوقت فى الإستماع إلى أحوال الصحابة رضى الله عنهم وأخبار

جهادهم وبطولاتهم وتمرن بعض الوقت على عرض أصول الدعوة ومبادىء التبليغ وتعليمها وتعلمها ، ثم يأتى وقت تناول الطعام والإستجمام ، وصلاة الظهر ، وبعد صلاة الظهر تقوم بتحقيق برنامجها كالعادة .

وقد حضر الشيخ فى ١٨ من يوليو سنة ١٩٤٠م ، ويرافقه الحافظ فخر الدين ، والشيخ احتشام الحسن ، والأستاذ محمد شفيع القريشى ، والحاج نسيم ، ودعا طويلا ، فى ميدان قبل جسر " موتو محل" فى كل خشوع وإخبات وإنابة ، وصلى النفل .

ودخل دار العلوم ندوة العلماء ، فبدأ بالمسجد ، وقد كانت الجماعات فيه موزعة فى حلق كثيرة ، مشغولة بالدروس والأذكار ، والذكر والتعليم ، كل حلقة يراقبها أميرها ، ومعلمها ، ولم ينهض أحد من مكانه ، ولم يبرح وظيفته ليصافح الشيخ أو يعانقه، أو يستقبله ، على الرغم من الحب العميق ، والإحترام الذى كانوا يكنونه نحوه ، ولم يزد هو على أنه ألقى عليهم نظرة العطف والحنان ، وصافح أميرهم الشيخ مقبول حسن ، وتوجه إلى منزله .

وقد سبقه إلى دار العلوم " ندوة العلماء" العلامة السيد سليمان الندوى وكان نازلا معه فى حجرة واحدة ، وقد اتفق العلامة أن يرافق الشيخ فى القطار قبل ذلك بأيام ، فى طرقه من " تهانه بهون " إلى " كاندهلة " وتحدث معه ، ثم أبدى انطباعاته عن دعوة الشيخ فى حفلة فى حارة " حبش خان" بدخلى ، واستطاع أن يعايش أحدهما الآخر طيلة أسبوع كامل أو أكثر .

وحضر فى اليوم التالى الشيخ المحدث مولانا محمد زكريا الكاندهلوى ، والشيخ محمد منظور النعمانى، والشيخ عبدالحق المدنى ، وبعض أساتذة مدرسة " مظاهر علوم " بسهارنفور .

وعقدت مجالسة بعد صلاة العصر ثلاثة أيام فى قصر السرى للشيخ نعيم

الله ، ويومين فى منزل الشيخ إقبال على المحامى ، المعروف بقصر)[1] وتحدث إلى الحاضرين عن أهداف الدعوة ، وعرفها إليهم .

وبالإضافة إلى تلك المجالس كان يعرض الدعوة ومبادئها وأغراضها ، وحقائق الدين وأسراره على كل من يغشاه فى مضيف دار العلوم ، ويستمر ذلك إلى وقت الظهر ، وبعد صلاة الظهر تعقد الحفلة فعلا فى مسجد دار العلوم ، وعلى ذلك فلا تفوته فرصة دون الحديث فى الدعوة ، وتعريف الحركة إلى الزوار والحاضرين .

وزار ـ خلال إقامته بلكهنئو ـ الشيخ الجليل عبدالشكور[2] رحمه الله فى منزله ، وعرج فى عودته على " فرنكى محل"[3] ومكتب " هيئة التعليم الدينى " .

وكان اليوم الأخير ـ هو يوم الجمعة ـ مشغولا جدا ، فأولا شرف قاعة جمعية الأسلاح لطلبة دار العلوم ، وشهد حفلتهم التى عقدوها بهذه المناسبة الكريمة ، ثم توجه إلى كلية " أمير الدولة " الإسلامية التى كان فيها اجتماع كبير ، ينتظره بفارغ الصبر ، وتحدث إلى هذا التجمع أولا العلامة السيد سليمان الندوى رحمه الله ، وكان الحديث مؤثرا قويا جدا ، وأعقبه الشيخ فتحدث ، وصلى فى مسجد حى من أحياء المدينة ، الذى كان فيه العمل بعد الصلاة على تحريض الناس على مرافقة الجماعات

(1) كان منزل السرى الفاضل الأمير نور الحسن خان بن المؤلف الكبير العلامة الأمير السيد صديق حسن خان أمير بهوفال .

(2) المعروف بإمام أهل السنة ، وصاحب الإختصاص ، والدور الإصلاحى الجدلى الكبير فى الرد على الشيعة ، وإثبات عقيدة أهل السنة ، نفع الله به خلقا كثيرا ، مات فى ١٧ من ذى القعدة سنة ١٣٨١هـ ،.

(3) حى معروف قديم ، نبغ فيه علماء كثيرون ، كحى " الميدان" فى دمشق ، ومنه انتشر المنهاج الدراسى المعروف ب " درس نظامى ".

الدهلوية الدعوية إلى "كانفور" .

وتوجه بقطار الليل مع الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى ، والحافظ فخر الدين ومع رفقة آخرين إلى " رائى بريلى" ليزور قرية الشيخ علم الله الحسنى [1] رحمه الله المتوفى فى ٩ذى الحجة سنة ١٠٩٦هـ ، ووصل القرية فى الساعة الرابعة ليلا ، واستمر مشغولا بوظيفته رغم سهره فى البارحة وكونه مجهودا ، مكدورا ، والقى حديثا حول علاقة الدين بالسادة الأشراف ، وعلاقتهم مع الدين ، وكان الحديث حكيما ظريفا، رقيقا لبقا ، وحرضهم للنهوض للعمل الإسلامى ، واعتباره الوظيفة الولى ، وجعله الشغل الشاغل والهم الوحيد ، وقال : إن السادة لئن لم يقوموا بهذا العمل ، لما يكون له ذلك الرقى الذى يمكن أن يتحقق بقيامهم لهذا العمل ، ولو قعدوا عن العلم الإسلامى الدعوى لما حصل لهم الهدوء والقرار ، الذى يحصل للمرء ، إذا قام بوظيفته الأولى الأصيلة

وعاد بقطار الظهيرة إلى لكهنئو ، وتوجه من المحطة إلى كانفور ، وأقام بها يومين ، ثم رجع إلى دلهى .

(1) تقع القرية التى تعرف بدارة الشيخ علم الله الحسنى خارج مدينة رائى بريلى على ساحل نهر " سئى" وهى قرية صغيرة أنشأها الشيخ علم الله ، ولايسكنها حتى الآن إلا أفراد أسرته وهو وطن السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، الذى كان من سلالته ، وهو وطن ومقر مؤلف الكتاب.

الباب السادس

مرض الوفاة ، والأيام الأخيرة من الحياة

كان الشيخ محمد إلياس ضعيفا ، ضئيلا ، نحيلا منذ البداية ، وزاده ضعفا مواصلة الجهد ، وملاحقة الأشغال ، وقلة الإستجمام ، أما ضعف الأمعاء ، فقد توارثه من أبويه ، لكن كثرة الرحلات والزيارات ، واللقاءات ، ومايتبعها من عدم الإلتزام بالحمية وعدم الإحتياط فى تناول الطعام والمنام ، زاده انهيارا على انهيار ، وفى نوفمبر سنة ١٩٤٣م أصيب بالإسهال الذى لازمه إلى آخر حياته ، وكل من يريد من دهلى فى هذه الأيام ، يقول : الشيخ لايزال يشكو المرض ، بل يزيد ضعفا ووهنا مع الأيام ، غير أن الإمعان فى العمل ، والحماس لدعوته ، والإقبال على وظيفته لايفتر ولاينقطع ، وقد كتب أحد الزملاء من دهلى فى رسالته المؤرخة ب ١٣ يناير سنة ١٩٤٤م ، يقول :" الحمد لله ، إن الشيخ قد حصلت له الإفاقة إلى حد كبير ، لكنه لايكاد يسكت لسانه رغم وصية الطبيب الأكيدة فى هذا الشأن ، ويقول : إنى أفضل أن أموت بجراء الكلام الدعوى على أن أسكت عن أمر الدعوة والتبليغ كى تعود صحتى ، ويقول : إن السبب الأكبر فى مرضى هو عدم إقبال العلماء على هذا العمل ، إن على العلماء أن يقبلوا ويتفهموا الدعوة، ويتلقوا مبادئها وإن اضطرهم ذلك إلى الإستدانة ، ولايهمهم ذلك ولايضيقون بذلك ذرعا ، فإن الله يباركهم، وكنت أرجو انهم سيحضرون لعيادتى وأن مرضى يجذبهم ، لكنهم لايعيرون اهتماما بذلك، وإنى لأشاهد مظاهر الخير والبركة بأم عينى " .

وتوجهت جماعة من عدد من المحبين والمخلصين من لكهنئو إلى دهلى فى ٢١ محرم الحرام سنة ١٣٦٢هـ الموافق ١٧ يناير سنة ١٩٤٤م ، وفيهم

الشيخ محمد عمران خان الندوى الأزهرى[1] عميد دار العلوم ندوة العلماء، آنذاك، فوجدوا الشيخ يشكو ضعفا أى ضعف ، لكنه يمشى بنفسه يصلى بالناس فى الأغلب، يواصل الخطب والحديث كالعادة، غير أنه لايكاد ينهض من الجلوس إلا بمساندة واشتد المرض وآذن بالخطر، وكان منصرفا فى هذه الأيام إلى تقريب الدعوة إلى العلماء ، وغرس قيمتها وعظمتها فى قلوبهم، وكان ذلك يومئذ هو همه الوحيد ، وكان يرى الحلجة أكيدة إلى أن يليه أولو الأحلام والنهى منهم، وأن يستمعوا إلى حديثه ويسغوا دعوته ويتلقوا مبادئها وأهدافها، ويتشربوا روحها ويثبتوا القيام بها، وكان يهيب بالعلماء أن هذه الحركة لاتليق إلا بهم ، وهم لايليقون إلا بها ، وأنها لاتنال إمتدادا لائقا ، ولاتجاوبا مشبعا، إلا حين تسير فى إشرافهم وتمتع بقيادتهم ، وإنما مثلى مثل الذى رأى الحريق وقع فى بيت فنادى فى الناس أن أدركوا البيت واطفئوا الحريق .

وكان يؤكد على المبلغين من تجار دهلى أن يستفيدوا من العلماء، وأن يعقدوا فى أنحاء المدينة حفلات ولقاءات، ويستمعوا إلى كلماتهم ، ويدعو الجماهير للإستفادة ، ويقووا بذلك كله دعوتهم ، ويدعموا حركتهم ، ويكسبوا الأنصار والتجاوب، فعقدت عدة حفلات، تحدث إليها كبار العلماء والفضلاء والمثقفين، أمثال المفتى الأكبر محمد كفاية الله، والشيخ محمد عمران خان الندوى، والشيخ عبدالمنان وغيرهم ، وقد دعا المفتى محمد كفاية الله دعوة حارة إلى مساندة الدعوة وتبنيها .

وكان فى حنين إلى الإطلاع على مداولات وإجراءات، ومنجزات هذه

---

(1) كان من العلماء العاملين النشطين المنتجين، يرجع إليه الفضل فى إتمام بناء الجامع الكبير فى بهوفال، الإحتفال السنوى الأكبر المنعقد فى كل سنة فى هذا الجامع ، توفى فى ١٧ من أكتوبر ١٩٨٣م.

الحفلات ، ولاينام حتى يسمع أخبارها عن عدد من الناس ممن يثق فيهم ، وكنا نرجع إلى نظام الدين بعد انفضاض الحفلات ، ومضى معظم أجزاء الليل ، ونجده ساهرا، فما إن سمع وقع أقدامنا حتى يطلبنا ، ويسمع منا مجريات الحفلات فى لذة ولهفة ، ونهامة وإمعان .

ويتحدث فى موضوع الدعوة بانتظام بعد تناول الشاى فى الصباح وتناول العشاء فى المساء وقد يجرى الحديث إلى ساعات طويلة، مما يزيد فى ضعفه، ويمنعنا التأدب أن نمنعه من الحديث .

وكانت فى تلك الأيام رحلة تبليغية موفقة ـ فى إمارة الشيخ محمد يوسف ابن الشيخ محمد إلياس ـ إلى " كهات ميكا") جمعت بين جميع مزايا وخصائص الحفلات فى ميوات التى كان يشهدها الشيخ محمد إلياس بنفسه .

الإرتباط بالعلماء :

وكان من أعظم أهداف دعوة الشيخ محمد إلياس إزالة مانشأ بين فئات الأمة من التباعد وسوء الظن ، والتفاق والشقاق ، وإحلال الحب والوئام والإنسجام محل ذلك ، حتى يكونوا جميعا كلمة واحدة ، ويدا واحدة ، فى مصالح الدعوة الإسلامية وخدمة الإسلام والمسلمين ، ويبذلوا تعاونا متبادلا فى هذه السبيل ، ويحترم بعضهم بعضا ، ويثق بعضهم ببعض ، حتى يتمكنوا من الإستفادة بالمحاسن والمواهب أينما وجدت .

وكان يريد أن لايغض البصر فى هذا الصدد حتى عن الطبقة التى حادت عن سواء الطريق ، وأصيبت فى عقيدتها بشيىء كثير من الإنحراف ، وكم كان يتألم على الفجوة التى وقعت بين العلماء والشعب ، وكان يرى ذلك شقاءا كبيرا للأمة ، وخطرا على مستقبل الرسالة ومصير الدعوة، ومنفذا إلى افلحاد واللادينية ، وكان يامل فى ان المساهمة فى الدعوة التى نهض بها ستكون عاملا فى تقليل هذه الفجوة وبالتالى على

إزالتها ـ وقد بدت مؤشرات ذلك ـ وتوجد فرصة التعارف والإلتقاء والتلاحم فيما بين الشعب والعلماء ، وإذا رأى كل منهما أنه فى حاجة إلى الآخر .

قال كاتب هذه السطور فى حديث ألقاه إلى علماء ميوات " كهات ميكا " على أمر من الشيخ محمد يوسف ...." أن العلماء لابد أن يدركوا أنهم لئن لم يتقاربوا إلى الجمهور عن طريق هذه الدعوة ، ولم يدعموا علاقتهم معهم ، فإنهم ربما يعودون أقلية غريبة منبوذة فى البلد ، تصبح ثقافتها وآداب اجتماعها ، غريبة على الجمهور ، وقد تغدو أفكارهم ولغتهم غريبة عليهم ، ربما تعوز الحاجة ـ فى بعض الأحيان ـ إلى ترجمان لايمكن التفاهم إلا بمعونته .... "

وقد استحسن الشيخ هذه الفكرة ـ التى كانت مستمدة من أحاديثه ومجالسه ـ عندما سمعها على لسان الشيخ محمد يوسف .. وإذا كان الشيخ يطلب من العلماء أن يتصلوا اتصالا قويا بالجمهور عن طريق هذه الدعوة ، ويطلعوا على معاناتهم ويتألموا على أحوالهم ، فإنه فى ناحية أخرى يوصى العوام أن يعرفوا للعلماء قدرهم وقيمتهم ، وأن يجالسوهم متادبين ويستفيدوا منهم ، ويدلهم على ماينالونه على زيارتهم من أجر ، ويعلمهم آداب زيارتهم ولقائهم، وآداب الإستفادة منهم ، ويدربهم على إحسان الظن بهم وتأويل ما لا يفهمون من حديثهم ، ويبعثهم لزيارتهم والجلوس إليهم ، ثم يسالهم بعد العودة ، كيف جالسوهم ؟ وكيف كان الحديث معهم ؟ وعلى ذلك فأوجد بين العلماء والعوام من التقارب والتلاحم مالم يشهده الناس منذ سنوات طويلة بعد حركة " الخلافة " الجبارة .

ومن سوء حظ المسلمين قد نشأ الإمتعاض والكراهية فى قلوب العوام نحو العلماء ، وذلك جراء الحركات السياسية ، والخلافات المحلية ، ونشأ فى القلوب مع الأيام روح العناد والبغضاء نحو رجال الدين ، والممثلين له

دون استثناء .

وبفضل سعى الشيخ وحكمته العملية والدعوية ، فقد تقلصت الفجوة فيما بين العلماء والعوام فى مناطق نفوذ دعوته والدوائر التى تأثرت بها ، وعاد الشعب يبعد الخلافات والخصامات السياسية عن الدين والدعوة والعقيدة ، ووجدت فى القلوب روح حفاوة العلماء ، وحبهم واحترامهم رغم الخلافات السياسية ، وعاد كبار التجار الذين كانوا يستوحشون من العلماء منذ مدة طويلة ، يحضرون مجالسهم مدفوعين بالحب والأدب ، ويدعونهم إلى الحفلات التبليغية مع كل ثقة وإكرام ، وكان الشيخ فى بداية مرض وفاته مصروف الهمة إلى هذا الجانب ، وقد كسب فى ذلك نجاحا موفقا .

العناية بمختلف جماعات المسلمين :

وقد نشأ التباعد والتحاسد فيما بين جماعات أهل السنة والجماعة، من أجل شيء قليل من الإختلاف فى الآراء والأفكار ، وبحكم مجانبة بعضها لبعض منذ مدة ، وصارت كل جماعة ترى بقاء دينها وعقيدتها فى التحاشى عن غيرها ، والفرار عن ظلها ، فقام الجهل بالمحاسن والفضائل، وعاد الكل لايعرف ماعند غيره من مزايا ومنافع ، فغدا طريق الإنتفاع والتعاون المتبادل مسدودا .

وماكان الناس يعرفون طريقا إلى القضاء على تلك الخلافات إلا المناظرة والمناقشة، والرد على مذهب الآخرين ، وتقرير مذهبهم وتعضيده بالدلائل والحجج، لكن التجربة أكدت أن ذلك يزيد الخلافات قوة ، ويشتد منه الداء ويستفحل البلاء ، فضلا عن القضاء عليها .

أما الطريق الناجع إلى ذلك عند الشيخ، فهو تقريبهم بالدعوة اللينة والحكمة، وحل العقد التى أخذت بحجز عقولهم ، بلباقة دينية ، وقدرة دعوية إسلامية، وخلق عظيم وسلوك مستقيم ، وحسن الحفاوة والوفادة

، لأن التعايش، وتجربة البعض للبعض، وتدارس السلوك والعادات ، يقضى على سوء الظن، ويحل عقدة القلب ، والإشتغال بالوظيفة الدينية الأصيلة ، والإختلاط والإحتكاك على منبرها يوجد الإعتدال ، ويرفع التطرف .

وقد عنى الشيخ فى المرض الذى توفى فيه بهذه الناحية ، عناية زائدة يعطى فى ذلك توجيهاته

وإرشاداته ، وكان يستخدم من أجل كسب النجاح فى هذا الصدد ، ملاحظات دقيقة وتحفظات عجيبة ، ووسائل قريبة وبعيدة ، قد لايستخدمها رجال السياسة فيما يهمهم من الأمور الدقيقة الحساسة .

اشتداد المرض :

واشتد المرض فى مارس سنة ١٩٤٤م ، وبلغ به الضعف إلى أنه لم يعد يستطيع أن يؤم الناس فى الصلاة ، لكنه كان يأتى المسجد يتهادى بين رجلين ، ويؤدى الصلاة قائما ن وقال مرارا : أعتقد أنى لاأعافى من هذا المرض ، وتدل المؤشرات على أنه ليس هناك رجاء فى الصحة وتحسن الحالة ، ولكن لست يائسا من رحمة الله ، وكان يشكو أبناء الزمان والأصدقاء والخلان ، أنهم مشغولون بالفروع والأوراق، ولايبالون بالجذور والأصول ، ويهتمون بالقشور دون اللباب ، وفى هذه الأيام ألقى حديثين حكيمين، أشار فيهما إلى أنه ربما قد حانت الأيام الأخيرة ، والله تعالى فيما يصنع حكيم عليم .

تردد العلماء للزيارة والعيادة :

اتصل الشيخ الحافظ هاشم جان المجددى [1] بدعوة الشيخ وحركته عن طريق الجماعة الدعوية التى توجهت إلى السند ، وأعجب بشخصية صاحب الدعوة والحركة ، فلما علم بمرضه ، أراد أن يزوره فى مقره بدهلى ، فقدمها فى شهر مارس سنة ١٩٤٤م ، وقد تلقاه الشيخ بحسن الوفادة وبالغ الحفاوة ، وعنى بزيارته عناية كبيرة ، وأبدى سروره العميق ، لأنه كان قد سر سرورا كبيرا بمساهمة من كان يتمتع بمواهب خاصة فى هذه الناحية ممن كان لسلفهم دور بارز فى خدمة الإسلام ورفع شأنه ومكانه ، ولاغرو فقد كان الشيخ هاشم من سلالة الإمام أحمد بن عبدالأحد السرهندى الذى أدال من الجاهلية للإسلام وفى نفس الشهر زاره شقيق كاتب هذه السطور الأكبر الدكتور السيد عبدالعلى الحسنى [2] ، فعانقه الشيخ مضطجعا ، واهتم بقدومه كثيرا ، وأبدى سرورا بالغا ، وقال : إنه قد تحسنت حالتى إلى حد كبير منذ أن سمعت عن مقدمكم ، وكان من عادة الشيخ أنه كان يتحسن حالته ، ويخف مرضه ، لئن علم بشيء يسره فيما يتعلق بدعوته ، لأن السرور الروحى، والنشوة النفسية والإهتزاز القلبى ، يزيد من نشاطه الجسمانى ، وكان من عادة الشيخ أنه كان يحول الزيارة الشخصية إلى الإفادة والإستفادة للدعوة الإسلامية .

وتجمع مرة ـ على طلب من الشيخ عمداء المدارس وعلماؤها ،

(1) كان من ذرية المصلح الكبير الإمام أحمد بن عبدالأحد السرهندى المعروف بمجدد الألف الثانى ، وكان من المشائخ الكبار توفى فى الباكستان .

(2) كان من نوادر الرجال الجامعين بين الثقافة الدينية القديمة فى رسوخ ووعى ، والثقافة العصرية المدنية فى توسع وإتقان ، دام مديرا لندوة العلماء ثلاثين (٣٠) سنة وتقدمت فى عصره تقدما ملحوظا، كانت وفاته فى ١٣٨٠هـ ، وهو شقيق المؤلف الأكبر وصاحب الفضل فى تربيته ودراسته وتكوينه العقلى والثقافى رحمه الله وجزاه خيرا .

واستشارهم فيما عسى أن ينفع الدعوة ويخدمها فى ناحية من النواحى ، من بين هؤلاء العلماء ، فضيلة الشيخ محمد طيب مدير جامعة دار العلوم بديوبند ، والمفتى الأكبر محمد كفاية الله ، والشيخ محمد شفيع عميد مدرسة " عبدالرب" بدهلى ، والشيخ عبداللطيف عميد مدرسة " مظاهر علوم " بسهارنفور، والشيخ إعزاز على أستاذ دار العلوم بديوبند، والشيخ المحدث محمد زكريا أستاذ الحديث بمدرسة مظاهر علوم، وفى آخر شهر مارس انفض هذا التجمع العلمى النورانى .

الجماعة الدعوية الثالثة إلى " السند " :

توجهت جماعة تبليغية مكونة من ٦٠ إلى ٧٠ شخصا إلى السند ، فى إمارة الشيخ الحافظ مقبول حسن ، وذلك فى أوائل شهر أبريل سنة ١٩٤٤م ، وكان المنزل الأول لهذه الجماعة فى مدينة لاهور ، حيث أقامت ليومين أو ثلاثة أيام ، وقامت بالجولة الدعوية ، ثم توجهت إلى " السند" .

قدوم البعثة التبليغية من " بشاور " :

قررت جماعة من المخلصين والإخوان الذين كانوا قد تعرفوا على دعوة الشيخ ، واتصلوا بها أن تزور الشيخ فى دهلى فى شهر أبريل ، وأرادت أن يسمح الشيخ بهذه الزيارة ، فوجهت إليه رسالة قالت فيها إن حياتكم مفيدة للإسلام والمسلمين، فنرجوا أن تدعو الله لعودة صحتكم بدوركم أيضا ، فكان رد الشيخ على هذه الرسالة بما يلى : " مرحبا بقدوم الجماعة فى دهلى فى شهر أبريل غير أنى أرى من المناسب أن تعمل هذه الجماعة قبل قدومها إلى دهلى متقيدة بالمبادىء ، فى تلك النواحى وإذا فإن قدومها إلى دهلى سيكون مفيدا جدا ، إنى أتضرع إلى الله أن يعيد صحتى شريطة أن يوفقنى أن أقضى أوقاتى مع نظام وحسب المنهج العملى ، ولا تضيع على لحظة دون الفائدة كتلك التى نعيشها الآن ...... ١٤ مارس

سنة ١٩٤٤م . "

توجهت جماعة صغيرة من بشاور إلى دهلى فى ٨ من أبريل بعدما واصلت الجولات والزيارات التبليغية ، وأقامت بدهلى فى الفترة ما بين ١٠ أبريل إلى ١٤ ابريل ، ومن بين الأخوة الذين كانوا فى الجماعة الأستاذ أرشد(1) والشيخ إحسان الله الندوى ، والأستاذ عبدالقدوس وطفلان .

جو نظام الدين والبرنامج العملى فيها :

وقد سجل الأستاذ أرشد بهذه المناسبة ما رأى وشاهد فى المقر الدعوى فى نظام الدين ، نريد أن نثبت ههنا منه مايلقى الضوء على الوضع الدينى ، والجو الإيمانى والقرآنى فى نظام الدين :

جاء إلينا طفل يقول: تفضلوا إن الطعام مهيأ، فدخلنا حجرة الشيخ فى ناحية المسجد ، فوجدنا المائدة ممدودة ، والطعام منسقا ، وكان الشيخ على السرير متغطيا بلحاف، مستندا إلى وسادة أمامه طعام الحمية ، تعلو وجهه إشراقة إيمانية ، أما جسمه فكان مجموعة عظام ، وكان عند سريره طبيبه الذى يداويه ، فسلمنا عليه ، وجلسنا حول المائدة وكنا ٢٠ أو ٣٠ شخصا ، تحدث الشيخ خلال تناول الطعام ، وقال : " سيدى الطبيب إنى أرى التقيد بوصيتكم واجبا شرعيا ، أفما يكفيكم أنى محروم من أجر القيام فى الصلاة .

إخوانى: إن لله سبحانه وتعالى علاقة خاصة مع عباده ، حتى الكافرين فضلا عن المؤمنين وتلك العلاقة هى التى جعلت القرآن يقول فى شأن

---

(1) كان من نوادر الرجال العاملين فى مجال الدعوة والتبليغ إخلاصا وفقها وسعة أفق ، نفع الله به فى اليابان وأسلم على يده عدد كبير من أهل البلاد، اشتغل مهندسا كبيرا فى مصلحة الهاتف الأتوماتيكى فى جدة ومات شهيدا فى حادثة سيارة وكانت وفاته فى ١٥ من شعبان سنة ١٣٨٣هـ ..

سيدنا يونس عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام : " فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ "[1] وضغط الشيخ على كلمة " مُلِيمٌ " فى الأداء ، وإذا كان هذا شأن علاقة الرب مع الكافرين فكيف بالمؤمنين ؟ ، واعلموا أن خدمة المؤمنين هى أصل العبودية ، إن العبودية الحقيقية هى الفوز بعز الذل للمؤمنين ، وذلك هو المبدأ الأهم الجذرى لدعوتنا ، وهو مبدأ سوف لايتنكر له رجل اجتهاد (العالم) ورجل تقليد (رجل الشارع) أو المادى (الذى لايهدف من كل عمل يقوم به فى الحياة إلا الحصول على المال والثروة ، وحطام الدنيا) ثم توجه الشيخ إلى الإستكبار والرياء ، وندد بهما ، ثم انفض المجلس .

ثم خرج الشيخ وقت الظهر متهاديا بين رجلين، ومعتمدا على عصا ، وجلس مستندا إلى المنبر وقال :

١ـ أيها الأخوة ! إننا لم ننحرف عن طريق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بل حدنا عنها كثيرا ، إن الحكومة والسلطة السياسية ليس مما يهدف إليه المسلم ، نعم ! لو فزنا بها من خلال سلوكنا على درب النبى لما برحناه ، غير أن ذلك ليس مما نجعله همنا وموضع تفكيرنا ، وإنما المقصود هو التضحية بالنفس والنفيس فى طريق الدعوة الإسلامية .

٢ـ واعلموا أن المساوىء التى تسربت إلى المسلم لايمكن القضاء عليها بتشهيرها ، والتنديد بها ، وإنما الطريق إلى ذلك أن ننمى فيه جوانب الخير المنقية ، ثم تزول المفاسد بنفسها .

ثم قامت الصلاة وأخذ الشيخ رجلان وأقاماه بيديهما وقضينا من عجبنا حين رأينا شخصا يقوم فى الصلاة باستقامة ويتم أربع ركعات فى تمام الهدوء ، ولايقدر على أن يبرح مكانه دون معونة أحد .

---

(1) سورة الصافات _ الآية 142.

وتوجه الشيخ إلينا بعد الصلاة قائلا : إنكم ما أتيتم للإستجمام والراحة ولا تضيعوا أوقاتكم ، إشغلوها بالذكر والتعليم ، إنكم أتيتم لمدة قليلة جدا ، إنها لاتكفى ، ثم قال فى إلحاح: لابد أن تحضروا للمرة الثانية لوقت أطول، وبجماعة كبيرة العدد ، إنكم فى حاجة إلى إقامة طويلة ههنا .

توجه بعد الصلاة إلى حجرته معتمدا على رجلين ، ووزع الحاضرون بين طائفتين، طائفة مثقفة بالثقافة العربية ، أما الطائفة الأولى فتليت عليهم أحاديث من كتاب الإيمان ، وكانت المذاكرة حولها ، والطائفة الثانية ، فقرئت عليهم كتب أردية فى التعليم والتربية ، وعلمنا فيما بعد أن تلك المقررات الدراسية والتعليمية لابد أن يتمها كل الحاضرين فى المقر الدعوى .

وتوجهت جماعة "بشاور " فى الليل إلى "بهاركنج " ـ حى من أحياء مدينة دهلى ـ وقامت بالجولات الدعوية ، وقضت الليل هناك .

وكانت قبل الظهيرة مذاكرة الحديث النبوى، وكانت لذيذة مثيرة، وكان الشيخ نشيطا عند تناول الشاى ، وقال يخاطبنى: ياأخى لابد أن توفد جماعة وفيرة العدد، إن عملا تافها من العمال الدنيوية لايمكن القيام به دون تعلمه حتى السرقة، لابد أن يتعلمها المرء على أستاذ ولو راح يقوم بعملية السرقة بدون أن يتعلمها ، لوقع فريسة القبض ، وأخذ على غرة ، فكيف بعمل فى غاية الدقة والأهمية كالتبليغ ، ثم قال فى حنان : أفلا توفد الجماعة ؟ فقلت : ياسيدى لو ذهبت جماعة من دهلى إلى " بشاور " وعملت بها ، لأقبل الناس على هذه الدعوة فى يسر وسهولة .

فقال : أكتبوا إلى فلان وفلان أن يأتى بالجماعة إلى مدينتكم، وظل الشيخ مشغولا ذلك اليوم بعد الظهر فى تكوين الجماعات، وإيفادها، وتقديم توجيهات وإرشادات مما يهمها .

وبعد صلاة الظهر كانت مذاكرة الحديث ، الحبيبة الأثيرة ، وتلا علينا الأستاذ واصف أحاديث من كتاب الجهاد .

وخرجت الجماعة الدعوية فى الساعة الخامسة مساء كالعادة ، لتقوم بالجولات الدعوية .

فى ١٣ أبريل سنة ١٩٤٤م ، تحدث الشيخ فقال : إن سيدنا محمد النبى الأعظم قد جاء بشريعة كما جاء آخرون من الأنبياء بشريعة ، وأن إنجيل سيدنا عيسى لم ينسخ التوراة ، وغنما عدل فى أحكامها ، ولكن القرآن الذى نزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام نسخ جميع الكتب ، وأن اتباعها اليوم مباشرة لايجوز .... والشيىء الذى يمتاز به سيدنا النبى صلى الله عليه وسلم هو أسلوب التبليغ وطريق عرض الدعوة ، إن الأنبياء الآخرين بعثوا وسلسلة النبوة متتابعة ، وبعثة الأنبياء لم تتوقف فلم يحتاجوا إلى تلك العناية التى لازمها سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، بحكم انتهاء سلسلة النبوة بعده ، وتحمل أمته بعده للقيام بمسئولية الدعوة والتبليغ ، فكان يبعث أصحابه جماعات لتعليم أحكام الدين ، ونحن بأمس الحاجة اليوم ، إلى أن نحيى هذا الطريق للدعوة والتبليغ .

ثم ألقى الشيخ ضوءا على مسألة " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" [(1)] وقال: لابد أن نضع ذلك فى الإعتبار فى المعاملات ، والعلاقات الدنيوية ، حتى العلاقة مع الوالدين ، والمرشد والمربى ، والأستاذ .

والتفت إلى الأستاذ إحسان الله الندوى [(2)] ، وقال : لابد أن تعلم ـ أيها الأستاذ ـ أن هذا العمل جوهر من جواهر القرن الأول ، ولابد أن

(1) حديث شريف وقاعدة أصولية تنصح بأن الطاعة واجبة من الصغير للكبير ومن الإبن تجاه أبيه ووالديه والكبر إلا إذا كانت المعصية لله فساعتها لاتجوز الطاعة تحت قاعدة لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

(2) كان من خريجى دار العلوم ندوة العلماء ، ومن الشباب الصالحين العاملين توفى فى بلده فى الحدود الشمالية الغربية .

تضحوا فى سبيل ذلك بأنفسكم وأموالكم ، وستنالون بقدر التضحية ، وتجدون بقدر الإنفاق ، إن هذه القصص والأحاديث التى تسمعونها كمثل الذى ينظر إلى الفواكه فى بستان غيره ، وغنما السرور الحقيقى أن يثمر بستانك ، وأن توجد الفواكه فى حديقتك أنت ، وذلك ما لا يحصل بدون الإجتهاد والتضحية .

وأمطرت السماء وقت العصر مطرا غزيرا ، وأجل الأصدقاء برنامج الجولة اليوم ، ولكن الشيخ خرج وقت العصر من حجرته ن وأبدى كراهيته لهذا التأجيل، وتحدث عن مجهودات الميواتيين فى سبيل التبليغ ، وقال إن الميواتيين محسنون إليكم ، حيث دلوكم على الطريق الصحيح ، ثم دعا ميواتيا فى غاية السذاجة ، وأدنى مجلسه، وقال : لما قلت لهذا للمرة الأولى : رح وقم بعمل التبليغ ، فقال ـ بصوت منكسر ـ إنى لا أدرى ماهو " التبليد " فقلت : غذهب وعلم الناس الكلمة ، فقال : إنى لاأعرف الكلمة فكيف أعلمها الآخرين ؟ ، فقلت له : إذهب إلى الناس ، وقل لهم : أيها الأخوة أنظروا إلى قد بلغت إلى هذه السن من عمرى ، وما عرفت الكلمة لأنى ما تعلمتها من أحد ، إخوانى أوصيكم أن تتعلموا الكلمة من أحد ، ولايكونن مصيركم مصيرى .

وقد فعل حديثه فعله فى القوب ، زخرجت الجماعة بعد صلاة العصر فورا ، وكان من فضل الله أن توقف المطر مع خروجنا ، زتلطف الجو ، وقصدنا قرية على بعد نصف ميل ، وقمنا بعمل التبليغ حتى المغرب ثم صلينا المغرب وعدنا .

يتجمع فى المقر الدعوى ليلة الخميس خيرة الناس من مدينة دهلى ، وكان التجمع حاشدا ، والمجلس مشهودا ، رغم نزول المطر فى النهار

ووجدنا معظم الحاضرين مشغولين بالذكر والتهليل والتسبيح وقت السحر وصلى بالناس الفجر مرافقنا الشيخ إحسان الله على أمر من الشيخ ،

وكان فى مجلس الشاى ٥٠ أو ٦٠ شخصا ، وتحدث الشيخ ، فقال :

١ـ إن لتلاوة سورة قصيرة كالفاتحة فى الصلاة أجرا ، ليس لتلاوة كل القرآن خارج الصلاة ، أما الجماعة التى تدعو الناس إلى الصلاة فلا يستطيع أحد أن يقدر ما لها من أجر جزيل عند الله ؟ وكل عمل له تأثيره فى أوانه ومكانه ، وكذلك للذكر خلال الجهاد (محاولة نشر الدين) من الجر ماليس له قابع فى الزوايا ، أو ناحية البيت ، فأكثروا من الذكر .

٢ـ إن هذه الحركة ليست إلا عبارة عن العمل بقوله تعالى " انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا "(1) ، ولابد من التقيد بالمبادىء فى هذه الدعوة .

٣ـ إن الشيطان يقيم حواجز من نوعين أمامنا : " حواجز الظلمة " أعنى أنه يغرى النفس بالشهوات والأهواء ، ويقدمها إليها حلوة لذيذة ، فتهفو إليها ، و " حواجز النور " أعنى انه يصرف الإنسان من عمل مهم إلى غير المهم ، فيشغل بالنوافل وقت الفرائض ، وترضى النفس أنها مشغولة بالخير ، وكذلك يصرف المرء من مسئولية الحاضر إلى مسئولية المستقبل ، وإن مسئولية الحاضر الكبرى هو التبليغ ، وأن التقصير فيه لايعوض بعبادة أخرى مهما كانت جليلة .

وتقرر أن ترتحل جماعة بشاور مع جماعة دهلى إلى سهارنفور ، للقيام بالجولات التبليغية ، وذلك غدا وقت الصباح وذهبنا إلى الشيخ نستأذنه للرحلة ونسلم عليه ، فقال : لماذا ما جئت بالأطفال ؟ قلنا : إنهم لايفهمون الدعوة والتبليغ ؟ فقال : إنكم عاجزون عن تفهيمهم ذلك ، ولكنكم تحملونهم المسئولية ، ولا حاجة إلى الفهم والإساغة ، وإنما الحاجة إلى أن يسمعوا ذلك بآذانهم ، ويروه بعيونهم ، ويشعروا به بقلوبهم ، وذلك هو المقصود من الآذان فى آذان المولود حين الولادة .

---

(1) سورة التوبة ــ الآية 41 .

ثم أكد علينا بملازمة الذكر وقال إن الذكر كالحصن الحصين ، تتقون به غائلة الشيطان ، ومعركة كيده ، (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [1] .
وظل يتحدث عن فضائل الذكر إلى ان ارتحلنا ...." [2].

الإنهاك فى أمر الدعوة والتبليغ :

ونريد أن نسرد هنا قصصا ـ كما رواها فضيلة الشيخ محمد منظور النعمانى مدير مجلة "الفرقان " الشهرية ـ تدل على مدى انهاكه فى أمر الدعوة والإنقطاع إلى التبليغ ، رغم اشتداد المرض ، وتهدم جسمه ، وانهيار صحته كليا زاره فى أواخر شهر أبريل الشيخ السيد عطاء الله البخارى [3] وكانت للمرض نوبتان شديدتان عليه ، زادتاه تهدما وضنى ، وصار لايستطيع أن يتكلم عدة دقائق، ولما علم بقدوم السيد عطاء الله طلبنى وقال إنى بأمس حاجة إلى الحديث معه، ولكن بطريقة هى أن تدنى سمعك غلى فمى ، وتنقل إليه ما أقول لك، على كل فطلب الشيخ عطاء الله إلى داخل الحجرة ، وبدأ الحديث معه على هذا النحو ، وما غن مضت دقائق حتى دب فيه دبيب القوة والنشاط ، وخاطبه مباشرة واستمر يتحدث معه إلى نحو نصف ساعة .

وفى نفس هذا الشهر المت به نوبة شديدة ، وإغفاءة طويلة إستمرت إلى نحو ساعتين حتى انطبقت أجفانه ، واعتقل لسانه ، وفتح عينه بعد وقت طويل ، وهو يقول : " الحق يعلو" "الحق يعلو " "الحق يعلو

---

(1) سورة الرعد __ الآية 28.

(2) مقتبس من المذكرة التى سجلها الأستاذ أرشد الباكستانى.

(3) هو الخطيب، المصقع، وقائد جماعة الأحرار، مثل دورا كبيرا فى الرد على القديانية وبث روح الكفاح ضد الحكومة الإنجليزية ،توفى فى ٩ ربيع الأول سنة ١٣٨١هـ (٢١ أغسطس ١٩٦١م

ولايعلى عليه " ، ثم ملكته نشوة عجيبة وبدأ يتغنى ثلاث مرات بالآية من قوله تعالى : " وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ "[1]، ورفع صوته بالتلاوة وكنت فى المسجد ، فأتيت إلى باب حجرته جريا ، وهو يسأل الحاضرين حوله عنى ، أين هو ؟ ، فدخلت عليه ، فقال :" ياأستاذ ! إن الله قد وعد بإتمام هذا العمل وسيكون نصر الله حليف الحاملين إلى نهاية المطاف ، ولكن الشرط أن تطلبوا منه العون والنصر على إيمان كامل بوعده بالنصر ، ولايكونن منكم تقصير فيما يسعدكم من بذل المجهود " .

وما إن أتم هذه الكلمات حتى انطبقت عيناه ، وبعد إمعان عميق فى السكوت ، قال :" ياليت العلماء قد تبنوا هذا العمل ، ثم ارتحلنا نحن ".

ومما يدهش أنه بقدر ماكان يزداد انهيارا وضعفا ، يزداد رغبة فى إحياء الدين ، وحماسا للدعوة ، وعاطفة لإعلاء كلمة الله ، وعاش الشيخ شهورا طويلة فى حالة من الضعف والهرم لا تسمح للشجعان الأبطال إلا بأن يستجموا واجمين صامتين ، لكنه لم يره الناس طول تلك المدة إلا فى ثلاثة أحوال :

١ـ إما وهو غارق فى التفكير فى صالح هذا العمل ، أو يتضرع له إلى الله تضرع المنكسر القلب ويطلب من ربه ـ للعاملين ـ الإخلاص والثبات والإستقانة والتوفيق لاتباع الطريق النبوى والإلتزام للمبادىء ، التى ترضى الله ورسوله ، ولهم ولنفسه الإستجابة والرضا والقبول بقلق واحتراق قد يبكى الحاضرين .

٢ـ أو يعطى الأحكام والتوجيهات فى هذا الصدد .

حتى أن الطبيب الذى يزوره لاستطلاع حاله يعرض عليه أولا دعوته ، ثم يفسح له المجال للكشف والإستطلاع ، وقد أحضر يوما المفتى محمد

(1) سورة الروم - الآية 47.

كفاية الله ـ رحمه الله ـ طبيبا شهيرا بدهلى ، فتعرض له فى هذا الأسلوب اللبق الظريف :

" سيدى الطبيب إن لديك علما يستفيد منه الخلق ، لكنه فن من الفنون ، بعث الله سبحانه وتعالى سيدنا عيسى عليه السلام لكى يبهره بمعجزات (كإعادة البصر إلى الأعمى ، وصحة الجسم إلى المجذوم ، وإحياء الموتى) ، وأعتقد أنه لايخفى عليكم أن العلوم الروحية التى أكرم بها سيدنا عيسى كانت تفوق هذه المعجزات الظاهرة مرات عديدة ودرجات كثيرة ، لكن العلوم الروحية والأحكام الإلهية التى بعث بها سيدنا محمد خاتم الأنبياء وسيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم ، قد نسخت علومه الروحية والشريعة التى جاء بها وجعلها كاسدة لاتغنى غناءا مما يستطيعون أن تقدروا منه مدى الخسران الذى يلاحق المعرضين عنها ، وإن رجائى من الناس أن يستغلوا هذه النعمة ويعرفوا قدرها وإلا فإنهم فى خسارة أى خسارة " وما كان يسمع شيئا لايتصل بهذا الموضوع فضلا عن الحديث فيه ولو تعرض أحد من الحاضرين والواردين بشيء آخر ، لما تحمله ومنعه فورا ، ولو استطلعه أحد من الخدم حاله ، قال : " إن الصحة والمرض يلازمان المرء ، وهو يتقلب بينهما فما معنى السلامة والعافية ، أو عدم ذلك فى هذا الشأن ؟ إنما السلامة والعافية أن نؤدى الوظيفة التى من أجلها خلقنا ، حتى ترتاح روح النبى صلى الله عليه وآله وسلم [(1)] " .

وأتاه عدد من أقربائه من قريته : "كاندهلة " يزورونه ويعودونه ، فقال لهم : " ما الذى أقدمكم ؟ فقالوا : لنعودكم ، فنطلع على أحوالكم ، فقال : ياللعجب ! جئتم من "كاندهلة " لتطلعوا على أحوال من خلق للفناء ، ولكنكم لاتدركون دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذى بعث ليبقى حيا

---

(1) نقلا عن مجلة " الفرقان " الشهرية عددى رجب وشعبان ١٣٦٣هـ.

خالدا ، وتتوجه الضربات للقضاء عليه ، ولا تتداركونه ؟! "[1] .

وقد ألقى كاتب هذه السطور والشيخ محمد منظور النعمانى بعد صلاة فجر أحد أيام الجمع حديثا موجزا ، ورقت قلوب الحاضرين ، واغرورقت عيونهم بالدمع حينما تذكروا أن هذا الموقف كان يقفه الشيخ محمد إلياس ، ويتحدث إليهم ، وعيل صبرهم حينما أشار الخطيب إلى المكان قائلا : أبقى الله هذا المنبر والمحراب معمورين بالمصلين والدعاة والركع السجود .

وكان من عادة الشيخ أنه يتحدث إلى الناس ليالى الجمع بانتظام ، وكان الناس يحتشدون هذه الليالى بصورة خاصة من مختلف أحياء المدينة وأرجائها ، وقد يتوافدون من خارج المدينة ، وزادت نسبة الحضور فى أيام المرض ، الذى توفى فيه ، وكان لايقدر على الحديث بنفسه ، ولكنه ما كان يرضى أن يعودوا مجردين كما جاءوا ، ويكون مقدمهم لزيارة شخصية وحدها تاركين راحتهم ووظائفهم ويرجعوا إلى بيوتهم بعد إلقاء التحية والمصافحة ، وغمز الرجلين واليدين ، وكان يرى خيانة أى خيانة أن يوضع حبهم فى الله فى غير موضعه ، أو يترك وشأنه ، يضيع هدرا ، فكان يهفو إلى أن يشغلهم بوظيفة دينية ، وتعرض عليهم تلك الدعوة الدينية التى انطلقت من فوق هذا المنبر والمحراب وما كان يتحمل تأجيلا فى ذلك .

جمع الناس فى إحدى ليالى الجمعة على سقف المسجد ، وأمرنى الشيخ بالحديث إليهم ، وتأخر الحديث لبعض أسباب ـ دقائق ـ فتتابع رسله يقولون : إن الشيخ يأمر بالبدأ فى الحديث دون أى تأجيل ، فإن كل دقيقة تمضى عليه كانت ثقيلة أى ثقل ، ولم يهدأ إلا حين أخبر بأن الخطبة المأثورة ـ التى تفتح بها الخطب الدينية ـ تتلى .

(1) مذكرات أهل الدعوة بقلم الستاذ أرشد.

الشهر الأخير :

وازدادت صحته انحرافا ، وقوته انهيارا ، وجسمه تحطما ، فلم يعد يستطيع الصلاة قائما ، فكان يوضع سريره فى جانب الصف ، ويصلى مع الجماعة .

وكان الشيخ ظفر أحمد التهانوى مقيما فى هذه الأيام بنظام الدين ، يشرف على معالجة الشيخ ويلقى الأحاديث فى الإجتماعات والحفلات فى أغلب الأحيان ، وكان الشيخ مسرورا ومرتاحا بإقامته .

وفى ٢٨ من جمادى الآخرة ـ ٢١ يوليو قدم الشيخ محمد زكريا ، وذلك بمناسبة عقد الحفلة السنوية فى مدرسة "معين الإسلام " ب " نوح " وفى ٣٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٣هـ ـ ٢٣ يونيو سنة ١٩٤٤م ـ وكانت الحفلة الأولى التى لم يشهدها الشيخ .

وفى صباح ٢٣ يونيو ، ارتحلت جماعة الخطباء والمبلغين والمسئولين من نظام الدين إلى " نوح " من بينهم مولانا محمد يوسف بن محمد إلياس أمير الجماعة يومئذ ، والشيخ ظفر أحمد ، والشيخ محمد منظور النعمانى ، وغيرهم من رفقة جماعة " لكهنئو " وقطعوا الطريق فى الذكر والتذكر ، والمذاكرة العلمية ، ووصلنا إلى " نوح " فى نحو الساعة الثانية ، وافتتحت الحفلة مباشرة ، وكانت غراس الشيخ أمامنا مزهرة ، مثمرة ، خضراء ، نضرة ، أما البستانى الذى غرسها بيديه ، وسقاها بدمه وعرقه ودموعه ، فلم يكن موجودا .

وبدأت الجلسة فى الليل وفوجىء الحاضرون خلال استماعهم إلى الحفلة بوقوع حريق فى رواق مدرسة انجليزية ثانوية فى " نوح " وما تغلبوا على المشكلة إلا بعد ما استنفدت جهودهم الطويلة ، وشغلوا به طويلا عن الحفلة ، وتضرر جزء كبير من البناء .

وليلة رأينا ناحية المسجد ـ التى كان يعمرها الشيخ ، ويكون فيها سريره

، ويتساقط فيها الميواتيون عليه تساقط الفراش على النور ـ مقفرة ، وكان الجو حارا فى الأيام الأخيرة من شهر يونيو الحار ، ولكن جو " نوح " كان باردا ، ولم تكن القلوب تشعر بتلك الحرارة التى كان يشعر بها عندما تستمع إلى أحاديث الشيخ ، وتشهد مجلس دعاء الشيخ بعد الصلوات فى اضطرار ، وابتهال ، وإنابة تامة ، ينسى فيها نفسه ، وتسود روح القلق والإضطراب ، والتوجع التى كانت ميزته وتزداد فى أيام نزوله ب " نوح " .

وبعد العودة من " نوح " استمع الشيخ إلى إجراءات الحفلة ، ولما علم بوقوع الحريق ، قال : إنكم قصرتم فى الذكر ، فوجد الشياطين فرصة إيقاع الشر .

وكان يشعر شعورا قويا بأنه على وشك الإرتحال ، ويقرب موعد غروب شمس الحياة ، وقد يبدى عن شعوره هذا بالبحث على زيادة مجهودات العاملين .

وجاءه الشيخ ظفر أحمد يستأذنه للعودة ، فقال له : كنت وعدتنى بمنح أوقاتك للإنشغال بالدعوة ، وما وفيت بالوعد حتى اليوم ، فقال :

ياسيدى إنها أيام حر شديد ، وساحضر فى عطلة رمضان المبارك ـ إن شاء الله ـ وأصرف فى ذلك وقتا لابأس به ، فقال إنى لأرجو أن أدرك شعبان فضلا عن رمضان ، فقرر الشيخ ظفر أحمد توسيع مدة إقامته ، وحل عزمه على العودة. فقال لأحد من الحاضرين : قد قرب موعد الفراق ، ولم يبق إلا عشرون يوما ، وقد كان ، فلم تمض العشرون يوما التى قالها حتى لحق بربه ، رحمه الله .

وقال لكاتب هذه السطور أيضا مرات عديدة إنى لأرجو الصحة من هذا المرض ، ولكن الله فعال لما يريد ، وهو على كل شيىء قدير .

عدم ارتياحه إلى العلاقة الشخصية المحضة :

وكان يغضب كثيرا إن تفرس من أحد أنه لايحب إلا شخصيته ، وليس له إلا علاقة شخصية معه ، ويقول : إنما الأصل أن تكون العلاقة مع الدين ، وما كان يقبل خدمة من كان يكتفي بخدمة شخصه دون دعوته، ويحبه دون حركته، فقد جلس يوما عنده ميواتى ، ووضع الدهن على رأسه، بعد دقائق عرف الشيخ إنه الشخص الذى لم يسهم ولا مرة واحدة فى عمله الدعوى ، فقال: إليك عنى، فإنك ما ساهمت مرة ما فى العمل الدعوى .

وكان هناك رجل عجوز ، معجبا بالشيخ إعجابا كبيرا، يحبه من أعماق قلبه ، جاء يزوره يوما، فقال للشيخ محمد منظور النعمانى: إنه يحب شخصى حبا لامزيد عليه، ولكنه لم ينزل عند وصيتى يوما، ولم يقبل دعوتى، فاخل به أنت، وقل له أن يسهم فى ذلك، وأما بدون ذلك فإن قلبى يتأذى ويتضايق صدرى، فخلا به الشيخ محمد منظور النعمانى، وفاوضه، فقال جئت عازما على الدخول فى العمل، فهرول إلى الشيخ وأبلغه الخبر، فتهلل وجهه وقبل يديه .

إمتداد الدعوة فى المناطق النائية :

كانت ترد الرسائل من المناطق الأخرى البعيدة تبشر بانتشار الدعوة ، وتوفر السهولة للعمل فى الأمكنة التى كانت صماء بكماء ، وأنه انبعث النشاط والحماس فى كثير من المواطن وبذرت بذرة العمل فى تلك الأيام فى بعض المناطق الجديدة ، فى "بهوفال " و " جى بور"و " مراد آباد" وغيرها .

النشاط الدعوى :

وكلما قرب اليوم المحتوم ، يزداد احتراقا للدعوة ، وحماسا لها ، ولا يرضى أن يرى أو يسمع شيئا لا يتصل بهذا الموضوع الأم ، وكان ـ على الرغم

من الإنهيار الكلى ـ يشرف على جميع النشاطات وهو رهين الفراش ، ويطلب أولى الأحلام والنهى مرات عديدة فى اليوم ، ويعهد إليهم بتوجيهات ووصايا ، ونداءات إلى الناس ، وكان يراقب دائما أن ينصرف أحد لحظة فى حلق الدرس والذكر والتعليم أو مجالس الوعظ أو على موائد الطعام ، إلى شيء سوى الدعوة والتبليغ، ويوصى دائما بالإمعان فى الذكر والتعلم، والتبليغ ، ولا يستخدم الزجر والملامة، وإنما يوجه غلى الموضوع بالترغيب والكناية الحكيمة، والإشارة اللطيفة ، وقد يتحدث عن الأجر والفضيلة التى يحوزها المرء على هذا العمل ، حتى تميل النفس ، ويرغب القلب ، وتتحرك الإرادة .

وكان ينتظر بفارغ الصبر أن يستمع إلى مداولات الحفلات، وكانت هناك حفلة فى المدينة ، ولم يتمكن المسئولون أن يصلوا إلى نظام الدين فى الليل ، لأنهم لم يجدوا مركبا ، فسأل عنهم مرات ، وما إن وصلوا فى الصباح حتى استسمعهم جميع التفاصيل بفصها ونصها .

وحدث مرة أن تعرض الناس فى حفلة الدرس والتعلم لموضوع تاريخى ، أفاضوا فى الإنتقاد على السلاطين المسلمين فى تقصيرهم فى دعوة غير المسلمين إلى الإسلام وتوجيه ذلك لهم ، وبذل الجهود فى ذلك ، ولم ندر كيف بلغ ذلك الشيخ حتى وجه رسولا يامرهم بأن يغيروا الموضوع .

وكان يوصى فيما يتعلق بالخطب والأحاديث الدينية أن تكون على مستوى "ماقل ودل " وأن تفوق الكيفية الكمية، وتمثل الكيفية التى كانت روح خطب النبى "كانه منذر جيش ، يقول ك صبحكم ومساكم " .

وما كان يرضى أن تكون الخطب والمواعظ محتوية على القصص والأمثال والنكت ، والأبيات ، وأن يستخدم الخطيب التنويع والإطالة ، والتفصيل فى الحديث ، وكان يقول : إنى لاأريد الإكثار من الخطب، لأن المدارس والحفلات تموج بها من هناك ، كان المرضون يحاولون أن لايبلغه صوت

الخطيب ، حتى يتم حديثه ، ولا يتأذى الشيخ .
وكان هناك تجمع كبير فى نظام الدين فى صباح إحدى الجمع ، وانتدب كاتب هذه السطور للحديث، فبدأ الحديث على أسلوبه المتبع لدى الخطباء، ونوع الخطاب ، وفضل الكلام، وما أن مضت ساعة حتى صدر أمر الشيخ بأن أوجز الحديث ، وأتى على أصل الموضوع .
ويتجمع الناس بعد العصر، وكان الشيخ يبعث نداء إلى الحاضرين ، يعرض عليهم ، واشتدت به الحمى يومئذ ، فلم يأمر بشيء، وأشار إلى الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى، أن أتحدث إلى الحاضرين ، ولكنى كنت خائفا مما حدث فى الصباح ، ولما أفاق سأل الحاضرين . لماذا لم يكن الحديث اليوم ؟،ولماذا أضيع الوقت هدرا ؟ .فقيل: يا سيدى إنكم ما أمرتم اليوم بشيء، فقال: لماذا لم تسألونى ؟ قيل: كنتم فى حمى شديدة . فقال : لماذا آثرتمونى على الدين ؟ ولمذا لاحظتم عدم إزعاجى ؟. وكنت يومئذ متضايقا، صليت المغرب دون لذة وسرور ، تساورنى الأفكار، وتزاحمنى الوساوس وجمد نشاطى، وما أن سلمت، وانتهيت من الصلاة، حتى طلبنى ، فوضع يده على رأسى فى حنان الأم ، وعطف الأب، وقال: لماذا أسقطت همتك وفتر نشاطك ؟ ... تجلد ، وكن قوى الأمل ، بعيد الهمة .

الأمور التى كان يعنى بها عناية خاصة فى آخر أيامه :

وهناك أمور كان يبذل عليها من العناية ما لم يبذله عبر حياته ، التحريض على الإشتغال بالعلم والذكر ، مخافة أن لا تعود هذه الدعوة ، جسدا بلا روح ، وخطا بلا وضوح ، ومجموعة من القواعد والأشكال الفارغة ، كالحركات المعاصرة الكثيرة ، وكان خائفا حذرا من ذلك ، يحذر من هذا المصير المشئوم تحذيرا ولا تحذير بعده ، فكان يقول دائما وعلى لسان إخوته وزملائه : إن العلم والذكر هما عجلتا هذه الحركة ، لايمكن أن تندفع

إلى الأمام خطوة بدونهما ، وجناحان لا يمكنها أن تحلق بغيرهما ، والعلم والذكر كل منهما يلازم أحدهما الآخر ، وكل منهما فى حاجة إلى آخر ، فإن العلم بدون الذكر ظلمة وضلال ، والذكر بدون العلم فتنة وفساد ، وهذه الحركة بدونهما مادية خالصة .

والترحم والتوجع على الطبقة المتخلفة من المسلمين دينا وعلما وخلقا ، ومن أجل القيام بعملية التبليغ والتعليم فيهم أقام كُتَّابا على جانب من الشارع بجوار المسجد ، وكتابا آخر[1] على مفترق الطرق ، ووفر الطرق ، ووفر فيهما الشيشات، التى كان يدفنها أهالى تلك المنطقة، وأمر جماعة من الميواتيين ومبلغى مدينة دهلى أن يجلسوا فيهما ، ويجذبوا المارة من المسلمين فى عطف وشفقة ، ويكرموهم بالشيشة وما إليها ، ويطلبوا إليهم بحكمة دعوية ، أن يسمعوهم كلمتهم ، ويحرضوهم على تعلم الدين وتشرب الإيمان ويوصوهم بالخير والصلاح ، وكان الشيخ يهتم بهذا الأمر اهتماما كبيرا ، ويسأل عن ذلك دائما ، ويؤكد على توفير الشيشات وما إليها ، ويذكر مافى هذه الحكمة الدعوية من أجر وثواب عند الله الكريم ، وكانت الأيام هى الأيام التى يزور فيها جماهير المسلمين الجهلة ضريح الشيخ الكبير معين الدين الجشتى[2] رحمه الله ، فى أجمير ويعرجون فى العودة

---

(1) وليكن ملحوظا أن المراد من الكُتاب ليس الكتاب المعروف، الذى يشرف عليه " فقيه " أو " عريف " وإنما كان هذا الكُتاب عبارة عن فراش من مسوح تحت شجرة، يجلس عليه جماعة من المبلغين ، يعملون على تبليغ الدينوتعليمه على أسلوب أصحاب الصُفة النبوية، على صاحبها الصلاة والسلام ، كانوا يجذبون المارة بجراء الشيشة التى كانوا يدمنونها، ويلقنونهم الدين، وهذا الكُتَّاب يهدف أصلا إلى ذلك ..

(2) هو الشيخ الإمام الزاهد الكبير والداعية العظيم الحسن بن الحسن السنجرى شيخ الإسلام معين الدين الأحمدى (٣٧هـ ـ ٣٢٧هـ) أسلم على يده خلق كثير لايحصى لجد

على دهلى ويزورون ضريح " نظام الدين أولياء " [1] وغيرهم من الصالحين فى دهلى .

وضريح نظام الدين يقع بجوار المقر الدعوى ، وكان هؤلاء الزوار يتوقفون فى الطريق إلى الضريح ، يستجمون تحت الأشجار الوارفة الظلال ، وينفضون متاعب الرحلة عن نفوسهم ، ويصيبون من الشيشة ، ويرضون حاجتهم إلى الشراب البارد العذب ، فيستلفتهم المبلغون ، وينتهزون هذه الفرصة التى أتاحها الله لهم ، ويعرضون عليهم رسالتهم فى لين وعطف ، وحب ، وعلى ذلك فاستطاعوا أن يعرضوا الدين على مئات من المسلمين ويبذروا بذرة الإيمان واليقين فى قلوبهم ، والله هو الذى يعلم كم من عباده الحائدين عن الطريق المستقيم اهتدوا إليه عن هذا الطريق .

والعناية بتعليم الطريق الشرعى الصحيح للإنفاق فى سبيل الله ، واداء الزكاة ، فلم يتمكن الشيخ من العناية اللائقة بهذا الجانب فى حياته ، كما عُنى به فى هذه الأيام ، كان يتوافد التجار والأثرياء فعدد كبير فكان الشيخ يكرر بيان هذا المعنى بلسانه ، وبلسان غيره من الزملاء ، يقول : لابد أن يهتم المرء بأداء الزكاة من أمواله ، اهتمامه بالعبادة ، وأن يبحث عن مستحقيها بنفسه ، وأن يكون هو المدين بأدائه ، وقد القى الشيخ ظفر أحمد التهانوى أحاديث فى هذا الموضوع .

وعد ، مات ودفن بأجمير (ولاية راجستهان 9 يرجع للتفصل إلى كتاب نزهة الخواطر ج ١..

(1) هو الشيخ الإمام العالم الكبير نظام الدين محمد البخارى البهابونى انتهت إليه الرئاسة فى دعاء الخلق إلى الله (٣٣٣ ـ ٧٢٥ هـ) (نزهة الخواطر ج ٢).

وكذلك الإهتمام بالبريد ، فقد كان يأمر بتلاوة ماورد منه فى المساء وقت الصباح على الحاضرين ، إذا كان يتعلق بالدعوة والتبليغ ، وأن يجرى التشاور معهم فيما يتعلق بالرد على هذه الرسائل ، ويعرض عليهم ما يشتمل عليه الرسائل ، من القضايا والأحوال ، ويستوحى لهم الحل والرد ، وقبل تلاوة الرسائل عليهم ، يلقى إليهم حديثا عن غرض العرض ، وأنه إنما تعرض عليهم حتى يتعودوا على التفكير فى القضايا الدينية وأن يصرفوا قواهم الفكرية ـ التى لاعهد لها حتى الآن بالأمور الدنيوية والشئون المادية ـ إلى المسائل التى تتصل بالدين والعقيدة ، والدعوة والرسالة ، وربما كانت هذه الرسائل الدعوية تحمل مواد تمس فيها الحاجة إلى الإستشارة مع المبلغين المحنكين من الميواتيين وسكان مدينة دهلى ، فكانوا يستخرجون لها الحل فى ضوء ما عاشوه من تجربة طويلة فى حقل الدعوة وعرضها ، فربما كانت الرسائل تحمل الحديث عن عوائق فى طريق زرع الدعوة فى مكان ، فكانوا يضعون الأصبع على مواضع الضعف إذا رأوا تقصيرا ، وقد تحمل طلبا لمزيد من وفود المبلغين وجماعات الدعاة ، فيفكرون فى الأمر ، ويتخذون له التدابير .

وقد كانت هذه الرسائل تعرض فى البداية على مسمع من الشيخ ، فقد يعطى توجيهات بلسانه مما يزيد ضعفا وتعبا ، فبدأوا ـ أخيرا ـ يقومون بهذا الأمر على بعد منه ، وكان هذا الأمر موكولا إلى كاتب هذه السطور ، وقد يطلبنى إذا وجد فرصة فى النهار ويسألنى عن نوعية مواد الرسائل ، وماتوصل إليه الأخوة من الحل والرد ، فكان يصلح ويوجه ، ويرشد ، إذا رأى حاجة إلى ذلك .

وعلى ذلك فكان يدرب الزملاء على القيام بالدعوة من بعده ، ويعلمهم آدابها وسليقتها ولاغرو ، فقد كانت توجيهاته هذه ، وحكمته تلك ذات إثمار ناضجة حلوة .

الحفلات الدعوية فى دهلى :

كان يطلب دائما إلى تجار دهلى أن يعقدوا حفلات دعوية ، ويطلبوا فيها الكلمات من الشيخ ظفر أحمد التهانوى ومن العلماء الآخرين ، فعقدت حفلات كثيرة فى أرجاء المدينة بالإضافة إلى الحفلة المستقلة التى كانت تعقد كل يوم أربعاء بالجامع الكبير الذى بناه الإمبراطور المغولى شاه جهان ، كانت الحفلات فى مساجد المدينة الرئيسية فى أحياء مختلفة ، وكان الشيخ يضع فى الإعتبار بصورة خاصة ، الجولة والحفلة التى كانت تعقد كل يوم أحد فى مسجد على شارع مشهور فى المدينة ، فقد كان الشيخ يعتبر هذا المسجد مقرا تبليغيا لمناطق " نيودهلى" ، وقد كان يسهم فى هذه السعادة الكبرى فى أغلب الأحيان كاتب هذه السطور ، والأستاذ محمد معين الندوى (نائب أمين عام ندوة العلماء بلكهنئو حاليا) والأستاذ واصف على البخارى .

ازدياد الزحمة والتجمع :

ويزداد التجمع فى نظام الدين مع الأيام ، قد بلغ العدد إلى مائتين أو ثلاث مئات أو أكثر ، وتغطى الزحمة الإنسانية كل ناحية من نواحى مبنى المقر والمسجد وفى الصلاة يزداد الجو منظرا بهيجا وبهاءا . لو أبطأ أحد قليلا ولو أغفل قليلا ، لما وجد موضع ذراع يمتد فيه من الليل .

وقد ألقى نظرة على هذا التجمع المبارك ، وأقول فى نفسى : إن هذا الربيع الإيمانى ، والبهاء النورانى ، والنشاط الدعوى ، كله يرجع الفضل فى ذلك إلى هذا الشيخ العجوز ، الذى أصبح جليس الفراش ، ورهين الدار ، وهو مشرف على الموت ، يعدد أنفاس حياته ، يأكل مئات الناس من مائدته ، وهو يكتفى بما يسد رمقه ، من الدواء ، وباقل قليل من الغذاء ، أرى هذه الوجوه النيرة الخيرة ومناظر الركوع والسجود، ومشاهد الذكر والتلاوة ، وحلق الدروس والمذاكرة والإفادة والمناجاة مع الله فى الخلوات

، ووقت السحر ، وأقول فى نفسى أبقى الله على مجلسك معمورا يا مربى الجيل .

وقدم الشيخ محمد زكريا ومعه المربى الكبير الشيخ عبدالقادر الرائفورى لعيادته وقضاء بعض الوقت فيه .

الشائعة الكاذبة :

كان أهل المدينة على اطلاع متصل على أحوال الشيخ ، وكانوا يتوافدون إلى نظام الدين بالسيارات والحافلات ، وعربات الحصان ، ويرجع الذين وفدوا مساء وقت الصباح وبالعكس ، وكان الوافدون يطلعون الغائبين على الأخبار وعمت شائعة كاذبة عن وفاة ، لاندرى كيف عمت وانبثت كالبرق ، ووقعت على اهل المدينة كالصاعقة ، فتتابعت السيارات والعربات ، والدراجات إلى نظام الدين ، وبدا الناس يتصلون هاتفيا ، وهكذا تجمع آلاف من الناس على الرغم من الرد على الشائعة وألقى الشيخ محمد منظور النعمانى خطبة فى ضوء الآية الكريمة (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) ، كانت خطبة مؤثرة تدعوا الناس إلى التفكير ، ورأى استجابة دعوة الشيخ محمد إلياس فإنه إذا كان خبر وفاته اليوم كاذبا ، فقد يكون صادقا ، لأن الأجل لايؤخر ، (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ) [1].

الأيام الأخيرة :

فى الساعة الثانية عشرة ليلا فى الثامن من يوليو ، خرجت إلى مفترق الطرق أتجول ، ولما عدت فقال أول رجل لقيته : كان الشيخ يطلبكم ، وأرسل رجالا يبحثون عنكم ، فدخلت عليه عدوا ، وأدنيت سمعى إلى فمه ، فقال فى صوت مرتعش ما تبينته إلا بعد تكريره للكلمات ، فقال : قولوا

(1) سورة آل عمران.

للناس : أن يلازموا الذكر ويجالسوا الشيوخ عبدالقادر الرائيفورى ، العالم الربانى ، والمربى الكبير الذى جاء يعود الشيخ ، وذكر أشياء أخرى ما أحفظها اليوم .

وفى ليلة التاسع من يوليو مررت بحجرته قريبا من نحو الساعة الواحدة ، فرأيت الشيخ وحوله ممرضون ساهرون ، قد دخلت عليه ، وجلست فى ناحية ، وكان مغمى عليه ، فأفاق بعد قليل فذكر رجلا وقال : أفهل يبدأ العمل فى منطقته ، وكنت على بينة من الأمر ـ نعم إن شاء الله سيبدأ ، وهو صاحب كلمة مسموعة فى منطقته فسيكون لعمله تأثير كبير إن شاء الله ، فقال : إى والله إن أهل القلوب هم أصحاب كلمة مسموعة وأمر مطاع .

ومساء العاشر من يوليو أكد على العلماء أن يعملوا ، كل حسب مستواه ، فى مجال الدعوة والتبليغ ، وفى صباح الحادى عشر من يوليو شرب من ماء زمزم ، ودعا دعاء عمر رضى الله عنه :" أللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك واجعل موتى فى بلد رسولك" .

وفى نفس اليوم طلب رجلا ، وأمر أن يسال عنه عما إذا كان يعزم على القيام بهذا العمل فى قومه ، وما الإعدادات التى قام بها لذلك ، وقال يوما للطبيب الذى كان يداويه : أن جميع أعضاءه قد شلت ، وإنما يقوم بقوته القلبية ، وقال : لا تقيسوا على أنفسكم ، إن ماترون فيه من النشاط لايرجع إلى قوة الجسم ن إنما يرجع إلى القوة الروحية ، ولكن الناس لايدركون .

الليلة الأخيرة :

وبدأ يستعد فى ليلة الثالث عشر من يوليو للرحلة ، سأل احد الحاضرين هل الغد يوم الخميس ؟ فقالوا : نعم ، قال : انظروا فى ملابسى لئلا تكون نجسة ، فقالوا : إنها طاهرة ، ثم نزل من السرير ، وتوضأ ، وصلى

العشاء مع الجماعة فى داخل الحجرة ، وأوصى الناس أن يكثروا الليل من الدعاء والنفث عليه ، فقال : ليكونن اليوم عندى أناس يميزون بين فعل الشيطان وفعل ملائكة الرحمن ، ثم قال للشيخ محمد إنعام الحسن ما تمام الدعاء : " أللهم إن مغفرتك ....؟ " فذكر الدعاء بتمامه : " أللهم غن مغفرتك أوسع من ذنوبى ، ورحمتك ارجى عندى من عملى " ، وظل يردد الدعاء ، ثم قال : احب أن تغسلونى وتنزلونى من السرير ، واركع ركعتين ، سيكون لهما شأن .

وفى الساعة الثانية عشرة غشيته إغفاءة من الإغماء والإنزعاج ، فدعى الطبيب هاتفيا ، فحضر ، وأعطاه حبات ، وظل يردد طول الليلة : ألله أكبر ، الله أكبر ، وفى السحر طلب إبنه الشيخ محمد يوسف ، والشيخ إكرام الحسن ، وقال للشيخ يوسف : تعال نلتقى ، فلا بقاء بعد هذه الليلة ، فإنى مرتحل وانتقل إلى رحمة الله قبل آذان الفجر، انتقل المسافر المكدود ـ المجهود ، الذى ربما لم يكتحل عبر حياته بنوم هادىء ـ إلى نوم عميق ، لأنه قد وصل إلى منزله ومستقره " يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي " [(1)] وبعد صلاة الفجر نصب الناس ـ وهم مستعبرون منكسرون ـ الشيخ محمد يوسف خليفة له ، ووضعوا عمامته على رأسه.

الغسل والتكفين والدفن :

ثم غسله العلماء ، والفقهاء ، ولازموا فى عمليته جميع السنن والمندوبات ، وطار الخبر فى المدينة ، وتقاطر الناس ، وما إن مضت ساعات حتى كان الحشد هائلا ، الحشد الذى ما كان للشيخ المرحوم أن يراه فارغا مهملا ، عاطلا ، وأمر الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوى ، والشيخ

(1) سورة الفجر __ الآيات من 27 :30 .

محمد يوسف أن يجمع الناس فى الميدان المجاور ، ويلقى الحديث إليهم ، وقد تحدث الشيخ ظفر أحمد ، والمفتى كفاية الله ، وغيرهم ، وأوصوا الناس بالصبر والإستقامة .

وصار الحشد هائلا يكاد لايجمعه جامع ،ولا يقيده نظام ، وصلى عليه الشيخ محمد زكريا ، ووضع جثته ـ بعد مشاق طويلة من الزحمة التى تفوق السيطرة ـ فى قبره بجوار شقيقه ، ووالده فى الجانب الجنوبى من المسجد ، واختفت فى الأرض هذه الشمس الإيمانية المشرقة التى تنورت بها نواحى قريبةوبعيدة ـ قبل غروب شمس اليوم الثالث عشر من يوليو .

أخلافه :

وخلف الشيخ إبنا وبنتا ، أما الإبن فهو الشيخ محمد يوسف ، وأما البنت فهى زوجة الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوى ، وكان الشيخ محمد زكريا حفظه الله ابن أخيه الأوسط محمد يحيي ، وتلميذه ، وممن كان يثق بهم ، ومن ذكرياته الحية ـ بالإضافة إلى هؤلاء الأخلاف ـ ألوف من المتصلين به ، والمؤمنين بدعوته ، ولا سيما أهل ميوات ، الذين وقفوا حياتهم على حركته ، ولا غرو إذا قال قبل وفاته بأيام : إن الناس يخلفون أشخاصا وقد خلفت ـ والحمد لله ـ بلدا كاملا .

وما مات من كانت بقاياه مثل هم شباب تسامى للعُلى وكُهُول .

وكان رحمه الله أسمر ، قصير القامة، نحيل الجسم ، غاية فى التحرك والنشاط ، لايعرف الكسل والكل ، كث اللحية السوداء، تتخللها شعرات بيضاء لاترى إلا من قريب جدا ، ينم وجهه عن طول التفكير ، والسهر والمجاهدة فى العبادة ، وتشف جبهته عن بُعد الهمة والطموح ، والألمعية والفراسة ، فى لسانه عقدة ، ولكن فى صوته قوة وصلابة وفى حديثه حماس ، وقد يتحول الكلام عندما يصطدم بالعقدة فى لسانه ، إلى شلال يتدفق .

الباب السابع

مزاياه الشخصية ومنابع دعوته ونشاط

من الصفات التى كان يمتاز بها الشيخ محمد إلياس " الإيمان والإحتساب " اللذان كانا السمة الغالبة ويسودان كل ناحية من نواحى حياته العملية ، وكانا روح أعماله وجوهر نشاطه وتحركاته .

وهما : أن يعمل العبد وهو يؤمن بالله ربا وإلها بمعنى الكلمة ، ويعتبر طاعته غنما وإشارته حكما ، ويقدرهما حق قدره ، فيكون اليقين و الإيمان بما وعد الله من أجر وثواب وإنعام وإكرام ، والحرص على نيل رضاه ، والإخلاص لوجهه الكريم ، مصدر أعماله ومحور حركاته الوحيد ، فقد روى الإمام البخارى فى صحيحه : " من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه " . ، " ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه " .

والواقع أن ذلك هو روح العمل وحقيقته التى تجعله يصل فى طرفة عين من الأرض إلى العرش، ومن الثرى إلى الثريا ، وأما بدونه فالعمل مقصوص الجناح لايكاد يطير، وإليك حديثا آخر يلقى مزيدا من الضوء الكاشف .

" عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز ، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلا أدخله الله بها الجنة "[1] .

وقد استرعت كل هذه المعانى فى قلب الشيخ انتباها واسعا ، فأعارها الشيخ نصيبا أكبر من العناية والإهتمام ، وظل يرعاها طيلة حياته ، وبذل

(1) الجامع الصحيح للبخارى ، كتاب الهبة ، باب فضل المنيحة.

لها قصارى جهده ، وما أدل على المبلغ الذى بلغته هذه الحقيقة ـ عنده من العناية والتقدير ـ ، من المقتطفات التالية من رسائله :

1ـ "باطن الدين " : " الإيمان والإحتساب " ، وقد قيل فى كثير من الأعمال : " إيمانا واحتسابا " فالنظر فى جميع الخطابات التى وردت فى كل من الأعمال ، واستزادة اليقين والإيمان والثقة بالله ، وتصعيد التقرب منه ، واستعظام عظمته وكبرياءه ، ثم الأجر والثواب والنعم الكثيرة والعطايا المتنوعة الوفيرة من الدين والدنيا مما وعد الله سبحانه وتعالى ، اعتبار كل ذلك إنعاما منه وإحسانا خالصا لا جزاءا وعوضا ، هذا هو " الباطن " .

2ـ " أن الأعمال بنفسها ليست لها قيمة ووزن ، وإنما الذى يجعلها ذات قيمة واعتبار هو : نية طاعة الله تعالى وامتثال أوامره ، والحرص على الإتصال به ، وتعزيز العلاقة معه ، فقوة تلك الصلة تقوى الأعمال ، وبقدر ما تصدر الأعمال عن طمأنينة قلب وعن يقين وإيمان ، تزداد قيمتها ، ويثقل وزنها ، ويتعزز اعتبارها .

3 ـ فقدان التحمس والإندفاع الذى ذكرتموه فى رسالتكم جعلنى أغتبط به ، لحقيقة امتثال أمر الله أن يجعل هذا الأمر ـ نفسه ـ المؤمن يخضع أمام حقانية هذا الأمر وعظمته ، وحماسته واندفاعه ، فإن الحماسة وليدة الطبيعة والجبلة ، فإن صدر العمل عن الحماسة فهناك " حب طبعى " وإن كان عظمة الأمر ونية الإمتثال والشعور بلزوم الطاعة وفرضية العبادة ، فذاك " حب عقلى " " حب إيمانى " .

4ـ إن الإغتباط بالعمل القليل ربما يسبب عدم الشعور بالتقصير والإهمال اللذين قد يرافقان الأعمال، ولذلك فيجب أن نبالغ فى التوقى من الوقوع فى مثل هذا الخطأ والإنخداع، وإنما النجاح الحقيقى هو الجد فى العمل، دون اكتراث أو نظر إلى ما يترتب عليه من الثر الحسن فى الحياة الدنيا ، فإن

الغرض من كل ما أمر به العبد هو الأجر الذى وعد به الله فى الحياة الآخرة وذلك غنما يتعلق بالعمل والعمل وحده ، ومرة ثانية يجب التحصن كل التحصن من أن نؤخذ بما يأتى به العمل فى الأثر الخادع فى الحياة العاجلة الفانية ، فيقف دون إدراكنا أخطاؤنا وتقصيرنا ودون استدراكنا لما فاتنا ، ولذا فيتحتم علينا أن نركز عنايتنا على ذلك الجانب تفاديا من التبجح بالنتائج والثمار .

5ـ لنواظب على العبادات والأذكار جاعلين جميع النصوص التى وردت فيها نصب أعيننا ، واثقين بما وعد الله عليه من الثواب ، ولنعلم أن رأس الأمر هو الفوز بتلك الثقة واليقين ، وبما أن ذلك يتعلق بالقلب ، فإن اليقين والثقة مكانتهما من الأعمال مكانة القلب ......

6ـ .... لكل وقت بركاته وفضائله الخاصة به ، وقد وردت السنة فى كل ذلك مصرحة به ، وحسب العامة أن يدعوا الله عند أداء كل صلاة أن يجعل الله لهم نصيبا من بركات ذلك الوقت

7ـ .... قد كتبتم تذكرون عدم إقبال القلب وعدم الإلتذاذ ، فاعلموا أن ذلك أمر لايهم فلا حاجة إلى العناية به والإقبال عليه ، والذى يتطلب منا تمام الإهتمام وكل االعناية هو أن نقوم بالعمل ونعتبر الطاعة والإمتثال هما كل شيىء له مكانة وأهمية لا يستهان بهما ....وقد ركز الشيخ كل حركته ونشاطه على " الإيمان والإحتساب " فلم يرم بأى عمل من أعماله إلا رضا الله ، ولم يهدف إلا إلى التأسى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم ينو إلا الحصول على الأجر الموعود على السعى المتواصل والجهد المتتابع فى سبيل الدلالة على الخير والدعوة إلى البر والتقوى ، ولم يرد إلا التهيأ للحياة ، فقد قال فى رسالة :" إن عملية الدعوة والتبليغ تتعلق بالقلب كما تتعلق بالجوارح ، أما علاقته بالقلب فهى كما يلى :

1ـ طلب رضا الله ، والإنتساب به تعالى وبالأنبياء عليهم الصلاة والسلام

عامة ، وبسيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة .
2ـ الإمعان فى مضمون " الدال على الخير كفاعله " بكل قوة وإرادة ، ثم كل من تذكر بسعيه واهتدى بدلالته ، فقام بالصلاة والتلاوة ، والذكر والعبادة ، اعتبار كل ذلك أجرا وذخرا .
3ـ إيجاد القوة فى الدعاء والإلتجاء والإنابة إلى الله ، والإيمان بكونه سميعا عليما ، والتضرع إليه لنجاح عمل الدعوة والتبليغ .
4ـ اعتبار التوفيق لهذا العمل الصالح فضلا من الله ونعمة ، فلا يضيع عليه أية فرصة .
5ـ التمرن القلبى على التواضع والحلم والتودد مع المسلمين .
يقول فى رسالة أخرى : " يجب على المسلم أن يضع نصب عينيه مشاهد القيامة ، فإن ذلك يساعده على تدعيم العمل الدينى ، ويقويه على المواظبة عليه ، ويعتبر الأجر ـ الذى أشار إليه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ـ على كل عمل قام به لله ، ذخرا له ليوم القيامة ، متذكرا جلالة النبى عليه الصلاة والسلام " .

رعايته للحقوق :

وكان لديه عناية كبيرة بحقوق الناس ، ولاسيما إذا كانوا من ذوى العلم والثقافة ، والدين والشرف ، وكانت بصيرته بهذا الخصوص نفاذة ذات دقة وعمق ، " واجتهاد " تدل على ذلك صفحات هذا الكتاب أوضح دلالة ، ويشهد بذلك كل من صاحبه وعاشره معاشرة ذى وعى وإدراك ولو لعدة أيام ، وسيشاركنى فى الإعتراف كل من خالطه بأنه كان من رجال " الإجتهاد " فى تلك الناحية ، وتعامله مع الناس ، وأقواله وأعماله وأحواله كل ذلك يدلنا دلالة صارخة على أن رعاية الحقوق وأدائها إلى أصحابها ، كانا رمزا لمعظم سلوكه وزهده وربانيته ، ومن هنا فكان يعتبر ذلك من أهم الواجبات ، يقول فى رسالة له :" ....تبادل الحب والإحترام

والإكرام فيما بين الإخوان لأهم وأخطر شيء ، وأن رعاية هذا الجزء الواحد من الحقوق ، وتوطين الطبع على ذلك لأفضل وأقوى وأبلغ إرضاء لله عز وجل من الكثير سواء من القضايا الحقة . " .

وكان يتعهد كذلك الحقوق الإنسانية العامة ، فكان لا يجوز عنده غمط أى حق من تلك الحقوق ، ولا ما يتعلق بالكفرة والمشركين ومن إليهم من غير المسلمين ، ولافرق فى ذلك فى الحل والترحال .

فهو يمنع رفيق سفره ـ وقد حجز على مقاعد القطار من المكان أكثر مما كانا يحتاجان إليه ـ أن لا يفعل ذلك ، قائلا : أن ذلك من الحقوق العامة ، وهاهو ذا يريد أن يصلى المغرب فى القطار فيحاول رفيق من رفقاء سفره أن يمنع الركاب من المرور أمام المصلين ، فيرفض هو قائلا إن ذلك من الحقوق العامة ، فاتخذوا أنتم سترة ، ولا تجعلوا المسافرين يضيقون ذرعا بنا .

وكانوا فى رحلة راكبين سيارة ، فاستوقفوها فى بعض الطريق لصلاة قد حان موعدها ، وبعد أداء الفرض راح بعضهم يصلون النوافل ، فقال : إخوانى ! إن هذه الزحمة من الركاب الذين لجأوا إلى الوقوف من أجلهم أحق بطى الطريق .

أخلاقه وتواضعه :

الخلق الحسن، والتسامح مع الناس ، والتواضع مما لا يندر وجوده فى عالم الناس ، أما أن تكون تلك الخلال والصفات محكومة بالإيمان والإحتساب ، منسجمة مع مبادىء الإسلام ، متوافقة مع روح الشريعة المطهرة ، فذاك شيىء من القلة بالمكان الذى يصعب مناله .

وكانت فكرة شيخنا فيما يتصل بالأخلاق ، أنها ليست بشيىء حتى تكون تحت قدمى سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد قص علينا مرارا أن الشيخ محمود حسن المعروف بشيخ الهند الذى كان من قادة

حركة تحرير الهند ، ومن أجلة علماء شبه القارة الهندية إخلاصا وربانية ، وتعمقا فى فهم روح الشريعة والكتاب والسنة ، لما عاد من " مالطة " بعد ما أطلق سراحه ، وقد كان اعتقل من أجل قيادته لحركة تحرير البلاد ، وأقيمت له مآدب كبيرة ، وقد حضرت أنا إحدى تلك المآدب وجلست على المائدة بجانبه ، لا يحول بينى وبينه شيىء ، فجعل المضيف يذكر محاسن ومكارم ضابطه الإنجليزى حتى أتى من الثناء على نواحيها ، ومضى فى عدها بإمعان واستغراق ، حتى حشا مسامع " شيخ الهند " وأصبح شيخ الهند لا يطيق إلا ساعة مع الكمية الكبرى التى كان يتمتع بها من قوة التحمل ، فعيل صبره ، وهمس إلى أذنى :" أفهل يكون لدى الكافر ما يسمى ب " الخلق " ؟!

ولو عاشره معنى بالسنة لأدرك مدى نفوذ نظره إلى دقائق خلقية ، وكم كان يراعيها فى سلوكه وأعماله التى كان يمارسها ليل نهار ، وقد كتب هذا العاجز ـ كاتب هذه السطور ـ إلى تلاميذ دار العلوم ندوة العلماء الذين كانوا ملازمين الشيخ منذ أيام للإستفادة : إنكم قد درستم أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد اطلعتم على ما يتعلق بالأخلاق والمعاملات ، فادرسوها الآن فى الشيخ ، وانظروا كيف يعمل بها ، وتعلموا كيف يكون تطبيقها على الحياة تطبيقا واقعيا علميا .

يقول فى رسالة إلى صديق له ، يقول فيها :" ....مهما كان المسلم وضيع المنزلة ، ضعيف الرأى ، فدربوا نظركم على أن يقع عليه بالإجلال والإكرام ، لأن الإسلام فوق كل شيىء ".

وقد بلغ من تمرنه على ذلك أن كان لديه من ينتسب إلى الإسلام مكرما مبجلا ، ولو كان أحط ما يكون درجة وأسوأ ما يكون سلوكا ، لايصوم ولايقوم ، ولاعهد له بالفرائض والواجبات مما نروح نظن أنه يعتبر ، أفضل من نفسه إرضاءا لربه ، وكلما كان يجتمع بمسلم لاينسى صفة إيمانه

وإسلامه ، وكان يتغلب دائما إكرامه لهذا الإيمان وحفاوته على شعوره بعيوب صاحبه ومواضع ضعفه ، وقد انتهى به قوة إدراكه فى هذا الباب إلى أن كان لايلبث أن يميز بين مواطن الخير والشر فى كل من يلاقيه ، فيركز نظره على ناحية الإكرام ويشمله بالإحتفاء والإكبار .

ولقى مرة رجلا ، وقضى فيه حاجته إلى التوقير والإحترام ، ثم قال : "..... إنى لأعلم ماقام به الرجل من دور فعال فى إلحاق الضرر الفادح بجماعة تعمل للدين، وقد ألمنى ذلك الإيلام كله، ولكنى أعلم كذلك ما يتمتع به هو من المكانة فى العلم ، وقد أكبرت فيه هذا العلم ...."

الدلالة على الخير:

يرى الشيخ أن كل من حبسته وظيفته أو شغله عمله أو هو عاجز ضعيف ، ورغم الأشغال والأعذار يريد أن ينال فى هذه الحياة الوجيزة القصيرة ، الأجر الذى لاينقضى ، والثواب الذى لايغيض ، والعوض الذى لايقل ، والذخيرة التى لاتنقص ، فليس له هناك سبيل إلا الدلالة على الخير ، وممارسة الدعوة والتبليغ بالإخلاص والإحتساب ، وكان يرى أنه لو كان هناك رجل يصوم النهار ويقوم الليل ويتلو القرآن كل يوم أو يتصدق بآلاف الروبيات كل يوم ، فسوف لابلغ به كل هذه الأعمال باجتماعها بالقياس إلى البركة والنور والقبول الحسن المبلغ الذى يبلغه الدالون على الخير ، الداعون إلى الله ، باستحقاقهم كل لحظة من لحظات اليوم والليلة أجر مائة ألف رجل عن طريق صلاتهم وصومهم وإيمانهم واحتسابهم ، وبما ينزل على أرواحهم منذ قرون من شآبيب الأنوار والبركات ، والرحمة والغفران ، والأجر والإنعام ، وبحكم دلالتهم على الخير ، فكيف يعدل ياترى عمل رجل واحد وإخلاصه ، وأعمال المئات من الناس وإخلاصهم ، وانهماكهم وشوقهم ؟ كلا .

ولذلك فالشيخ كان يفضل " الدلالة على الخير " بحكم أنها الخير المعدى

على العبادات الشخصية ، والأعمال النفلية ، على شدة حرصه واعتنائه وانكبابه على كل ذلك يرجو الثواب فى الدعوة إلى الله أكثر من أى شيء آخر ، فاقترح على شيخ قد عمل فى حياته أعمالا جليلة ، ثم أصبح يتدرج إلى ضعف فى الجسم وخور فى العزيمة والقوة ، فاقترح عليه عن طريق زميل له أنك أصبحت لاتطيق العمل مثل ذى قبل والوقت قصير والعمل كثير ، وحينئذ فالنظر فى المصلحة ، والدقة فى النظر ، والتفقه فى الدين ، والمعرفة بمتطلبات الوضع ، كل ذلك يقتضى أن تسهم فى الأجر والثواب بالدعوة والتبليغ ، إلى كل من الأصدقاء والزملاء والمجتمعين بك والجالسين إليك ، ومن يستمع من الناس إليك ، عن طريق الكتابة والخطابة والمكاتبة والمراسلة ، والتشويق والترغيب .

إن هذه الحركة حركة الدعوة والتبليغ كان يراها أسهل الطرق وأقواها للحصول على " الايمان والإحتساب " غير أن طلب الايمان والإحتساب قد أخذ منه كل مأخذ ، فلايخطو خطوة إلا ويريد بها وجه الله تعالى ، ويرجو فيها الثواب ، ويرى فيها نفعا من المنافع الدينية ، وربما كان من المستحيل أن يقوم بعمل دعته إليه نفسه ، فكأنه أصبح " لايتكلم إلا فيما يرجو ثوابه " ، كما جاء فى صفة النبى عليه الصلاة والسلام فى شمائل الإمام الترمذى ، فكل حركة أو سكون أو فرح وسرور إنما كانت تصدر عن الطمع فى الأجر ، والحرص على مافيه مصلحة الدين ، فلا يتكلم إلا لذلك ، ولايحضر المناسبات والحفلات إلا لذلك ، ولا يغضبه إلا هذا ، ولا يرضيه إلا هو وحده ، ولا يعنيه كل مالا صلة له بهذه الغاية ، ولايفوته ذلك حتى فى الأشغال اليومية والأعمال التافهة ، وكان كما قال الشيخ محمد منظور النعمانى : ربما لايشرب كوبا من الشاى بدون النية ، ولايقدمه إلى أحد إلا وينوى رضا الله تعالى .

ففى كل عمل يعمله ، وكل مناسبة يشهدها ، وكل وظيفة يقوم بها ،

ويحرص فى كل ذلك على أن يحصل على خير مافيه من المنافع الدنيوية والأجر الأخروى ، والتقرب إلى الله تعالى ، وكان يوجه كل عمل من أعماله إلى العبادة بحيلة عجيبة وبطريقة لطيفة ، وقد تعدت قوته الفكرية وذكاؤه المتوقد فى ذلك مستوى الثقافة الدراسية والعلم الكتابى إلى درجة الحكمة والتفقه ، وقد بلغ فى ذلك الحد الأقصى من إرهاف الحس ودقة الشعور وحضور الخاطر ، حتى كان يشير على أشخاص ذوى مستويات مختلفة بالحصول على الثواب فى عمل واحد بنيات مختلفة .

وقد حكى الشيخ محمد منظور النعمانى قصة طريفة تدل على ذلك ، فقال :

" قد حضرت إلى بستى نظام الدين فى دهلى فى وقت الظهيرة ، والشيخ يقضى آخر أيام حياته ، وقد بلغ به المرض الذى توفى فيه إلى أن لايقوى على القيام ولاعلى القعود، وكان بعض الخدم الميواتيين يساعدونه على الوضوء لصلاة الظهر، إذا به قد وقع نظره على فدعانى بإشارة من إصبعه وقال يعظنى:" فضيلة الشيخ ! إن عبدالله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ كان يشاهد عليا رضى الله عنه حينما يتوضأ هو ، مشاهدة متعلم ، مع أنه كان قد رأى مباشرة شخص النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبعده أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، كيف يتوضئون ، فلما فرغ الشيخ من قوله جعلت أدرس وضوئه دراسة إمعان وتلق ، فانتهت بى تلك الدراسة وهذا الإمعان إلى أن توضأ الشيخ فى هذه الحالة الضارية ، وهو يعانى من شدة المرض ما يعانى ، يحمل لنا عبرا ، ويلقى علينا دروسا ، وأضاف الشيخ محمد إلياس ـ رحمه الله ـ قائلا وهو يشير إلى الميواتيين الذين كانوا يعينونه على الوضوء : " هؤلاء المساكين ـ الذين ترونهم يعينونى على الوضوء ـ دوما أقول لهم : إنكم تحبونى وتخدمونى من أجل طلب رضا الله ، وأنتم تظنون أننى أحسن القيام بالصلاة ما لا تحسنون أنتم ، إذا فأعينونى راجين من

الله أن يجعل لكم نصيبا من أجر صلاتى، وادعو الله " اللهم إن عبدك هذا يحسن القيام بالصلاة ـ كما نعتقد نحن ـ ما لا نستطيع نحن، فنساعده على وضوئه رجاء أن تجعل لنا الحظ من صلاته " ، وأنا بدورى أدعو الله " اللهم إن هؤلاء السذج من عبادك يعتقدون فى هذا الإعتقاد الكبير، ويحسنون بى الظن مالا يخفى عليك ، فلا تفضحنى ، وتقبل منى صلاتى، واجعل لهم نصيبا منها " .

وأضاف قائلا : " لو رحت أعتقد أنى أقوم بالصلاة أحسن القيام بالنسبة إلى هؤلاء ، لأكون من المطرودين الخاسرين ، نعم إنى أرجو الله تعالى أن يقبل صلاتى بفضل هؤلاء السذج المساكين المخلصين من عباده " .

أنظر كيف دل ثلاثة أصناف من الناس ـ حسب مستوياتهم ـ لنيل الثواب على طرق مختلفة عجيبة فى وضوء واحد ، بنيات مختلفة ، فدل الشيخ محمد منظور النعمانى على فضيلة التعلم ومكانته الكبيرة ، وعلى طريق تلقى الثواب عن طريق نية تتبع السنة وتحسين الوضوء وتصحيحه فى ضوئها ، ودل الميواتيين على طريقة نيل الثواب عن طريق المشاركة فى الصلاة التى تحمل درجة الإحسان ، ودل نفسه على طريق الحصول على الثواب عن طريق حسن الظن بالعباد ، وعن طريق رجاء قبول صلاته بفضل حسن ظنهم به .

كيفية الإحسان الذى صوره الحديث :

يبين الحديث الشريف كيفية الإحسان فيقول : " أن تعبد الله كأنك تراه " وفى رواية " أن تخشى الله كأنك تراه " وكان رحمه الله نموذجا عمليا لذلك فى معنى الكلمة ، وربما يكون فى الجلوة كأنه فى الخلوة يناجى ربه ، وقد صدق الشيخ محمد منظور النعمانى ـ وقد شاهدت ذلك مباشرة ـ حينما قال :" أنه كان يقرأ الكلمة الجامعة الشاملة : سبحان الله وبحمده ،

أشهد أن لاإله إلا أنت وحدك ، لاشريك لك، أستغفرك وأتوب إليك ، ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لى شأنى كله، ولاتكلنى غلى نفسى طرفة عين ، وقلما كان يتوقف عن قرائته بأسلوب وكيفية كأنه يقرأها بين يدى عرش ذى الجلال والإكرام ".

استحضار القيامة وتمثل الآخرة :

كذلك بلغ من استحضاره للقيامة وتصوره للآخرة أنه كان يجعلنا نذكر قول سيد التابعين الحسن البصرى ـ رحمه الله تعالى ـ فى وصف قوة صحابة النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـ رضى الله عنهم ـ لتصور يوم القيامة "كأنهم رأوه رأى العين " .

فسأل مرة أحد سكان ميوات مالذى جاء بك إلى دلهى ؟ أجاب الرجل بحكم سذاجته : جئت لأزور دلهى ، إلا أن أسلوب سؤال الشيخ جعله يشعر بخطئه فى الجواب ، فبدله بحخر من ساعته قائلا : أتيت لتشرف بأداء الصلاة فى المسجد الجامع ، ثم لم يلبث أن أتى بجواب ثالث ، فقال: إنما أتيت لأزورك ، سمع الشيخ كل ذلك وقال : أين دهلى او المسجد الجامع من الجنة ؟ ثم من أنا أتيت لزيارتى ، جسم إلى التراب يعود ، ثم يأكله الدود ، ثم راح يفيض فى ذكر الجنة ونعيمها ، فعدنا كأننا نراها .

الإيمان بفناء العاجل وبقاء الآجل قد بلغ منه كل المبلغ ، حتى يتجلى ذلك فى رسالته وكتاباته وحديثه فى الليل والنهار فقال فى رسالة له إلى الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوى :" أطلب إلى الشيخ عبدالقادر الرائيفورى أن يشرفنا بقدومه الميمون إلى " بستى نظام الدين " ولو لأسبوع أو أقل ، فإن الدنيا ظل زائل ".

وقد قال لكاتب هذه السطور مرة " سنتقابل ـ إن شاء الله ـ فى لكهنئو ، فما هى إلا ثانية أو أقل حتى قال : مالذة اللقاء فى السفر ؟ إن شاء الله سنلتقى فى دار القرار " ، فشعرنا كأن مسافرا بالقطار يقول لمسافر مالذة

اللقاء فى القطار ؟ سنجتمع فى البيت ، ونلتقى هنا " فالبساطة بساطة المسافر فى القطار واليقين يقينه .

وقد ذهب يعزى عمنا الشيخ محمد طلحة الحسنى [1] الذى كانت توفيت زوجته ـ وهى عمتى ـ فقال له فيما قال : إنما مثل الحياة مثل باب يغلق أحد مصراعيه أولا ثم الآخر ، وهكذا كل نفس ذائقة الموت هذه أولا ، وهذه ثانيا .

الإقبال الكامل على مهمته والإنهماك البالغ فيها :

ونفض يده من أجل مهمة الدعوة والتبليغ من كل شيء ، وتفرغ من كل عمل منذ أعوام ، فلم تعد له علاقة بما سواها ، قال فى رسالة إلى الشيخ محمد زكريا قبل مدة غير قصيرة : " إن أمنيتى الحبيبة الأثيرة أن يتجرد عقلى وقلبى ، وقوتى ووقتى ، من كل شيء سوى هذه المهمة " ، وكثيرا مايقول : كيف يجوز لى الإشتغال بما عدا الدعوة والتبليغ بينما نرى النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن روحه فى أذى مما يمر به المسلم المعاصر من الوضع السيء وضعف الدين والعقيدة ، والإنحطاط والذلة ، وفقدان المنعة والعزة ، على حين أن الكفر لهصولة وجولة " .

وقد شكا إليه أحد ممن كان يتمتع بعطفه وحنانه " إننى أشعر بالقلة والدون فى العطف والكرم البالغين اللذين كنت أحظى بهما من قبل سماحتكم " . فرد عليه الشيخ قائلا : " إن لى شغلا شاغلا عن كل ذل ، أننى جد منهمك فى هذه المهمة الكبرى ـ الدعوة والتبليغ ـ فإنى لأشعر بما

(1) كان من كبار علماء الهند المشاركين فى علوم كثيرة خصوصا التاريخ والآداب ، كان أستاذا فى الكلية الشرقية (فى لاهور، وهو من أعضاء الأسرة الحسنية أسرة الإمام السيد أحمد الشهيد ، من أولاد ابن أخته السيد محمد على الحسنى التونكى ، توفى فى سنة 1390هـ فى كراتشى ..

تعانيه روح النبى الطاهرة صلى الله عليه وآله وسلم من الذى فلست لأقبل على شيىء ما سواها .

وربما يمثل نفسه بالشرطى الذى يقف على مفترق الطرق ، يلاحظ المراكب والسيارات ، والعجلات والدراجات ويراقبها ويعطيها إشارة الوقوف والسير ، وكان يقول : لست أنكر أن هناك عمليات أخرى ذات الأهمية ، والنفع العظيمين ، إلا أن الإنصراف إليها عن المهمة التى نعالجها شيىء ذو خطر خطير وضرر كبير ، وقد استرعت عملية الدعوة كل عنايته ، واستجلبت كل تفكره وتدبره ، ووقفت سدا حديديا بينه وبين التفكير فى شيىء سواها ، وانتهى ذلك إلى أن سأله مرة صديقى المحترم الأستاذ محمد ناظم الندوى[1] ـ ونحن فى جولة نمر بدلهى الجديدة ـ عن مبنى ذى شأن ، فقال : مولانا ! مالى ولهذا المبنى ؟ إن العلم بذلك فى واد وأنا فى واد .

ولذلك كان يمتنع عن الحضور فى المجالس التى لاتتيح له الفرصة لعرض الدعوة ، أما الحضور لمجرد المداراة والملاطفة ، فكان يشق عليه كثيرا ، كانت فكرته هى : " لابد من عرض الدعوة فى الحل والترحال ، وإيثارها على كل شيىء فى كل حال ، وقد حكيت له مرة حديثا للعلامة السيد سليمان الندوى ، فقد قال بعد الإياب عن حفلة : " لكى أعرض على الحضور كلمة منى واحدة ، أحتاج إلى أن أسمع عشرات من الكلمات فظل يقف عليها طويلا يتلذذ بها .

وإما أكبر عليه أن يسمع أحدا يخوض فى حديث لايحمل مصلحة ولايرى إلى هدف ، ولذلك فتراه ربما يتوقف عن مثل تلك الأحاديث ، فقام

(1) عميد دار العلوم ندوة العلماء، عميد الجامعة الدينية بهاولبور (باكستان) سابقا ، ومن كبار أدباء العربية ، وعضو مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامى العالمية .

يؤنبهما : أطلبا مكانا آخر من القطار تتكلمان فيه ، ففى المكان متسع ، وكل من يجالسه ويختلف إليه كانوا يراعون ويحتاطون إطلاعا منهم على طبعه الشريف ، ومعرفة منهم بمايؤذيه وما يسره ، لكن الموقف كاد يكون أحرج مايكون ، إذا مايتوافد الوافدون الجدد ، ولاسيما إذا كانوا من طبقة العلماء ، فنقضى من عجبنا ، بماراه يكلف نفسه تحمل مالا طاقة لها به ، وهو طلق الوجه ، منبسط الأسارير .

ولم يكن ينسى عمله مهما قصد وطنه "كاندهلة " أوزار أحدا من أقربائه ، وكان يوجد الفرصة لعرض دعوته ، بطرق عجيبة وأساليب ظريفة ، ويجد مادة للكلام فى كل شيء، فى سفر يقوم به وفى مجلس يحضره ، وفى مناسبة يشهدها ، ويعرض دعوته عرضا تستسيغها العقول دون كل وملل ، وتلتذ بها النفوس الواعية طويلا .

أتفق له أن يحضر مناسبة عقد الزواج لأحد من المخلصين له فى دهلى ، فلم يدع الفرصة المتاحة تفوته دون أن يستغلها، فقال يخاطب الفريقين (فريق الزوج وفريق الزوجة) : إنكم تسعدون اليوم بمناسبة يتمنى فيها كل واحد منا أن يرضى الناس حتى اللئام والأراذل والأدنين من الناس ، فما صنعتم إزاء إرضاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم دعا الناس إلى الدعوة وتكريس الجهود الممكنة لإحياء ماجاء به عليه الصلاة والسلام ، مقررا أن ذلك أنشط عامل لإرضائه صلى الله عليه وآله وسلم ، وأقوى ذريعة للتزلف إليه .

ولم يكن يكتب كتابا إلى أحد إلا فيما يتصل بالدعوة والتبليغ ، وإن اضطر إلى كتابة رسالة فيما لايتصل بذلك ، لم يدع أن يستهل الرسالة بما يتعلق بالدعوة ، ويختمها بذكر الحاجة ، وقد رأينا طالبا من " ميوات " يريد الإنتساب إلى " دار العلوم ديوبند" يلتمس إليه أن يكتب كتابا يشفع له لدى مدير الجامعة سماحة الشيخ محمد طيب ، فملأ الكتاب مما يتعلق

بالدعوة إلا سطرين أو أقل ينطويان على الشفاعة.

وأذكر أنا ـ كاتب هذه السطور ـ أننى كلما كنت أقوم بزيارة قريب أو صديق ، يسألنى أول ما يسألنى لدى رجوعى هل عرضت دعوتك ؟ هل قمت بأمانة التبليغ فيهم ؟ ، ويقول : ـ كلما يكون الجواب ـ أيها الأستاذ " إن العلاقات "كلها ميتة مالم تكن تحت قدمى رسول الله صلى الله عليه وسلم " يعنى أن العلاقات إذا لم تُستغل لنشر الدين والقيام بالدعوة وتدعيم النشاطات الإسلامية فهى متجردة من الروح فارغة من كل خير وبركة .

وكان يرى أن الحضور فى المناسبات وتلبية الدعوات إنما يصحان إذا رافقها عرض الدعوة ، وكان يعتقد أن هذا هو المكسب الوحيد الذى من أجل الحصول عليه يشهد المسلم المناسبات ، ويقبل الدعوات ، ويحضر الحفلات والمأدبات ، ويتبلور ذلك فى الأسلوب الذى يختاره لدى توجيهه الدعوة للحضور فى مناسبة عقد الزواج لأحد من أفراد أسرته فى بيته ن بالكلمات الآتية

"إننى أرى ـ المسلم يعيش ما يعيش من الإنحطاط والإنهيار وفقدان الوعى الدينى ـ الإحتفال بمثل هذه المناسبات دلالة على فقد البقية الباقية من الوعى الصالح ، إلا أن ذلك مما سيجمع بين علماء الدين ورجال اليقين وأولى الوعى والغيرة من المخلصين ، سمحت نفسى بتوجيه الدعوة إلى جميع سادة زملائنا وأحبائنا فليتكرموا علينا بالحضور ، وليحظوهم بسعادة الدنيا والآخرة ، وليتفضلوا على بإتاحة فرصة سعيدة تمكننى من عرض برامج الدعوة والتبليغ .

وكان ـ رحمه الله أكثر مايكون تحصنا واستنكافا من كل ما لا يعنيه وما لا صلة له بالدين ، ولايحمل نفعا عاجلا أو آجلا ، وكان يوصى بالتحصن من مثل ذلك كل من يختلف إليه ويتحلق حوله ، ولاسيما الذين يقومون

بجولات الدعوة ، ويخرجون فى الوفود التبليغية ، وكان يقول أن الإشتغال بما لا يعنى ومعالجة ما لا ينطوى على فائدة ما ، يذهبان بروح العمل ، ويضيعان ماء وجهه ، وكان يعتبر الخوض فيما لا يتعلق بالدين لامن قريب ولامن بعيد ، إضاعة للوقت ، ويدل على ذلك ما اتفق لى معه ، فكنت أنا ـ مرة ـ نستمع ـ وأنا فى لهفة وحنين ـ إلى مايقص على السيد رضا حسن[1] مما جرى له فى جولته الدعوية الواسعة الطويلة المدى التى قام بها فى فترة من الوقت ، فإذا بنا يرانا الشيخ ـ وقد سمع ماقص علينا رضا حسن ـ فيقول : " إن ذلك عرض للتاريخ ، وإعادة لذكرى الماضى ، فالأفضل أن تخوضا فى حديث غيره يفيد كما فيما يأتى ".

وكان يقدر الوقت حق قدره ، وكان يؤلمه أن تضيع لحظة فى غير موضعها ، يدل على ذلك ماشهدته ، وهو جالس يسمع الرسائل والكتابات ـ وكان يضعها فى غلاف ـ فإذا الغلاف الذى قد سمع مافيه يعترض له ، ويخرج القارىء منه رسائل ويعيد قرائتها ، فيدرك ـ بعد ثانية أو أقل ـ أنه قد سمعها ، فيقول فى أسلوب فيه شيىء كثير من الحسرة " خرقها كى لاتضيع وقتى مرة أخرى ، فإنه رأس مالى " .

ولاأدل على تقديره للوقت ، واستغلاله فى معنى الكلمة ، ووضعه فى موضعه مما قام به من العمل الجليل الذى لم يعد خافيا على العالم ، أن مثل هذا العمل ذا الأهمية القصوى يحتاج القيام به إلى استغلال كل لحظة ، وانتهاز كل فرصة ، والضن بكل آن وثوان على ضياعها فى غير موضعها .

قد عرف الشيخ مرة " العشق" فقال : هو أن ينحصر كل لذة الإنسان فى شيىء واحد ، وينحسر كل مافيه من معانى الغرام والوله فى ذاك الشيىء ، هذا هو " العشق" وقد انطبق عليه"العشق" هذا كل

(1) أحد العاملين فى مجال الدعوة المنقطعين إليها فى مركز الدعوة فى دلهى ..

الإنطباق فيما يتصل بالدين فقد عشقته روحه عشقا تغلب على كل لذة فى الحياة ، فأصبحت كل أمنية بعده شيئا لامعنى له لديه ، وأضحت تلك اللذة الروحية والمعنوية عنده لذة محسوسة ملموسة فكانت تكسبه من القوة والإنتعاش ، والنشاط والحماس ، ما لا يكسبه أحد من الغذاء والدواء ، فكتب غلى أحد ممن شكا إليه القلق النفسى الذى كان يغالبه لدى قضائه لوقته فى بيته بعد مابذل القدر الكثير من وقته فى نشاطات حركة الدعوة والتبليغ ، كتب إليه ماإن كان لاينطبق على أحد حتى المكتوب إليه فإنه سينطبق عليه كل الإنطباق .

" صديقى الموقر إن هذا العمل ـ عمل الدعوة والتبليغ ـ بمنزلة الغذاء لروح الإنسان ، وقد أغدق الله عليكم هذا الغذاء بمجرد فضله وكرمه ، ومن ثم فالقلق والإضطراب ـ اللذان تعانون منهما فى هذه الأيام ـ نتيجة حتمية منطبقة لفقد هذا الغذاء أو لقلته ، ولو لوقت قصير محدد ، فلا يحسب لذلك حسابا ، ولا تلق له بالا ".

وطالما رأيناه قد نسى مرضه ، وتجددت فيه قوة إنهار أمامها كل ماكان فيه من المرض ، حينما سمع خبرا سارا عن نشاطات التبليغ ، أو قابل رجلا توسم فيه صلاحية الإفادة لمهمة الدعوة ، وبالعكس من ذلك اشتد مرضه ، وازداد حزنه كلما سمع نبأ مقلقا ، فكأن كل آلامه تجمعت فى ألم واحد ، يقول فى كتاب له :

" أنا بخير ـ والحمد لله ـ إلا الألم الناجم عن التفكير فى الدعوة ، وسبل توسيع نشاطاتها وتصعيد تحركاتها ".

وانحسرت نواحى شعوره ، فتركزت على شيىء واحد ، وهو الدعوة ـ والدعوة وحدها ـ وسمعناه يقول :" إن كثرة الأشغال ربما تجعلنى أفقد الشعور بالجوع ، وحينئذ فإنما آكل لأنى أكون قد تحلقت مع المتحلقين حول الطعام ، أو لأن مواعيد الأكل تكون قد حانت ".

وتسره الكتابات والأنباء عن نشاطات التبليغ سرور رسالة العشيق للعاشق الصادق الهائم الذى طال به الهجر وبرح به الشوق ، يقول فى كتابه له إلى عامل فى حقل الدعوة كان يكتب محضر نشاطات التبليغ فى فترة من الوقت :

" إن تصور كتاباتكم يفعل فى ماتفعله الروح فى الجسد ، وإن لم اصدق فى قولى هذا مائة فى المائة . فبالتأكيد ليس ذلك مجرد كذب أو مبالغة ، لأن كتاباتكم لأكرم عندى من نفسى ، فإياك وأن تهمل فى توجيهها إلى ".

وكان انتظاره لرجوع وفود الدعاة الذين كان يوفدهم إلى مختلف الأرجاء أحلى لديه من انتظار هلال العيد ، فيكتب إليه عضو من أعضاء أهل الدعوة والتبليغ كان كرئيس لوفد : " إن بعثة الدعاة التى سترد إلينا عن طريق شواطىء نهر " جمنا " أنتظرها إنتظارى لهلال العيد ، فأت بها بكل إجلال وإكرام " .

وبلغ من تركيز عنايته على حركة الدعوة والتبليغ مبلغا قد لايتحمل فيه ثقل السرور البالغ ، فمرة رجع وفد الدعاة المكون من أهالى مدينة " لكهنئو" من مدينة " كانفور" إلى مقر حركة الدعوة فى " بستى نظام الدين" فى " دلهى الجديدة" وكنت أحد أعضاء الوفد فقال لى يوما بعد صلاة الفجر ـ وهو يستفسرنى ـ :" ربما يكون قد توقف نشاط الدعوة فى مدينة "كانفور" بعد غيابكم منها؟، فقلت : إن النشاط مستمر ، والعمل ماض ، فقد ناب عنا وفد آخر من أهالى "لكهنئو" وخلال هذا الحديث أشرت إلى رجل كان معى فى هذا الوفد الراجع، فبادر إليه يصافحه ويقبل يديه ثم قال : إنه قد جر السرور " الغامر" إلى رأسى صداعا فلا تغمرونى بما لا أطيقه من السرور ، فقد بلغت من الشغف أن أصبحت لاأتحمل " مفاجئات سارة ".

وبالعكس من ذلك ، ربما كان يلحق به المرض أيما إهمال أو حيد عن

المبادىء أوقلة عناية يراها فى وفود المبلغين ، فقد حضرت مرة " بستى نظام الدين" فقال لى مرضت بعد رجوعى من " سهارنفور" فسألته عن السبب ، فقال : (هو عدم التزام الوفود للمبادىء ، وعدم اكتراثها بالغايات فقد يخوض القوم فيما لا يعنيهم ، من التفرج فى المدينة ، والتسكع على الشوارع والتجول الفارغ فى أنحاء المدينة وحاراتها).

ويدل على هذا الحماس والشغف البالغين المقتطفات التالية من رسائله إلى كاتب هذه السطور :" لابد أن يخرج رجال يحسنون التضحية بأنفسهم وأموالهم فى هذه السبيل ، دون أيما تلعثم وتردد ، فقد آن أوانه ولامبرر لأى تخلف هناك " .

" لوذقتم الجنة ونعيمها فى هذه الدنيا الفانية ، لو ركزتم جهودكم على هذه الغاية الكريمة مؤمنين بمفهوم :" إن الله لايضيع أجر المحسنين" ومتمنين أن يدعوكم الناس " مجانين" معتبرين أن الفناء فى هذا السبيل وفى السعى وراء هذا الغرض النبيل ، هو البقاء فى معنى الكلمة .

وقد تكيفت حياة الشيخ بهذه الكيفية ، فكان يجد لذة الجنة فى هذه المساعى ، كانت السموم اللافحة فى هذا الطريق أشد إنعاشا له من النسيم العليل فى الصباح ، فقد كنت أنا وهو والشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوى ، والشيخ إكرام الحسن[1] ، فى الطريق إلى حارة "قطب " فى "دهلى" وكانت السموم تلفحنا من نوافذ السيارة التى نركبها فأشار الشيخ محمد إلياس بإغلاقها، فقال الشيخ محمد زكريا: نعم ، إن السموم حارة لافحة الآن ، ولو كانت فى سفر دعوة وتبشير وجولة دعوية لكانت باردة عليلة، فقال

(1) أحد كبار أعضاء أسرة الشيخ ، وهو والد مسئول أهل الدعوة الحالى فضيلة الشيخ محمد إنعام الحسن مد الله فى عمره ، توفى فى سنة 1391هـ.

:"نعم" ولاشك".

وكان يتمنى لكل من يتوسم فيه الفضل والكمال والموهبة والصلاح ، والكياسة والعبقرية والذكاء والفطانة ، والخبرة والتجربة ، يتمنى أن لو ركزت هذه كلها على المحاولات التى تبذل فى سبيل الدين والدعوة ، لأتت بأينع الثمار.

لم أر عند أحد ما رأيت عنده من الإضطراب والتألم والزفرات والأنات ، ولايكاد يتصوره من لم يعاشره ، فربما وجدته يتململ تململ السمك خارج الماء ،وكثيرا ماكان يتأوه ويقول: رب ماذا أصنع وأرى السعى يضيع ويذهب سدى؟ وكثيرا ما كان يجعله هذا التوجه والتألم يتقلب على الفراش لايقر له قرار حتى ينهض ويتمشى .

ومثل ذلك كان يعانى منه ذات ليلة فقالت له زوجته: مالذى أطار النوم من عينيك واقض مضجعك ؟ فقال حبذا لوفهمت ذلك ؟ وحينئذ ستعانين مما أعانى منه ، وهنالك فسيكون المحروم من النوم اثنين، وطالما كان الناظر إليه يرق له فيواسيه ويطمئنه ، وأحيانا رأيناه يتحدث فنشعر كأن قلبه تنور يشتعل نارا ، وكان يتدفق عاطفة وحمية وغيرة تدفق السيل العارم ، مما كان اللسان قد لايطاوعه ، والكلمات تتكسر عليه ، وربما يفصل خواطره ، ويطيل الكلام ، ثم ينشأ يتغنى البيت الأردى السائر للشاعر الأردى الكبير " أسد الله خان غالب " بتعديل خفيف :"إنى مجنون أثرثر ماأثرثر ، غير أن هى هذه الثرثرة فوائد نفسية ونكتا دقيقة فليفهم الناس ولو بعضها ".

وقد يفتر عن الكلام مخافة أن يكون قد سئم بعض السامعين ، إلا أنه يتغنى بلسان حاله الشعر الفارسى الذى أكثر من سوقه الشيخ الكبير أحمد بن عبدالأحد بن زين العابدين السرهندى (المعروف بمجدد الألف الثانى) فى ختام الشيىء الكثير من رسائله :" إنما أطوى حديثى عن الألم

والهم اللذان يعانى منهما قلبى خشية أن تسأم وإلا فإن الحديث طويل".
كلذلك يدل على السر وراء إطلاق الكفار والمشركين لكلمة " مجنون" على الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه ، ويزيح اللثام عن سر تكرير الله سبحانه وتعالى لأمثال قوله : (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) [1] ، وإن مثل هذا القلق والإضطراب ليعطينا صورة يمكن أن نقدر فى ضوئها تلك الكمية الكبرى التى كان يتمتع بها أسلافنا العظام من التململ والتألم من أجل بؤس الإنسانية عامة وانحطاط المسلمين وضعف العقيدة والدين خاصة ، ذلك الذى يجعل مجدد الألف الثانى يخط قلمه مرات .
" وا ويلاه ، واحزناه ، وامصيبتاه ، إن محمدا رسول الله ـ وهو حبيب رب العالمين ـ أتباعه يعانون الذل والهوان والصغار وأعداؤه يتمتعون بالعز والمنعة والإعتبار ".

إنه كان يتوصل ـ بعد المقارنة بين كمية المساعى التى تبذل من أجل إعلاء كلمة الله وبين شدة الحاجة إلى هذه الحركة ـ حركة الدعوة والتبليغ ـ إلى أن هذه الكمية أقل بكثير وكثير مما تحتاج إليه أمثال هذه الحركة ، فكان يخاف أن يؤاخذه ربه على هذا التقصير والإهمال فى أداء الحق الذى عليه وذلك يسبب له الألم المضنى ، يقول فى رسالة إلى كاتب هذه السطور :" أين المحاولات التى أبذلها ، والصوت الذى أرفعه ، من المسئولية الضخمة التى تعود على من قبل الدعوة ، والتى أرانيها الله سبحانه وتعالى ، فإن عاملنى هو باللطف والكرم فذلك شأنه، وإن عاملنى معاملة العدل فلاسبيل إلى النجاة " .

وكانت ضآلة المحاولات الدينية التى تنفق من أجل مكافحة الفتن السوداء وسيل الإلحاد واللادينية العارم الجارف ، وتيار الإباحية العاتى فى العصر

(1) سورة الشعراء ــ الآية 3.

الذى يعيشه يسبب له الكآبة البالغة ، كلما يوازن بين الضعف وقلة الجهود وقوة الفتنة وسرعتها ، وينتهى به ذلك إلى أن قد لايسره ولا النبأ السار عن المجهودات والنشاطات ، يقول فى رسالة إلى الأستاذ عبدالغفار المجددى الندوى :" منذ أيام تسلمت رسالتكم وكان عهدى بها من قبل أن تهبنى الشيىء الكثير من النشاط والإنتعاش والسكينة والطمأنينة لكن الفتنة المظلمة التى تسلب الإيمان والعقيدة والتى تقضى على الشعور الدينى والوعى الإسلامى أسرع ـ زميلى الموقر ـ بكثير وكثير من " سيارات البريد " وبالعكس من ذلك هذه الحركة ـ وهى الشيىء الوحيد الذى يمكنه أن يقاوم هذه الفتنة مقاومة فعالة ـ أبطا بقدر ذلك حتى من النملة ، وبالتأكيد إن هذه الكمية الضئيلة من الجهود سوف لاتسمن ولاتغنى من جوع بالقياس إلى سرعة الفتنة وتمكنها وتأصلها .

حينما كانت بعثات الميواتيين تخرج للجولات ، فكانت تسر الناظرين إلى عددها وعددها من الهمة والعزيمة ، والإرادة المحركة ، إلا أن القلب الكئيب الحزين الملتهب فى صدره كان يريد أكثر من هذا ، وكانت بصيرته النافذة تنفذ إلى قلوب الوفود ، فتحسسها ، فتعود حزينة كليلة ، كلما تجد شيئا ما من الخور فى العزيمة والفتور فى الإرادة أو ما يسمى بالزيف فى النية ، من الشوق إلى العودة ، والحنين إلى الأهل وما إلى ذلك ، وحينئذ فتنقلب كل مسرته حسرة .

يقول فى رسالة يتحدث فيها عن الأنباء السارة عن نشاطات الدعوة والتبليغ :" قد وصلتنى رسالتكم التى تصف نشاطات حركة الدعوة والتبليغ ، وتفيد أن وفدا مكونا من 80 رجلا قد وصل إلى هناك ، وأن وفدا آخر يتألف من 25 رجلا على وشك الخروج فى رحلة دعوية ، فالحمد لله ، ثم الحمد لله ، فإن ذلك لمن مجرد كرمه وفضله ، ومن نعمه الجليلة ومنته الكبيرة ، أن قد عقد 80 رجلا النية على الخروج من وطنهم من أجل

نشر الدين وإصلاح العقيدة فى هذا العصر العصيب الذى اشتد فيه الإستخفاف بالعمل فى حقل الدعوة والإرشاد ، لكنه بجانب الشكر لله العلى القدير يطلب دقة وخطورة الموقف منا وقفة متأملة وقفة نتمكن فيها من تدقيق النظر ومراجعة الحساب ، فسندرك أن هذا القدر أقل من القليل بالنسبة إلى هذه الكثرة الكاثرة الهائلة من الشعب المسلم، ويزيد الأسف والحسرة النظرة المتفحصة فى هذا الزهد فى النشاذ والحماس بجانب هذه العزة والبركة وأنواع السعادة التى تجليها هذه الحركة الكريمة ، والتى تتضح اتضاح الصبح لذى عينين ، ويضاف إلى ذلك الحنين الزائد إلى الوطن الذى يصعب معه الثبات والصمود ، ولايكادون يخرجون من وطنهم إلا بعد تدابير كثيرة وحيل عديدة ، وإذا ما تجذب الدار الفانية هذا الجذب العنيف فكيف يتم عمارة الدار الباقية الآتية ، وبالتأكيد سوف لاتذوقون حلاوة الإيمان حتى تروح الإقامة فى الوطن تصعب صعوبة الخروج للجولة الدعوية الآن ويكبر العودة إلى الوطن على النفوس كبر الخروج إلى الدعوة والتبليغ اليوم ، وحتى تنهضوا لبذل الجهود الجبارة من أجل تعويد الشعب المسلم على بذل أربعة أشهر فى الجولة وتركيز العناية البالغة على تعميق جذور هذا العمل الجليل فى حياة الأمة المسلمة " .

ويقول فى رسالة أخرى : " رفيقى العزيز ! كيف أعبر عن آلامى المبرحة ؟ أن هؤلاء لايكادون يثبتون ولاعدة شهور ، وإننى أعتقد أنه سوف لايستتب الإيمان فى قلوبنا ولا تتأصل العقيدة فى أعماق صدورنا ، ولانستطيع تمكين وتدعيم العلاقة بيننا وبين الدين التى ترمى إلى الحصول عليها ، لايتم كل ذلك ، حتى يلزم كل واحد منا نفسه بالقيام بالجولة الدعوية ، ولا أقل من أن يلزم كل بيت من بيوتنا أنه سيجهز واحدا من أعضاء أسرته تناوبا للخروج والغدو والرواح من أجل تشييد بيت الدين والعقيدة .

أليس ذلك غريبا ـ ياأخى ـ أوليس يبعث السف العميق أن يتكالب كل من أعضاء بيوتنا على ما يتصل بالحياة الدنيا ، ولانكاد نرضى أن نتصدق على الخدمات الدينية والنشاطات الدعوية ولابرجل واحد !! " .

وربما يواجه قلقا واضطرابا حينما يريد أن يعبر عن معنى دقيق فلا يجد من الألفاظ ليفصح عن مشاعره، يقول فى كتاب : " إن هذا العبد الضعيف لفى وضع محير بشأن هذه الدعوة ، حتى ربما أكون لاالأقدر على التعبير عما يجيش فى الصدر " .

ويختتم رسالة له تحدث فيها عن المجهودات الدينية والسعى وراء نشر الدين ووصفها بأنها هى التى تستطيع أن تدفع البلاء ، وتحيي العزم ، وتحرك الإرادة ، أما أن نعيش الحياة المتجردة عن الحراك والجهد للدين ونتوقع انكشاف الكربة ، وانجلاء البلاء عنا ، فذاك وهم وجنون ، وتصور خاطىء كل الخطأ بهذه الكلمات .

إنه بما قد أصابنى قلق واضطراب لدى إملاء هذه السطور فإنى أكتفى بهذا القدر .

وإنه لمن فضل القلب الكبير الشجاع القوى الذى كان فى صدره أنه ـ بجانب هذه الحرارة ، وهذا القلق والإضطراب وهذا الألم المضنى ظل دائما متهلل الوجه ، سمح النفس ، ضاحك الجبين ، يتبسط مع الناس فى الكلام ، ويكرم الضيوف ويباشر الأعمال العادية ، وإلا فإن الشعلة المحرقة الملتهبة فى صدره منذ زمان لو انهكت قواه ، وأضنت عقله ، وعطلته من الأعمال ، لما دب إلينا العجب !!.

تحمل متاعب فى سبيل الدعوة :

قد جرت العادة ـ بشأن نشر الدين والدعوة إلى الخير ـ على استخدام البيان والبنان ، والقلم واللسان ، أما مزاولة التجوال والترحال والجولات والرحلات ، وإعارتها كبرى الأهمية والدرجة الأولى للحصول على هذه

الغاية ، والإعتقاد بأن الحاجة ـ بهذا الشأن ـ أشد إلى الحركة العملية منها إلى حركة القلم واللسان ، فإنما يرجع الفضل فى ذلك ـ فى عصره ـ إليه ، وشرح الله لذلك صدره شرحا تاما ، فكان يوصى بالصمود على هذا المبدأ ويدعو الله لذلك ويستدعى الصلحاء من عباده ، يقول فى رسالة له إلى الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوى :" ....إننى لأرجو منك رجاء نابعا من الأمان ومن أعماق القلب أن تدعو الله بكل اهتمام أن يجعل هذه الحركة ـ التى قمت بها ـ حركة عملية فى معنى الكلمة ، وألا تخدش ولاتقلل كثرة الأقوال من عمليتها ولتقتصر الخطب والأقوال على قدر الحاجة ، وماذلك على الله بعزيز ".

وكان يقول: " إن إثارة الحنين فى القلوب إلى التضحية بالنفس، فى سبيل إعلاء كلمة الله ، والشعور بأن بذل النفوس والأرواح متاع رخيص جدا فى هذه السبيل، ذلك هو جوهر حركتى، وتلك هى الغاية التى نرمى إليها ".

وقد تجشم منذ اليوم الأول ـ على الرغم من الضعف الناتج عن تقدم السن ـ فى الرحلات الدعوية ولا سيما فى منطقة ميوات من المشاق والأعباء ، مالاطاقة به للشبان من أولى الجلادة والقوة ، وهذا التفانى فى السعى وراء المقصد الشريف هو الذى ربما كان يفقده الشعور بالجوع والعطش فضلا عن النوم والإستراحة ، فيتداخل الليل والنهار ، وتمضى ليال وأيام دون أن يمس شفتيه ذواق ، وربما مضت عليه ست وثلاثون ساعة وهو جائع ، وطالما خرج من نظام الدين صباح أو مساء يوم الخميس أو صباح يوم الجمعة فلم يأكل ولم يشرب إلا بعد مارجع إلى نظام الدين يوم الأحد .

سهر الليالى الطوال ، وعبر الجبال ، وقطع أشد الطرق ، وصبر ـ فى شهر مايو ويونيو ـ للسموم اللافحة فى صحارى ميوات اللاهبة وللقر القارس ـ فى شهرى ديسمبر ويناير ـ للنفحات القاتلة للرياح الزمهريرية

فى المناطق الخالية والميادين المجردة .

وهناك رحلات إلى ميوات قام بها فى شدة من الحر ، وضعف فى الصحة ، قل معها الأمل فى الحياة وكثر عليها الخطر من الموت ، غير أنه عد هذا الخروج فى سبيل الله خروجا إلى الجهاد وأرض ميوات ميدانا للجهاد ، فأقبل إليها دون اكتراث بالأخطار والأعباء .

يقول فى رسالة له إلى الشيخ محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوى المؤرخ 16 مايو 1936 م :" قد انتهى بى الضعف إلى أن الحديث إذا كان ملتويا غامضا يختلج فى صدرى ، ويخفق منه قلبى وتنبو عنه نفسى ، حتى يعز على السفر إلى دلهى فى سيارة مريحة ، غير أنى رغم ذلك كله ، والحمد لله عزمت على القيام بجولة ستستغرق شهرا كاملا ، متأكدا من أنى سأكون غرضا للسموم اللافحة ولأحاديث جهلاء ميوات التى تكون غاية فى الغموض والإلتواء ، فحاولت أن أخاطر بنفسى وتصورت هذا الخروج خروجا إلى الجهاد ، فكأنى مصمم على الخوض فى الجهاد لكن أخوف ما أخافه هو ضعفى وفتور همتى ، وأخشى نفسى الباغية أن تتولى عن مواجهة الشدائد والمشاق منهزمة خاسرة خائبة ، فادع الله جل وعلا أن يرزقنى الصبر على المكاره ما دمت حيا ـ وماذلك على الله بعزيز ـ أو يوفقنى لتحقيق الهدف وإحراز النجاح فأعود سالما غانما ، فإنى أحسب هذه الرحلة أهم مسئولية فى عنقى، وأحسب الإلتفات إلى الصحة والضعف أشد معصية أقترفها وها أنا ذا أقدم على السفر على يأس من الحياة ....."وكانت هذه الرحلة بعربة يجرها الثوران، وكانت الطريق تتداخل الجبال فى موضع يقال له كلتاج بور وأخذت العربة تصعد الجبل فانقلبت واصطدم الركاب ، ثم صعدوا ، وهم مكدودون مجهودون مغبرون قد خلع الصعود أضراسهم ، وكان الوفد يتكون من بعض أولئك العلماء الذين لاعهد لهم بهذه الأعباء ، فبادرهم الشيخ ... قبل أن يشكو مالقوه

من المتاعب والشدائد وذهب بهم مذهبا آخر ، قائلا : زملائى إن هذا الصعود الذى هو شبه صعود على حراء ، إنما سعدتم به لأول مرة فى الحياة ـ ولكم الله أخبرونى كم مرة واجهه النبى صلى الله عليه وآله وسلم ـ فى حياته السعيدة ؟ فيا أسفى على هذا الحرمان والتقصير !! فمن كان لينبث بشكوى بعد ذلك ؟.

وإذا ماعزم على شيىء فلم يحل دونه ودون تحقيقه شيىء ، ومن ثم فكل شيىء عنده ممكن مستطاع إلا ماشاء ربك ، وأما كلمة اليأس فليست تحمل لديه معنى ، وإذا ماتذكر شيئا يريد تحقيقه عزم عليه ونفذ إرادته مهما كان الزمان والمكان .

فتذكر يوما أن هناك أمرا مهما فاته أن يأمر به أهل بلدة نوح فى ميوات ، فلابأس بالوقت ولو كان هو الهجيع الأخير من الليل ، فيمشى على رجليه من بستى نظام الدين فى دلهى الجديدة ويدخل على الحاج نسيم [1] فى بيته فى دلهى القديمة ، ويستعير منه سيارة يركبها ، فتقف به فى نوح والوقت وقت السحر ، والناس نيام والبلدة ساكنة ، فيشبع غرضه ، ويصلى الفجر ، ويأخذ طريقه إلى دلهى .

والسفر مجهز إلى ميوات فلاحرج ولو أمطر السماء مطرا غزيرا سالت به الشوارع والمستنقعات والبلاليع ، ولاحاجة إلى عربة الحصان ولو ألح الناس، فليكن المشى على الأقدام لوكان الماء إلى الركبتين وقد صدق الشيخ محمد منظور النعمانى حين قال فى إحدى كتاباته :" إنه وإن كان نحيف الجسم ضعيف البدن ، بذل فى هذا الغرض الشريف من الجهود المتواصلة والسعى الحثيث ، مالا يستطيع ـ على حد تقديرى ـ المزيد عليه من تمثلت له الجنة ـ على حد الفرض ـ بآلائها ونعمائها وزينتها

(1) كان من كبار تجار دلهى الموفقين، المساعدين على عمل الدعوة.

وزخارفها ، وتجلت له جهنم بأهوالها وأخطارها ومكارهها ومتاعبها ، وقيل له : إذا علمت بهذا دخلت هذه الجنة ، وإن أبيت أدخلت هذه النار "[1]
.

وأما رفقاؤه فى العمل ، فكان يعنى بإراحتهم عناية ممكنة ، ويوفر لهم أسباب الراحة ما يستطيعها ولا يكلفهم شيئا يكرهونه إلا إذا اضطرته ضرورة ملحة ، فيشجعهم على الجد والإجتهاد والتحمل .

فكان مرة فى جولة تبليغية فى ميوات ودعته حاجة إلى أن يعود إلى دلهى ، فيتولى العمل بعض أعضاء الوفد فأوصاهم قائلا : عليكم بالجد والسعى ، وعهد إلى الأعضاء الميواتيين بتوفير الراحة قائلا : وعليكم بالإجتهاد فى توفير الراحة والتسهيلات ، ثم غادرهم وهو يقول : إن كان نصيبكم من الراحة فحسب فذلك هو الهزيمة .

وكان لايريد ما يهيىء الله له من أسباب الراحة والنعيم ، بل يقدره حق قدره ، فيتمتع به كنعمة من نعم الله أكرمه الله بها ، فلا يتكلف غائبا ولايرد موجودا ، وذلك هو كان مبدأه المتبع طوال حياته .

أجل... ولم يكن يتكلف المشقة والصعوبة والعسر إذا أنه كان يتشجع على الطموح وبعد الهمة ، والعزيمة النافذة ، فى المحاولات الدينية ، فكان يطلب إلى أهل ميوات الذين يخرجون فى الجولات الدعوية أن يحافظوا على بساطتهم وعادتهم على الجد والكد ، فإن ذلك هو جوهرهم الأصيل ، فسلام على التصنع والسهولة اللذين يعتادهما أهل المدن ، فذلك هو نقطة ضعفهم وداؤهم العضال ، فليفضلوا البساطة فى المأكل والملبس ، وليفضلوا النوم على سطح الأرض وليعتادوا تحمل الشدائد .

ويخاف أن يتأثروا بأبناء المدن عن طريق الإختلاف إليهم فيرغبوا فى

---

(1) إقرأ " تجارب حياتى " فى الأردية للشيخ محمد منظور النعمانى .

معيشتهم ذات الراحة والتنعم والسهولة .

وكان يقول: الإنسان مجبول على تحمل الشدائد والصمود للمشاق ، لقد خلقنا الإنسان فى كبد ، فإن لم يكن ذلك فى أعمال الخير وفى سبيل الدين ، فسيكون فيما لايغنيه عند الله شيئا ، كما نلاحظ ذلك فى يومنا هذا فأين هذه البضاعة المزجاة من المجهودات والمشاق التى نتجشمها فى سبيل الدين ، والدين هو الغاية الأساسية وفى أعمال الخير المثاب عليها فى الآخرة من تلك الجهود الجبارة الفخمة المتوالية التى يبذلها العالم المعاصر المجنون اليوم فى سبيل الأغراض التافهة والآمال والأحلام الموهوم تحققها ؟!.

وقال ـ وقد بلغه مرض أحد رفقائه ـ : إنه ليس شيئا ذا قيمة كبيرة أن يصاب أحد بالحمى فى سبيل الدين فى العصر الذى يضحى الرجل فيه بنفسه فى سبيل لقمة العيش .

ويقول فى رسالة له :" لن يكرمنا الله بسعادة الآخرة والقرب والإحسان حتى تكون كفة المجهود الدينى هى الراجحة وكفة المجهود الدنيوى هى الطائشة " .

ويقول فى كتاب آخر ما خلاصته : " إن رحمة الله تعالى تنزل بقدر انكسار القلب ، وذلك بتحمل الشدائد والصبر للمصائب، والمتاعب ، أنا عند المنكسرة قلوبهم .... والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا .. وسوف لايدرك المجد ، ولايكتب العز ، إلا بالجد والكد ـ إلا استثنائيا ـ والنجاح فى كل شيىء منوط بالإجتهاد فيه " .

وكان يحبذ ويقدر تقديرا بالغا ، خطوة واحدة يخطوها أحد، ويستعظم تعبا يسيرا يذوقه رجل ، نظرا إلى بعد العصر الذى نعيش فيه عن خير القرون وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإلى سقوط الإرادة ، والفتور فى الهمة ، وهذا التقدير والتحبيذ هو الذى جعل أصحابه ومن

حوله من أولى الهمم الفاترة ، أصحاب طموح وإرادة ماضية وهمة بعيدة ، وأصبحوا يسرعون فى السير فى سبيل الغاية ، يقول فى رسالة إلى كاتب هذه السطور وجهها إليه وقد أصيب بالحمى فى جولة تبليغية : " .... أود أن أحبذكم إلى أن خروجا فى سبيل الله فى هذا القرن الرابع عشر الهجرى هو الذى تسبب فى مرضكم " .

هل أنت إلا إصبع دميت وفى سبيل الله مالقيت

فليست هذه الحمى فى ظاهرها إلا الحمى التى يصاب بها كثير من بنى البشر من حين لآخر ، إلا أنها تمتاز عن أخواتها لو راينا أن السبب فيها هو السعى وراء فتح طريق للحياة لو تم هذا الفتح ـ ولو بعد تضحيات نفس ـ لتسنى لكل فرد من امة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ ممن حبستهم الأشغال والأعمال ـ أن يتمتعوا بحظ وافر من الرشد والهدى .

ويقول فى رسالة أخرى : .. إن هذا الدين ليست التضحية بالأنفس والمهج فى سبيله شيئا ذا خطر ، وإنما تستوفى قيمتها بعض الشيىء عبرات غزار ودموع سخية ، وتألم القلوب وتحرق الأكباد والصدور ، ومن هنالك فإن هذه الجهود الضئيلة وهذه الخطوات العدة ليست من الأهمية بمكان بالنسبة إلى ضخامة وعظم المسئولية ، إلا أن النظرة إلى رحمة الله ورأفته وعطفه وكرمه ، وإلى قوله تعالى: (لايكلف الله نفسا إلا وسعها) [1] تبعث الأمل الكبير . .

وكان الشيخ يجمع بين التحريض وتأليف القلب ، فيقدر كل عمل ضئيل وسعى قليل ، ويأخذ حين التحريض بأقصى الناحية ، ويلتفت بالناس إلى أبعد الغايات ، ويضع نصب عيونهم أرفع الأعمال وأعلاها وأكثرها ، حتى لايزهوا ولايتباهوا بما أتوا به .

(1) خواتيم سورة البقرة.

علو الهمة : أما الطموح وبعدالهمة فذاك جوهر حياته ، ومزيته التى ينطلق بها واقع حياته ، وتدل عليها أوضح الدلالة كتاباته وأقواله وأعماله ،والغاية التى وهب لها حياته ودعا إليها الناس لاتتفق ـ ولا بعض الشيىء ـ وما حوله من البيئات وكانت ترتفع جد ارتفاع على مستوى عقلية العصر الذى عاش فيه ، ولذلك فكان يضن على الناس بآماله البعيدة وعزائمه العالية التى كانت تموج فى قلبه ، وقلما كان يبديها لأحد ، عملا منه "خاطبوا الناس على قدر عقولهم واستعينوا على أموركم بالكتمان " غير أنه يتوسم ذلك بعض من لديه أحيانا فى كلامه وكتاباته.

فقال مرة لأحد من ذويه وهو الأستاذ ظهير الحسن[1] : " ... ياأخى إن هؤلاء لايكادون يدركون ماذا أريده من وراء محاولاتى ، وهناك أناس يفهمون أن هذه الحركة ـ حركة الدعوة والتبليغ ـ حركة إقامة الصلاة فحسب ، لاوالله ليس الأمر كما يفهمونه ...

وقال يوما فى صوت فيه غاية الحسرة :" أخى ظهير الحسن ! أود أن أجعل من هؤلاء الناس أمة جديدة" .

فهذه الحركة لم تكن عنده كحركات طارئة ـ وما أكثرها ـ تثور وتهدأ ، ولو بعد قرن أو قرون ، وإنما كان يريدها حركة ماضية إلى يوم أن يرث الله الرض ومن عليها تعمل عملها ، وتحيي مايموت من الدين وتجدد النشاط ، وتبعث الحماس ، وتقطع اليأس ، وتربط الناس بالله .

يدل على ذلك مقتطف من رسالة له إلى كاتب هذه السطور ، يقول

(1) أحد أعضاء أسرته وأقاربه ، كان من المثقفين بالثقافة الحدية ، خريج جامعة عليكراه الإسلامية وزميل الدكتور ذاكر حسين خان رئيس الجمهورية الهندية سابقا ، توفى فى 23 من ذى القعدة 1366هـ ـ 9 من أكتوبر 1947 م قتله أحد الهندوس ـ وهو من أصدقائه ـ بالرصاص ، وذلك على أثر التقسيم فى وطنه كاندهلة .

فيها :"…. تلقيت كتابكم الكريم الذى شمل المجلس بالشيىء الكثير من الفرح والسرور ، بما حمله من الأنباء السارة ـ جعلها الله صادرة من صميم الواقع ـ ولندع الله أن يجعل هذه الحركة ـ بفضل قدرته التى بها وحدها جعل السماوات السبع والأرضين تقوم بغير عمد ترونها ـ حركة ذات عمر طويل ، فلا تكون كالماء يفور فورانا ، ويفيض فيضانا ثم يهدأ ، ولاتكون سطحية عابرة ، فتبرد بعد مدة ، ولتكن محكمة البناء ، مركزة الأجزاء " .

وكان يود أن لايواكب هذه الحركة الدعوية ما يجعل الناس يفهمون أنها تختص بشخصه ، وتدور بإدارته وستموت بموته ، فلا يسعى لها الناس بعده ، ولذلك فكان يدعو إليها العلماء على اختلاف وجهاتهم واتجاهاتهم ، حتى لاتفهم حركة شخصية ، ويرفض أن تنتمى إليه ، بل كان يريدها حركة عامة شاملة يسهم فى السعى لها ، وبذل المحاولات فيها ، كل المسلمين أيا كانوا .

ولايسره خروج عدة مئات من الرجال إلى الجولات الدعوية أو إلى الرحلات الدراسية ، أو إلى طلب العلوم الدينية ، وكان يتمنى أن يأتى الوقت الذى يرى بأم عينيه خروج مئات الآلاف من الرجال بل ويكون ذلك جزءا من حياتهم لازما حتى يعودوا لامعدى لهم عن ممارسته .

ولم يكن عنده من الأهمية بمكان أن تحدث تحولات إسلامية فى أخلاق وعادات أهل " ميوات " فحسب ، أو الشعب المسلم فى أية قطعة من الأرض ، إذ كان يود أن لو وفق ليبدل لغة البلاد بأسرها بالأخرى ، وهى اللغة العربية لاغير ، وأنه يعتقد أن جهود الإنسان لو حالفها التوفيق ، وسعدت بعون الله ، تجعل كل شيىء فى الحياة ممكنا مستطاعا ، بل ومحققا مجسدا .

وكان يود إحياء اللغة العربية ولاسيما فى أوساط المدارس العربية الدينية فى الهند ، فيقول فى كتاب إلى كاتب هذه السطور :"….. هناك أفكار

وعواطف تزخر فى صدرى لا أبرح بها لأحد ، ظنا منى أن ذلك لم يأن أوانه إلا أنى لأرجو منكم إمعان النظر فيما إذا كان من الممكن إلزام تلاميذ المدارس العربية ـ فى جولاتهم الدعوية ورحلاتهم التبليغية ـ باللغة العربية فى التحادث " .

ثم أحيط به علما بأن ذلك قد جرب فعلا فى الجولات الدعوية التى كان يقوم بها طلبة دار العلوم الثالثة لندوة العلماء تحت إشراف الأساتذة ، ودخل مشروعه فى مرحلة العمل مكللا بالنجاح ، فكتب إلىّ فى غاية السرور :".... قد سرنى جد سرور إحياء اللغة العربية ، أدعو الله أن يجعل ذلك يستقطب عناية رجال المدارس العربية الأخرى إلى ذلك فينهجوا هذا المنهج ".

وكان بوده أن تتخطى هذه الحركة حدود الهند، وتشمل مشارق الأرض ومغاربها، ولاسيما الأقطار الإسلامية والبلاد العربية ، وقد خطط لذلك تخطيطا دقيقا ، وكانت عواطفه الجياشة قد علقت آمالا بعيدة وأمانى نبيلة على هذا العمل الشريف وآثاره وثماره وبركاته ، وقد يبدى بعض هذه الآمال بلهجة فيها الشيىء الكثير من مزيج الحماس والتألم ، والتوجع والتأسف ، فلم تكن قائمة اللاإمكانات (المستحيلات) عنده طويلة بالقدر الذى يفترضه افتراضا فاتروا الهمة فاقدوا الأمل ، فكان يبذل محاولاته صادرا عن ثقة لاثقة بعدها ويقين لايقين بعده ، كما كان يدعو الله كذلك دعوة مؤمن بالإستجابة وبمحالفة التوفيق ، وانفتاح الطريق ولايستبعد شيئا عن رحمته الشاملة وقدرته التى أطافت بكل شيىء، وعونه الذى ينتظر كل مستعين، يتجلى ذلك فى رسالته إلى الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوى، التى هى الدليل الواضح على عاطفته المتحمسة ، وألمه العميق :" .... إنى أسألك بكل إلحاح وعزيمة، وبالله تعالى أن تتنازل عن حسبانك عمل الدعوة هذا من اللاممكنات أو

المتنعات ، نظرا إلى قوله تعالى فى حديث قدسى : " أنا عند ظن عبدى بى "[1] ثم إلى " سعة القدرة الإلهية " ، فلتعتقد فيه أنه مما يتم بكل سهولة ، زملائى! إنه لاينبغى لأولى الأبصار أن ينظروا فى أمور الحياة إلى عجز المخلوق ، وتعقد الظروف والأوضاع ن تفاديا من النظر إلى قدرة خالق السماوات والأرض ، مكور الليلي على النهار ، وأن ينظروا فى الأسباب المطلوبة ، بدلا من أن ينظروا إلى الخطابات الإلهية المشجعة ، إن سنة الله الأزلية تنادى بأعلى صوتها أنه يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، ويعطى ما يسأله ، ويحقق كل مايرجوه ، فما إذا يمنع ذوى الفطانة أمثالك أن يسألوا الله ـ مسألة إلحاح وإلحاف ـ التوفيق لتحقيق ما أراده الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وتريده الشريعة ، وسامحنى فإنى ربما يجعلنى " جنونى " هذا لاأتمكن من مراعاة مكانة ذى الجاه الكبير ، والمنصب الخطير ، فأرجوك إعمال العفو العريق والإرفاد بالدعاء ، إلى المولى الكريم سبحانه وتعالى " .

والأسف كل الأسف أن " العزيمة الماضية " و " الهمة النافذة " التى يعبر عنها رجال التاريخ إذا ما تتصل بالحاكمين والفاتحين ب " عزيمة الفاتحين " و " إرادة الحاكمين " فتتضخم وتتفحم ، لكن يعبر عنها القوم إذا توجد لدى رجال اليقين والإخلاص والإحسان بأحوال " الجذب " و " الكيف " فتصغر وتتهون ، ولاغرو فقد تعود الناس منذ قديم على التعبير عن شيىء لم يكتنهوه بالأحاجى والأساطير .

الغيرة الدينية :

وقد أودع الله فى طبعه غيرة على الدين زائدة لاتحسن وصفها الكلمات ، فقد كان السبب المباشر فى تألمه وتوجعه ، وقلقه واضطرابه ـ ذلك الذى

---

(1) رواه الترمذى وغيره وصححه الألبانى.

يدعه لايقر له قرار ، ولايهدأ له حال ـ وفى إحيائه حركة الدعوة والتبليغ ، هو هذا الإنحطاط الدينى الملموس ، لقاء غلبة الكفر ، وقوى الشر المتزايدة ، الأمر الذى كان تأباه غيرته القوية على الدين ووعيه الإسلامى الصحيح ، إلا أن الإستراتيجية الحكيمة التى جعلها نصب عينيه ـ بتوفيق من الله بوحى من بصيرته الوقادة وتعمقه فى الدين ـ للعمل الإسلامى والخدمة الدينية ، كان لايحب أن يغيرها أو يعدلها بعض تعديل إنطلاقا مع العاطفة المتوقية الثائرة .

وربما كان يتحمل أشياء تتنافى مع طبعه الغيور الحساس ، كأنه لم يشعر بها ، بما أوتى من قوة الإحتمال والصبر على المكاره ، إلا أنه قد تفيض كأس الصبر بقطرات ، وترتفع شعل من الجمرة الملتهبة فى صدره ، فتدلنا على مدى الغيرة الهائجة الكامنة فى قلبه .

و قد سألته ـ أنا ـ ذات مرة ـ كاتب هذه السطور ـ ونحن نمر بالقلعة الحمراء ، التى بناها الملك المغولى شاه جهان فى دلهى ، هل زرت القلعة ؟؟ فقال : إن هذه القلعة عندى تدل على فقدان الغيرة الدينية، إلا أنى زرتها فى صباى حينما كان الدليل يطوف بالناس عليها وفى أنحائها وعيناه تذرفان .

وهنالك فى الهند إختبارات فى بعض العلوم العربية والإسلامية، تمنح الجامعات الرسمية العصرية الفائزين فيها شهادات توفر لهم إمكانات الوظائف فى المناصب الحكومية .

وكان الشيخ يتأذى من تلك الإختبارات كثيرا، كان يقول: إن هذه الإختبارات تحدث تحولا كليا فى النسبة وتربط حملة هذه الشهادات بالمادية وبالدنيا وبحطامها، على حساب العلاقة بالدين وبالله وبالرسول وبالتالى

تذهب برواء وبركة العلوم والفنون التى يمتحن فيها هؤلاء، وقد يكون

المُختَبِر ـ بالكسر ـ فى هذه المواد العربية والإسلامية من لايراعى للإسلام وأهله إلا ولاذمة، وعنده رصيد ضخم من الحقد والعصبية ضد الإسلام، وضد هذه العلوم لمن ينتمى إليها .

فكان يعز على الشيخ أن يكون المسلم متطفلا على مائدة الأجنبى فيما يتصل بالعلوم العربية والإسلامية ، يقول فى رسالة له إلى أحد من الغيارى من المسلمين :" أخى إنى لأغار أن يكون هناك رجال يكفرون بالله ورسوله ، يمتحنون المسلمين فى العلوم العربية ".

وكان يعتبر بعض معاصريه الذين كانوا فى الواقع مصداقا لقوله تعالى : " أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ " [1] ......إما مافى البغض فى الله ، ويقول : إن هذا الخلق حقيق بأن يكتسبه كل مسلم ..

وكان عزيزا عليه الصبر على إنكار لحكم من أحكام الشريعة أو عيب عليه ، أو استخفاف به ، فماهو إلا أن كان يثور وينبض ويفور عرقه (الصديقى) على مثل هذا الإنتفاض والوضع عما يتعلق بالدين ولاتحول دون الإنكار على ذلك والتنديد به مصلحة أو غرض ، فقد ركز عناية كبيرة على مقاومة حركة الإلحاد التى كان يقودها بعض الهنادك المتعصبين المتحمسين ، ولذلك فلم تنجح تلك الحركة الإلحادية فى منطقة ميوات .

حرصه الشديد على اتباع السنة :

وكان لديه من الحرص الشديد على اتباع السنة ما يندر وجوده فى يوم الناس هذا ، ذلك الذى كان يذكرنا بأسوة الأئمة السلف الصالحين ، ومدى عنايتهم بهذه الناحية ، وكان مطبوعا على أن يتبع حتى من السنن الصغيرة مالا يحسب القوم له حسابا ، ولايلقون له بالا ، أما المواظبة عملا وقياما بها ، والسعى وراء إحيائها ونشرها ، وترغيبها وتحبيبها إلى

(1) سورة الفتح _ الآية 29.

الناس ، فله فى ذلك دور أى دور .

فدعا الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوى فى آخر يوم من حياته ـ وهو أشغل يوم فى حياة الإنسان ـ وأكد عليه الوصية أن يتبع ويتقصى من دواوين السنة ومجاميعها كل جزء يتعلق بحياة النبى الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم سواء كان من الأعمال أو الأقوال أو الأخلاق والعادات ، وكرر عليه التأكيد أن ينفق فى نشره وترويجه ما يستطيعه من الجهد ، وما يمكنه من السعى ، وما يملكه من الوقت .

وأما الذين لم يشهدوا حين ذلك ، فجعل فيهم ـ أحد المخلصين ـ وهو الأستاذ عبدالرحمن ـ ولى الوصية بذلك ، وأناط به مسئولية إبلاغ رسالته إلى الذين لم يتلقوا رسالته مباشرة التى تتضمن تأكيدا أى تأكيد على اتباع السنة وعلى أن ما اصطلح عليه الفقهاء ورجالات الإجتهاد ، وماصنفوه من أنواع وأصناف ، وما فضلوه ورجحوه من الأحكام ، كل ذلك حق ، وله نصيب من السداد ، إلا أن كل ماينتمى إلى النبى الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فلابد من اعتباره ضروريا بالنسبة إلى العمل .

وهذا الحب الكبير والحرص الشديد على الإتباع والتأسى بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم قد أثر بالإضافة إلى ناحية العبادات فى عامة عاداته كذلك ، فكان يود أن يتأسى به صلى الله عليه وآله وسلم فى الأمور الطبيعية والشئون الإضطرارية ، فكان يحضر المسجد خلال مرضه الذى توفى فيه متهاديا بين رجلين ، اندفاعا وراء التشبه بهيئة النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى حضوره المسجد فى مرض وفاته التى صورتها الأحاديث ، فقام يهادى بين رجلين ورجلاه تخطان الأرض ، حتى كان يعز على الشيخ لو حدث خلاف ذلك يوما .

وأن هناك لاتباع السنة منزلة دقيقة دقة قصوى وذات خطورة كبرى ، وهى أن يتأثر الإنسان بالأحوال والحوادث البشرية العامة فى الحدود

الشرعية ، فكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يحزن طبعا بصفته بشرا ، بالحوادث والعوامل التى تسبب الحزن ، كما كان يتكيف بكيفية السرور والحمد والشكر فى مواطن السرور والغبطة ، وقد ينشأ سوء فهم لبعض الناس فيفهمون أنه لابد لأكتمال الروحانية والربانية ، وللترقى فى مدارج الكمال ، أن يتحلل البشر من جميع الإحساسات والكيفيات والإنفعالات البشرية ، فلايحزن أبدا من المحزنات، ولايسر من المضحكات .

وهذا هو الشيخ السرهندى يعيب على شيخ جليل أعرب عن عدم تأثره من نعى وفاة إبنه، ولم يعر ذلك اهتماما، ولم يبد أى حزن يحزنه الثاكل، يقول السرهندى : إنه لما توفى ابن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم سمعه الناس يقول : إن العين لتمع ، وإن القلب ليحزن ، ولانقول إلا مايرضى ربنا ، وإنا لفراقك ياإبراهيم لمحزونون .

وأظن أنا أنه ربما مابلغه نقد الشيخ السرهندى لهذا الشيخ ، لكنه كتب إلى والده نفس المعنى ، مما يدل على كمال اتباعه للسنة وفهمه العميق الدقيق لروح الشريعة :....قد كتبتم إلى العزيز يوسف [1] كتابا يدل على عدم حزنكم فلتذكر أن ذلك مما تنكره الشريعة، ولابد أن عوامل الحزن قد فعلت فيكم فعلها ، إلا أن إبداء التأثر من الحزن هو ضرورى كذلك وإنكم بدوركم تعلمون جيدا أن كل حالة يصاب بها العبد من الله ، لابد من التأثر منها ثم الإعراب عن هذا التأثر .

وإلى المكتوب إليه نفسه كتب عند ولادة ابن له :

إن ذلك لنعمة كبرى من الله جل وعلا ، لابد من الإغتباط بها من صميم القلب ، وإن لم يتأت السرور طبعا وعفوا ، وانطلاقا من القلب ، فلابد

(1) هو ابن فضيلة الشيخ محمد إلياس المترجم له ، وخليفته وأمير أهل الدعوة بعده ، الذى توسع فى أمر الدعوة والتبليغ توسعا كبيرا.

من اصطناعه وإبدائه شكرا لله العزيز القدير .

حلمه وتواضعه :

وكان غاية فى الحلم والأناة إلى جانب غاية إرهاف الحس ، ورقة الشعور ، وكم كان يشق عليه أن يسمع أو يرى شيئا لايمس الهدف مسا ، ولايتصل بالغرض اتصالا ، ولكنه يتحمل كل ذلك ليله ونهاره نظرا منه إلى طبيعة وخطورة العمل ، الذى حمل عبأه ، وإدراكا منه أن ذلك العمل إلى المخالطة الشاملة والإحتكاك بالناس أحوج منه إلى شيىء آخر ، وظل يستخدم قوة احتماله ، طيلة العمر ، حتى فى المرحلة الأخيرة من حياته ، أيام كاد يتملك عليه الضعف ، والتفانى فى الغاية ، هذه القوة : قوة الصبر والإحتمال .

فقد سمعنا أن رجلا من ذوى العلم والثقافة كان رفيقا له فى سفره ، ولقى منه معاملة قاسية وسوء خلق واستخفاف به طول السفر فيتحمل ذلك بكل حلم ، وهو يرى ويسمع ، ثم قال مخاطبا له : " أفهل تظن أن غضبى يثور عليك على ما تفعله ، لا ، كلا ! إن لغضبى قيمة ولا أضيع ماءه بوضعه فى غير مواضعه ".

خرجت مرة فى بعثة دعوية إلى قرية من قرى الهند ، وكان الشيخ رئيسها ، فلما قدمت القرية أخذت تقوم بجولتها فيها ، ووقف الشيخ فى مسجد القرية ، وبعد ما أرضت البعثة حاجتها إلى الجولة ، عادت ساحبة معها فتى من القرية إلى المسجد ، وألفت الشيخ وهو يخرج من المسجد ، فقدمت الفتى إليه قائلا : إن هذا لايصلى ولا واحدة من الصلوات الخمس ، ثم شكوت إليه استهزاءه بالدين ، وفعلا قد جعل الرجل يضحك ساخرا من الشيخ على حساب الإجلال والإكرام ، غير أن ذلك لم يثر فى الشيخ شيئا مما يسمى بالغضب أو السخط ، وإنما أثار الشيىء الكثير من الشفقة والحنان فالتفت إلى الفتى ، ووضع يده على ذقنه داعيا له :

أضحكك الله ما دمت حيا ، ثم وعظه بشأن الصلاة بأسلوب فيه كل البساطة ، فرضى الفتى من ساعته ، وتوجه إلى المسجد وفى جولة دعوية أتفق له أن وضع يده على رجل يدعوه إلى المساهمة فى الخروج لتبليغ دين الله ، فاستنشاط الرجل غضبا ، يقول : لوعدت لمثله لانهلت عليك ضربا بالعصا ، فأخذ برجله يقول : إنك لم تمنعنى من رجلك فهدأت ثأرته ، وأصبح هينا لينا .

وكان فى رحلة دعوية ، فلما أراد الرجوع إلى دلهى ركب على عربة يجرها ثوران لكى توصله إلى موقف السيارات ، وكاد أن يحين موعد مغادرة السيارة التى توصلها إلى دلهى ، فتقدم إلى المتقف رجال يستوقفها ، وكان سائق العربة يسوق الثورين متباطئا ، وكرر عليه الراكبون الإلحاح ولكن بدون جدوى ، ولم يقع من نفسه أى موقع ، وظل كعادته يسوق بأناة ، وقد وصلوا إلى الموقف فإذا بالسيارة قد غادرت ، فجعل رفقاء سفره يصبون على السائق من العتاب واللوم والزجر ، ألوانا وأشكالا ، وقد أدى الإسراف فى الغضب ببعضهم من الكلام إلى ما ليس من عادتهم ، أما الشيخ فلم يزد على أن يقول : أخى! ماذا عليك لو اطلعت هؤلاء فيما كانوا يلحون عليك ؟ .

وكان من عادته أن يغضب شديدا فيما يتعلق بعمل الدعوة ، على من يتوسم فيهم الإخلاص المفرط ويدرك الصلة المتينة بينه وبينهم ، حتى قد ينفجرون بكاءا ، غير أن ذلك لايزيدهم إلا صلة به ، واعتقادا فيه ، وإعجابا به ، ورضا عنه ، وقد سمعناه يقول : إنى دعوت الله أن يجعل الغضب الذى أغضبه على أحد رحمة عليه .

الشيخ محمد إلياس فى ضوء رسائله :

كتب فى موضع : " يجب أن يخلص العبد سعيه فى إعلاء كلمة الله وتبليغ رسالته ، منا بأن الله مولاه ناشدا لرضاه ، مستعدا لما بعد الموت ،

فإن الأجر الموعود من الله يتوقف على ذلك ، ولم يدل على هذه الحقيقة الحصر الذى فى " أولئك يرجون رحمة الله " [1] فحسب ، بل تؤيدها ألوف من آيات كتاب رب العالمين .

وليعتبر العبد نفسه عاصية خاطئة ، محفوفة بالأقذار والأضرار، مفسدة للأعمال ، فإن حقيقة رحمة الله شيء لايكاد يتراءى إلا بعد عبور جسر الموت ، ولذلك فيجب أن ينوى فى سعيه للدعوة ولتبليغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الناس ، إن كل عبد من عباد الله ـ ويستثنى فى ذلك نفسه ـ هو صالح الطينة ، شريف النفس فى حق ذاته ، فكل مايقوم به من عمل سيكون صالحا فى مظهره وحقيقته ، فسيجعل الله له نصيبا من هذا العمل ببركة هذه النفوس الزكية ، بحكم (الدال على الخير كفاعله) .

ويقول وهو يؤكد على التفكير ، ليس التفكير شيئا يفوق الطاقة ، فإنه توطين النفس على أن هذا العمل (الصالح) سيرضى الله ، وأن الموت الذى لامناص منه ستصلح حياتك الشهوانية وأن يؤمن الخارج فى سبيل هذه الدعوة بكل مايتضمنه : الدال على الخير كفاعله ، ويعلق اليقين على كل ما سيؤتى من الجر والثواب على الخروج فى هذه السبيل ، كل هذا هو التفكير .

وكان الشيخ حريصا تمام الحرص على أن الذين يخرجون فى سبيل الله لإعلاء كلمته وتبليغ دعوته ورسالته ، ما أحسن أن يسهمهم فى مهمتهم وأجرهم أعزاؤهم وأقرباؤهم ، بإبداء الرغبة والرضا ، والتشجيع والتقدير ، والإشارة والترحيب ، وكان الشيخ يود لو أتيح له أن يوجد فى أبناء الأمة

---

(1) وتمام الآية :" إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله " ..

الإسلامية كلها على اختلاف ألوانها وطبقاتها شوقا إلى الأجر والثواب ، وحنينا إلى الإيمان والإحتساب .

واستهل هذه العملية النبيلة من بيته وعشيرته ، فقد وجه إلى أهل بيته من أرض الحجاز رسالة كتب فيها :" انظروا : كيف يترك الإنسان أهله وعياله لأغراض دنيوية لمدة لاتحصى ، ثم انظروا : أن هناك كثيرا من أبناء الإسلام هم فى جنود الكفار ، كيف يخاطرون بالأنفس والأرواح ، ويقفون كل وقت على شفا حفرة من الموت لسد رمقهم وإشباع نداء بطونهم ، فلا ينبغى لكم هذا التثبط ، فوداعا لهذا الضعف فى الهمة والخور فى الإرادة ، وارضوا بفراقى هذا فى خدمة الدين ، بكل همة وعزيمة سيجعل الله لكم نصيبكم من هذا الأجر والثواب حسب رضاكم ، واغتنموا أن أهلكم يتجشم المشاق ويتحمل العناء فى سبيل الله وخدمة الدين ، واشكروا الله على ما ستنالون من الجر الذى لاينتهى والعوض الذى لايغض ، وسيأتى كل عناء رخاء وكل صدمة هناء " .

وكان كثير العمل بوصية : (آت كل ذى حق حقه) ، و (أنزلوا الناس منازلهم) ويمنح ذوى الفضل والعلم أقصى مايستطيعه من التوقير والإكرام ويعاملهم معاملة ممتازة جديرة بمكانتهم على قدر منازلهم ، حتى يتحرى المكان الذى يجلسهم فيه ، فيعده إعدادا ، ويجالسهم مجالسة ذات تواضع وانخفاض كبيرين ، ربما يلتبس من أجل ذلك التميز بينه وبين جلسائه على من لايعرفه من ذى قبل .

وكانت تتوافد البعثات التبليغية ذات العدد الكبير إلى بستى نظام الدين { مقر حركة الدعوة الرئيسى } فكان يدرك بذكائه المفرط وبصيرته الوقادة منازل كل فرد من أعضاء تلك البعثات ، ويعاملهم معاملة جديرة بشانهم وبمكانهم ، ويضع معه ما يستحقه من الإكرام ، ومن ثم فلايشكو أحد قلة العناية أو التفريط فيما يستحقه ، وكان يعنى بهذا الأمر عناية لم يجد

الإهمال والتقصير إليها منفذا قط ، حتى فى أواخر أيام حياته عند ما تشوش التفكير ، وانشغل القلب والعقل فيما يعنيهما ، وأصبح الجسم يعانى من آلام الأمراض المبرحة مالا يعلمه إلا الله .

غير أن هذه العناية الكبيرة بالعلماء لاتجعل الدهماء يشعرون بالتفريط فى حقهم ، بل كان مجلسه يشمل الجلساء من العناية والإكرام مايدع كلا منهم يشعر أنه هو الأكرم عليه والأحب لديه إذا ماتفرقوا ، يرى كل منهم فيما بينهم أن ما صنع به الشيخ هو آخر ما يصنع من الحب والعطف والإكرام معا ، فيتجلى فى ذلك ، العدل الشامل الذى يرويه الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم : " لايحسب جليس أن أحدا أكرم عليه منه " وكان يحتفظ بهذا العدل فى الحضر والسفر معا ، وأما بخصوص نفسه فكان يرفض كل مايدل على امتياز ما ، فنرى فى رحلة دعوية يحمل رفيق حذائيه ، فينتزعهما من يده ويتقبل يديه أما خدمة الضيوف ـ بمعناها الواسع ـ ولاسيما الذين كانوا يتوافدون كأعضاء فى البعثات الدعوية وخصوصا إذا كانوا من أولى العلم ، فكان يراها فرضا عليه ولايطمئن إلى حد من القرى والإكرام ، يقول : " إن السنة تؤكد على إكرام عامة الضيوف فكيف بهؤلاء الخاصة ؟" .

يقول الأستاذ معين الله الندوى نائب أمين عام ندوة العلماء حاليا : كنت مرة فى مقر الدعوة فى دلهى الجديدة ، فى شهر رمضان ، وأنا مريض ، فلما حان الموعد الذى كنت أتناول فيه العشاء ، وجعل بعض التلاميذ يحملون عشائى إلى فى غرفة كنت ألازمها فى الطابق العلوى ، فقال الشيخ محمد إلياس ـ رحمه الله ـ وقد نهض يصلى النوافل ـ دعوه أحمله أنا إلى الأستاذ بعد فراغى من الصلاة ، لكنهم أبوا إلا أن أحضروه عندى ، والشيخ فى صلاته ، فلما انتهى من صلاته أسرع إلى يقول : قد قلت لهؤلاء : أتركونى أسعد بحمل العشاء إلى الأستاذ ، فلم يرضوا ثم جلس

إلى يحادثنى ، ويلاطفنى ويؤنسنى .

وكان يتخذ أظرف الطرق وألطفها إذا أراد أن يخص بعض الناس ببعض الإكرام والتوقير ، فقد حضرنا مرة فى بعثة دعوية مكونة من تلاميذ دار العلوم ندوة العلماء يربو عددهم على خمسة عشر طالبا ، فدخل الشيخ علينا فى الربع الأخير من الليل بكوب من الشاى ، قائلا : " إخوانى إنتخبوا أنتم من بينكم أحدا أقدم إليه هذا الكوب من الشاى ، فإنه واحد " . فاجتمع رأيهم على ، وشرفنى الشيخ بمنحه إياى .

وقد تعود أن يركب من القطار عربة من عربات الدرجة الثالثة ، فاتفق له أن يركب الدرجة الثانية ، على إلحاح أكيد من بعض المرافقين، غير أنه لم ينعم بذلك، ولم يسغه ضميره، بل جعل يساور قلبه الشيىء الكثير من الحرج والضيق والخفقان ، وقد قرأ بعضهم ذلك على صفحة وجهه، فبادر إليه قائلا : هل يتأذى السيد بشيىء ـ لاسمح الله بذلك ؟ ـ فلم ينبث ببنت شفة تعبر عن شيىء من الحرج والضيق اللذين يعانيها ، مخافة أن يؤذيهم ذلك ، ويسبب لهم الخجل والندامة فيتأسفون على أنهم قد اشتروا هذا الإيذاء بهذا الثمن الباهظ ، وأنهم أرادوا الإراحة فحصلوا على الإيذاء على حسابها ، ولو قال الشيخ إنه قد نعم بالراحة والطمأنينة ، لكان كذبا لكونه ضد الواقع الذى كان يجتازه ، فوجه إليهم سؤالا عوضا عن أن يجيبهم بلا أو نعم ، أفهل تشعرون بالغبطة والسرور بمجلسى فى هذه الدرجة ؟ قالوا : أجل ..... وكثيرا ، فقال : قد كفانى ذلك سرورا وراحة ونعمة ، ومن مجامع التواضع فى الشيخ أنه لايرى نفسه قيمة بأى شيىء مما يسمى بالتكريم والحفاوة والإحترام وما إلى ذلك من كلمات المعنى ، ولم يشعر فى يوم ما ـ وهو أدق شعورا وأرهف حسا ـ بأنه من أجلة العلماء وكبار الشيوخ ، قائد ومؤسس أول حركة دعوية كبيرة من نوعها ووراءه حشد من المسلمين لا يأتى عليهم الحصر ، يعدون إشارته حكما وطاعته

غنما .

كتب مرة إلى هذا العاجز ، يقول : " .... إنه لمن أمانى القلبية أن تقبلوا التماسى بشأن أن لا تزيدوا على إسمى المتواضع كلمة ما ، فإنه عندى تقليل من شأن الكلمات بها فى مواضع استحقاقها ".

إن هذا الموقف من نفسه ليعكس عكسا واضحا مدى الحلم والتواضع وإنكار الذات ، الأمر الذى كان سمة بارزة لشيخنا .

ويقول فى رسالة إلى الشيخ المحدث محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوى وهو ابن أخيه وتلميذه وأصغر منه سنا : " ...... تشرفت بتسليم كتابكم الكريم الذى استوجب لى الغبطة والسرور ، وإنى لفى حنين شديد إلى قدومكم والإجتماع بكم .

ومن كان ليولى هذا الحقير التافه التفاتة ، إن لم يسعد هو بعناية أمثالكم ، فأول من تلقانى بالحفاوة والتكريم بعد الشيخ رحمه الله ـ يعنى الشيخ المحدث الكبير أحمد السهارنفورى صاحب " بذل المجهود فى حل ألفاظ أبى داوود " ـ هو أنتم ، ثم شملنى أحد أولياء الله بعطفه وكرمه وكان ذلك أيضا بفضلكم .

وإن نبأ قدومكم جعلنى يخامرنى مزيج عجيب من السرور والخوف ، أما السرور : فلأنى أسعد بلقائكم ...وأما الخوف : قلأنى أخشى أن تطلعوا على دخائل النقص ، وكوامن قذارة النفس ، إلا أنى أتطلع إلى لقائكم لأنى أرجو أن نفسى ستوفق إلى الصلاح إذا جالست أمثالكم " .

ويقول فى كتاب آخر إلى الشيخ محمد زكريا نفسه : " هنيئا لأرباب القلوب التمتع بشهر رمضان المبارك ، وما ينطوى عليه هذا الشهر الكريم من خير وبركة ، وأنوار ورحمة ، وأدعو الله أن يوفق العزيز الكريم لمزيد من الترقى فى مدارج الرضا والقرب به والإنابة على مر الأيام ، ولاتسألوا عن بؤسى وضعف حالى ، وإنما التعويل على رحمة الله جل وعلا ،

وأرجوا الله تعالى أن يغفر لى ولأمثالى بدعاء وإنابة الشباب السريع السير فى دروب الكمال الروحانى والإيمان أمثالكم " .

ولم يأمن على نفسه حتى فى آخر لحظة من حياته ، وظل يحاسبها ويراقبها ، بل كلما زاد إقبال الخلق عليه والتفافهم حوله زاد هو خوفا وإشفاقا وقلقا ، وزاد فى الإستعداد والتسمح ضد النفس الأمارة وفى الأخذ بأسباب يعين على الإحتساب وتكسب الإخلاص ، وطالما كتب إلى كثير من ذوى العلم من أولى الإخلاص والحق والبصيرة الدينية بأسلوب فيه كل الإلحاح واللجاجة أن ينبهوه لو رأوا فيه مايؤدى إلى الإعجاب بالنفس أو الأنانية .

يقول فى رسالة إلى الشيخ محمد زكريا والشيخ عبداللطيف عميد مدرسة مظاهر علوم سهانفور فى ولاية اترابراديش بالهند : " عزيزى المحترم محمد زكريا وحضرة سيادة العميد ! دامت بركاتكم .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أرجوا أن تكونوا بكل خير وعافية ، هناك أمر مهم مازلت أوليه كل العناية فيما قبل رمضان المبارك ، إلا أن الضعف البشرى والضعف الإيمانى اللذين أعانى منهما ، جعلانى نسيته بتاتا ، وكنت قد عقدت العزم على أن أذكره لكم .

وهو أن هذا العمل ـ عمل الدعوة والتبليغ ـ اتسع نطاقه ، وتصعد نشاطه ، بفضل الله وكرمه ـ وبلغ من شأنه أن جعلنى لا آمن على نفسى العجب والكبر ، ولذلك فإنى فى أمس الحاجة إلى مراقبة أمثالكم من ذوى الحق والصدق ، فلتحتسبونى كما وصف لكم ، ولايغيبن عن ذاكرتكم فى أية لمحة من الوقت أنى محتاج إلى الرقابة والحراسة ، فأكدوا على الصمود والأخذ بنواحى خير هذا الأمر والتحاشى عن نواحى شره .

ويذكره العلامة السيد سليمان الندوى (رحمه الله تعالى) فى مجلة : معارف العلمية الشهرية الشهيرة الصادرة من مجمع " دار المصنفين " أعظم

جرا ، الهند فى عدد شهر نوفمبر سنة 1944 م ، فيقول :"كان قد نظم أحد الأصدقاء حفلة شاى بعد صلاة العصر بمناسبة نزول الشيخ محمد إلياس بلكهنئو وكنت قد سعدت بالحضور فيها ، فلما حانت الصلاة رحنا نصلى ، ولم يكن هناك مسجد نصلى فيه جماعة ، فاتفق رأى الأخوة على أن نصلى فى ذلك القصر الذى كنا مجتمعين فيه ، فلما سووا الصف ، أشار إلىَّ الشيخ بالإمامة فاعتذرت ، فتقدم وصلى بنا ، فلما سلم أقبل على القوم يقول : إخوانى ! قد ابتليت ببلاء أرجوا أن تدعوا الله جميعا أن يفرجها عنى ، وهو أنى منذ أن نهضت لهذا العمل ، جعل الأخوة يمنحونى الود والإحترام ، حتى أصبحت أخاف على نفسى الكبر، وأخوف ما أخافه على ، هو أن أصير أحسب أنى شيخ من الشيوخ قد تزكت نفسه ونقيت سيرته ، ولذلك فإنى ظللت أواصل الدعاء أن يخرجنى الله من هذا البلاء ، سليما نقيا عفيفا ، فأعينونى أنتم بالدعاء " .

وأهدى إليه أحد الأخوة سجادة ثمينة ، فثقلت هى على طبعه جدا ، فلم يلبث أن تقدم بها هو إلى أحد كبار علماء البلد قائلا : تقبلوها على حقها ، فإن صاحبها قد أخطأ بها موضع استحقاقها فأهداها إلى ظنا منه أنى عالم يستحق الخدمة والهدية ، فأنا بدورى أهديها إلى من أراه من اولى العلم الذين هم أولى بها.

وفى أواخر الأيام من حياته وفى مرضه الذى توفى فيه جاء رجل ـ وقد تزاحم عليه أصناف من الزوار والعائدين ، وقد منع المصافحة نظرا إلى شدة مرضه ـ وجعل يتخطى رقاب القوم إليه يحاول أن يصافحه ، فأقبل إليه رجل من أهل ميوات وطرده بيديه بشدة ، فرجع الرجل على عقبيه يوجه إلى طبقة العلم والدين ما يستطيعه من السباب والشتم ، وقد أحس بذلك الشيخ ، فاستدنى الميواتى يعاتبه ويقول : إن جرح قلب مسلم أبغض شيىء لدى الله جل وعلا ، فاذهب إليه واستعفه واسترضه ،

حتى يصفو مابينه وبينك ، فذهب إليه وأدركه خارج المسجد، وهو ممعن فى السباب بأقوى لسان فى فيه وأحده، والميواتى واقف بين يديه على قدميه واضع إحدى يديه على الأخرى ، يكرر الإستغفار والإعتذار ويقول : إنى قد آذيت قلبك ، فلك أن تعاتبنى بما شئت ولكن عفوا ألتمسه منك .

سماحة صدره وسعة قلبه :

نشأت فى الهند منذ مدة بعيدة حلقات ودوائر للعلم والدين ، وكل حلقة ترى الدين والعلم حكرا عليها ، ولا تتصور وجودا لهما خارجها ، وعزيز عليها أن تعترف بفضل وعلم وتقوى حلقة أخرى ، ولاينبسط أصحاب جماعة حين يجتمعون بأصحاب جماعة اخرى انبساطهم فيما بينهم ولا يسرون سرور ذوى العلم والدين والتقى حين يتلاقون ويتحادثون، واستفحل هذا الأمر شر استفحال حتى أصبح من اللاممكن لدى كثير من الناس الجمع بين حب رجلين يختلفان اختلافا سياسيا أو نظريا ، بل أو صناعيا ومهينا ، يحسبون أن ذلك جمع بين الأضداد ، وذلك لايمكن .

ومن جراء ذلك فإن دائرة الإفادة والإستفادة أخذت تتقلص وتحسر بصورة مستمرة على حساب توسعها ، وأخذت الفجوة والفجوة تتعمقان وتتفسحان فيما بين أهل العلم والدين على حساب انكماشهما وزوالهما .

ولكن شيخنا قد وفر الله عليه من السماحة فى الصدر والسعة فى القلب ما يسع جميع الجماعات والأحزاب من أولى الحق على صنوف الخلافات وأنواع الميزات بينهم ، وكان فى قلبه لكل منهم موضع حب ومكان ود فكأنه كما قال الشاعر العربى القديم :

لكل امرىء شعب من القلب فارغ وموضع نجوى لا يرام اطلاعها .

فهو يرى أن الأمة المسلمة لا يخلو فرد منها من مسكة خير ومسحة فضل ، وكل منها يختص بخصائص ويتصف بأوصاف ، ويتفرد بمؤهلات

لاتوجد فى غيرها فليكن هو موضع احتفال واستفادة من هذه الناحية ،وكان الشيخ بدوره يستفيد من كل ذلك فى دعوته وقد منحه الله قدرة عجيبة على الإنتفاع بتلك الخصائص والصلاحيات الوفيرة الخصبة ، وعلى استثمارها ولا سيما الذين كانوا يتوسمون فيه طبيعة منسجمة مع الدين ونزعة فطرية للخدمات الدينية ، فكان حريصا على استخدامهم فى الأعمال الإسلامية ، واتخاذهم مطايا لتصعيد وتوسع وتدعيم النشاطات الدينية والدعوية .

يكتب إلى رجل يوصيه فى عامل فى مجال الدعوة ، فيقول :

" .... لابد من لفت النظر إلى استرعاء عناية بيوت السادة والسراة الكرام ، فى التعليم والتبليغ معا ، ولا يغيبن عن البال أن ذوى الكفاءات واللباقات تحول دون استلفاتهم واستمالتهم عقبات ربما تكون مستعصية ، وأكثرهم صلاحية ن هم أكثرهم امتناعا واستغناءا واستعصاءا على عملية التقارب والتفاهم.

ومن هنا فتكاتف فى دعوته وحركته أساتذة وتلاميذ معاهد إسلامية ومدارس فكرية كثيرة ، من دار العلوم ديوبند إلى دار العلوم ندوة العلماء ، إلى مظاهر العلوم بسهارنفور ، إلى الجامعة الملية بدهلى الجديدة ، إلى كثير وكثير من الكليات والجامعات العصرية ، بجانب رجالات التجارة والزراعة والصناعة ، والموظفين والمحترمين، ومن إليهم كثير من المسلمين، الذين يعملون فى مجالات شتى، وينتمون إلى أحزاب وجماعات مختلفة ، كنا نشاهد فيما بينهم علاقة محكمة مفعمة بالتوادد والتآخى والتعارف والتعاون، وليس هناك شعور بالغربة، والشيخ ينوه بالكفاءات والمزايا الشخصية والطبيعية فى كل عامل ، فهذا : يتصف مثلا بصلابة فى الدين ، وذاك بالظرافة والدقة ، وهذا بذكاء وشهامة ، وذاك بخبرته الدقيقة وتجاربه الواسعة ، وكل ينال التشجيع والإشادة بمزاياه وعنده أن المؤهلات

إنما أودع الله فى الإنسان لتستخدم للدين ونشره ولإعلاء كلمة الله ، فلتتركز على ذلك ولتنفق فيه ، ومن ثم فهو يتألم كثيرا حينما يراها توضع فيغير موضعها ، ويرى الشيخ أن الطبع المستقيم ، والقلب السليم ، والنشاط الوفير ، والذكاء المفرط ، والهمة البعيدة ، والإرادة القوية ، والطموح والشهامة ، والبصيرة والتيقظ والنظرة الغائرة الثاقبة، ....و.......و........ كل ذلك ، الدين أولى وأجدر به من الدنيا ، ولو تركز على العمل الإسلامى اندفعت عجلته إلى الأمام اندفاعا أسرع وأقوى .

يوجه رسالة إلى تاجر يقول فيها :

"....إنى دوما وددت من الأحباب المخلصين من الشباب والشيوخ أمثالكم أن يكونوا أعوانا لى على هذا العمل ، بكل مالديهم من النشاط والحماس ، بل يكونوا هم أصلا وأنا لهم تبعا ، فإن همتكم وطموحكم وقوتكم وذكائكم ، كل ذلك يؤهلكم للنهوض بعمل حى من أى نوع كان ، وأن العمال الحية إنما يجدر بها رجال ذوو حيوية ونشاط .

وكان الشيخ يريد هذه المساهمة من الشعب بأسره ، جماعات وأحزابا وأسرا وأفرادا ، وسماحة صدره تلك تتبلور كذلك فى الرأى الذى يراه فى العلماء الربانيين ومشايخ الطرق الحقة ، فكان يتلقى بكثير من الحفاوة والإكرام والسرور الغامر لو توجه أحد من هؤلاء بالمساهمة إلى عمل الدعوة وقد عرفته أنا فى بعض الأيام ببعض المنتسبين إلى الطريقة المجددية والمنتمين إلى الشيخ الكبير فضل الرحمن الكنج مراد آبادى ـ شيخ ومربى العالم الكبير محمد على المنيكرى مؤسس ندوة العلماء ـ ففرح فرحا كبيرا ، وتناولهم بكثير من المودة والإحتفاء وقال إنى منذ صباى أسمع عن مشايخ لايفترون يقولون : إن من ألهم الرئاسية الدينية والتربية الربانية فى يوم الناس هذا هما اثنان لا ثالث لهما ، وهما : الشيخ الكبير الإمام رشيد أحمد الكنكوهى ، فى غربى الهند ، والشيخ فضل الرحمن الكنج مراد

آبادى ، فى شرق الهند ، وأضاف قائلا : إنى أود أن يقبل على هذا العمل أصحاب وأتباع الشيخ فضل الرحمن ـ رحمه الله ـ .

وكلما كان يتحدث عن كبار العلماء المعاصرين ، ورجال الفضل والتقى كان يلاحظ كل الملاحظة مكانتهم العلمية والدينية ، فيتحرى الأسلوب الذى يمثل الإعتراف بفضلهم وكبر شأنهم ، مما يدل بعض الدلالة على بعد نظره ودقة تحريه ورعايته .

وبفضل هذا القلب الكبير والصدر الرحيب ، استطاع أن يستعمل لدعم العمل الدعوة والحركة التبليغية ـ العدد الكبير من أولئك الذين كان الرأى العام ينظر إليهم شزرا ، ويظن أن علاقتهم مع الدين وصلتهم بالله أفتر ما تكون ، فالعودة بهم إلى الدين ، وإيجاد العلاقة بينهم وبين العمل الإسلامى شيىء فى منتهى الصعوبة ، لكن الذى كنا نشاهده فيمن ينتسب إلى الشيخ ، كان يكذب هذا الظن ، ويفضح خطأ هذا الرأى فى ضوء النهار ، فكنا نشاهد تحولا واضحا فى حياة هؤلاء بعد ما يقبلون إلى الشيخ فيستخدمهم فى عمل الدعوة ويربطهم ببعض رجال الدين وأهل اليقين ممن كان يثق بهم ، وكان يسند إلى كل من الأعمال ما يلائم طبيعته ومستواه العلمى والفكرى ، ويتفق وصلاحيته وأوضاعه التى يعيشها ، وكان يشيد بعمله الذى قام به ، ويعرف له فضله ، ويقدره تقديره ، مما يحثه على عمل أكثر ، ويشجعه على بذل سعى أوفر ، ويقوى إرادته ، ويعز همته ، ويؤكد عزيمته .

استقامته :

قد ذكرتنا استقامته فى الدين ـ فى العصر الذى أصبحت هى فيه أندر شيىء وأقله وجودا ـ بالإستقامة فى السلف الصالح الكبار ، حيث رأينا فيه على السنن الصغيرة من الإستقامة والحفاظ ما لو كان بعضه للقوم فيما يتصل بالفرائض والواجبات لكان موضع كل تقدير وتحبيذ .

والأيام الأخيرة من مرضه الذى توفى فيه ، خير دليل على استقامته الفائقة ، ففى ذلك المرض الذى دام أكثر من ستة أشهر ، والذى جعله يفقد قواه يوما بعد يوم ، ويزداد ضعفا وخورا وانهيارا ، حتى صار لانكاد نسمع كلامه ما لم نقرب آذاننا إلى شفتيه لم يفته الحفاظ على الصلاة مع الجماعة ، وقبل وفاته بشهرين تقريبا قد شهدنا منه ما قضينا منه العجب ، فكلما حانت الصلاة أخذه رجلان يقيمانه فى الصف وهو لايستطيع القيام والجلوس مباشرة ، فلما استوى قائما ، وقال الإمام : ألله أكبر فكأنه نشأت فيه قوة جديدة ، مكنته من الركوع والسجود والقيام، حتى القيام فى صلاة الفجر الذى يكون أطول منه فى الصلوات الأخرى ركوعا وسجودا ، كل ذلك بكل هدوء وطمأنينة ، وما إن سلم الإمام إلا أصبح كأنه تجرد من كل مسكة فيه من القوة ، فلا يقدر على أن يقوم بنفسه ، فكان يعود إلى مكانه متهاديا بين رجلين ، وأما فى السنن فكان يعينه رجل منا على الركوع والسجود ، ولما نوى الوتر ، رفض كل عون ، وعاد يباشر الركوع والسجود .

واستمر فى الحفاظ على الجماعة حتى فى الوقت الذى عجز عن القيام بتاتا ولم يفقد همته ولم يفقد فى القيام ولكن الأطباء منعوه منه بإلحاح لا إلحاح بعده ، ولما عجز عن الجلوس أخذ يؤدى الصلاة مضطجعا مع الجماعة ، فكان يصفف سريره مع صف المصلين .

ولم تفته العناية كل العناية بالوضوء والسواك ، وحتى آخر لحظة من حياته ، وقد تولى بعض العلماء وجماعة من الإخوان الميواتيين مسئولية الإعانة على الوضوء ، وكانوا يتعهدون فى وضوئه كل الآداب والسنن ، ولم يتنازل عن الوضوء إلا حينما جعل الماء يضره شديدا ، وأكد عليه العلماء والأطباء المنع بالفتاوى ، معتبرين أن الأخذ بالرخصة التى أنعم بها الله على عباده عزيمة بنفسها ، ورفضها كفر بهذه النعمة ، كما أن العمل عزيمة فى

موطنها .

وهو ذو عناية كبيرة بالآذان والإقامة والجماعة فى السفر والحضر كليهما ، ولا أذكر صلاة أداها دون الآذان والجماعة فى الفترة الطويلة التى رافقته فيها فى رحلات كثيرة وجولات ، سواء أكان السفر بالقطار أو بالسيارة أو بالعربة ، فقد أذن فى القطار أحيانا وهو يموج بالركاب وقد لاحظنا أن المسافرين ما إن سمعوا الآذان حتى فسحوا لنا فاستوينا صفوفا ، وصلينا جماعة .

وقد عدت من سفر معى رفيق لى لم يتمكن من أداء الصلاة فى القطار من أجل الزحمة ، وبعد نزولنا فورا أخذ رفيقى يقضى صلاته ، بادرت أنا فلقينى الشيخ فسالنى أول ما سألنى : صليتم ؟ قلت : قد صليت انا ، وذا رفيقى يقضى صلاته ، فقد فاته الأداء لعذر ، فتأسف الشيخ جدا ، قال : أمارس هذا العمل ـ عمل الدعوة والتبليغ ـ منذ نحو عشرين سنة ، ولم تفتنى ـ والحمد لله ـ أية صلاة مع الجماعة ، حتى أعاننى الله سبحانه وتعالى على أن أؤدى صلاة التراويح أيضا فى القطار .

وقد سبق أن ذكرت أنه ـ بشأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ كان ملازما لمنهج تربوى تدريجى ذى ترتيب خاص ومبادىء معتدلة ، لكنه حينما يرى المنكر بواحا ويرى أنه قد بلغ السيل الزبى ، وطما الوادى على القرى ، كان ينهج منهج السلف الكرام ، والأئمة العظام ، والعلماء الراسخين وهو نفس المنهج الذى نهجه النبى الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد جاء فى الحديث الشريف : " فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيىء " .

وفى سنة 1357 هـ خرج الشيخ للحج والزيارة ، فاتفق أن قامت المنافسة بين الباخرتين على ميناء كراتشى وخففت إحداهما فى الكراء وجعلها 55 روبية ـ بينما كانت فى الأخرى 182 روبية ـ رغبة فى جلب

المسافرين إليها ، إلا أن هذه الباخرة كانت تقوم بإجراء اللقاح فى ركابها طبيبة ، فلما بلغ الشيخ ذلك قال ـ وقد استأثر به الغيظ ـ أفى فريضة من فرائض الله يؤتى الحرام ؟؟ ، أما أنا فلست بفاعل ، وأخيرا اتصل أحد هاتفيا بطبيب فحضر ، وقام بإجراء اللقاح فيه وفى رفقته .

الدعاء والإنابة إلى الله :

الإنابة إلى الله فى كل شيىء وعلى كل حال ، والإبتهال والتضرع ، والإكثار من الذكر والدعاء كل ذلك روح تتوقف عليه حياته ، وكان ذلك هو جوهر وقوام حركته الدعوية ، قد صرح بذلك فقال : إن الترتيب السديد فيما يتصل ببرامج حركتى هذه كما يلى : الدور الطبيعى فى ذلك لابد أن يكون للقلب ـ يعنى الإنابة إلى الله بالقلب والقالب والتضرع إليه ، والإستعانة به ، والتوكل عليه توكلا يقطع الرجاء عن كل ماسواه ـ ويأتى بعد ذلك دور الجوارح فى الدرجة الثانية ـ يعنى السعى والإجتهاد وما إليهما ـ ثم يأتى دور اللسان فى الدرجة الثالثة . يريد أن الخطب والمحاضرات يكون لها أقل نصيب، والسعى والجد لهما نصيب أكثر من الأول،أما النصيب الأوفر الأكبر فهو للقلب، فليكن القلب منيبا إلى الله، متوكلا عليه، معلقا به، يعود إليه ويناجيه ويدعوه [1].

وكان يأخذ بهذا المبدأ بالنواجذ الشيخ، ومن يسعى سعيه، ويعمل فى حقل الدعوة والتبليغ تحت إشرافه ، وكان يوصى بذلك غيره ، وكتب إلَىَّ مرة يقول : " ... لايغيبن عن البال أبدا ـ وليكن ذلك فى عين الإعتبار دائما ـ أن الهدف الأصيل من كل عمل دينى هو تصعيد قوة الدعاء والتضرع ، فلا تفوتن لحظة من الوقت دون العمل على ذلك ، ولئن تعود القلب على الإنشغال بالدعاء بجمعية وحضور حين انشغال الجوارح بأعمالها

(1) مقتبس من " محاولة لنصرة الدين وإصلاح المسلمين " للشيخ محمد منظور النعمانى.

لها من سعادة ، وإلا فانتهزوا كل فرصة بعد الصلوات الخمس المكتوبة ووقت من السحر ومناسبات الجولات الدعوية ، ولتكن هذه الأوقات كلها معمورة بالدعاء والإنابة .

وكان يلتمس ـ التماس المضطر الذى لايقر له قرار ـ من أهل القلوب والإخلاص ، الدعاء لنجاح وانتشار الدعوة التى نهض بأعبائها ، وقد استحوذ ذلك على طبيعته ، ولاغرو فإنه من صميم العمل النبوى فهو عظيم وجليل ، ودقيق وخطير .

ويوجه إلى الشيخ محمد زكريا رسالة يقول فيها :

قد واصلت رحلاتى إلى ميوات كل أيام الجمعة غير شهر رمضان ، والأمر الذى أريد تحقيقه إنه بالتأكيد يفوق مؤهلاتى وكفاءاتى ، إنه من السمو بالمكان الذى ربما لايسمو إليه الفهم والذكاء ، فضلا عن تنفيذه ، وعلى الرغم من ذلك كله فإن طبعى لايكاد يفكر فى شيء سواء ، ولايكاد يمل من ممارسة كل المحاولات فى سبيل وضعه موضع التنفيذ ، وقد أصبح لى ذلك الشغل الشاغل ، ولذلك فإن هذا الأمر يستحق كل العناية بالدعاء منكم ومن أمثالكم ، لكونه عملا حساسا دقيقا ولكونه المدار الوحيد لتبليغ الدين والتبشير به ، فلا تضنوا على بدعواتكم الصالحة ، وليس على الله بعزيز تحقيق أى سؤال ، وإنما هو الدعاء منكم بالإنابة والعناية ، وإن أمنيتى الحبيبة أن ينصرف كل من ذهنى وفكرى ، ووقتى وقوتى ، عن كل شيء ...... فى الحياة إلى شيء واحد وهو الدعوة والتبليغ لا غير ، وأخيرا لاأريد أن أطيل عليكم وإنما أريد أن تدعوا أنتم والآخرون من المشايخ الذين يمكنكم أن تستلفتوا اهتمامهم إلى الدعاء والعناية به " .

هذا ... ولله تعالى الحمد أولا وآخرا ، ونصلى ونسلم على نبيه ومصطفاه محمد وآله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين والحمد لله رب العالمين .

أبي الحسن على الحسنى الندوى .

فهرس الكتاب الثاني

Contents

الشيخ

محمد إلياس الدهلوي

حياته ومنهجه في الدعوة والتبليغ

تأليف

الداعية الإسلامي

الدكتور عبد الخالق بيرزادة

حفظه الله

رقم الإيداع : 5104 / 2017

هذا الكتاب

جزء من رسالة ماجستير قدمها المؤلف جزاه الله خيرا إلى قسم الدعوة والثقافة الإسلامية كلية أصول الدين بجامعة الزهر ونال عنها شهادة الماجستير بتقدير ممتاز .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين)

(سورة العنكبوت الآية 69).

إهداء

أهدى هذا الكتاب

إلى كل أخ فى الله يخرج فى سبيل الله

يشترى بنفسه وماله رضا الله

ينشر دينه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين رضوان الله عليهم أجمعين .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فهو رب العالمين لا شريك له، ولا معبود سواه، ولا كتاب بعد كتابه، ولا رسول بعد رسوله : محمد بن عبد الله، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

أما بعد: فقد قال الله في كتابه الحكيم: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[1] .

فالخير كل الخير هو: الإيمان العميق الصادق ، بالله سبحانه وتعالى ، ثم الدعوة إلى الحق، وهي القيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهذا هو طريق الفلاح والسعادة.

وكذلك فقد شاءت قدرة المولى، جل شأنه، أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء، ويكون الإسلام هو خاتم الأديان ، ويكون القرآن الكريم هو خاتم الكتب السماوية، وتكون أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي خاتم الأمم ، فلا كتاب بعد كتاب اله ولا نبي بعد محمد بن عبد الله ، ولا أمة بعد أمة خاتم الأنبياء .

ومن هنا صارت هذه الأمة هي المسئولة عن الدعوة بأمره تعالى : { وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }[2]

(1) سورة آل عمران : الآية 110

(2) سورة آل عمران : أية 104

فمدار تفضيل هذه الأمة هو الدعوة إلى الخير، التي يكمن فيها سر خيريتها وسعادتها وفلاحها ، فإن فقدت الأمة سبب هذا الخير ، فقدت المسبب، طبقا للقانون العام الذي يقول: " إنه إذا سقط السبب سقط المسبب " . وطبقا لهذه السنة، فإننا نجدت تاريخ الأمم يخبرنا أنه حينما ترك أهلها الخير ، وابتعدوا عن تعاليم الأنبياء والمرسلين ، هلكوا وأهينوا، إمات بالعذاب من السماء ، أو بأيديهم أو يسلط الله عليهم سلطانا من عدوهم فيهينهم ويذلهم.

أو ليست البينة واضحة فيما بلغه استعمار الكفر والضلالة ، والإلحاد والعلمانية والصهيونية من نجاح في تشتيت المسلمين، وتدمير بيوتهم، واسقاط حكوماتهم، والاستهانة بأعراضهم، وإفناء سلالاتهم في الكثير من بلدان العالم ، وإن بقيت قلة فلا اعتبار لوجودها وكيانها، وهذه الظاهرة نلحظها بوضوح في بلاد شبه القارة بجنوب شرق آسيا ، منذ سقوط أكبر إمبراطورية إسلامية في الهند الكبرى، التي كانت حدودها تمتد إلى أفغانستان وإيران، وروسيا والبحرين وعمان، وغيرها من دول الخليج من ناحية، وإلى الصين والتبت وإندونيسيا واليابان من ناحية أخري، فلم يذرف أحد دموعه حين تم القضاء على هذه الإمبراطورية الإسلامية الشرقية، كما لم تبك السماء على سقوط الاندلس وولاياتها العظيمة .

وهذا هو دأب التاريخ: لا يبكى على أحد، وكأن دموعه قد نفدت أو تحجرت من كثرة الأحداث، فلا تجد قطراتها تذرف عند سقوط بخارى وتاجكستان ، وسمرقند وأزبكستان وتركستان ونيسابور، والباكستان الشرقية وغيرها من بلاد الإسلام الزاخرة بـرواد الدعوة الصمدية.

نعم هذا هو نجاح الإلحاد والاستشراق والتبشير، الذي تأثر به علماء المسلمين أنفسهم فنسوا القرآن والسنة الشريفة ، وبدؤا يلهثون وراءه كلهث الكلب، علـى حساب الدين الحنيف .

ذلك الدين القيم الذي استشهد في سبيله عم رسول الله وأصحابه، كما شهدت له منجزاته صلى الله عليه وسلم، حين واصل جهاده ثلاثة وعشرين عاماً، يعلمنا دروس الإيمان والأخوة، والحب والوحدة، ويهدينا إلى سواء السبيل.

فما بال هذه الأمة يقوم علماؤها بتكفير بعضهم البعض ، ويجعلون السذج من المسلمين أداتهم ، فلا شغل لهم إلا إصدار فتاوى الكفر ، وسباب المسلمين ، بأن هذا كافر وهذا منافق وهذا مشرك، وهذا لن يغفر الله له أبداً ، وهذا ملعون من الله ورسوله، وهذا يستحق أن تسبي بناته وأزواجه ، والأدهي من ذلك أنهم يعقدون المؤتمرات لمحاربة من يخالف رأيهم، فيصدرون في النهاية توصياتهم بإهدار دم مخالفيهم في المعركة، كما يطالبون أتباعهم وتلاميذهم ومشاركيهم في المؤتمر بمهاجمة بيوت معارضيهم لتدميرها، أو قتلهم في بيوتهم، أو يعتقلون الدعاة ويعذبونهم برشق المسامير في أجسامهم، وقد يفضي تعذيبهم إلى الموت، وأحياناً يضعون القنابل الزمنية تحت المنابر والمنصات ... !!! .

ولعل شخصاً يظن أن هذه حكايات أو أساطير، أو مجرد خيالات تاريخية، لكنها الحقيقة التي تعاني منها بعض بلاد المسلمين، فضلا عن السباب واللعنات والمهانات فيما بينهم، بل زاد الطين بلة ما فعله أذناب الاستعمار المتفرنجين المسيطرين على مقاليد خيرات الله في بلاد المسلمين ، هداهم الله .

فبعض المسئولين قد لا يصلى ولا يصوم ، بل قد لا يهجع إلى مخادع النوم إلا بعد تجرع كئوس الخمر، وقد يختارون علماء البلاد كيما يوظفوهم أئمة للمساجد الحكومية كبضاعة مزجاة يهزءون بهم ، ويسخرون منهم ، وممن على شاكلتهم .

وهكذا تستغلهم الحكومات لأجل مصالحها ومنافعها السياسية ، ويسخر منهم رجالات السلك الدبلوماسي بهذه البلاد حيث يملئون جيوبهم بالأموال رجاء أم يملئوا البلاد بالفساد

وعلى هذا فإننا نرى الكثرة من الجماعات السياسية أو القومية الناهضة باسم حماية الوطن ، أو باسم حب الرسول صلى الله عليه وسلم قد تأسست لهدم ما أقامه الرسول صلوات الله وسلامه عليه – وتشويه تعاليمه – فهناك " جماعة القرآن [1]" التي تبذل قصارى جهودها لتحريف معاني القرآن ، وإنكار السنة تمام الإنكار ، وكذلك هناك أحزاب تتسمي باسم " السنة المطهرة " و " الشريعة السمحاء[2] " وهي تهدف علانية إلى إنكارها كلية ، بل أنهم يصنعون ويختلقون – من أنفسهم – أموراً ينسبونها إلى الشريعة المطهرة ، وكذلك تجد جماعات عديدة تتسمي باسم الوحدة والأخوة ، ولا تدخر وسعا في تمزيق وحدة الأمة ! وكذلك تجد بعض الصحف التي تملأ صفحاتها بالوعظ الكاذب هادفة إلى تخريب أخلاق المسلمين باسم تهذيب الأخلاق [3]، ولكن الله من ورائهم جميعاً محيط .

وجملة القول: إن جميع قوى الباطل قد شحذت في تلك الآونة، كل قواها وأسلحتها المادية والمعنوية، ونجحت في إبعاد الكثير من أفراد الأمة عن الإسلام، حتى أصبحوا مخلوقات لا صلة لهم بالله، ولا بالأخلاق التي هي أساس حياة الأمم، وهى التي قال عنها صلى الله عليه وسلم " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " .

وبعد هذا ، كان من الطبيعي أن ينفذ العدو ما يريد، وأول مظاهر هذا التنفيذ هو نشر القنوط التام من الكتاب والسنة ـ والتشكيك في صلاحية " حاكمية كلام الله " فبدأ أبناء الإسلام يرتابون في آيات الله ، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأغلقت دونهم أبواب الرحمة والنصر ، وأصبحوا من أذل الناس ، في حين كان أسلافهم من أعز الناس على وجه الأرض .

هذا مع أن الحقائق التاريخية الثابتة تؤكد أن التمسك بالإسلام هو طريق العزة والكرامة والجاه والسلطان وغيرها من النعم الكونية ، لسائر المسلمين ، وهى التي

(1) أتباع غلام أحمد برويز .
(2) أتباع أحمد رضا خان البريلوي وأمثالهم .
(3) مجلة أصدرها سير سيد احمد خان .

تضمن لنا أن المسلم الحقيقي هو المالك الوحيد ، والخليفة الموكول إليه رعاية هذه النعم المادية والروحية كلها ، ولكننا نرى أن الواقع الحاضر يدل على ان المسلمين اليوم – سامحهم الله – في غاية الإفلاس والضعف الذلة . فلا حول ولا قوة ، ولا جاه ولا سلطان ، ولا ألفة ولا رحمة ولا أخوة ، كما بعدت عنهم الأعمال الصالحة، والتقاليد الحسنة ، فضلا عن تغير مبادئ الأخلاق السامية في السيرة والسلوك ، فكل السيئات موجودة ، وكل الحسنات بعيدة عنا تماماً ، وبذا يسخر الغير من أحوالنا، ويضحك منا هازئا ، ولم يكتف بذلك ، بل هو مستمر في التنقيب عن أسس الضعف فينا كي يستغلها حتى تنقرض سلالاتنا للأبد .

" أليس هذا محيراً للعقول ؟! " فالأمة التي كان أصحابها هم المنهل العذب للبشرية ، وأنهارها وشرايينها المتدفقة بالخير ، تجدهم اليوم عطشى !! .

فلا مدنية ولا حضارة لأمة، طالما وهبت للبشرية مشارب الثقافة وأساليب الحياة المتقدمة الراقية "[1] ؟! .

ورغم أن هذه الأمة ، في طفرات مستمرة من ناحية العدد ، وسعة الأرض بما فيها من النعم في أقطار العالم، لكنها تعاني من ضروب المحن والبلايا ، فرءوسها مطأطئة ونفوسها مريضة، وحميتها فاترة، كما صار كثير من أبنائها يرضون بحياة الذل والمهانة وصاروا يركنون إلى الدركات الوضيعة الدنيئة .

وعلى هذا فلم تعد الأمة الإسلامية – من حيث المجموع - تتمتع بمكانتها السامية الحقيقية ، لا روحاً ولا مادة ، بل صارت حياتها جحيما بعد أن كانت هنيئة رغدة ، كما ظهر الفساد في البر والبحر برغم مئات الألوف من علماء المسلمين وزهادهم ، وشاعت المنكرات وسادت الكبائر ، برغم وجود آلاف المدارس والمعاهد الدينية ، والمساجد والجامعات ، ولم تعد العبادة باقية ، وحتى ما تبقي منها أصبح فارغاً أجوف لا روح فيه ، فلا القلوب تخشع لذكر الله ،، ولا الصلاة تنهي عن

(1) محمد إلياس الدهلوى (الشيخ) بستى أوراس كاعلاج : ص 3 وما بعدها: بتصرف .

الفحشاء والمنكر ، فصارت الأمة في مسيس الحاجة لأن يعني بها المعنون ، ويرقي بها المسئولون، ولكن كيف السبيل إلى توجيهها وتقويتها وإنشائها وتقويمها وتذكيرها ؟[1] .

وقد رأى زعماء الأمة تلك الظروف وشعروا بها منذ زمن ، وقدموا لها الحلول الكثيرة ولكن كلما عولج المرض زادت حدته .

فما مصير هذه الأمة مع ازدياد هذا الفساد والخطر المهلك [2] ؟! .

وما بال الدعوة التي جاء بها الأنبياء ؟! ونحن فرحون جالسون في البيوت ونصعد على المنابر ونقول : هل خسرنا شيئاً ؟ الحمد لله فدعوة الإسلام بخير ، وإنها سائدة طالما بقيت شخصياتنا ومناصبنا ! .

نعم إن الدعوة الإسلامية بخير ، لأن بعض البلاد تخصص لها كل عام الملايين من الدولارات والروبيات ، والتي تصرف في قاعات الفنادق الزاخرة ، التي ترقص بها الراقصات طوال السنة ، ثم نقوم في نفس المكان – لفترة وجيزة – بدعوة الناس إلى الله ، ثم نرحل منه وتعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل .

وكذلك تعقد المؤتمرات باسم الدين ، وتقرأ فيها الأبحاث والمقالات أمام كبار علماء الدين وكأنهم لم يعرفوا بعد عن الدين شيئاً ، كما تمتلئ الكراسي بأثرياء البلاد من المستمعين الذين اتفقوا عن عدم تطبيق شريعة الإسلام على أنفسهم أو على أهليهم بعيداً على الآخرين، وكذلك يصفقون في مثل تلك المحافل ، كأنهم هم المخلصون للإسلام، وأنهم هم الذين فهموا ما يعنيه صاحب المقال .

ثم تنتهي تلك المؤتمرات ببعض التوصيات التي لا تزيد قيمتها عن قيمة الورق الذي كتبت عليه، وتختار بعض الناس للقيام بأمور الدعوة في بعض البلاد،

---

(1) صدر الدين الأنصاري : الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية : ص8 ملخص .

(2) صدر الدين الأنصاري: الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية : ص8 بتصرف طفيف .

فيذهبون لدعوة أناس يتضورون جوعاً، في حين تجد هؤلاء الدعاة يركبون أحدث موديلات السيارات .

ولو كانت – معاذ الله – تلك هي أساليب الصحابة والتابعين – رضوان الله عليهم أجمعين – في الدعوة إلى الله ، لكفتنا ألوف الكتب التي ألفها عظماء الإسلام وأعيد طبعها، ولأشبعتنا الكلمات الدينية التي تلقي على شاشة التليفزيون وتبثها الإذاعة، وتنشرها الجرائد اليومية والدوريات الأسبوعية والشهرية.

ولكن ما يبذل في هذا المجال – من تلك الأساليب – يذهب سدي ، حيث يظل المجتمع الإسلامي كما هو ، لم ينله التغيير المنشود ، يظل ينعي حظه .

نعم ، لقد أصبح من العيب في مثل تلك الظروف اتباع شخص لطريق الصحابة المستقيم وإن هو فعل : فستتحرك ضده أقلام القوى المعادية ، بالنقد والمعارضة ، ومناهضة هذه الدعوة المخلصة إلى الله ، وكأن الأمة قد اغتربت كلية عن الأساليب الفطرية الحقيقية للدعوة إلى الله وكأنما قوى الشر قد اتفقت على ألا تترك أحداً يعمل لإصلاح هذه الأمة .

فهل يا تري نصمت على كل ذلك ، ونتقاعس ملومين مدحورين مخذولين ؟ أم نجلس في مقاعد المتفرجين مستغنين العواقب الوخيمة بالغة التعقيد غير القابلة للتعويض، أم نيأس من الإصلاح أو الوصول إلى شاطئ النجاح أو النجاة ، بحجة أن الأمة الإسلامية فقد فقدت روحها، أو افتقرت إلى مقومات الفلاح، وبعدت عن صفوف الزعامة، وعجزت عن الخلافة والقيادة، لأن أسباب الأزمة ثد جثمت فوق صدرها فوهنت قواها ، وتبدد شملها وذهبت هيبتها، وسادت عليها قوى الشر، وتزعمها رواد مذاهب الكفر والنحل المحرفة، والأفكار الفاسدة ، التي جعلت المسلم يتخيل العالم دغلاً خطراً يمتلئ بالأفاعي والذئاب التي ترتدي ثياب البشرية ، والدليل على ذلك أن صوت الشر أصبح عالياً، كما صار صوت الباطل خفاقاً مجلجلاً يتيه بالزهو والانتصار ؟؟؟.

بينما الحقيقة تؤكد لنا أن الصمت والقعود يؤديان إلى فساد وخطر شديدين، لأنه لو وصلت الأمة إلى هذه الدرجة من الإهمال ، فالصمت والكسل عن القيام بالجهود العملية ليسا إلا جريمة غير قابلة للعفو والغفران .

فعلينا أن نقوم بالواجب ونوضح الحقيقة للجميع، بأن كل هذا نذير مبين وإعلان واضح بل صوت صارخ لأهل الخير والحق من أبناء الأمة الإسلامية، قادة وشعوباً حتى ينتبهوا ويفيقوا ويسارعوا بالعودة إلى مكانتهم الضائعة، وواجبهم المقدس في قيادة العالم وامتلاك ناصية الدنيا بالعلم والقوة والتفوق، حتى تنال الأمة حقها في القيادة التي توجه للخير ، وتعين عليه ، حتى يتحقق لها عمارة الكون والتسابق الى اكتشاف واستخراج ما أودع الله لعباده من خيرات وثروات ونعم ، فهم عباد الله الذين { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ }[1] .

ولكن للأسف الشديد فإن كل هذا الكلام مكرر ومعاد ، عارٍ من الإفادة ، يكرره كل فرد من لسانه أو من قلبه ، يكرره في الاجتماعات الخاصة والعامة ، وعلى منابر المساجد وفي قاعات الجامعات ، وفي سطور الكتب والجرائد ، يعرفه كل من له أدني علاقة بالدين .

لكن قلما يذكر أحد ما هي وسائل خروج المسلمين من المهانة ، وحتى من يتحدث عنها ، لن يقوم بتنفيذ ما قدمه من العلاج ، بل إنه يعتقد بأن واجبه قد انتهي بمجرد انتهاء حديثه بلا تنفيذ .

ورغم كل تلك الحقائق التي سبق ذكرها آنفاً ، وذكرها الشيخ محمد إلياس رحمه الله في كتابه : " انحطاط المسلمين وعلاجه الوحيد " ، وأي الشيخ رحمه الله بأن

(1) سورة المائدة : من آية 54 .

الحقيقة الأصلية ثابتة في موضعها وهي قوله تعالى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[1] .

وكذلك قوله تعالى : { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[2] .

ومهما بلغ هياج البحر وطغت أمواجه، لا بد أن ينفذ أمر الله على ظهر هذه البسيطة حتى يكون هناك خيرة هذه الأمة ، يخرجون في سبيل الله ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويدعون إلى الخير فيسعدون ويسعدون .

ولكن من أين تبدأ هذه الرحلة ؟ كيف يقوم هذا الأمر ؟ ومن أين تأتي الوسائل التي تحقق النجاح دون الفشل ؟! .

هذا هو التساؤل الذي سيطر على تفكير الشيخ محمد الياس ، وجعله يتقلب على جنبيه ويتأوه ويئن طوال الليل ، وأحياناً كانت صرخاته تجلجل في هداة الليل، وهو يدعو ربه للأمة أحياناً كان يخرج إلى الغابات لعدة أسابيع ، فلا يصل إلى سبيله الذي يريده، بل يرجع أكثر قلقاً فيراجع من جديد مصادر تاريخ الدعوة ومناهجها، ويستمع إلى الدعاة ويحاورهم ويناقشهم ويفكر ويتدبر ويستخير الله ، فلا يجد جواباً يشفي غليله ، إلى أن سافر ذات مرة إلى الحرمين الشريفين ، واستغرق مفكراً داعياً الله سبحانه وتعالى أن يشرح صدره ، ويهديه إلى ما يرضاه وما هي إلا فترة وجيزة حتى وفقه الله إلى كشف علل المرض وتعيين موضع الداء ، والوصول إلى الدواء ، وكيفية استخدامه ، حتى يستأصل جذور الفساد كاملة .

فقدم الشيخ محمد الياس منهجه، وحدد وسائله، مستلهما إياه من الكتاب والسنة وسير الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين ، ومناهج رجال الدعوة

---

(1) سورة آل عمران : آية 104

(2) سورة آل عمران : آية 110 .

في القرون الغابرة من صدر الإسلام ، مراعياً ظروف بيئته، وأحوال بلاده ، والظروف التي تحيط بالعالم كله ، فكان يقول: " من الحقائق الثابتة أن المرض الحقيقي لم يكشف بعد في صورته الحقيقة وأسلوبه الكامل، لأن الأسباب والبواعث التي ذكرت من قبل – كما أوردها بعض المصلحين – ليست هي أصل المرض ، بل كانت عوارض بحتة لا غير[1] " .

ومن ثم قام الشيخ محمد الياس بتحديد الداء، موجهاً أصحابه إلى الحقائق التي أدركها قائلاً: " لاريب أن القرآن هو الدستور الأبدى الكامـل للحياة البشرية ، ولا معني لأن يكــون (القرآن) قاصراً عن تلك الهداية، وبناءً على ذلك يجب أن نبحث عن المرض الحقيقي وعلاجه من القرآن نفسه ، حتى ترجع هذه الأمة إلى مجدها الغابر حسبما وعدنا الله سبحانه وتعالى بالخلافة والعزة والكرامة والنصر، والشئ الذي ينقصنا الآن ليس إلا معرفة سبب الحرمان من هذا كله، ولكننا نجد أن عوامل الهداية والفلاح والعزة والكرامة والمجد كلها متصلة ومرتبطة بالإيمان الكامل بالله ورسوله، وما أنزل عليه، وكذلك فإننا نجد أن الضلالة والحرمان والخسران والذلة كلها تتجلى بمقدار الضعف في الإيمان الذي كان الركيزة الأساسية وراء كل ما نري من إنجازات المسلمين في تاريخ الإسلام[2] .

ومن هنا قام الشيخ محمد الياس، وبدأ حركته الإيمانية ، وقدم لها منهجاً قيماً وأساليب حكيمة وكأنه يقدم بلسماً لجراح هذا العالم اللاهث في حروبه ، الغارق في ذنوبه التائه عن درب عزه وأمنه مؤكداً بأن هذه هي المرحلة الأولي والدفعة الأولى لعجلة النجاح لكى تبدأ في دورانها ، والتي لن تتوقف إلا إذا بلغت باب الفلاح والسعادة ، وتعود الأمة إلى الإسلام من جديد ، وتنال حظها السعيد ... ولكن إذا أردنا تبيان الدوافع والكوامن التي كانت وراء طرح هذا المنهج الفريد وحياة

(1) الشيخ محمد الياس : مسلمانون كي موجودة بستي اوراس كاواحد علاج : ص4 وما بعدها .
(2) المصدر السابق .

صاحبة الشيخ محمد الياس ، للقارئ العربي المسلم ، فقد يطول بنا المقام فر شرح قصته ، إلا أني أردت البوح بما يدور في خلجات نفسي حتى أكون أميناً ، لا مغالباً ولا مفرطاً ، مع الله ومع نفسي وأدعو الله تعالى وأسأله ألا أكون قد جانبت الحقيقة – ولو قيد أنملة – حتى أكون صادقاً مع الله والنفس في حياتي الفانية التي نذرتها للعمل في سبيل الله .

فقد أمضيت سنوات طوالا وأنا في المرحلة الأولى في المدرسة ، حين فاجأني الوالد العلامة الشيخ محمد سعيد شاه[1] – رحمه الله – بأمره أن أعد نفسي للسفر معه ، حيث كان رحمه الله دائم الأسفار للدعوة في أنحاء البلاد ، وما كنا نراه – طوال العام – إلا أياماً قلائل ، لأنه لم يكن يصطحب أولاده في تلك الأسفار – للدعوة والإرشاد – حتى لا يحرمهم من دراستهم إلا أنه في ذلك اليوم كان مختلفاً عما مضي ، حيث أمرني أن أكون رفيقاً له في رحلته .

ولقد بدأت الرحلة من خانقاه السعيدية [2] من أعمال مدينة " ملتان " ، إلى مدينة " رائيوند " الواقعة في أعمال مدينة " لاهور " وبعد قطع مسافة ثلاثمائة كيلومتر – تقريباً – وصلنا إلى بلدة صغيرة غاصة بالناس ، وكأنها أمواج البحر في فورانها، حيث يأتون إليها أفواجاً ذاكرين الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، وكأنهم يتفكرون في شيء لا أعرفه .

وهذه المنطقة تملؤها أسواق كثيرة متنوعة : ففيها سوق المطاعم والخضروات والفواكه وسوق المكتبات الذاخرة بكتب الدعوة والإرشاد بشتى لغات العالم ، وهناك أماكن السيارات الخاصة ، وذاك موقف الأتوبيسات والعربات الثقيلة ،

---

(1) انظر كتاب: حياة سعيدية: لمفتي عبدالحليم البانيبتي.

(2) وهي قرية صغيرة اتخذها الشيخ محمد سعيد رحمه الله مركزا لدعوته ، وبني فيها معهدا دينيا ومسجدا ، حتى اشتهرت باسمه – سعيد آباد – تقع الى جانب مدينة كبيروالا من أعمال مديرية " ملتان " وسط إقليم بنجاب بجمهورية باكستان الإسلامية.

وبجانبه محطة القطار ، التي تأتيها القاطرات من شتى أنحاء البلاد ، وكذلك هناك أماكن خاصة بعربات الخيل والإبل.

وأدركت بيديهتى بأن هذا هو نهاية المطاف ، ولكن الأقدام تحث الخطى إلى رؤية واستطلاع ما وراء ذلك، حيث بدأت تطالعنا مخيمات الاستقبال والاستعلامات، فلكل بلد خيمة خاصة بذويه، كالخيام الخاصة بأقاليم باكستان ، وخيام بلاد الشرق ، ومخيمات بلاد الغرب وكذلك خيام بلاد أفريقيا، فلكل قطر خيامه، وفيها معلمون يعرفون لغة بلادهم ، حيث يوجهون القادمون إلى ما يحتاجون إليه من الأمور التي يرغبونها، لم أكن أدري – ولا المنجم يدري – ما ماهية هذه الأشكال والألوان واللغات ، ولكن أقدام ذلك الصبي كانت في نشاط وحيوية تسابق أقدام أبيه الذي لم يفلته من يديه حتى لا يضل الطريق ، أو لا يجد بعد ذلك سبيلاً إلى أبيه .

ومن ثم وصلنا إلى المخيمات التي تسكنها الوفود ، وهي موزعة بترتيب وتنسيق عجيبين بحيث لو أخذت الصورة من أعلاها لأعطتنا رسماً لخريطة عالمية ، رسمت بفن ومهارة ، حيث تجد ترتيب القارات وتقسيمها على شكل معين بحيث لا تجعل أي شخص يضل عن مقره مهما بعد عنه .

وبعد ذلك تجد الترتيبات الداخلية للمعسكرات، موزعة طبقاً لترتيب الأقاليم والمحافظات والمدن والقرى على حسب ترتيب خريطة البلاد الرسمية .

وبعد قطع مسافة طويلة عبر تلك الخيام ، استغرقت حوالى ساعة ونصف ساعة ، وصلنا إلى مركز الاجتماع، فإذا به خيام وأعمدة على امتداد النظر، وعليها اللافتات الموضحة للأقاليم والمدن، والناس جالسون، ولا تجد بين الملايين صوتاً ، اللهم إلا صوتاً رخياً صافياً يأتيك من مكبر صوت يذكر لك أحوال الأمة وأمراضها وطرق علاجها، كما يشرح للخارجين في سبيل الله الأسس الهامة للدعوة إلى الله،

سواء كانت موضوعات التعليم أو التربية أو الإصلاح أو الترغيب أو الدعوة والإرشاد .

ثم وصلنا إلى اجتماع آخر وهو اجتماع الخاصة من قدماء أصحاب الجماعة الذين يدبرون ويدرسون الخطط الخاصة بنظام هذا الاجتماع، فهناك تجد اجتماع اللجنة الداخلية وغيره للأمور الخارجية، وهذا اجتماع خاص بالعلماء الذين يتدارسون موضوعات الدعوة الهامة ، والتي تلقى فيها الكلمات باللغة العربية فلكل قطر اجتماع خاص بالقدماء والخاصة لطرح أمور بلادهم على مائدة الدراسة ثم تقدم إلى اللجنة العليا التي تكمل ترتيب أمور البلاد بصورة نهائية .

وقد تعجبت وتحيرت ، حيث شعرت كأن العالم كله بين يدي ، أو كأني دخلت إلى عالم غير الذي ولدت فيه .

وبعد هذه الجولة الطويلة، اتخذنا مقراً نقيم فيه مدة ثلاثة أيام، حتى نهاية الاجتماع وكان الوالد ومن معه يستمعون إلى الكلمات التي تلقى فيه ليلاً ونهاراً، بينما كنت أتفقد الأمور وأسعي إلى البحث والاطلاع ، لكى أصل إلى حقيقة هذا اللغز الكبير حيث انجذبت نفسي لهذه المشاهد .

انتهي الاجتماع بعد ثلاثة أيام دون أن أدرك أي نتيجة لدراستي الطفولية المتطفلة ولكنى رأيت أن هذه الأماكن المعمورة قد تحولت إلى ميدان خال لا تتبين فيه شيئاً إلا السماء والأرض، فلا خيام ولا أسواق أو كهرباء أو موائد اجتماعات ، بل سماء وشمس وأرض وهواء وخلاء ، فأين رحلت هذه الوجوه المباركة التي كانت بالأمس على هذه البقعة من الأرض ؟

والذين قدموا إليها من سيبيريا أو الدول الإسكندنافية أو كندا وأيرلندا أو أستراليا أو اليابان أو الصين أو غيرها ومن الذين قدموا من كل أنحاء العالم ؟! أين ذهب كل هؤلاء ؟!

وقبيل مغادرة " رائيوند " مكثنا لفترة في المركز الأصلى الدائم ، ووجدنا اجتماعاً يضم بضعة آلاف شخص يأتونه مساء ويغادرونه صباحاً ، وسألت أبي : أين ذهبت هذه الجموع التي كنا معها بالأمس؟، فأجاب قائلاً : كلهم خرجوا في سبيل الله لإصلاح أنفسهم ، وإبلاغ دعوة الحق إلى الآخرين في شتي أنحاء العالم .

وفي تلك الأثناء فوجئت بلقاء والدتي على محطة القطار، وسألتها لماذا أنت هنا ؟، فأجابتني قائلة: مثلما جئت أنت هنا للمشاركة في اجتماع الدعوة مع الرجال، فأنا قد جئت مع رحلة النساء للاشتراك في المؤتمر النسائي للدعوة . فسألتها: وهل هناك اجتماع للسيدات ؟! قالت : نعم ، نجتمع أسبوعياً على المستوى المحلي ، وشهرياً على مستوى المحافظة ، وسنوياً على المستوى العالمي ، كى ندرس شئون الدعوة والإصلاح للسيدات على المستوي المحلي والعالمي .

وهكذا مضت أيام الطفولة وأنا مع رحلة الحياة أشاهد هؤلاء الناس منتشرين في البلاد كما أتابع الاجتماعات السنوية ، حتى تخرجت من معاهد العلوم الدينية وحصلت على شهادة الفضيلة (العالية) وأنا في الثامنة عشر من عمري .

وذات يوم طلبني الوالد – رحمه الله – وقال لي: " إنك قد حصلت على العلوم المتداولة وشهادتك هذه ما هي إلا إثبات لكفاءتك في الاطلاع على مختلف العلوم التي يحتاج إليها الداعية، ولكن ما بين هذا وذاك هناك مرحلة يجب أن يقوم بها كل داعية إلى الله ، وهي مرحلة التدريب العملي، فعليك بالخروج مع الجماعة في سبيل الله ". فخرجت لمدة أربعين يوماً وهي مدة وسط في منهج الجماعة .

وكلما كنت أقطع شوطاً في الاطلاع على الأمور الدينية ، كانت تشغلني أمور الأمة الإسلامية وماضيها وحالها ومستقبلها ، وكثيراً ما كنت أفكر في عمل هذه الجماعة، ثم ذهبت إلى مراكزها المختلفة ورأيت نشاطها، كما قمت بدراسة علمية وميدانية لكوادر أعداء المسلمين مثل مراكز القاديانية ، ومنكري السنة الشريفة،

والكنائس، والجماعات السرية التي تعمل تحت أيدي الصهيونية وغيرها من الوسائل المختلفة، وكذلك زرت مراكز المبتدعين ومروجي الخرافات، كما كثرت رحلاتي إلى محطات الإذاعة والتليفزيون وأستوديوهات الأفلام ، حتى أرى كل ما يبتدعونه ضد الإسلام والمسلمين .

ثم تشوقت إلى فن المناظرة ، وطرق استدلالات القرآن الكريم في هذا المجال ، فأتممت بحمد الله الدورات التدريبية في تلك العلوم في " دار العلوم العربية " بمدينة " خانفور "[1].

ثم التحقت بالجامعة الإسلامية الحكومية بمدينة " بهاول فور " بالدراسات العليا، وانتهزت فرصة ذهبية حيث كان أستاذنا هو العلامة الفقيه الشيخ شمس الحق الافغاني[2] الذي اشتهر في علوم التفسير والحديث، والذي قد تخصص في فنون المناظرة ضد المذاهب الهندوسية والوثنية الأوربية على يد كبار علماء شبه القارة ، وكان حافظاً لمعظم نصوص الكتب المقدسة للأديان الأخرى، والحمد لله أنني كنت من أحب التلاميذ إليه، وذلك لأسباب عديدة ، وأبرزها: المناقشات التي كانت تدور بيني وبينه، خلال كثير من المحاضرات في المسائل التي كانت تحتاج إلى مزيد من الإيضاح .

وبعد أن وفقني الله إلى شهادة التخصص في الدعوة والإرشاد من هذه الجامعة الحكومية التحقت بالجامعة الأشرفية الأهلية ، وأنا في شوق إلى التتلمذ على يد كبار علماء الحديث والتفسير والفلسفة وعلم الكلام ، ومن أشهرهم : الشيخ محمد

(1) مدينة تقع في ولاية بنجاب الغربي بجمهورية باكستان الإسلامية .

(2) كان وزيرا للأمور المذهبية لولاية " القلات " الواقعة في باكستان وكان في منصب شيخ التفسير في الجامعة في ذاك الحين

إدريس الكاندهلوي [1] الذي كان آنذاك يعمل هناك شيخاً للحديث ، والشيخ العلامة رسول خان[2] الملقب بأستاذ الكل .

وبعد التخرج من هذه الجامعة ، اشتغلت بالتدريس ، بجانب الإشراف على ثلاثمائة وخمسين مدرسة دينية فتحها والدى رحمه الله في أنحاء البلاد ، كما اشتغلت مبلغاً في جمعية: تنظيم أهل السنة والجماعة ولكن لم أشبع نهمي بكل هذا وذاك ، بل كنت أريد أن أصل إلى حقيقة يطمئن بها قلبي ، وأن أقوم بدور يؤدي بالمسلمين إلى العودة إلى الإسلام من جديد، ولكن كيف، وأنا لا أرى ضرورة تأسيس جماعة جديدة وسط تلك الجماعات والأحزاب الدينية ؟!.

فوفقني الله بتقديم أبحاث علمية لجامعة الأزهر الشريف ، كما قمت بإعداد رسالة علمية في هذا المجال أشرف عليها جهابذة العلم وأجازوها .

ومن هذا المنطلق كان ولابد وأن أقوم بدراسة مناهج الدعوة التي قدمها عظماء الإسلام خاصة في الآونة الأخيرة ، حتى أصل الى الحقيقة التي تؤدي بالأمة إلى مجدها الأول .

وبذا قمت بدراسة منهج الشيخ محمد إلياس في الدعوة الى الله وذلك لأسباب عديدة منها :

أولاً: عدم الاهتمام بتربية المسلمين مما تسبب في اغتراب المسلمين – عامة – والبعد عن دينهم ، فلا يطيعون ربهم ورسولهم ، مما نتج عنه فقدان القيادة العليا التي وصفها الله : بأولي الأمر منكم .

---

(1) هو مؤلف أكثر من خمسة وسبعين كتاباً، ومن أبرزها تفسير معارف القرآن، وتعليق الصبيح في شرح مشكاة المصابيح وشرح البخاري، وسيرة المصطفى وعقائد الإسلام وأصول الإسلام، وخلافة الراشدة ، ختم النبوة وإسلام أورنصرانيت، وقد توفى إلى رحمة الله في السابع من رجب عام 1394 الموافق 28 يوليه عام 1974 م ودفن في مدينة لاهور، راجع تذكرة أكابر علماء ديوبند: ص177 – 182: وتذكرة إدريس.

(2) وهو رسول خان ابن محمود على بن محمد كل خان ولد في عام 1871م تقريباً، وبعد جهاد في تدريس علوم الحديث والتفسير والفلسفة أكثر من تسعين عاماً توفى إلى رحمة الله في عام 1971م وهو ابن مائة عام ــ راجع: تذكرة أكابر علماء ديوبند: ص136 وما بعدها، وسوائح مولانا غلام رسول خان: لقاري فيوض الرحمن.

وبذلك لا يرجع أحد إلى الله ورسوله حين يتنازعون الأمر فيما بينهم ، فرادى أو جماعات مما يدل على ضعف الإيمان بالله وباليوم الأخر .

ومن هذا المنطلق يجب – قبل كل شيء – القيام بترسيخ جذور الإيمان في قلوب المؤمنين ، حيث تبدأ تلك المرحلة بتشكيل لجنة علمية على مستوي الأمة ، تدرس جميع ما قدم من المناهج – من قبل دعاة الأمة – التي تؤدي إلى ترسيخ الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره من الله تعالى ، لعل الله يهدى إلى سواء السبيل .

ونظراً لذلك قمت بدراسة منهج الشيخ محمد إلياس، متمنياً أن يوضع هذا المنهج في ضمن المناهج الإيمانية التي ستدرسها الأمة يوما ما، حتى يمكن الوصول إلى منهج كامل وشامل – مستمدٍ من المصادر الأصلية للإسلام – يفي بكل احتياجات الأمة حتى يفرج الله عنها كربها، ويوفقها للسعادة الأبدية الكاملة .

ثانياً : كثرة انتشار جماعة التبليغ ، وشهرتها في جميع أنحاء العالم ، وفي حين نجد بعض البلاد التي قام فيها علماء الدين بأعمال تبليغ الدعوة ، يناصرون العامة والخاصة على حد سواء ، فلم ولن تجد هناك أي مفهوم يشوه صورة الجماعة وسيرتها .

ورغم ذلك نجد كثرة البلاد التي لا تملك الاتصال الواضح بين أصحاب تلك الجماعة – المحليين – وبين القيادات الدعوة – المحلية – وذلك بسبب عجز هؤلاء العامة – المخلصين في دينهم وأعمالهم – عن إفهام منهج الجماعة للخاصة والعامة على حد سواء وذلك لأن القائمين بتلك الأعمال في هذه البلاد – أنفسهم – لا يفهمون ما وضع الشيخ محمد إلياس من منهج وأساليب ومبادئ وأهداف لتلك الجماعة ، مما أدى إلى زيادة الجهل – في تلك البلاد – بمنهج الجماعة وأساليبها وأهدافها ، ووسائلها ومبادئها وشخصية مؤسسها .

هذا ما رأيت في معظم أنحاء البلاد من الشرق إلى : هونج كونج ، ومن الغرب إلى إنجلترا ، فترى الناس يتجولون في الشوارع والأسواق وأحياء المدن والقرى ملتحين ، لابسين ملابس الزهاد والعباد والدعاة ، ولكن من يعرف إن كان هذا مسلم مبلغ أو هو من البهرة أو هو كافر وثني من السيخ ؟ أيكون من التفكير والخروج في سبيل الله ، أوهو من التكفير والهجرة ؟ هل يعمل بالبناء والتعمير ، أم يعمل للخراب والتدمير ؟ فللبهرة لحية وقلنسوة ، وللمبلغ لحية وقلنسوة أو عمامة ، وللسيخ لحية أطول من هؤلاء وعمامة أضخم منهم .

والعامة يسألون: من هؤلاء؟ هل هم منهم؟ أومن أعدائهم ؟ حتى لقد أخبرني أحد السيخ : بأن المسلمين – في لبنان – أخذوه مرة لكى يؤمهم في صلاة المغرب ، بسبب هذه اللحية الطويلة والعمامة ، ومهما أقسم لهم بأنه ليس مسلماً ، ولا يعرف شيئاً عن الصلاة إلا أنهم أخذوا كلماته على سبيل التواضع ، بسبب عدم معرفة اللغة من الجانبين .

وهكذا نرى بأن الفرد – من عامة الناس – قد يعتقد بأن كل هؤلاء زهاد وعباد ورجال دين وعباد الله المخلصين .

بينما غيره يعتقد بانحرافهم وتشددهم أو تمردهم وتطرفهم !.

وهكذا تكثر الأسئلة عن هؤلاء، وخاصة عن أهل التبليغ ، وليت الأمة هم الذين يسألون فحسب، بل طلاب بالجامعات وأساتذتها ، بل رؤساء مراكز الدعوة كذلك !!..

وأكثر من ذلك، مما دفعني إلى ذلك البحث، هو المناقشة الحادة التي تدور بين الإخوة من مؤيدي هذه الجماعة ومعارضيها، وكل واحد منهما يتمسك برأيه رغم جهله بالحقيقة، كما نجد هناك بعض المثقفين الصامتين لا يناقشون تلك الأمور ، إلا أنهم قد يدلون بآرائهم المؤسفة بمنتهي البساطة ، ونذكر منها بعض ما سمعناه من هؤلاء العباقرة وهي أن تلك الجماعة تخالف العلم والعلماء ، وأن أصحاب تلك

الجماعة يكرهون العلماء ومراكز الدين ، وأنهم عملاء للاستعمار، وأن الجماعة وليدة الوثنية والبوذية !. وإنها تحرم الجهاد ! وأن منهج الشيخ محمد إلياس منهج قادياني ! وكان وهابياً ! وكان مبتدعاً ! غير ذلك مما يرد في خاطرهم أو ينشغل به بالهم .

فكان لزاماً على أن أحقق تلك الأمور وأصل إلى كنهها كمسلم وطالب للعلم ، فعزمت أن أجرد نفسي لتلك المهمة ، حتى أصل إلى الحقيقة ، لعل الله يوفقني للحق ويرزقني فلاحاً

والحقيقة التي وصلت إليها أثناء دراستي هي تساهل أصحاب الجماعة – في بعض البلاد – في اتباع المنهج الصحيح للشيخ محمد إلياس رحمه الله ، والتشدد الزائد في بعض الأمور التي عرفوها أثناء خروجهم لمدة قصيرة مع الجماعة ، ومنها الإنكار الشديد لفهم هذا المنهج أو إفهامه بالكتابة[1] (أي بالتأليف) ، ونتج عن عدم توفر المنهج المكتوب جهل المخالفين لمنهج الشيخ في الدعوة إلى الله ، كما لم يعرف المحبون لهذه الجماعة حقيقة منهجه بنفس القدر في تلك البلاد .

ولذلك قمت بدراسة وافية عن حياة الشيخ محمد إلياس وموطنه ونشأته وبيئته ومذهبه وعقيدته وثقافته وأفكاره ومنهجه في الدعوة إلى الله، ومبادئه وأهدافه، ووسائله، والأساليب التي اختارها لتبليغ الدعوة على الصعيدين المحلي والعالمي، كما ألقيت الضوء على الصعاب التي واجهته في هذا الطريق ، والجهود التي بذلها في هذا المضمار، والتضحيات التي قدمها هو وأولاده وأصحابه في سبيل إعلاء كلمة

(1) يقول الشيخ محمد إلياس: كانت البداية في فترة بداية الحركة غير نافعة لأنه كان من الصعب أن نقوم بإفهام أي منهج علمي بالكتابة المحضة دون أن نقدمه بالنماذج العملية = = الحية، أما الآن فقد وفقنا الله بتكوين مئات الدفعات والمجموعات الدعوية لتقديم النماذج الحية لتلك الاعمال، وبذلك فقد وصلنا إلى مرحلة تقديم هذا المنهج بالكتابة مع إيضاح أساليبه ووسائله للعامة والخاصة والاهتمام بنشرها في أرجاء العالم حتى يمكن تبليغ الدعوة بالكتابة ، كي يفهموا حقيقة الأمر، وقال " أود أن يؤلف كتاب مستقل لكل مبدأ من مبادئ هذا المنهج " راجع محمد شاهد: أكابركي خطوط : ص54: وابوالحسن على الندوي : مكاتب مولانا شاه محمد الياس ص 28، 40 ، 53 ، 122 . وراجع الشيخ محمد إلياس بين مؤيديه ومعارضيه للمؤلف .

الله في البلاد الوثنية وغيرها في العالم كله، مع الإنجازات التي حققتها الجماعة في المرحلتين الأولى والثانية من تأسيسها .

وآراء علماء الأمة في ذلك ، فضلاً عما رآه المعارضون للشيخ محمد إلياس رحمه الله .

وذلك لأبين للأمة الإسلامية – عامة – والعالم العربي – خاصة – أن منهج الشيخ محمد إلياس منهج قوى في مجابهة الكفر والإلحاد ، وكسب المعركة ضد الجهالة ، حيث يؤدي إلى اليقظة الإسلامية .

وهو منهج عملي ، بليغ التأثير في عودة المسلمين إلى الإسلام من جديد .

وهذا المنهج مستمد من الكتاب والسنة ، حيث استلهمت أساليبه من حياة الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين، فمن الواجب على المسلمين القيام بالدعوة ، وهذا الواجب هو فرض العصر على كل أبناء الأمة حتى يقضى على الجهالة والكفر والإلحاد ، ويكون الدين كله لله، كما يجب أن تكون هناك جماعة مؤمنة عزيزة منيعة ، يقذف الله بها الرعب في قلوب أعداء الله وأعداء الإسلام ، وهذا لا يتحقق إلا إذا رفع كل واحد راية الدعوة والجهاد، وانتظم جنود الله للخروج في سبيل الله حتى توحد طاقات الأمة الإسلامية على مستوي العالم كله ، ثم تواجه كل التيارات الملحدة والموجات الهالكة التي تهدف الى تدمير الإسلام والمسلمين، بكل قوة وعزم .

هذه هي بعض الأمور التي كانت تمثل الدوافع الأساسية للقيام بإعداد هذه الموسوعة العلمية .

ومع أن هذا العرض السريع المتواضع يعتبر إشارة إلى المهم من الموضوع ، والتذكير بأساسياته ، حيث كلفت نفسي بالمرور السريع على النقاط الهامة من الموضوع دون أن أشبع النهم منها ، فكان مثلي كمثل رجل كلف بالمرور سريعاً على عدد من المدن والقرى ليخبرهم بأن وراءه حريقاً سيلتهمهم ، وليس لديه من

الوقت ما يسمح له بإعطاء التفاصيل الكاملة عن ذلك الحريق وعن أسبابه الكامنة ، وحجمه ، ومقدار خطره المهلك، إلا أنه يحدد لهم بعض الأدوية بسرعة فائقة كوقاية منه مع أدوات الإسعاف الأولية لهم .

وهذا الكتاب أضعه بين يدي القارئ العربي المسلم كأول جزء من هذه السلسلة المباركة راجياً من الله أن يوفقني لإتمامها حتى تعود على الأمة بالنفع في الدنيا والآخرة سائلاً المولى عز وجل أن يجعل ذلك في سجل حسناتي، وسبباً لفوزي ونجاتي .

والله ولي التوفيق ،،

الباب الأول

الشيخ محمد إلياس حياته ونشأته

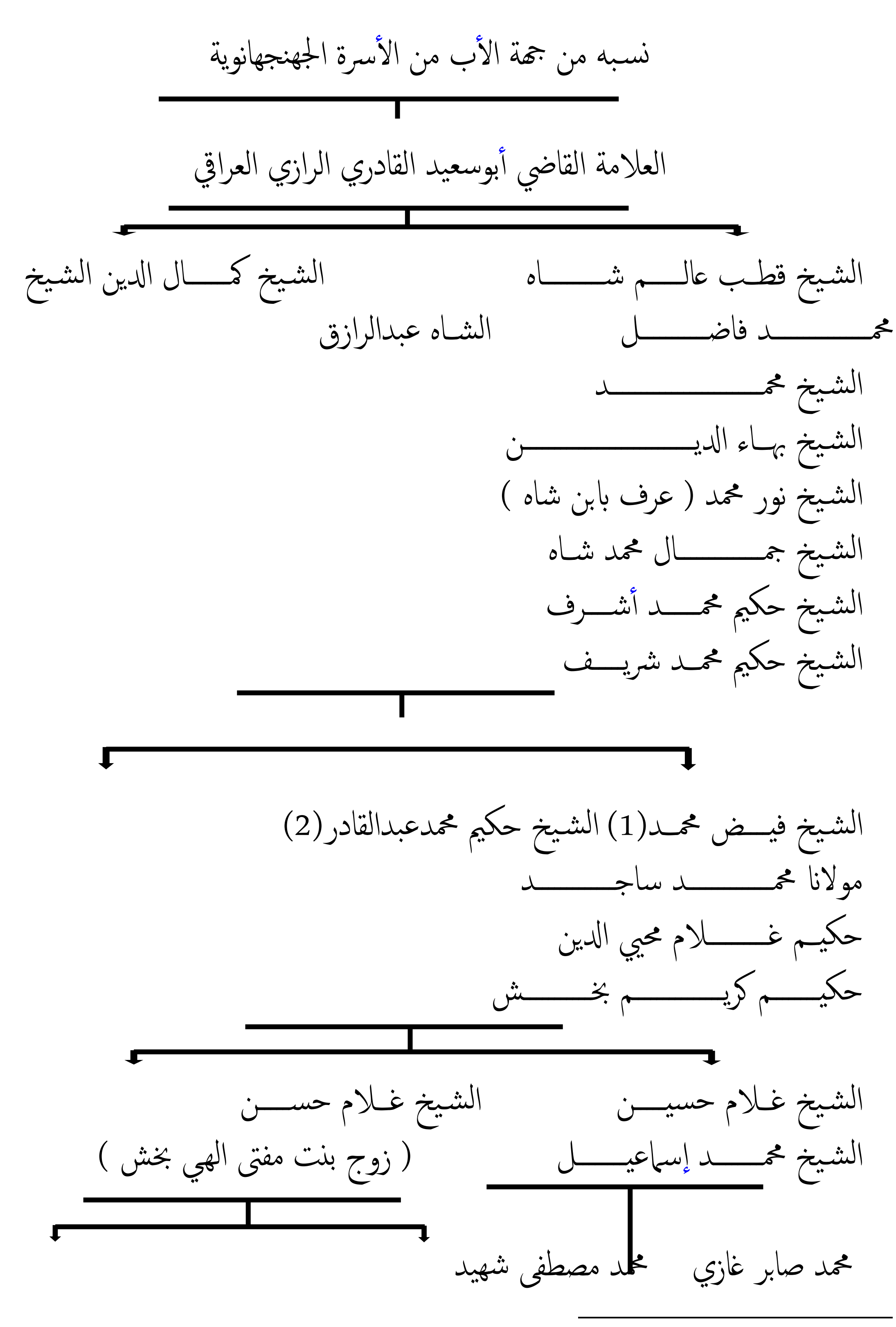
ويحتوي على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : حياة الشيخ محمد إلياس وأسرته .

الفصل الثاني : الشيخ محمد إلياس طالباً ومدرساً .

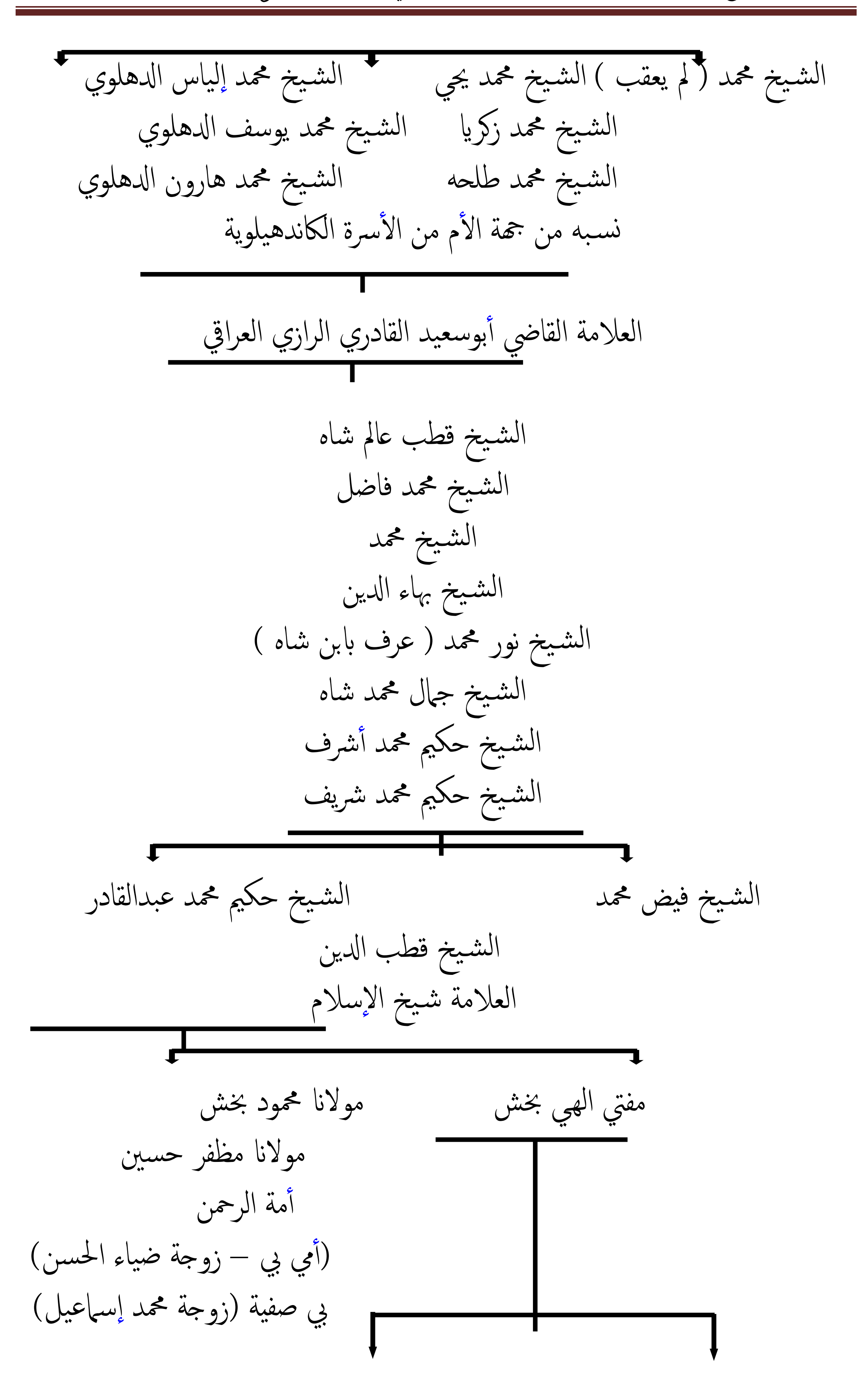
الفصل الثالث : المؤثرات التي عاشها الشيخ محمد إلياس وعلاقته ، بها ورأيه فيها .

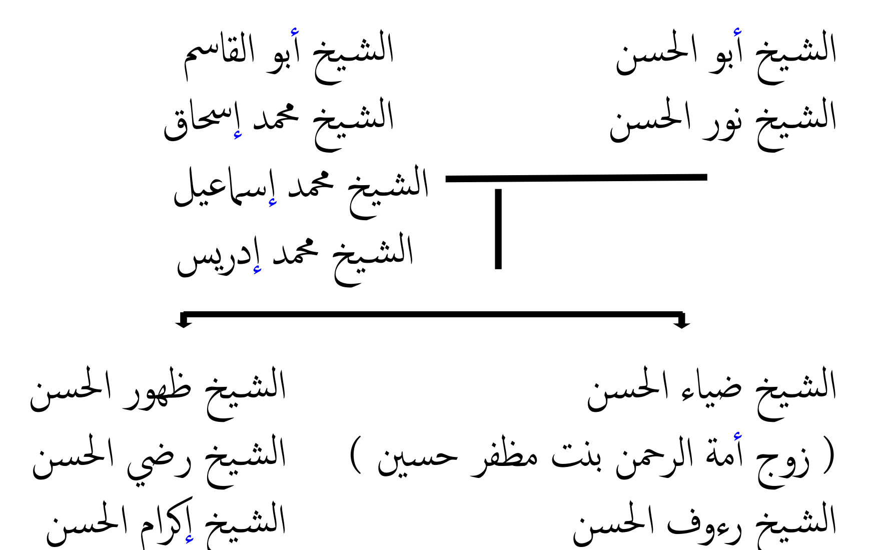
******



(1) استقر هو وأولاده في الجهنجهانة .

(2) الشيخ حكيم محمد عبدالقادر انتقل هو وأولاده ، من جهنجهانة إلى الكاندهلة .


الشيخ محمد (لم يعقب) الشيخ محمد يحي
الشيخ محمد إلياس الدهلوي
الشيخ محمد زكريا
الشيخ محمد يوسف الدهلوي
الشيخ محمد طلحه
الشيخ محمد هارون الدهلوي
نسبه من جهة الأم من الأسرة الكاندهيلوية
العلامة القاضي أبوسعيد القادري الرازي العراقي
الشيخ قطب عالم شاه
الشيخ محمد فاضل
الشيخ محمد
الشيخ بهاء الدين
الشيخ نور محمد (عرف بابن شاه)
الشيخ جمال محمد شاه
الشيخ حكيم محمد أشرف
الشيخ حكيم محمد شريف
الشيخ فيض محمد
الشيخ حكيم محمد عبدالقادر
الشيخ قطب الدين
العلامة شيخ الإسلام
مفتي الهي بخش
مولانا محمود بخش
مولانا مظفر حسين
أمة الرحمن
(أمي بي – زوجة ضياء الحسن)
بي صفية (زوجة محمد إسماعيل)


الشيخ أبو الحسن
الشيخ أبو القاسم
الشيخ نور الحسن
الشيخ محمد إسحاق
الشيخ محمد إسماعيل
الشيخ محمد إدريس
الشيخ ضياء الحسن
الشيخ ظهور الحسن
(زوج أمة الرحمن بنت مظفر حسين)
الشيخ رضي الحسن
الشيخ رءوف الحسن
الشيخ إكرام الحسن
الشيخ احتشام الحسن
الشيخ إنعام الحسن

الفصل الأول

حياة الشيخ محمد إلياس وأسرته

التعريف بالشيخ محمد إلياس :

هو محمد إلياس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي ، وكان له اسم آخر تاريخي هو : "أختر إلياس" بن محمد إسماعيل الجهنجهانوي[1] .

فهو محمد إلياس بن محمد إسماعيل بن غلام حسين بن حكيم كريم بخش بن حكيم غلام محيي الدين بن محمد ساجد بن محمد فيض ابن حكيم محمد شريف بن محمد أشرف بن جمال محمد شاه أبن نور محمد (المعروف بابن شاه) ابن بهاء الدين شاه بن محمد بن محمد فاضل ابن قطب شاه ابن العلامة القاضي أبي سعيد القادري الرازي العراقي[2] .

وينتمي هذا الشيخ إلى أسرة كريمة، هي أسرة " صديقية "[3]، وقد اشتهرت في شبه القارة الهندية الباكستانية ، بما قدمته من خدمات جليلة في شتى ميادين العلم والدعوة والتربية والزهد والتقوى، والتضحية في سبيل الدين، وهي أسرة تماثل أسرة الشاه ولى الله الدهلوى[4] رحمه الله، وقد اندمجت وتكاتفت وتناصرت معها في جميع المجالات الدينية، حتى ورثت جميع علوم أسرة الشاه ولى الله الدهلوى رحمه الله ، وحركاتها وخدماتها في علوم الحديث والتفسير وميادين الجهاد والدعوة، وكان آخر وريث لهذه الأسرة في علوم الحديث الشريف هو إمام

---

(1) نسبة الى قرية (جهنجهانه) وهي بفتح الجيم والهاء وسكون النون وفتح الجيم والهاء ما قبل الأخير وإهمال الهاء الأخيرة ، وسنورد بالتفصيل عن هذه القرية فيما بعد .

(2) راجع محمد ثان: حياة الشيخ محمد يوسف ص166 وولى كامل ص70 وتذكرة أمير التبليغ ص14 وارشادات حضرت جي ص5.

(3) نسبة إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

(4) هو من أكبر زعماء الحركة الإسلامية في شبه القارة الهندية الباكستانية في القرن الثامن عشر، وسنورد ترجمة له بعد قليل.

المحدثين الشيخ محمد زكريا الكاندهيلوي[1] المعروف باسم " شيخ الحديث " كما ورث الشيخ محمد إلياس مجال الدعوة، وكان آخر من ورث هـذه الأسـرة (أي أسرة ولى الله الدهلوى) في ميدان الجهاد هو السيد المفتي مظفر[2] حسين الكاندهيلوي جد الشيخ محمد إلياس وهو جده من ناحية الأم .

نسبته إلى الجهنجهانه :

تنسب أسرة الشيخ محمد إلياس إلى قرية جهنهانه، التي تقع غرب الولاية الشمالية بمديرية " مظفر نكر "[3] في الهند .

وكان أول من دخل شبه القارة الهندية الباكستانية من أجدد هذه الأسرة هو العلامة القاضي أبوسعيد القادري الرازي العراقي[4].

وكان ذلك في عصر السلطان شهاب الدين محمد الغوري سلطان الهند في ذلك الحين فرحب به السلطان أيما ترحيب وأكرمه وأعزه بلقب " شيخ الإسلام " وولاه الأمور الدينية في المنطقة بأكملها .

وكان الشيخ كمال الدين من أولاد أبي سعيد القادري الرازي ، الذي رزقه الله ابناً صالحاً فاق نظراء عصره ، وهو الشاه عبدالرازق الجهنجهانوي ، الذي كان مرجعا للعلماء والمشايخ في تلك الفترة ، وكان الشيخ قطب الدين عالم شاه هو النجل الثاني لأبي سعيد القادري الرازي والذي اشتهر في مجال العلم والدعوة والإصلاح، ويتصل نسبه بالشيخ محمد إلياس بن محمد إسماعيل، وكانت شخصية

(1) وهو ابن أخ الشيخ محمد إلياس ، وتتلمذ على يديه .

(2) سيرد الحديث عن هذا الشيخ فيما بعد .

(3) حرف الكاف في هذه الكلمة أصله حرف " ك " في اللغة الاردية والفارسية ، ولكنه ينطق مثل حرف " الجيم " المصرية الدارجة وقد فضلت ان أكتب هذا الحرف بالكاف بدلا من حرف " الجيم " حتي لا يتداخل الأمر على أهل اللغة .

(4) كان معاصراً للإمام فخر الرازي ، وقد هاجر من العراق الى مدينة " أمي " عن طريق مكران (وهي منطقة تقع بين إيران وباكستان الحالية) الى الهند عام 601 هـ ونزل في قرية " جهنجهانه " واستقر بها بالقرب من مدينة "كيرانه " المعروفة في شبه القاره

قطب الدين عالم شاه من الشخصيات المرموقة في تاريخ شبه القارة الهندية الباكستانية .

أما الشخصية الأخرى التي اشتهرت من أجداد الشيخ محمد إلياس في مجال العلم والدعوة ، فهو العلامة الشيخ حكيم محمد أشرف الجهنجهانوي ، والذي ذاع صيته إبان فترة حكم الإمبراطور شاه جهان، حفيد الإمبراطور جلال الدين أكبر، وكان من أجداده كذلك العلامة محمد ساجد الجهنجهانوي القاضي المعروف[1] .

وقد استمرت سلسلة تلك الأسرة من أولاد الشيخ محمد فيض بن محمد شريف بن محمد أشرف في هذه القرية ، حتى اشتهر أفرادها بالجهنجهانويين (نسبة إلى قرية جهنجهانه) والتي ولد بها الشيخ محمد إسماعيل والد الشيخ محمد إلياس رحمهما الله .

وقد فصلت أحوال شيوخ تلك الأسرة في كتاب ضخم مستقل باسم " حالات مشايخ كاندهله"[2] والذي ألفه الشيخ احتشام الحسن الكاندهيلوي .

نسبته إلى كاندهله [3]:

هي مدينة تقع بمديرية " مظفر نكر " بالهند ، وقد ظهرت في البدء – كقرية صغيرة – على المسرح العلمي في عهد السلطان محمد تغلق ، سلطان الهند وذلك عندما خرج السلطان (محمد تغلق) للصيد في الثاني والعشرين من رجب عام 793 هـ وزار هذه القرية واتخذها مركزاً للصيد بضعة أيام ، فلما جاء يوم الجمعة أمر السلطان ببنائها من جديد وإقامة مسجد فيها ، فبني المسجد فوراً وحضر السلطان صلاة الجمعة فيه ، وقرر أن يقوم القاضي محمد بن كريم الدين (وهو من أولاد القاضي ضياء الدين سنامي رحمه الله) بالقضاء والإمامة والخطابة، وتنفيذ

(1) وقد ذكر مفتي الهي بخشي بعض فتاويه المعروفة في مذكراته ، انظر حياة الشيخ محمد يوسف ص35 ، وتذكرة أمير التبليغ ص14 .

(2) تذكرة أمير التبليغ مقدمه عن احتشام الحسن الكاندهلوي .

(3) بفتح الكاف ومد الألف وسكون النون والدال والهاء وفتح اللام وإهمال التاء .

الأحكام الشرعية بالمنطقة ، كما منحه مساحة واسعة من أراضي تلك المنطقة وبذلك استقر الشيخ وأولاده في هذه المدينة .

ومن هنا بدأت نسبة هذه الأسرة إلى تلك المدينة ، وبدأت هذه المدينة تغص بمنابع العلم والمعرفة على أيدي أولاد الشيخ محمد ، والذين كان معظمهم من كبار علماء شبه القارة

وإلى جانب ذلك كانت هناك السيدة " خان بي بي " بنت هذه الأسرة الكاندهلوية الطاهرة والتي تزوجت من الشيخ الحكيم عبدالقادر بن محمد شريف بن محمد أشرف ، من أسرة قضاة الجهنجهانه وهو من أجداد الشيخ محمد إلياس .

ومن هنا انتقل فرع الشيخ عبدالقادر من جهنجهانه إلى الكاندهله ، واتصل هذا الفرع الكريم مع الأسرة الكريمة ، أي أسرة الشيخ محمد ، وبذا زاد العلم والفضل والبركة بين أبناء هاتين الأسرتين ، واشتهرت قرية الكاندهله بهؤلاء العباقرة من أبنائها وبناتها الأجلاء حيث ظهر منها علماء اشتهروا بالعلم والفضل والتقوي والجهاد ، كما اشتهرت شخصياتها بالتبحر في علوم التفسير والحديث والفقه ، كما أن هؤلاء المؤلفين والدعاة قد أضاءوا شبه القارة الهندية الباكستانية بنور علمهم وببركة جهودهم ومساعيهم المشكورة .

ومن هنا اشتهر علماء هذا الفرع من أجداد الشيخ محمد إلياس بنسبتهم إلى "الكاندهلة" ومن أشهرهم : الشيخ إلهي بخش المفتي الكاندهلوي ابن شيخ الإسلام بن قطب الدين بن الحكيم محمد عبدالقادر بن محمد شريف بن محمد أشرف ، والثاني هو العارف بالله المجاهد الشيخ مظفر حسين الكاندهلوي ابن الشيخ محمود بخش ابن شيخ الإسلام، وأما الثالث فهو الشيخ العلامة أبو الحسن الكاندهلوي .

ومن ثم تزوج الشيخ ضياء الحسن بن نور الحسن بن أبي الحسن بن إلهي بخش المفتي بن شيخ الإسلام من " أمة الرحمن " بنت مظفر حسين الكاندهلوي بن الشيخ محمود بن شيخ الإسلام .

ولهذه السيدة (أي أمة الرحمن زوجة ضياء الحسن) حكايات معروفة بالزهد والورع والاستغراق في العبادات ، وبحبها للقرآن ، واتباعها للسنة الشريفة ، وبدورها المؤثر في تربية هذه الأسرة .

وقد أنجبت أمة الرحمن المشهورة باسم " أمي بي " ولدين كانا عالمين ، عرفا بالزهد والتقوي والورع والسخاء ، كما أنجبت ثلاث بنات كبراهن " بي صفية " وهي السيدة الكريمة التي تزوجها الشيخ محمد إسماعيل الجهنجهانوي والد الشيخ محمد إلياس .

زواج الشيخ محمد إسماعيل:

بعد ما توفيت زوجة الشيخ محمد إسماعيل الأولى ذهب ذات يوم إلى " كاندهله " في عام 1285 هـ ليشترك في حفل زواج أحد أقربائه، وألقي كلمة دينية في حفل الزفاف كعادة هذه الأسرة، فتركت هذه الكلمة أثراً بالغاً في نفوس سامعيها، كما سمعت السيدة أمة الرحمن هذه الكلمة، فرأت بعين بصيرتها نور العلم والإيمان في شخصية الشيخ محمد إسماعيل، وأعجبت بأسلوبه العلمي وحلاوة بيانه، وبما ظهر منه من التواضع وعلو أخلاقه، فقررت ربه الأسرة (أمة الرحمن) أن تزوجه بابنتها " بي صفية "، وعلى الفور دعت مجلس الأسرة لتبين لهم أسباب تلك الرغبة ، وبدأت السيدة الفاضلة توضح للأسرة أموراً هامة فقالت : " إنني أرى أن أقدار العلم والعمل قد تقل وتضعف رويداً رويداً من هذه الأسرة الكاندهلوية ، وإني أخاف أن تبعد تلك الأسرة عن الدين وعلومه ، وبذلك يقضي

على ميراثها العلمي ، ومسئولياتها التربوية على مر الزمن، وإني أرى أن الشيخ محمد إسماعيل عالم فاضل ، ومتمسك بالكتاب والسنة الشريفة ، ولهذا أود أن أنكحه ابنتي " بي صفية " لكي تستحكم وتقوي أسس العلم والدين في الأسرة ، وتتوطد العلاقات والروابط العلمية والدينية بين أسرتي جهنجهانه وكاندهله وهما من جد واحد .

وهكذا بعثت " أمة الرحمن " روحاً جديدة في روع هذه الأسرة الصديقية لتزداد الخدمات الدينية في شبه القارة .

وقد تم زواج الشيخ محمد إسماعيل من " بي صفية " في الثالث عشر من رجب سنة ألف ومائتين وخمس وثمانين (الموافق للثلاثين من أكتوبر سنة 1868 م).

وكان هذا النكاح سبباً في قرابة أولاد العمومة والأجداد من جديد ، مما أدي إلى وجود دفعة قوية للنهضة الدينية في تلك الأسرة الصديقية .

وقد تبلورت الظواهر الدينية في تلك الأسرة أكثر من ذي قبل، فأنجبت شخصيات تاريخية فذة ، وصار علماؤها من أكبر علماء الدين في شبه القارة .

هذا وقد انتقل الشيخ محمد إسماعيل من قرية جهنجهانه إلى قرية "كاندهله " واختارها مقراً له .

ومن هنا أصبحت نسبته الكاندهلوي – بدلا من – الجهنجهانوي – وقد رزقه الله ولدين صالحين، وهما العلامة الشيخ محمد يحيي بن محمد إسماعيل الكاندهلوى ، والشيخ محمد إلياس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي [(1)] .

(1) هما اللذان ورثا علوم هذه الاسرة وتقاليدها الطاهرة، واشتهرا في علوم الدين ونشرها.. وذلك بالتدريس والدعوة والوعظ والإرشاد، كما بلغا بأولادهما درجة الاتقان في علوم الحديث والتفسير والتاريخ الإسلامي، والادب والبلاغة، وبفضل مؤلفاتهم المعروفة في العالم الإسلامي ، كما بنوا دوراً للعلم وفتحوا أبوابها للدارسين في شبه القارة .

وقد ولد الشيخ محمد يحيي في مدينة "كاندهلة " في شهر محرم سنة 1287 هـ الموافق 23 مارس 1871 م ، كما ولد الشيخ محمد إلياس عام 1303 هـ (الموافق 1881م) في مدينة "كاندهله " أيضاً .

فلهذا كانت نسبة الشيخ محمد إلياس إلى مدينة "كاندهله "[1] كما اشتهر ابنه الشيخ محمد يوسف بالكاندهلوي أيضاً .

نسبته إلى مدينة دهلى :

هذه هي نسبته الثالثة التي عرف بها ، وهي نسبته إلى مدينة " دهلى " عاصمة الإمبراطورية المغولية الإسلامية سابقاً ، والمعروفة الآن بـ " نيودهلى " وهي عاصمة الهند الحالية ، والتي كان لها أهمية خاصة في تاريخ المسلمين في الهند ، مثل مدينة " لاهور " في البنجاب الغربى في شبه القارة ، حيث اتخذها ملوك المسلمين عاصمة لهم زهاء قرون عدة وكانت كذلك كعبة العلماء المسلمين طوال فترة الحكم الإسلامي ، كما كانت مركزاً لكل الحركات الدينية والسياسية إبان حكم المسلمين والمستعمرين الإنجليز، وقد اشتهرت مدينة دهلى بآثارها الخالدة التي تمثل الحضارة الإسلامية زهاء ثمانية قرون في شبه القارة الهندية الباكستانية .

ومما يذكر أنه خلال فترة الحكم الإسلامي، أي في عام خمس وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية، عكف الشيخ محمد إسماعيل الكاندهلوي، والد الشيخ محمد إلياس على تعليم الأسرة الملكية كعادة الأمراء والملوك في تلك الفترة، إذ كانوا يختارون كبار العلماء لهذه المهمة، مما أدي إلى اختياره للتدريس في العاصمة دهلى، فكان يعلم أولاد ميرزا إلهى بخش[2] الي كان قريباً لإمبراطور المغول الملك بهادر شاه ظفر ، آخر إمبراطور للأسرة المغولية والمسلمين في الهند .

(1) انظر حياة يوسف من ص38 إلى 65 و (ديني دعوت) و (ولى كامل) .

(2) وقد بدأ ميرزا إلهى بخش بحفظ القرآن أيضاً على يد الشيخ محمد إسماعيل، حتى أنه ختم القرآن قبل وفاته .

وبعد القضاء على الإمبراطورية المغولية في الهند بأكملها أمعن الانجليز في قتل أفراد الأسرة الملكية والتنكيل بهم ، ونفوا بهادر شاه ظفر إلى بورما ، وبعد فشل الثورة عام 1957م لقي ميرزا إلهى بخش من المتاعب والضيق النفسي ما لا يطاق مما جعله يلجأ إلى رجال الدين ولا يوجد من هو أكثر منه زهداً وورعاً وتقوى ، فدعا له الشيخ واستجاب الله لدعوته وأزال عنه متاعبه .

فلما هدأ بال ميرزا إلهى بخش، رزقه الله راتباً من قبل الحكومة – كمنحه للباقين من أفراد الأسرة الملكية السابقة، قدمه ميرزا بين يدي شيخه محمد إسماعيل الذي أخذ منه بضع روبيات صارت له راتباً مقرراً فيما بعد ، وبعد ذلك انتقل ميرزا إلهى بخش من دهلى إلى قرية نظام الدين[1] ، وبني فيها قصراً صغيراً، ثم أقام بجانبه مسجداً وبيتاً للشيخ محمد إسماعيل، واستقر كلاهما في هذه القرية .

ومن هذا ندرك أن الشيخ محمد إلياس قد تربي عنه أبيه في قرية نظام الدين بدهلى واتخذها مقراً لدعوته إلى أن انتقل إلى رحمة الله ، ومن هنا اشتهرت نسبته – هو وأولاده – إلى مدينة دهلى[2] .

مولد الشيخ محمد إلياس ونشأته:

ولد الشيخ محمد إلياس في مدينة كاندهله لأبوين كريمين سنة ثلاث وثلاثمائة وألف من الهجرة الموافق سنة إحدى وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية .

وقد نشأ في أسرة إسلامية متمسكة بتعاليم الإسلام، لا تحتاج في تربية أولادها إلى أحد من خارج العائلة، فقد اجتمع لديها العلماء الأفاضل والمجاهدون من جهنجهانه وكاندهله ونلاحظ أنه لم ينتفع بمزايا وعلوم هذه الأسرة أهل هذه المدن فحسب، بل استفادت منهم شبه القارة بأكملها، حيث كان الملوك يفضلون رجالها

(1) تقع قرية نظام الدين حاليا ما بين مدينة دهلى القديمة ودهلى الجديدة.

(2) تاريخ يوسفي ص64 وما بعدها ، وديني دعوت للندوي وراجع تاريخي جائزة ص81 .

لتربية أولادهم ورعايتهم ، ويفضلهم فقد اشتهرت مدينتا "كاندهله وجهنجهانه" بأنهما مدينتا العلم والفضل .

وكذلك فقد انفردت سيدات هذه الأسرة بتربية أولادهن بأسلوب فريد ، حيث كانت تحكي لهم حكايات الصحابة وقصص المجاهدين في الإسلام ، وما بذلته هذه الأسرة من تضحيات في سبيل الدين ، وكان موضع اهتمام سيداتها لغرس قيم الدين الحنيف في نفوس أبنائها ، وإعدادهم للذود عن الشريعة المطهرة – وذلك ببذل النفس والمال – حيث كن يحرضن أولادهن على التمسك بالكتاب والسنة منذ نعومة أظفارهم[1] .

وقد تربى محمد إلياس التربية النقية الصافية التي كان لها أثرها البالغ في تكوين حياته العلمية والعملية، وإبراز شخصيته القيادية التي تكاملت فيها كل جوانب الخير والفضيلة .

وهذا يؤكد لنا الحقيقة التي لا شك فيها وهي أن أثر البيئة والأسرة منذ النشأة الأولى هي التي تشكل الشخصية الفذة وتظهرها قبل أن يشب صاحبها عن الطرق .

وكان أجداد الشيخ محمد إلياس هم قمة رجال عصورهم في شتي نواحي العلم والمعرفة إذا كانوا من الاعلام في شتي ميادين القضاء والتأليف والدعوة والجهاد، كما نجد نساء تلك الأسرة قد تفردن بالإيمان الخالص، والعلم النافع، والتقوي والزهد، والعبادة وقيام الليل، وتربية الأبناء، فلا تجد شخصاً في الأسرة إلا وهو حافظ للقرآن أو عالم أو معلم أو طبيب، اللهم إلا بعض الأسماء التي لم نعثر لها على أي أثر علمي، وأيضاً تجد بنات ونساء هذه الأسرة عالمات حافظات للقرآن ،

---

(1) محمد ثاني : سوانح مولانا محمد يوسف الكاندهلوي ص64 وما بعدها . د/ أبوالحسن على الندوى د/ أيوب تادري تبليغي جماعت كاتاريخي جائزة ص81 .

يتسابقن في الصيام والنوافل وذكر الله ، ولا يتكلمن إلا عن أهمية الاستغراق في ذكر الله، ومدي حلاوته التي لا يدركها الإنسان العادي .

ولذا فقد كانت بيوت تلك الأسرة معمورة بالصوم والصلاة وتلاوة القرآن ، كما كانت تفوح بعطر الإيمان والتقوي .

ونتيجة لذلك، فما كانت تطمع سيدات هذه الأسرة أن يكون أبناؤهن ضباطاً أو موظفين كباراً في الحكومة، بل كن يطمعن أن يستقي أبناؤهن مشربهم من مدرسة الإيمان وتتجلى فيهم آثار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

وهكذا فقد كان لتقاليد الأسرة والبيئة النقية أثرهما في تكوين شخصية الشيخ محمد إلياس وتحديد سلوكه في سائر أطوار حياته: علمية كانت أو ثقافية أو اجتماعية.

أجداد الشيخ محمد إلياس :

لعل من المناسب أن نذكر بعض شخصيات تلك الأسرة الخالدة وخدماتها العلمية ، ليتضح لنا أثرها في مجال الدعوة إلى الإسلام ، لأن عوامل الوراثة تؤثر في النشأة، وهي التي تشكل حياة الشخص من جيل إلى جيل ، ثم يأتي دور البيئة هي التي تمهد لإنماء هذه الاستعدادات .

وكما عرفنا – من قبل – عن بعض شخصيات هذه الأسرة أنها كانت تحمل مسئولية القضاء والفتوي والتدريس والتأليف ، كما كان بعضها الآخر حاملاً للواء الجهاد ضد الجهل والاستعمار ، ولذا فقد اشتهرت هذه الأسرة بالمحافظة على عظمة الإسلام وعزة المسلمين وحماية المقدسات الإسلامية .

ولن يتسع هذا المقام لنبين جميع أسماء أفراد تلك الأسرة الذين وهبوا حياتهم للعلم والدين، فضلاً عن بذل الجهود في الميدان التربوي لتكوين جماعة المجاهدين

الذين ضحوا في سبيل الإسلام ورفعة كلمته[1]، بل نكتفي بذكر بعض الشخصيات الهامة من أجداد الشيخ محمد إلياس رحمه الله ، وبعض جهودهم في سبيل الدعوة إلى الله ، ومنهم :

الشيخ محمد أشرف :

هو العلامة الحكيم محمد أشرف الجهنجهانوي، والذي كان عميداً لهذه الأسرة ، ومن أبرزها شخصياتها، وقد عاش في عهد الامبراطور – شاه جهان (حفيد جلال الدين أكبر المغولي) كما عرف الشيخ محمد أشرف بالعلم والزهد والتقوي واتباع السنة الشريفة وتجنب البدع وأهلها[2] .

وكانت شخصية الشيخ محمد أشرف ذات مواهب متنوعة ، فقد سطرت حياته وأحاديثه ومأثوراته في مذكرات العلامة مفتي إلهى بخشي الذي ذكر كثيراً عن حياته وزهده واستغنائه[3] .

(1) انظر نزهة الخواطر المجلد السادس والثامن : الشيخ عبدالحي اللكهنوي ، وحالات مشايخ كاندهله لاحتشام الحسن .

(2) وعن الشيخ محمد أشرف يقول العلامة احتشام الحسن الكاندهلوي في كتابه (حالات مشايخ كاندهله): كان الشيخ محمد أشرف من أسرة كريمة امتازت بعلو شأنها وحسن نسبها، وقد استمرت سلسلة العلم والفضل والعطاء في أولاد الشيخ محمد أشرف، حيث ظهرت من ذريته شخصيات كبيرة من العلماء والفضلاء والشيوخ وكبار الفقهاء، وأصحاب الفتوى وجامعي العلوم المنقول منها والمعقول، والذين برعوا في علم الكلام وما حواه من مناظرات، إلى جانب ذلك تبحروا في العلوم الأدبية والطبية والترجمة والتأليف والتفسير والحديث، وفي خلق مجالات جديدة في نشر الدعوة الإسلامية في شبه القارة: راجع: حياة الشيخ محمد يوسف لـ : محمد الثاني من 20-22.

(3) ومما يذكره مفتي إلهي بخشي عن الشيخ محمد أشرف تلك القصة التي يقول فيها: إنه حينما سمع الامبراطور شاه جهان، حفيد جلال الدين أكبر المغولي، عن شهرته العلمية دعاه لمقابلته في مدينة " دهلى " العاصمة، فلما لقيه الشيخ رحب به الملك أيما ترحيب، وأمر رئيس وزرائه سعد الدين خان أن يختبر الشيخ، فبدأ الوزير يسأله في شتى العلوم المتداولة في ذلك الحين، وبعد فراغ الوزير من اختبار الشيخ= =قال: إنني وجدت الشيخ بحراً زاخراً في جميع العلوم المتداولة فأمر الإمبراطور بوضع ألفي فدان من أراضي جهنجهانه الخصبة في خدمة الشيخ محمد أشرف، ولكن الشيخ رفض تسلم هذه الأراضي وأجاب قائلاً: " إن الله هو

وقد وهب الشيخ محمد أشرف حياته لخدمة الدعوة وإذكاء أهل بلاده بالدين والعلم، وقد بلغ أبناؤه وتلاميذه قمة المجد والكمال والحكمة في مجال العلوم الدينية ، ونشر الدعوة كما صاروا من قادة المجاهدين لتحرير الوطن من أيدى المستعمرين .

ومن أبرز أحفاد الشيخ محمد أشرف : الشيخ محمد شريف ، والعلامة شيخ الإسلام والشيخ مفتي إلهي بخشي ، والشيخ مظفر حسين ، والشيخ أبوالحسن ، والشيخ نور الحسن والشيخ أبوالقاسم ، والشيخ محمد إسحاق ، والشيخ محمد إسماعيل ، والشيخ محمد إدريس والشيخ ضياء الحسن ، والشيخ رءوف الحسن ، والشيخ احتشام الحسن ، والشيخ محمد إلياس والشيخ محمد زكريا ، والشيخ محمد يوسف الكاندهلوي ، وكانوا جميعاً من مدينة كاندهلة .

وأما أسرة الجهنجهانه ففيها أيضاً شخصيات تعتبر نادرة عصرها أمثال الشيخ محمد ساجد، والشيخ محمد صابر غازي ، والشيخ محمد مصطفي شهيد ، وغيرهم من العلماء الأجلاء[1] .

الشيخ مفتي إلهي بخشي :

هو ابن شيخ الإسلام ، ولد في عام 1163 هـ ، وكان من عباقرة الإسلام ، وقد ورث عن والديه العلم والفضل ، كما ورث الثروة المادية الطائلة من الأجداد ، وكان جده عالماً كبيراً فشغل منصب القضاء والفتوى عندما عينه السلطان المؤمن محمد تغلق قاضياً بالمنطقة .

وقد رزق شيخ الإسلام أربعة من البنين نالوا شهرة عظيمة في مجال التدريس وشرح متون العلوم المتداولة، كما اشتهر أولادهم أيضاً بالعلم والتقوي، فقد جابوا

رازقنا وليس الإمبراطور، وإنني قد جئت للقاء الملك وليس لاكتساب المال والجاه والأراضي:راجع حياة الشيخ محمد يوسف لـ : الشيخ محمد الثاني ، من : 23 – 24 وتذكرة أمير التبليغ لـ : مفتي عزيز الرحمن ص41

(1) انظر حياة الشيخ محمد يوسف وتذكرة أمير التبليغ .

أنحاء البلاد حاملين أمانة العلم ولواء الجهاد والدعوة ، متأسين بصحابة المصطفى صلى الله عليه وسلم[1] .

وقد تلقي الشيخ إلهي بخش طرق التربية والسلوك على يد الشاه عبدالعزيز بن الشاه ولى الله الدهلوى ، وأصبح من أنجب تلاميذه وأعلمهم .

ثم اتخذ مفتي إلهى بخش الشيخ السيد " أحمد الشهيد " (الملقب بإمام الجاهدين) مرشداً له ، وذلك بعد وفاة الشاه عبدالعزيز رحمه الله .

وقد حارب الشيخ إلهى بخش البدع والخرافات المتفشية بين مسلمي الهند ، كما حارب فتنة الشيعة بالكلمة المسموعة والمقروءة، وكانت تعتبر من أكبر الفتن إذ ذاك ، حيث ساهمت في إضعاف وتفريق صفوف المسلمين ، وتشويه عقائدهم[2] .

وكذلك فقد نجح مفتى إلهى بخش في تربية أولاده وأسرته في المجالات العلمية والعملية وخاصة في مجال الجهاد ضد الإنجليز ، حتى صارت تلك الأسرة تبرز شخصيات مجاهديها وجهودهم الجبارة في كل معركة ضد الاستعمار والكفار والمبتدعين ، وذلك مناصرة ومؤازرة لأولاد الشاه ولى الله الدهلوى .

وبعد حياة حافلة بالعلم والجهاد انتقل الشيخ مفتى إلهى بخش إلى الرفيق الأعلى عام 1245هـ وهو في الثالثة والثمانين من عمره[1] .

---

(1) كان مفتي إلهي بخشي هو النجل الأكبر لشيخ الإسلام وهو من تلامذة الشيخ الشاه عبدالعزيز بن الشاه ولى الله الدهلوى، وكان من أعظم علماء زمانه اشتهر بالتدريس = =والتأليف إلى جانب أنه كان طبيباً حاذقاً ، كما تبحر في علوم اللغات العربية والفارسية والاردية وآدابها .

ومما يدل على مكانته الأدبية، وتمكنه في مجال النقد الأدبي ما فعله في قصيدة " بانت سعاد " التي ألفها كعب بن زهير بالعربية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم – طالباً العفو منه، فأهداه الرسول بردته ، ولهذا سميت " بردة الزهيري " فقد ترجم مفتي إلهي بخش هذه القصيدة ناظماً إياها باللغتين الأردية والفارسية، وشرحها وعلق عليها بأسلوب أدبي رائع للغاية وقد ألف مفتي إلهي بخش أربعين كتاباً في معظم العلوم، حياة محمد يوسف لمحمد الثاني ص43 وما بعدها.

(2) كان الشيخ إلهي بخش يكره الانجليز من كل جوانحه ، وذلك ما جعله يبايع رئيس المجاهدين السيد " أحمد الشهيد " بيعة الجهاد ضد الانجليز والسيخ ، برغم أنه كان أكبر منه سناً وعلماً، راجع حياة محمد يوسف ل : محمد الثاني ص: 43

الشيخ مظفر حسين الكاندهلوي :

ولد الشيخ مظفر حسين بن الشيخ محمود بخش[2] ابن شيخ الإسلام في عام 1230هـ وتلقي العلوم الدينية عن عمه الفاضل مفتي إلهى بخش بعد وفاة عمه الفاضل توجه إلى أمير حركة المجاهدين الشاه محمد إسحاق[3] ، واكمل دراسته على يديه [4].

وبعد وفاة الشاه محمد إسحاق أمير الحركة، تولى أخوه الشاه محمد يعقوب قيادة حركة الجهاد لمسلمي شبه القارة ، فبايعه الشيخ مظفر حسين سيراً على النهج الرائد في الطريقة والتربية الإسلامية، حتى بلغ مكانة مرموقة، إلى أن صار أميراً لحركة المجاهدين المسلمين في شبه القارة الهندية الباكستانية ، خلفاً للشيخ محمد يعقوب الدهلوى .

ومن هنا نرى أن الشيخ مظفر حسين ورث العلم والعمل والجهاد عن أئمة أسرة الشاه ولى الله الدهلوى ، كما ورث أيضاً علوم التربية والسلوك ، وحب الدين ورعايته ، والتمسك بالشريعة المطهرة ، مما أدي إلى بناء شخصية فذة في جميع مجالات الحياة التي يحمد عليها كل إنسان عظيم .

---

(1) تذكره أمير التبليغ ص23 ، ومحمد الثاني : حياة محمد يوسف .

(2) وهو النجل الأصغر لشيخ الإسلام، وقد عرف بزهده وورعه وتقواه، وبحسن أخلاقه، كما عرف بقوة التحمل والمثابرة وبخدمة الخلق، وكان ذا مكانة عالية بين علماء عصره، واشتهر في فن التدريس للمنقول والمعقول خاصة في التفسير والسنة الشريفة وعلومها، وقد انتقل إلى رحمة ربه بعد حياة حافلة في خدمة علوم الدين في الرابع عشر من شهر رمضان المبارك سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة، المرجع : محمد ثاني : حياة محمد يوسف ص50.

(3) وهو ابن بنت الشاه عبدالعزيز بن الشاه ولى الله ، وقد خلف الشاه عبدالعزيز ورأس حركة المجاهدين التي كان السيد أحمد (الشهيد) قائدها الأول، واستشهد مع جماعة المجاهدين في معركة " بالاكوت " ضد جيوش السيخ عام 1830م (راجع رحلة دعاة الرحمن تحت عنوان : حركة السيد أحمد الشهيد : للمؤلف).

(4) راجع تذكرة أمير التبليغ ص23 وما بعدها ، وديني دعوت مقال السيد سليمان الندوى ص18

وقد شهد بذلك أكبر علماء عصره، حيث قاموا بتأليف كتب ضخمة عن حياته ومكانته العلمية ومقامه في الزهد التقوي[1] .

وكان إمام علماء شبه القارة الهندية الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي يقول : " إن ثلاثة من تلاميذ الشاه محمد إسحاق كانوا على أعلى درجة في العلم والزهد والتقوي في شبه القارة وأولهم الشيخ مظفر حسين، والثاني هو الشيخ شاه عبدالغني ، وثالثهم هو أمير قطب الدين خان "[2] .

نعم لقد كان لشخصية الشيخ مظفر حسين أهمية بالغة في تاريخ علماء الهند ، خاصة في فترة بدء حركة الجهاد ضد الاستعمار والقوي المعادية للإسلام ، وكان ذلك بعد القضاء على الإمبراطورية الإسلامية في شبه القارة ، حيث بدأت نهضة جديدة عرفت بأنها وليدة فلسفة الشاه ولى الله الدهلوى .

كما أطلق عليها اسم حركة السيد أحمد شهيد ، وكان على رأسها الشاه عبدالعزيز ، والشاه محمد إسحاق ، والشاه محمد يعقوب[3] ، وحينما اختار الشاه محمد إسحاق مكة المكرمة مركزاً لحركته ، ولى أموره في الهند لثلاثة من أكبر علماء شبه القارة وهم : الشيخ مظفر حسين ، والشيخ مملوك على ، والأمير الأمام إمداد الله المكي ، وكانت هذه الجماعة بزعامتهم تشرف على أملاك الشاه محمد إسحاق ، والشاه محمد يعقوب ، وترعي شئونها الاقتصادية والمعنوية .

(1) ومما يدل على زهده وتقواه، نذكر هذه الطرفة التي قالها السيد محمد ثاني: " أنه كان معروفاً لدي المسلمين بأنه – رحمه الله – ما كانت تقبل معدته شيئاً يشتبه في حله، وكان ذا طبيعة متواضعة مستقيمة، كما حكي عنه أنه كان يقوم الليل ساجداً باكياً خاشعاً متضرعاً لله عز وجل، شاكياً إليه ما يراه من أحوال الأمة الإسلامية ". راجع حالات مشايخ كاندهله، ونزهة الخواطر للشيخ عبدالحي، وتذكرة الخليل، وتذكرة مشايخ دار العلوم ديوبند .

(2) الأرواح الثلاثة نقلا عن حياة يوسف ص51 .

(3) ولقب " شاه " يطلق عادة على المنتسبين للإمام الحسين رضى الله عنه، وهي تستخدم أيضاً كلقب للملوك، انظر تاريخ المسلمين في شبة القارة للدكتور عبدالمنعم النمر ورحلة دعاة الرحمن، وحركة شيخ الهند لمحمد ميان .

وكان من المعروف أن من تتلمذ على يد الشيخ مظفر حسين لا يفتر عن صلاة التهجد كما أن الشيخ مظفر حسين قد حج ست مرات إلى بيت الله الحرام سيراً على الأقدام من الهند إلى الحجاز ، إلا أنه في المرة السابعة وأثناء سفره إلى مكة المكرمة اشتد عليه المرض، ولكنه شفي بعون الله ، وبعد ذلك سافر إلى المدينة المنورة ، حيث داهمه المرض بعد وصوله إليها ، فانتقل إلى رحمة ربه الأعلى في العاشر من شهر المحرم سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف للهجرة ، ودفن في البقيع بجوار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [(1)] .

وتمتد سلسلة العلم والعرفان في فروع تلك الأسرة، التي تنتمي إلى مدينة كاندهلة إلى أجداد الشيخ محمد إلياس، حيث سجل التاريخ بعض الشخصيات المرموقة في ميادين العلم والجهاد والسلوك ، مثل الشيخ أبي الحسن بن مفتي إلهى بخش صاحب المؤلفات العديدة والقصائد والمثنويات ، والذي انتشرت كتبه في كل بيوت مسلمي شبه القارة مثل كتاب " بحر الحقيقة " الذي يقول عنه الإمام رشيد أحمد الجنجوهي : إن كتاب بحر الحقيقة وخاصة كتابه "كلزار إبراهيمي "[(2)] قد تسبب في تحولي إلى طريق المعرفة والسلوك .

ومن الشخصيات المرموقة في ميادين العلم والجهاد كذلك، الشيخ نور الحسن نجل الشيخ أبي الحسن بن مفتي إلهى بخش، وتلميذ الشاه محمد إسحاق المحدث الدهلوى، ومفتي إلهى بهش والشيخ فضل الحق الخير آبادي، ومفتي صدر الدين [(3)] .

وقد اشتهر الشيخ نور الحسن بالزهد والورع ، كما اشتهر في فن التأليف الذي كان شغله الشاغل بعد التدريس ، وخاصة ما كتبه من حواش للكتب المتداولة في المدارس الدينية

---

(1) حياة الشيخ محمد يوسف ص53 .

(2) أي روضة سيدنا إبراهيم عليه السلام .

(2) هم قمة رجال العلم والدين في ذاك الحين .

ومن أجل أعماله أنه قد تخرج على يديه علماء أجلاء ، ومنهم سير سيد أحمد خان مؤسس جامعة على كرة وغيره من الشخصيات المعروفة في شبه القارة ، وكان من أنجاله علماء كبار مثل الشيخ ضياء الحسن ، والشيخ رءوف الحسن ، والشيخ احتشام الحسن الكاندهلوى ، وهم الذين تخرج على أيديهم مئات من رواد العلم والمعرفة .

وحسبنا أن نقول : " إن عشرات من العلماء الذين اشتهروا في شبه القارة من أسرة كاندهلة ، كان لهم فضل كبير في النهضة العلمية الجديدة في البلاد ، ومنهم الشيخ محمد إدريس[1] الكاندهلوى وغيره من عباقرة هذه الأسرة الكاندهلوية .

شيوخ جهنجهانه :

وأما عن الفرع الجهنجهانوي من أجداد الشيخ محمد إلياس ، فإنهم لا يقلون عن إخوانهم في مدينة كاندهله ، في شتي المجالات العلمية والعملية ، حيث لا تقل جهودهم ، في مجال الجهاد والدعوة عن أية أسرة علمية سبقتهم في شبه القارة، وحتى لا يكون حديثنا إطناباً مملا ، فإننا نقتصر على ذكر بعض الشخصيات الهامة فقط .

(1) هو الشيخ محمد إدريس بن محمد إسماعيل بن محمد إسحاق بن أبي القاسم بن مفتي إلهى بخش بن شيخ الإسلام ، ولد سنة ثماني عشرة وثلاثمائة وألف من الهجرة وتلقي العلوم على يد علماء بلدته ، ثم رحل إلى دار العلوم بدبوبند ، حيث تخرج سنه سبع وثلاثين وثلاثمائة وألف ، وعين مدرساً في دار العلوم ، ثم شيخاً للحديث الشريف ، وقد تفرد الشيخ بين أهل زمانه بعلوم الحديث والتفسير والأدب العربي ، حيث كان له ملكته الخاصة الفذة ، ومهارته الفائقة في فن التدريس ، كما كان نموذجاً يحتذي به في التقوى والصلاح ، وله جرأة في التعبير عن آرائه وأقواله وأفعاله ، كما كان من أعظم مؤلفي شبه القارة الهندية الباكستانية ، حيث تجد له مؤلفاته عديدة ، ومجلدات علمية بلغ عددها مائة كتاب معظمها في علوم التفسير والحديث ، وأبرزها التعليق الصبيح على مشكاة المصابيح " في ثمانية مجلدات " وتحفة القاري في حل مشكلات البخاري " وأشهر ما كتبه في التفسير " معارف القرآن " وكتاب " عقائد الإسلام " وتعليقه على " مقامات الحريري " ، وقد ظل الشيخ في منصب رئيس قسم الحديث والتفسير في شتي جامعات شبه القارة إلى أن لقي ربه سنه 1394هـ ودفن في مدينة لاهور بباكستان، راجع تاريخ دار العلوم ديوبند ص319 .

الشيخ محمد ساجد الجهنجهانوي :

هو محمد ساجد بن فيض محمد بن محمد شريف بن حكيم محمد أشرف الجهنجهانوي ولد في عام 1120هـ وكان من العباقرة ، كما كان عالماً فقيهاً وطبيباً حاذقاً وصاحب القضاء والفتوي ، وقد منح ألفي فدان من الأراضي الخصبة من قبل إمبراطور الهند ، وهي نفس المساحة التي رفض – من قبل – جده محمد أشرف الجهنجهانوي أن يأخذها من السلطان شاه جهان إمبراطور الهند ، ولكن الأسرة الملكية قدمت تلك الأراضي مرة أخري للشيخ محمد ساجد ، وأصرت على أخذها نظراً لخدماته العلمية الجليلة ، فقبلها الشيخ محمد ساجد للمصالح الدينية في البلاد .

كان الشيخ ساجد صاحب ذوق علمي وأدبي رفيع خاصة في الشعر والنثر ، وقد ألف كتاباً أسماه " عجائب الغرائب " وكان له أسلوب فريد في تربية الأولاد مما أدي إلى شحذ هممهم للاشتراك في الأمور الدينية والوطنية في ذلك الحين .

وقد أنعم الله على الشيخ محمد ساجد ورزقه ولداً صالحاً يدعي حكيم غلام محيي الدين كما رزق غلام محيي الدين ولداً تقياً يدعي حكيم كريم بخش ، وأنجب حكيم كريم بخش كذلك ولدين هما الشيخ غلام حسين ، والشيخ غلام حسن ، الذي تزوج من ابنة الشيخ مفتي إلهى بخش ورزقهما الله بولدين صالحين اشتهرا بالعلم والتضحية في سبيل الدين الحنيف ، كما حملا لواء الجهاد ضد الاستعمار ، حتى استشهد أحدهما في ميدان القتال ضد الانجليز والسيخ وهو الشيخ الشهيد حافظ محمد مصطفي [1].

(1) تتلمذ الشيخ حافظ محمد مصطفي الشهيد على يد جده الكريم مفتي إلهى بخش ، وكان لديه شجاعة فذة في فنون الحرب والقتال برغم تبحره في العلوم الدينية على شاكلتها . وقد اشترك مع السيد احمد الشهيد في قافلة المجاهدين والدعاة ، واستشهد في سبيل الله مع السيد أحمد الشهيد في المعركة ضد السيخ سنة 1246 هـ (الموافق عام 1830م) في جبال بالاكوت شمال حدود جمهورية باكستان الحالية : أنظر حركة المجاهدين

أما الأخ الثاني للشيخ غلام حسن فهو حافظ محمد صابر الغازي الذي تولى مسئولية إرسال المجاهدين إلى ميدان القتال ، وجمع المعونات من داخل شبه القارة وارسالها لهم إلى الحدود الشمالية الحرة .

وقد أنجب الشيخ محمد صابر ولداً أسماه " محمد عبدالله " الذي سلك منهج أبيه في العلم والزهد والتقوي والصلاح والجهاد ضد الكفر، وكان دائم التفكير في تحرير الوطن من أيدي المستعمرين، كما كان شغوفاً بالجهاد والاستشهاد في سبيل الله ، وبرغم أنه فقد بصره في آخر حياته، فإنه كانت تجيش خلجات صدره بالقلق والألم ، حيث كان يقول : " أعطوني بندقية كي أخرج للجهاد " وكان من أولاده الحفاظ والعلماء والفقهاء والدعاة والمجاهدين[1] .

أمهات هذه الأسرة الكريمة :

كانت سيدات هذه الأسرة يتشبهن بأمهات المؤمنين والصحابيات رضوان الله عليهن أجمعين ، حيث قد تميزن بالزهد والتقوي والتضحية في سبيل الدين الحنيف ، وتربية أولادهن على مائدة القرآن والسنة الشريفة ، وكن يتنافسن في تلاوة القرآن والإكثار من النوافل ، وكن كذلك يضاعفن هذا العمل في شهر رمضان المعظم ، حيث كن يسهرن لياليه ويعقدون حفلات ختم القرآن الكريم ، كما كانت تنتابهن حالات الاستغراق عند تلاوتهن للقرآن الكريم حتى أنهن كن في معظم الأحيان لا يدركن الزائرين من أقاربهن بسبب الخشوع في تلاوة القرآن التي أصبحت عادة كل أفراد هذه الأسرة ، هذا وقد كان النظام التعليمي المقرر لنساء وبنات الأسرة يتضمن إجبارياً حفظ القرآن الكريم بأكمله، وترجمة معانيه مع تفسيره باللغة الأردية ، كما كن يتدارسن علوم الحديث والفقه وكتب التربية الإسلامية ،

وتاريخ المسلمين في الهند للشيخ عبدالمنعم النمر وحركة سيد أحمد شهيد وحركة شيخ الهند لمحمد ميان: راجع حياة يوسف : ص59 وما بعدها.

(1) راجع حياة يوسف: ص59 وما بعدها.

بجانب كتب العقائد والعبادات ، وكان اهتمامهن الخاص في المقام الأول بكتب تاريخ حياة الصحابة والغزوات وقصص الجهاد[1] .

وكما عرفنا أن هذه الأسرة قد تضافرت جهودها النضالية مع أسرة الشاه ولى الله، حتى أصبحت وريثتها في كل ميادين العلم والجهاد ، فمن الطبيعي – أن الأحداث الهامة ، في مجال التضحية كانت الشغل الشاغل لأفراد هذه الأسرة كبيرها وصغيرها من الرجال والنساء، حيث لم تمض فترة طويلة على تضحياتهم في ميادين القتال ، وها هي بنت مظفر حسين كانت تسمع من أبيها عن التضحيات التي قدمها المجاهدون في المعارك التي دارت بينهم وبين الكفار، حتى أصبحت هذه الأحداث ثروة تاريخية لهذه الأسرة ، وكانت نساؤها ترويها للصغار بدلا من قصص العصافير والببغاوات .

وقد أدي هذا السلوك التربوي الفريد إلى أن صار أبناء هذه الأسرة في ميادين الجهاد يشربون كئوس الشهادة ، او تجدهم في أرقي مناصب التدريس ومجالات التأليف والشرح والترجمة، أو في مجالات الدعوة ، يجوبون البلاد الواحد تلو الاخر – لإيقاظ المسلمين من غفلتهم ، ويناشدون المسلمين الصحوة الكبرى لحماية الإسلام في تلك الفترة العصبية .

وبكل هذه الجهود المشكورة، تركت هذه الاسرة آثاراً خالدة، على مر العصور ، تشهد بما كان لها من فضل ومجد وعمل متواصل في سبيل المحافظة على رفعة الإسلام والمسلمين وحماية القيم الإسلامية ومقدساتها في شبه القارة والتصدي لكل من أرادها بسوء ولا شك أن الفضل كله يرجع إلى التربية الإسلامية النقية من قبل المدرسة الأولى، وهي حضانة الأم المسلمة الصالحة[2] .

---

(1) راجع ديني دعوت للندوي تحت عنوان أمهات هذه الأسرة .

(1) ديني دعوت 56 بتصرف رواية عن الشيخ محمد إلياس ، والشيخ محمد زكريا .

والدة الشيخ محمد إلياس :

وهي " بي صفية " بنت السيدة أمة الرحمن [1] المعروفة بـ " أمي بي " [2] .

وقد اشتهرت هذه السيدة بالزهد والتقوي، وبعد اقترانها بالشيخ محمد إسماعيل رزقها الله ولدين صالحين اشتهرا في مجال العلم والدعوة وهما " الشيخ محمد يحي والشيخ محمد إلياس " .

وقد حفظت " بي صفية " القرآن الكريم ، كما تعلمت العلوم الأساسية في الدين الإسلامي كعادة الأسرة .

وكانت معروفه بقوة ذاكرتها وذكائها الحاد، فكانت لا تكاد تنسي شيئاً حفظته أبداً كما عرفت بكثرة تلاوتها للقرآن والأوراد والأدعية المأثورة .

ويذكر صاحب تذكرة الخليل أن " بي صفية "كانت تقرأ القرآن الكريم في شهر رمضان المبارك أربعين مرة [3]، وذلك بالتزامها كل يوم بقراءة المصحف كاملاً ومعه عشرة أجزاء ، هذا مع قيامها بأمور المنزل ، لأنها تعودت أن تقرأ القرآن من الذاكرة أثناء قيامها بالعمل المنزلي

أما في الشهور العادية ، أي غير شهر رمضان المبارك ، فكانت " بي صفية " تقرأ كل يوم منزلا [4] واحداً من المصحف الشريف ، وبذلك كانت تختم القرآن بأكمله زمرة واحدة في الأسبوع كما كانت كذلك تلتزم طوال الوقت بالأدعية والاذكار المأثورة ، إذ كانت تصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة ألاف مرة ، وتقول " لا إله إلا الله " مائتان وألف مرة ، و " حسبي الله ونعم الوكيل " خمسمائة مرة ، و " سبحان الله " ثلاثمائة مرة ، و " الحمد لله " ثلاثمائة

---

(2) وهي بنت الشيخ مظفر حسين بن محمود بخش شيخ الإسلام .

(3) معناها : السيدة المحترمة ، فكلمة (بي) تطلق للاحترام بدل الاسم .

(3) انظر " إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة " للعلامة محمد عبد الحي اللكنوي فقد أجاد وأفاد .

(4) عدد المنازل سبعة في القرآن الكريم ، وهذا التقسيم غير التقسيم الحزبي للقرآن الكريم.

مرة و " الله أكبر " ثلاثمائة مرة ، والاستغفار أي " أستغفر الله العظيم " خمسمائة مرة " وأفوض أمري إلى الله " مائة مرة ، و " ربي أني مغلوب فانتصر " مائة مرة ، و " ربي أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين " مائة مرة ، و " لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين " مائة مرة كل يوم(1) ، وغير ذلك من الأذكار المسنونة .

ومن المعروف أن هذا المنهج الدراسي ، والنظام اليومي هو الذي كان متبعاً لدي معظم نساء الأسرة ، وهو يعيد إلى الأذهان صورة الأعمال الصالحة ، والشغف بالعبادة عند أمهات المؤمنين في صدر الإسلام ، وإذا كان هذا هو حال معظم النساء وفتيات تلك الأسرة فما بالك برجالها الذين جردوا أنفسهم لخدمة دين الله ، والجهاد لإحياء سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ! .

الشيخ محمد إسماعيل ومدرسته :

بعد أن مهدنا لتاريخ هذه الأسرة الكريمة، بشئ من التفصيل ، فهذه نبذة قصيرة عن حياة والد الشيخ محمد إلياس : ولد الشيخ محمد إسماعيل في قرية جهنجهانه بمديرية " مظفر نكر " بولاية اترابرديش ، وحفظ القرآن في صغر سنة ، كعادة الأسرة ، ثم تلقي العلوم الدينية المتداولة في ذلك الحين(2) .

وقد كان الشيخ محمد إسماعيل أحد أفذاذ علماء الهند ، وكان قدوة للصالحين ، حيث رزقه الله فطرة سليمة متواضعة ، كما كان دائم الاستغراق في ذكر الله ، منهمكاً في خدمة الخلق ، متمسكاً بالكتاب والسنة ، ومشغولاً بتعليم الناس وتربيتهم ، إذ كان من أبرز أنصار الدعوة إلى التربية والسلوك ، ومن كبار الموحدين الذين يفضلون الشريعة على الطريقة ، ويحاربون البدعة والجهالة والتقاليد الخرافية

(1) تذكرة خليل نقلا عن ديني دعوت للندوي 58 وراجع يوسفي ص57 وما بعدها وتذكرة أمير التبليغ ص23 .

(2) تاريخي جائزة 81 .

المتفشية في المجتمع الإسلامي ، والتي كانت وليدة المجتمع الهندوسي والديانات الأخرى .

وبسبب مجهودات الشيخ محمد إسماعيل المتواصلة في خدمة العلم والدعوة إلى الحق فقد صارت له مكانة رفيعة بين علماء عصره وأئمته ، ومن الممكن أن تدرك مكانته الرفيعة بذكر القصة التي حدثت بينه وبين إمام أهل السنة الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي ، وذلك حينما طلب الشيخ محمد إسماعيل منه أن يرشده إلى السلوك والتربية ، فرد عليه الإمام قائلاً : أنت لست في حاجة إلى شيء من ذلك، لأن الغرض من السلوك والتربية وغيرها من أمثال تلك الأمور قد حصلت لك بالفعل ، فلماذا جئت تطلب الإرشاد ؟

إن مثلك كمثل رجل انتهى من حفظ القرآن الكريم وعلومه ، فجاء يقول : إنني أريد أن أبدأ قراءة الحروف الهجائية لأنني لم أقرأها بعد ، ويقول صاحب " أرواح ثلاثة "[1] عن الشيخ محمد إسماعيل : لقد كان لسانه دائم الحركة بذكر الله .

وقد تزوج الشيخ محمد إسماعيل في " جهنجهانه " ، ورزقه الله ولداً صالحاً أسماه محمد : ثم توفيت زوجته " أم محمد " بعد قليل .

ومن ثم استمر الشيخ في مجال العلم بالوعظ والإرشاد والتدريس ، حتى عين معلماً للأسرة الملكية[2] ، وخاصة لأولاد ميرزا إلهي بخش[3] ، وكان ذلك في عاصمة الإمبراطورية الإسلامية المغولية الهندية في عام 1855 .

ومن ثم انتقل ميرزا إلهى بخش من مدينة دهلى إلى قرية نظام الدين ، بعد فشل ثورة المسلمين سنة 1857م ، وشيد لنفسه مسكناً كبيراً وقاعة للضيوف ، كما أقام للشيخ محمد إسماعيل مسكناً ومسجداً صغيراً بجواره ، وقد اشتهر مسكن ميرزا إلهى بخش هذا باسم "القصر ذو الأربعة وستين عموداً " .

---

(1) احتشام الحسن (الشيخ) أروح ثلاثة ص10 .

(2) كانت عادة الملوك اختيار كبار علماء العصر الصالحين لتربية أولادهم .

(3) كان سلفاً لإمبراطور الهند " بهادر شاه ظفر المغولي " وكان من أقرب مستشاريه في الحكم .

وهكذا انتقل الشيخ محمد إسماعيل مع ميرزا إلهى بخش من مدينة دهلى إلى نظام الدين ، التي كانت على بعد خمسة كيلومترات منها حين ذاك[1] .

وكانت هذه القرية ومسجدها مقراً لأنشطة الشيخ محمد إسماعيل الدينية ، حيث افتتح فيها مدرسة دينية وأسماها "كاشف العلوم " وبدأ يدرس فيها لطلاب قرية نظام الدين والطلاب الوافدين من منطقة " ميوات " وغيرها من المناطق المجاورة ، وكان الشيخ يوفر المسكن لهؤلاء الطلاب الوافدين ، كما كان ميرزا إلهى بخش يعد لهم الطعام واحتياجاتهم المدرسية .

وقد تخرج من هذه المدرسة علماء أجلاء نالوا شهرة عظيمة في عصورهم وانتشروا في أنحاء البلاد حاملين لواء الدعوة والتبليغ .

وهكذا كما رأينا فقد كان الشيخ محمد إسماعيل شخصية مرموقة لدي جميع المسلمين لذا فقد عهدت إلية الأسرة الملكية بتربية أولادها .

كما اعترف بمكانته العلمية والتربوية كبار الأسر الدينية ، مثل أسرة إمام العارفين، وقدوة الصالحين الشيخ نظام الدين أولياء، حيث تتلمذ عميد هذه الأسرة النظامية (الشيخ حسن النظامي)[2] وأبناء أسرته على يد الشيخ محمد إسماعيل رحمه الله[3] .

وكذلك فقد بدأ ميرزا إلهى بخش – برغم كبر سنه – يتعلم القرآن على يد الشيخ محمد إسماعيل ، وقد أتم حفظ القرآن الكريم قبل وفاته ، وكان يحترم الشيخ كاحترامه لوالده، وكان يقول عنه: " إن الشيخ من عباد الله الصالحين المخلصين ، وهو مستجاب الدعاء " .

(1) وهي الآن تقع بين دهلى القديمة والجديدة ، وتعد اليوم أحد أحيائها .

(2) يعد الشيخ حسن النظامي من أصحاب المؤلفات القيمة ، وله جهود مشكورة في مجال الدعوة في شبه القارة .

(3) تاريخي جائزة ص81 .

أما منهج الشيخ محمد إسماعيل في التعليم فكان منهجاً فريداً يهتم بما تتطلبه ظروف المنطقة وأهلها، في تلك الفترة الحرجة التي لا تسمح للمسلمين أن يتنفسوا الصعداء على أرض شبه القارة ، في حين تكالبت عليهم القوي المعادية للإسلام من الداخل والخارج حتى كادت أن تقضي على الإسلام والمسلمين في شبه القارة الهندية الباكستانية بالقتل أو الإجبار على العودة إلى الهندوسية أو اعتناق المسيحية ، أو الخروج من الهند بشكل أو بآخر .

وبدأت كذلك موجات الارتداد تبث إرسالها في المدن والقري ، وكاد اليأس يستبد بأذهان المسلمين، لأن الهندوس والمستعمرين دائبون في نشر الدعايات بأن عصر الإسلام قد انتهي، وأن مستقبل الهند في المسيحية أو الهندوسية، وليس على المسلمين إلا العودة إلى مذهب آبائهم في " الهندوسية القديمة " .

فكيف إذن تنقشع الظلام والجهل ؟ وكيف تواجه تلك الموجات المسمومة والمسلمون مكتوفو الأيدي مغلوبون مقهورون ؟! .

ونتيجة لهذه الظروف العاتية اعتمد الشيخ محمد إسماعيل في دعوته على منهج بسيط يتضمن التعريف بالعقيدة الإسلامية وأحكامها الأساسية ، مع بيان أهمية الإسلام والتربية العلمية والأخلاقية، وغيرها من الأمور المبدئية للمسلمين ، في حياة الإنسان المسلم .

فكان يوجه الطالب بأن يبدأ بقراءة القرآن مع ترجمة معانيه باللغة الاردية ، ثم يتبعه بالكتب الدينية مع قواعد الصرف والنحو التي يصل إلى مرحلة متوسطة ينتهي بها إلى الكتب الأساسية القيمة في العقائد والأحكام مثل: " نور الإيضاح " و " شـــرح الوقايـة " و " نور الأنور " و " شرح الجامي " و " مشكاة المصابيح " و " تفسير الجلالين " وغيرها من الكتب المتداولة في ذلك الحين.

وقد اهتم الشيخ محمد إسماعيل اهتمامً خاصاً بالتربية العملية لطلبة المدرسة، حتى يعود الطالب منها إلى بلدته نموذجاً مثالياً في العلم والعمل ويعلم أهلها ما لم يتعلموه بعد من أمر دينهم الحنيف .

وكم كانت منطقة " ميوات " وما جاورها في حاجة ماسة إلى معرفة المبادئ الإسلامية نفسها ، فضلاً عن تعاليمها السامية الوضاءة [1] .

ولقد آثر الشيخ محمد إسماعيل أن يتجه لتربية أهل منطقة " ميوات " تربية دينية بسبب الجهل الذي ران عليها طوال قرون كثيرة خلت، وخاصة حين طوتها موجات الارتداد التي كانت تصل إليها من المناطق المجاورة لها ، حتى أوشكت منطقة ميوات وما جاورها على الانهيار على يد المستغلين من الانجليز والهندوس ، نظراً لضعف المسلمين فيها .

ولهذا فقد اهتم الشيخ محمد إسماعيل نفسه بتربية أهالى منطقة ميوات ، بأن يلقنهم دروس الإرشاد والتعاليم الدينية السمحة .

ولكن كيف يبدأ الشيخ (محمد إسماعيل) مناهجه التربوي مع قوم لا يرغبون في تعلم أمور دينهم ، إذ هم في أشد الحاجة إلى لقمة العيش التي تصرفهم عن التفرغ لتعلم ومعرفة أمور دينهم الإسلامي الحنيف .

وذات يوم رأي الشيخ بعض العمال من أهل ميوات وهم في طريقهم إلى دهلى فسألهم : إلى أين تذهبون ؟ فأجابوه : نحن نذهب كل يوم إلى مدينة دهلى للعمل، فقال الشيخ: إن أعطيتكم الراتب الذي تتقاضونه كل يوم نظير عملكم عندي ، فهل توافقون ؟ فقالوا : نعم . فاتجه الشيخ إلى المسجد ، وبين لهم العمل الذي سيقومون به، وهو أن يصلوا معه خمس صلوات، وأن يتدارسوا القرآن وترجمة معانيه، واستمر هؤلاء العمال يتلقون الدروس والتربية مع حصولهم كذلك على الرواتب المتفق عليها.

---

(1) تاريخي جائزة 81 وما بعدها ، ولى كامل 57 وما بعدها .

وما أن مضت فترة قصيرة حتى رفض العمال الحصول على راتبهم ، وقرروا أنهم سيتعلمون بغير مقابل .

وكانت هذه هي نواة مدرسة " كاشف العلوم " التي أسسها الشيخ محمد إسماعيل والتي صارت فيما بعد أكبر مركز للدعوة والتبليغ في شبه القارة الهندية الباكستانية ، بل وفي العالم أجمع[1] .

زهد الشيخ محمد إسماعيل وحبه للعلم :

لقد كان الشيخ نموذجاً رائعاً للزهد في الدنيا وحب الجاه، وضرب أروع الأمثلة في التوكل والصبر والاستقامة والتضحية في سبيل دين الله سبحانه وتعالى ، ويكفيه دليلاً على ذلك أنه ترك قريته " جهنجهانه " برغم كل الثروات والأموال والأراضي التي ورثها عن جده " الشيخ محمد ساجد "[2] والتي كان الشيخ من أحق الناس بهذه الأموال والأراضي الواسعة الخصبة التي تفي بمتطلبات الأسرة وأجيالها على مر العصور ، ولكن رغبته في خدمة الدين وتربية المسلمين في تلك الفترة الحرجة جعلته يترك كل هذه الثروات المادية في قرية جهنجهانه ، ويلتحق بأسرة علمية في مدينة " كاندهله " حتى يظل طوال حياته في خدمة الدين ، مقتنعاً بكفاف العيش ، شاكراً لله على توفيقه لخدمة دينه وخلقه .

ومن الواضح أن حب الشيخ للعلم وتلاوة القرآن وتفهمه كان معروفاً لدى أهل العم فيقول عنه الشيخ محمد إلياس : " أنه كان شغوفاً جداً بتلاوة القرآن ، بحيث لا يخلو منه وقت من الأوقات ، إذ كان يتلو القرآن ليلاً ونهاراً ، ولذلك كان ينظم أوقاته لتلاوة القرآن الكريم ودراسة علومه له ولأبنائه ، وقد كان أخي الأكبر محمد يحيي يقرأ القرآن حتى منتصف الليل ، ثم ينام ويبدأ بعده أبي الشيخ محمد إسماعيل ، وأخي الثاني الشيخ محمد في تلاوة القرآن ودراسة علومه ، وكانت

(1) مولانا محمد إلياس " أورانكى ديني تحريك " وحيد الدين خان.

(2) أنظر الشيخ محمد ساجد الجهنجهانوي في نفس الفصل .

والدتي " بي صفية " تتلو القرآن الكريم وهي قائمة بأعمال المنزل ، ولم يفتر لسانها عن قراءة القرآن الكريم، وهكذا كان قيامهم طوال الليل بالسهر والمداومة على ذكر الله وتلاوة القرآن، والاطلاع على علومه ، حتى أنه لم تكن تمضي برهه من الزمن إلا ويذكر فيها اسم الله في البيت، والجدير بالذكر أن آخر أمنيات الشيخ محمد إسماعيل كانت أن يقرأ القرآن ويرعي الغنم[1] .

وفاتــــــــه :

بعد حياة حافلة بخدمة العلم والإصلاح ، توفى الشيخ محمد إسماعيل الى رحمة الله تعالى في مسجد النخيل بمدينة دهلى في الرابع من شوال سنة خمس عشرة وثلاثمائة وألف من الهجرة (الهجرة 26 فبراير عام 1898م) فشاع خبر وفاته فوفدوا من كل فج عميق للمشاركة في تشييع جنازته بين الناس ، حيث شارك فيها كل الفئات والأحزاب والجمعيات المختلفة ، حباً وتقديراً لشخصيته الكريمة ، ومكانته الجليلة ، وتعبيراً عن وفائهم له - وقد شيعت جنازته من مدينة دهلى إلى قرية نظام الدين التي كانت على بعد خمسة كيلو مترات منها (دهلى) ، وقد شوهدت الشوارع المؤدية من دهلى إلى نظام الدين غاصة بمئات الآلاف من البشر ، كما ربطت عصى طويلة بخشب المحمل حتى يساهم كل من يرغب في تشييع الجنازة ، وبرغم ذلك لم يتمكن معظم الناس من لمس الخشبة الطويلة المربوطة بالنعش ، نظراً للزحام الشديد ، وقد أقيمت صلاة الجنازة عدة مرات ، ثم دفن الشيخ محمد إسماعيل في قرية نظام الدين .

(1) ومن مآثر الشيخ محمد إسماعيل أنه كان يقف في الطريق يخدم المارة ويطرح عنهم أحمالهم ، ويدعوهم للجلوس ويقدم لهم الماء من البئر ، ثم يصلى ركعتين شاكراً الله توفيقه لخدمه العباد (أبوالحسن على الندوى ، محمد إلياس أوران كي ديني دعوت : ص51 وما بعدها) .

أما أولاد الشيخ محمد إسماعيل فكانوا ثلاثة تفردوا جميعهم بالعلم والفضل والعطاء وكات أكبرهم " الشيخ محمد " وأوسطهم " الشيخ محمد يحي " وآخرهم " الشيخ محمد إلياس " رحمهم الله جميعاً[1] .

*****

(1) احتشام الحسن الكاندهلوى: حالات مشايخ كي كاندهله. وراجع: سفينه الرحمانية للدكتور عبدالرحمن. ومولانا محمد إلياس أوران كي ديني دعوت وأرواح ثلاثة: وحياة الشيخ محمد يوسف: للشيخ محمد ثاني تحت عنوان الشيخ محمد إسماعيل الكاندهلوى .

الفصل الثاني

الشيخ محمد إلياس طالباً ومدرساً

الشيخ محمد إلياس وطلبه للعلم ورحلاته في سبيله :

بدأت رحلاته العلمية بداية طيبة تحت إشراف أبيه الفاضل الشيخ محمد إسماعيل ثم أخيه العلامة الشيخ محمد يحيي ، وبعدها ظل يرقي في المدارج العلمية حتى وصل الى مكانة رفيعة في العلوم الدينية حتى انه لم يترك أي مركز علمي هام في شبه القارة إلا وقد تعلم وتربي فيه ، فيما عدا المدارس والجامعات الأجنبية الإنجليزية وغيرها ، فلم يلجأ إليها بحثاً عن المادة أو سعياً وراء الجاه والشهرة ، وإنما كان دافعه لذلك الرغبة الملحة بغية إدراك الإيمان العميق لقيمة العلم ، وكان كل ذلك بفضل الإيمان العميق بقيمة العلم ، وبفضل البيئة التي عاش فيها هو وأسرته .

وقد ركز الشيخ محمد إلياس جل اهتمامه في طلب العلم ، والتربية العملية والروحية الخالصة على يد كبار العلماء والزهاد والعباد ، ومرشدي المسلمين في شبة القارة الهندوباكستانية ، كما تعلم قراءة القرآن في صغر سنه على يد المحفظ " منجتو " ثم اتجه فيما بعد إلى حفظ القرآن طبقاً لدستور الأسرة علي يد أبيه الشيخ محمد إسماعيل في قرية نظام الدين ، لأن حفظ القرآن الكريم – قبل كل شيء – كان أمراً لابد منه لكل أفراد الأسرة ويظهر أثر هذا الالتزام في أبهى صوره في مسجد الأسرة، حيث يجتمع فيه جميع أفرادها ويصلون جميعهم صغيراً وكبيراً ، الصلوات الخمس ، فلا تجد بين صفوف المصلين غير حافظ للقرآن من أبناء الأسرة .

وقد درس الشيخ محمد إلياس الكتب الأولية في اللغتين الفارسية والعربية على يد والده في قرية " نظام الدين "، وحينما كان يذهب لجدته (أمة الرحمن) في " كاندهله" كان يدرس نفس الكتب على يد الشيخ محمد إبراهيم الكاندهلوى[1] .

---

(1) ديني دعوت للندوى ص59 وما بعدها .

وبعد أن حفظ الشيخ محمد إلياس القرآن الكريم ، واستوعب المبادئ العملية في نظام الدين وكاندهله رحل – فيما بين عامي 1314 هـ أو 1315 هـ إلى " جنجوه " وهي مركز علمي معروف ، حيث كان يقطن هناك إمام العلماء ، وقدرة الصالحين الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي .

كما كان الشيخ محمد يحي الأخ الأكبر للشيخ محمد إلياس يعمل هناك كمدرس في مدرسة جنجوه .

وكان رحيل الشيخ محمد إلياس إلى أخيه، من أجل أن الشيخ محمد يحي طلب من أبية أن يرسل محمد إلياس إلى جنجوه، لأن حنان الأبوين وكثرة اشتغال محمد إلياس بذكر الله والأوراد المسنونة وتلاوة القرآن الكريم قد تسبب له القصور في التعليم ، ومن الأفضل أن يتعلم محمد إلياس في مركز علمي آخر بعيداً عن البيت، واتفق كبار الأسرة على أن يدرس الشيخ في مدرسة جنجوه تحت إشراف سيد العارفين الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي وبهذا تمتع بمرافقة أخيه الفاضل الشيخ محمد يحيي ، كما استفاد من صحبة كبار علماء الدين الذين يأتون من جميع أنحاء شبه القارة – لدى شمس العلم والمعرفة الشيخ رشيد أحمد ، لكسب المعارف العلمية والروحية[1] .

وفي هذا الصدد يوضح الشيخ محمد زكريا أن الشيخ محمد إلياس نال حظاً وفيراً من تربية إمام المشايخ الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي وغيره من كبار العلماء الأفاضل بجنجوه ، وكذلك كان الشيخ محمد إلياس يتعلم في مدرسة جنجوه على يد أخيه الفاضل، الكتب المتوسطة ، برغم أنه كان يعلم الطلاب الكتب الابتدائية مما كان يفيد في استيعاب الكتب وفهمها وازدياد كفاءته العلمية ، وتشويقه إلى مزيد من الفهم[2] .

---

(1) ديني دعوت للندوى ص59 وما بعدها .

(2) نفس المصدر السابق .

هذا وقد استمر الشيخ تحت إشراف أخيه الفاضل ورعايته، علمياً وروحياً في هذا المركز العظيم ، فضلاً عما كان يستفيده من حلقات العلم على يد كبار علماء العصر ، فيغترف من معارفهم وينهل من خبراتهم العلمية، ولا يخفي هذا الأثر الهائل في التربية التي درج عليها الشيخ محمد إلياس في أكبر مركز للعلوم والمعارف في شبة القارة الهندية والباكستانية ، مما حفز حميته الدينية وزاد من فهمه للدين ومبادئه وإدراكه لحقيقة التربية الروحية والعملية التي كان لها أكبر الأثر في بناء شخصيته القيادية في شتي المجالات الروحية والمعنوية، ومن المعلوم أن أخصب فترة في حياة الإنسان لتلقي التربية الأساسية وتقبل أثرها هي التي كان فيها الشيخ محمد إلياس في جنجوه ، لأنه كان في ذلك الحين لا يزال في حداثة سنة ، حيث كان يناهز العاشرة من عمره .

ولما توفى الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي في عام 1323 هـ كان الشيخ محمد إلياس قد قارب العشرين من العمر[1] .

ويَذكر الشيخ محمد زكريا عن عمه الشيخ محمد إلياس أنه كان يقول : " حينما كان كبار علماء الهند والسند يزورون شيخ العارفين الشيد رشيد أحمد الجنجوهي لكسب الفيض العلمي منه ، والتباحث في أمور المسلمين في أنحاء البلاد ليرشدهم الشيخ إلى الخير والإصلاح في الأمور الدينية والمعنوية وغيرها ، كان أخي الشيخ محمد يحيي يأمرني أن استمر في صحبتهم بدلا من الدروس اليومية قائلا لي : إن صحبة هؤلاء العلماء هي دروسك ، والأفضل أن تجلس معهم وتنصت لما يتحاورون فيه بشأن الإسلام والمسلمين في أنحاء العالم[2] .

وأثناء تلك الفترة حدث شيء لم يكن في الحسبان، إذ توقف الشيخ محمد إلياس عن التعلم خلال مدة إقامته في جنجوه ، نظراً لما أصابه من آلام الصداع

---

(1) ديني دعوت للندوى ص60 ، وتاريخي جائزة ص88 روايت الشيخ / محمد زكريا المعروف بشيخ الحديث .

(2) ديني دعوت للندوى ص61 .

الحادة الذي زادت حدته عليه ، وبرغم أن الشيخ كان نحيف البدن ، لكن حالته الصحية بدأت تتدهور، حتى بلغ الأمر به أن لا يستطيع أن يسجد في الصلاة ، فمنعه معالجه الطبيب من شرب الماء كأسلوب وقائي(1) ، وهذا أمر شاق وعسير على أي إنسان ، ولكن الشيخ محمد إلياس لم يشرب الماء قط زهاء سبع سنوات متتالية ، وإنما كان يستعمل سوائل أخري عوضاً عن الماء .

وحينما انتهت مرحلة الوقاية ، استمر الشيخ لا يشرب الماء إلا قليلاً وظلت هذه الحالة مدة بلغت خمس سنوات بعد السبع الأولى ، ولكن سيطرت على فكره هواجس الحرمان من تحصيل العلم ، لأن شيوخ الأسرة وأساتذته يصرون على ضرورة أن يستريح ، وألا يشتغل بالتعليم ، حيث إن لا يتحمل مشاق الدراسة ، لأنه إذا تحسنت صحته فالخوف أن يعادوه نفس المرض نظراً لما تحتاج إليه الدراسة من جهد وتفكير، مما اضطر الشيخ محمد يحيي إلى منعه من التعليم منعاً باتاً نظراً لحالته الصحية المتدهورة، ولكن الشيخ محمد إلياس أصر على مواصلة تحصيل العلم والمعرفة موقناً أن الحياة لا طائل منها بدون العلم، وبذل كل جهد ليبدأ التعليم ويفرغ من الكتب المتبقية له من المنهج الدراسي، ووصل الخلاف غايته بينه وبين أخيه وأساتذته ، إلى أن سأله أخوه يوماً : ماذا ستعمل بالتعليم والعلم ؟ فرد عليه الشيخ محمد إلياس قائلاً : " وما قيمة الحياة بدون العلم ؟! ".

وبعد أن تحسنت حالة الشيخ محمد إلياس الصحية استأنف رحلاته العلمية مرة أخري ، برغم هزال جسده ، ليقينه أن الحياة لا جدوى منها بدون العلم ، كما أنه لا قيمة للعلم بدون العمل .

وبعد ذلك بدأت رحلات الشيخ محمد إلياس مرة أخري ، خاصة بعد أن فجع بوفاة شيخه الإمام الجنجوهي عام 1323 هـ ، إذا كان ينظر إليه – حين وفاته –

---

(1) هو الطبيب مسعود أحمد بن الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي .

محدثاً نفسه في أسي عميق : كيف ترحل شمس العلم عن الدنيا ؟ وكيف تكون حياة العالم بعد موت العالم ؟ وأخذ يتلو سورة يس على الإمام .

وقد ترك هذا الحادث في نفس الشيخ محمد إلياس أثراً عميقاً لا ينساه طوال حياته فكان يقول : إن الأحداث المفجعة التي وقعت في حياتي ليست سوى موت والدي وحادثة وفاة الشيخ الجنجوهي ، وما حزنت في حياتي على شيء أكثر من هذين الحادثين، قد بكيت بكاء العمر كله يوم أن انتقل الإمام الجنجوهي من دنيا الفناء إلى دار البقاء[1] .

وبعد وفاة الإمام رحل الشيخ محمد إلياس إلى دار العلوم بديوبند[2] لتكملة دراسة علوم الحديث ، فتلقي دروس البخاري والترمذي على يد شيخ الهند الشيد محمود الحسن[3] [1] الذي سنورد الحديث عنه فيما بعد .

(1) ديني دعوت للندوى ص63 ملخص.

(2) كانت مدرسة دار العلوم بمدينة " ديوبند " الواقعة على بعد مائة ميل من العاصمة (دهلى) – مركزاً للحركات العلمية والدينية في شبه القارة الهندية الباكستانية بأكملها ، وكان يطبق نظامها التعليمي في جميع المدارس الدينية في ذلك الحين، اللهم إلا القليل منها " ومدرسة دار العلوم هذه هي مدرسة تلاميذ الشيخ أحمد السرهندي الملقب بـ " مجدد الألف الثاني " وهي كذلك مدرسة تلاميذ الشاه ولى الله وأولاده ، ومن كبار مؤسسيها أمير المجاهدين حجة الإسلام الشيخ محمد قاسم التانوتوي ، والإمام الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي قائد حركة المجاهدين ، وهي مدرسة مسئولة عن المجاهدين في ميدان القتال ضد قوى الكفر من السيخ والإنجليز ، ومسئولة عن الدعوة والإرشاد في الهند والتصدي لأي هجوم عدواني على الدين= = الحنيف، وكذلك فقد قامت بإعداد الشخصيات الفذة من أبنائها العلماء المجاهدين الذين قهروا جيوش الأعداء، كما حفلت البلاد بكثرة مؤلفاتهم ومصنفاتهم التي استضاءت بنورها بلاد الهند فحاربوا البدع والخرافات، وأقاموا المناظرات والمجادلات لمجابهة المفسدين والمضللين داخل البلاد وخارجها، وبذلك كسبت مدرسة دار العلوم كل احتياجات الدعوة بأهل البلاغ والإرشاد، مما أدي إلى إبراز دورها الجديد في البلاد في تكوين الأسس الحضارية والثقافية في جميع المجالات العلمية والمدنية للمسلمين، إذ أنها تشبه الأزهر الشريف في شبه القارة، حيث لا نجد أي حركة من الحركات النضالية ضد الكفر إلا وقد أقامها أبناء هذه المدرسة ومؤسسوها : محبوب أحمد رضوى. تاريخ دار العلوم ديوبند : ص150 وما بعدها الطبعة الأولى : باكستان .

(3) ديني دعوت للندوى ص63 ملخص.

ولكن بعد أن انتهي الشيخ محمد إلياس من دراسته في مدرسة دار العلوم ديوبند ، بدأ رحلته الثالثة إلى مدينة " سهارنفور " والتحق بمدرسة مظاهر العلوم ليكمل دراسة جميع كتب الحديث المتداولة، حيث أعاد قراءتها على يد أخيه الشيخ محمد يحيي[2] .

ويذكر الشيخ محمد زكريا عنه : أن درس الحديث كان يستمر طوال الليل ، ولا يركن إلى النوم إلا قليلاً أثناء النهار[3] .

وهكذا قضى الشيخ محمد إلياس فترة دراسته في أكبر مراكز العلم والتربية ، وتلقي العلوم الدينية والتربوية على يد كبار العلماء والعارفين في حلقات المساجد والمدارس في القري والمدن ، خلال فترة ترحاله في سبيل تحصيل شتي العلوم ، كالتفسير والحديث والفقه وعلم العقائد والكلام وغيرها من العلوم المتداولة في ذلك الحين .

وقد كان الشيخ محمد إلياس تلميذاً رحالة باحثاً عن العلم، ليقطف ثماره أينما وجدت كما كان طالباً متواضعاً مؤدباً مستغرقاً في ذكر الله، متمسكاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل أعماله وأفعاله ، وقد ساعده على ذلك سعة أفقه وتقربه من أفذاذ أهل العلم ، حيث أمضى معهم بياض النهار وسواد الليل منهمكاً في تحصيل العلوم المتنوعة وخزائن المعرفة الوافرة ، وبذا نال حظاً وافراً من حب الأساتذة واخلاصهم واهتمامهم بتربيته التي عكست عليه صورة فضائلهم ، فتأثر بهم تأثيراً ملحوظاً ساعده على إذكاء مواهبه المتعددة .

وقد رأي الناس في حياة الشيخ محمد إلياس صورة حية لهؤلاء الأسلاف، ومدي تأثيرهم في منهجه العلمي والعملي من روح الجهاد التي أذكوها فيه ضد الجهل

(2) عن رواية الشيخ محمد إبراهيم البلياوي الذي كان زميلا للشيخ محمد إلياس في دار العلوم، نقلاً عن: أبي الحسن على الندوي : مولانا محمد إلياس أوران كي ديني دعوت وخطوط الأكابر ص157 .

(2) ديني دعوت للندوى ص64 .

(3) تاريخي جائزة ص88 .

والخرافات والبدع والتقاليد الوثنية ، هذا إلى جانب ما كان يتمتع به كشخصية قيادية قادرة على أن تقود حركة الإيمان على أساس قويم ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولعل من المناسب هنا أن نذكر بعض شيوخه ملقين الضوء على حياتهم ومكانتهم العلمية ، وجهودهم في نشر الدعوة الإسلامية ، لإبقاء مكانة الإسلام والمسلمين الفريدة في شبه القارة الهندية الباكستانية خلال هذه الفترة المريرة المؤلمة التي تتعارك وتتصارع فيها الموجات المسمومة المدمرة ، ساعية إلى القضاء على الإسلام والمسلمين في البلاد

وكان هؤلاء الأئمة هم آخر شموس العلم – من أفلاك شبه القارة – الذين تركوا مشاعلهم تنير الدنيا بنور العلم والعرفان، كما خلفوا من بعدهم تلاميذهم الذين حرروا الوطن ، وقد أعطوا دفعة قوية للدعوة والتبليغ ، وكان لهم دور ملحوظ في الاحتفاظ بالقيم الإسلامية في شبه القارة ، وهم الذين نجحوا في بناء إسلامية جديدة في هذه البلاد – باسم جمهورية باكستان الإسلامية .

وسأوجز التعريف بمن هم أكثر تأثيراً وتوجيهاً في حياة الشيخ محمد إلياس .

أساتذة الشيخ محمد إلياس ومشايخه :

الإمام رشيد أحمد الجنجوهي :

هو رشيد أحمد بن هداية الله ، الذي ولد في السادس من ذي القعدة سنة 1242هـ في قرية جنجوه بمديرية " سهارن فور "[(1)] بالهند ، وكان والده صاحب علم وفضل ، تلقي علوم التربية والسلوك على يد الشاه غلام على المجددي الدهلوي .

(1) سميت قرية " جنجره " باسم الأمير الهندي " جنج " وتقع هذه القرية في الطرف الجنوبي من " سهارن فور " على بعد ثلاثة وثلاثين ميلاً ، وقد اشتهرت نسبتها إلى العارف بالله الشيخ عبدالقدوس (الجنجوهي) المتوفي سنة 945 هـ راجع تاريخ دار العلوم ديوبند ص52 وما بعدها .

وقد تلقي الشيخ رشيد أحمد العلوم الابتدائية في قرية " جنجوه " بمدينة " كرنال " ، ثم رحل إلى مدينة " دهلى " حيث يقطن هناك أستاذ الأساتذة الشيخ مملوك على النانوتوي وتلقي عنه العلوم والفنون ، ثم تعلم على يد الشيخ مفتي صدر الدين[1] .

كما تلقى علوم الحديث على يد الشاه عبدالغني المجددي ، وهو من أكبر شيوخ الحديث في الهند ، كما التقي هناك بالشيخ محمد قاسم النانوتوي – حجة الإسلام في الهند وعميد الأسرة القاسمية التي تشرف على مدرسة دار العلوم ديوبند منذ تأسيسها – وقد لازمه ولم يفترقا طوال حياتها ، بل تكاتفاً معاً في المجالات التربوية والخدمات الدينية، وفي الدعوة والإرشاد والدرس والتدريس، كما اشتركا معاً في جبهات القتال ، وقيادة المجاهدين ضد الإنجليز.

وقد تلقي الشيخ رشيد أحمد ، والشيخ محمد قاسم علوم الطريقة والسلوك على يد الإمام إمداد الله المكي، فأجازهما الإمام للبيعة على طرق التربية والسلوك.

ومن ثم رجع الشيخ رشيد أحمد إلى جنجوه، واتخذها مركزاً للدعوة والإرشاد والتدريس واختار حجرة إمام العارفين الشيخ عبدالقدوس الجنجوهي قاعدة لنشاطه العلمي .

أما احتياجاته المادية ، فكان يستعيض عنها بمهنة التطبيب، وبدأ يخدم الدين بغير أجر أو مقابل على الإطلاق سوى رضا الله .

وجدير بالذكر أن الشيخ رشيد أحمد قد اشترك في ثورة عام 1857م تحت قيادة شيخه[2] ، حتى أصبح قائداً لفرقة المجاهدين على جبهة القتال ضد الإنجليز المستعمرين في مدينة شاملي[1] .

(1) وهو تلميذ الشاه عبد العزيز بن الشاه ولى الله الدهلوي .

(1) هو إمام المجاهدين الشيخ إمداد الله المكي، الذي كان وريث حركة الشاه عبد العزيز المحدث، والشاه محمد إسماعيل والسيد احمد الشهيد والشاه ولى الله الدهلوي.

وقد أحرز ضدهم انتصارات هائلة تحير الأذهان والعقول ، حيث لم يكن هو ورفاقه يملكون إلا أسلحه عتيقة في مواجهة جيش منظم ومسلح بأحدث الأسلحة الفتاكة، ولكن هؤلاء المجاهدين فتحوا مدينة شاملي وقلعتها ووضعوا لها نظاماً إسلامياً بعد إخلاء الإنجليز منها[2] .

إلا أن الإنجليز تغلبوا على الثورة ، واستولوا على الهند حيث خسر المسلمون هذه المعركة بعد قتال ضار استمر شهوراً كثيرة ، ثم بدأت القوات الإنجليزية تزحف إلى مدينة شاملي وتهانه بهون[3] التي كانت مركزاً للمجاهدين ، حيث دمروها بأبشع وسائل التدمير ، ولم يبق من سكانها سوى خمسة آلاف نسمة بعد الحملات الإنجليزية ، في حين كان عدد قاطنيها قبل الهجوم الوحشي خمسين ألف نسمة .

أما مدينة شاملي فلا يتسع المقام لذكر حوادث تدميرها وقتل وتشريد أهلها .

أما عن قادة المجاهدين ، فقد نجح الإنجليز في القبض على بعض قادتهم الذين نجوا من القتل ، كما أصدرت القيادة الإنجليزية أوامر خاصة بالقبض على الإمام إمداد الله المكي ، وحجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي ، والشيخ رشيد أحمد الجنجوهي ، ولكنها لم تتمكن من القبض على الإمام إمداد الله وحجة الإسلام النانوتوي ، وتم القبض على الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي في سنة 1859م من مدينة " رامبورمنهياران " ونقلوه إلى سجن مديرية " سهارن فور " ثم إلى مديرية " مظفر نكر " .

ولكن الشيخ لم ينزعج ولم يفتر ولم يبال بالعذاب في سجن الإنجليز ، بل عزم على القيام بمهمته في الدعوة إلى الله بين المساجين، بادئاً بإقامة الصلوات الخمس

(2) كانت مدينة (شاملي) إحدى القواعد الحربية للجيوش الإنجليزية ، وتوجد هناك قلعة تسمى " قلعة شاملي " .

(2) راجع ماضي علماء الهند المجيد جـ 4 وتذكرة الرشيد .

(3) هو مركز الإمام امداد الله المكي .

في جماعة وقد بايعه عدد كبير من أولئك المساجين متأثرين بشجاعته وورعه ، وبما أرشدهم به إلى سواء السبيل .

وعندما وقف الشيخ رشيد أحمد في ساحة المحكمة مستمعاً لحكم خصومه ضده، وهم الذين أخذوا يجبرونه على الاعتراف بحمل السلاح ضد الجيش الإنجليزي ، وإخفاء سلاح الجيش في بيته ، إما بالسرقة أو النهب ؛ لكن الشيخ لم يعترف بأي شيء أمام المحكمة، بل كان يستخدم الاستعارة في رده على القاضي[1] ، وبذا لم يثبت إدانته في أي تهمة من الاتهامات الموجهة له ، فما كان من الحاكم الإنجليزي إلا أن أمر مجموعة من الشرطة أن تحمل السيوف وتشهرها على رأسه لترهبه، ولكن الشيخ لم يهتز بهذه الحيلة بل قال : إنني لا أخاف منهم ولا من سيوفهم ، ولو شهرت كل سيوف الإنجليز على رأسي وفي وجهي[2] .

هذا وقد رفض الإنجليز الإفراج عنه بأي ضمان للمحكمة ، حتى فشلت كل محاولات التفتيش والتحريات في إثبات أي إتهام إليه لإخفاء الأسلحة الحكومية ، ولما لم تثبت أية جريمة ضد الشيخ ، حيث لم يتفوه أي من أهالي المنطقة ببنت شفة تضر بشيخهم مهما كابدوا من ألوان العذاب ، فقد أجبر الحاكم الإنجليزي على الإفراج عن الشيخ في يناير عام سنة 1680 م ، خوفاً من ثورة الشعب مرة أخرى ضد الاستعمار لو طالت مدة اعتقال الإمام

وبعد الإفراج عن الإمام من السجن بدأ في التدريس، ثم سافر إلى بيت الله الحرام عازماً على الحج في سنة 1299 هـ وبعد عودته من الحج بدأ يدرس علم الحديث ، فهرع إليه لفيف من الطلاب والعلماء من أنحاء البلاد ، وكان يبدأ الدرس بعد صلاة الفجر حتى الساعة الثانية عشر ظهراً ، واشتهر درس الشيخ حيث كان مثالاً عظيماً في تدريس علوم الحديث الشريف ، وتحقيق كل ما له صلة

---

(1) فمثلاً قال له القاضي الإنجليزي : أين السلاح ؟ فاخرج الشيخ مسبحته من جيبه وقال : هذا هو سلاحي .

(2) نقش حياة لحسين أحمد المدني ص59 .

بدرجات علم الحديث متناً أو سنداً أو تجريحاً أو تعديلاً ، وهو الذي أكمل المنهج الذي وضع أساسه الإمام الشاه ولى الله الدهلوى ، وهو المنهج الذي يربط بين الحديث والفقه ، وابتكر لذلك أصولاً وقواعد .

وقد استكمل هذا المنهج في عصر أبناء شاه ولى الله ، ثم تطور في عصر علماء دار العلوم ديوبند، وعلى رأسهم محمد قاسم النانوتوي، والإمام رشيد أحمد الجنجوهي، حيث بلغ هذا الأسلوب الفريد درجة الكمال، في عصرهما ، على أيدي تلاميذهم الأفذاذ حيث تخرج على أيديهم كبار علماء شبة القارة الذين حملوا لواء العلم والجهاد والدعوة ، مضحين بأنفسهم وأموالهم ، فإنك لا تجد أي مركز علمي إلا وقد أنشأه وأشرف عليه تلاميذ هؤلاء الأفذاذ .

وقد طبعت دروس الشيخ رشيد أحمد في شرح الجامع الترمذي، والتي سجلها تلامذته أثناء الدرس في شكل كتابي، حيث أطلق عليه " الكواكب الدراري " وقد نالت هذه المجموعة شهرة عظيمة في المجالات العلمية لدي مدرسي الحديث الشريف، حيث استفاد منها معظم شيوخ الحديث في شبة القارة ، وقد كانت هذه المجموعة تميز بدقة العبارة واختصار المعني .

وقد استمر الشيخ الجنجوهي في إلقاء دروس الحديث إلى عام 1314 هـ وتخرج على يديه أكثر من ثلاثمائة طالب في تلك الفترة الأخيرة ، وكان أخر تلاميذه هو شيخ الحديث ورئيس قسم الآدب العربي في جامعة سهانفور ، وهو العلامة[1] محمد يحيي بن محمد إسماعيل، وفي عام 1397م، أصبح الشيخ الجنجوهي مشرفاً عاماً على مدرسة دار العلوم ديوبند ، بعد وفاة زميله حجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي، وتغلب على كل المشاكل والعقبات التي واجهها هذا المركز العظيم بعد وفاة حجة الإسلام .

(1) وهو الأخ الأكبر للشيخ إلياس و والد الشيخ محمد زكريا المعروف بشيخ الحديث .

كما تولى في نفس العام الإشراف على جامعة مظاهر العلوم بمدينة " سهارنفور " ثاني أكبر مركز للعلوم النبوية الشريفة في شبه القارة .

وهكذا عظم شأن الإمام في أنحاء شبه القارة، وخاصة في العلوم النقلية والعقلية إلى جانب إشرافه على المجاهدين ومراكز العلم والتربية ، هذا بالإضافة إلى سمو شأنه في مجال التربية والسلوك للعلماء وعامة الناس في مجال الدعوة والإرشاد ، وبذلك لم يترك الإمام رشيد أحمد الجنجوهي أي مجال ديني أو سياسي إلا وقد ساهم فيه مساهمة فعالة

ومما لا شك فيه أن الشيخ وجماعته قد بذلوا جهوداً جبارة في بقاء الإسلام والمسلمين وهم الذين حولوا مجري التاريخ في شبه القارة الهندية الباكستانية ، حيث تحولت من مستعمرة إنجليزية إلى الهند الحرة ، كما نجحوا في بناء دولة إسلامية ، تحت شعار : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا وهي " جمهورية باكستان الإسلامية " الحالية .

أما في مجال التأليف فقد برع الشيخ في هذا، حيث ألف كتباً قيمة كثيرة في علوم الفقه ، مما يدل على درايته الواسعة في هذه العلوم .

ومن أهم تلك الكتب فتاواه التي تقع في عدة مجلدات أطلق عليها " الفتاوي الرشيدية" والتي طبعت لأول مرة بالمكتبة الرحيمية " بدهلي " وقد ألف كذلك كتباً كثيرة في التربية والسلوك تجاوز عددها أربعة عشر كتاباً .

وفاتـــــــه :

توفى الإمام الجنجوهي بعد حياة حافلة بالعلم والجهاد في الثامن أو التاسع من جمادي الثانية عام 1323 هـ الموافق 1905م حيث كان يناهز ، في ذلك الوقت ، الثامنة والسبعين من عمره .

وبعد وفاته تقوقع علماء شبه القارة على أنفسهم ، كأنهم قد حرموا من حنان الأب ورعايته ، حيث ترك هوة عميقة في مجال الدعوة ، وكذلك فقد كتب

الكثيرون عن حياته ومنهجه ومكانته العلمية ، وشجاعته النادرة في ميدان الحرب ، وسعة أفقه على علوم الحديث والتفسير والفقه والأدب والتربية .

كما ملئت المجلات والصحف ، وألفت الكثير من الكتب عن حياته ، ومن أهمها "تذكرة الرشيد" الذي ألفه العالم الجليل الشيخ عائق إلهى (الميرتي) [1] في جزأين .

مكانته العلمية وثناء العلماء عليه :

كان منهج الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي هو نفس منهج الشيخ أحمد السرهندي (مجدد الألف الثاني) ، الذي جعل الطريقة خاضعه للشريعة الخالصة ، وأنكر التصوف الذي يخرج عن إطار الشريعة المطهرة ، وكان هذا هو الدور الأساسي الذي رفع مكانته إلى أعلى مستويات الكمال .

وقد أثني ، على الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي ، العلماء المعاصرون ومن بعدهم ، حيث يقرون له بأنه كان إمام عصره في الحديث وعلومه ، عارفاً بالتفسير وعلومه ، فقيهاً أصولياً ، وفيلسوفاً إسلامياً ، بارعاً في علوم الأدب والبلاغة والصرف والنحو وعلم الكلام ، حافظاً وشاعراً وخطيباً وطبيباً وحليماً وصبوراً ومجاهداً في سبيل الله ورسوله .

ولو أردنا ذكر أقوال كل من وصوفه وأشادوا به من معاصرية لضاق المجال ، ولكن نكتفي بما قاله عنه بعض العلماء الأفذاذ، بما يمكننا من القول بأنه قد وصل إلى درجة سامية ومكانة رفيعة لم يصل إليها من معاصرية أحد سواه .

يقول الكاتب الكبير العلامة عزيز الرحمن المفتي في كتابة " الولي الكامل " ماذا أكتب عن الجنجوهي ؟! إنه لا يسعني أن أوضح منهجه ، وتاريخ حياته برمتها ، رغم أنني أود أن أكتب طوال حياتي فيما أتي به الشيخ من منهج فريد في شرح الحديث ، وعلوم التفسير ، ومسائل الفقه والتربية ، والسلوك وغيرها من الأمور

(1) تاريخ دار العلوم ديوبند ص53 .

الدينية التي يحتاج إليها الداعي في تكوين شخصية قيادية للمسلمين ، وأن لا استطيع أن أقول عنه شيئاً ، سوى أنني ما رأيت بعد ، الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي (مجدد الألف الثاني) على شاكلة الشيخ الإمام رشيد أحمد الجنجوهي "[1] .

ويقول عنه شيخه ومرشده إمام المجاهدين الحاج إمداد الله المكي[2] وهو يعلن لمن ينتسب إليه بالعقيدة والإرادة ، أو للمجاهدين المسلمين الذين يقاتلون في سبيل الله تحت راية الإسلام ، وقيادة الإمام إمداد الله ، المهاجر المكي قوله : " بأن الذي يريد الانتساب إلى هذا الفقر[3] " في سبيل الله ، ويأخذ عني العقيدة والحب والانقياد لله ولرسوله، فعليه أن يعرف بأن الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي، والشيخ محمد قاسم النانوتوي، هما أصحاب الذروة في كمال الفهم للعلوم الظاهرية والباطنية ، فعليكم بالرجوع إليهما في الأمور العلمية والتربوية الروحية، دون اللجوء إلى، لأنهما قد تفوقا عن هذا العبد الفقير في الأمور العلمية ، كما نالا حظاً وافراً في مجال السلوك والتربية ، و يا ليتني كنت مكانهما وكانا هما في مكاني[4] ، فاغتنموا صحبتهما ، لأن مثل هؤلاء غير موجودين في هذا الزمان "[5] .

ويقول كذلك الإمام إمداد الله : " لا فرق بيني وبين رشيد أحمد ، فلا حاجة للناس أن يأتوا إلى "[6] .

---

(1) الولي الكامل ص88 .

(2) كان الإمام قائداً لحركة الجهاد ضد الإنجليز ، وخليفة لحركة السيد أحمد شهيد بعد الشيخ مظفر حسين، ومملوك على، ثم اختيار رئيساً لجبهة القتال في ثورة سنة 1857م في تهانه بهون ومدينة شاملي ضد الاحتلال الإنجليزي ، راجع ماضي علماء الهند المجيد جـ4 ص313 .

(3) يعبر عن نفسه بأنه العبد الفقير أمام الله .

(1) يقصد الشيخ أن يكونا مرشدين له ، ويكون هو من المريدين لهما .

(2) ضياء القلوب : إمداد الله ، ترجمة عن الفارسية ، نقلاً عن الولي الكامل ص89.

(3) سوانح الشيخ محمد يعقوب ص10 .

ويظهر هذا الكمال الرشيدي من خلال حياته الحافلة بالعلم والتربية السليمة لهؤلاء الذين كانوا يأتون إليه للحصول عليها ، ونكتفي هنا بإشارة يسيرة عن مدي تأثيره على أهل العلم ، وذلك أنه حينما حضر في جلسة منح شهادات التقدير للفائزين في عام 1301 هـ في مدرسة دار العلوم ديوبند وبدأ تدريسه لجامع الترمذي وقراءة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان محباً مهياً بالإخلاص، وأثناء قراءته للأحاديث تلفظ باسم الجلالة (الله) فأخذ آلاف الحاضرين يبكون ويرددون : " الله .... الله "[1] .

وفي النهاية نذكر ما قاله أحد فلاسفة الهنادكة حيث يقول: ما رأيت مشكاة مثله في مملكة الأولياء في العالم ، وقد زرت العالم كله وتجولت فيه ، ولكنني لم أر شخصية كاملة مثل رشيد أحمد الجنجوهي[2] .

هذا وتعتبر شخصية الإمام الجنجوهي هي وريثة علوم مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد فاروقي السرهندي[3] .

---

(1) تذكرة الرشيد جـ2 ص320 ، والولي الكامل ص90 .

(2) الولي الكامل ص93 .

(3) وذلك حيث جددت تلك السلسلة المباركة مرة أخري على يد الإمام الشاه ولى الله الدهلوي، ثم نجله الأكبر الشاه عبدالعزيز الدهلوي الذي قال: بأن الشاه إسماعيل (الشهيد في معركة بالاكوت) أخذ بأسلوب خطابتي، وأخذ الشيخ رشيد الدين في الكتابة والتأليف، كما أخذ الشاه محمد إسحاق منهج الزهد والتقوي والتربية، فالعلامة رشيد الدين، الذي تولي منصب تربية الشاه رفيع الدين بن ولى الله بأمر أخيه الأكبر الشاه عبدالعزيز في سنة 1249 هـ ، ترك ثروة علمية هائلة من الكتب والتلاميذ الذين درسوا العلوم علي يديه. وكان السيد مملوك على من أعظم هؤلاء التلاميذ فهماً وعلماً ، وهو الذي لقب بتاج العلماء ، ويقول عنه سير سيد أحمد خان (اب) : " لو فرض أن العلوم كلها قد انعدمت من العالم فمن الممكن أن ننقلها من ذاكرة الشيخ مملوك على (اب) وقد ترك الشيخ مملوك على جيلا جديداً في المجال العلمي لا ينساه تاريخ شبه القارة أبداً، ومن أشهرهم الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي ومحمد قاسم النانوتوي (2ب) وسير سيد أحمد خان والمؤلف المعروف شمس العلماء ذكاء الله ونجله الأكبر الشيخ محمد يعقوب (3ب) وكثير من الأفذاذ في العلوم النقلية والعقلية .

ومن هنا يعتبر الشيخ الجنجوهي هو وريث علوم الشاه ولى الله في علوم الحديث والتفسير وغيرها من العلوم المتداولة ، كما كان وريثاً للواء الجهاد والحرية وفى العلوم التربوية في الطريقة والسلوك ، وذلك عن

كما كان الشاه ولى الله وريث حركة مجدد الألف الثاني .

تلاميذ الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي :

نجح الشيخ الجنجوهي في بناء جيل جديد في شبه القارة ، حيث كان من تلامذته علماء أجلاء ، ورثوا العلوم والفنون ، وحملوا لواء الدعوة ، ورفعوا علم الجهاد أمثال الشيخ محمود الحسن الملقب بشيخ الهند : (هو صاحب حركة تحرير الهند ، ورئيس هيئة التدريس ، والمشرف العام لدار العلوم ديوبند ، ومن

طريق نسبته ، بالتتلمذ والتربية = = على يد الإمام الحاج إمداد الله المهاجر المكي الذي أخذ = = تلك الأمانة من السيد نور محمد الجهنجانوى، والشيخ نصير الدين الدهلوي اللذين تلقيا تلك العلوم وتحملا تلك الأمانة عن السيد أحمد شهيد الذي يعد خليفة الشاه عبد العزيز بن الشاه ولى الله الدهلوي كما أخذ الإمام إمداد الله التربية والسلوك عن الصدر الحميد نائب الأمير السيد أحمد شهيد ، هو الشاه محمد إسحاق (4ب) مباشرة في مكة المكرمة ، وبذا أصبح إمداد الله وريث حركة الجهاد والعلوم التربوية والسلوك للشاه ولى الله الدهلوي في شبه القارة .

ومن هنا أصبح الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي خليفة إمداد الله المهاجر المكي وريث أسرة ولى الله في كل من المجالات العلمية والتربوية ، بما فيها المادية والمعنوية في شب القارة الهندية الباكستانية .

ويقول العلامة عبيد الله السندهي : بأن محمد قاسم النانوتوي ، ورشيد أحمد الجنجوهي كانا مع إمام المجاهدين (إمداد الله المهاجر المكي) في حركة الجهاد مثلما كان الشاه عبد الحي ، والشاه إسماعيل الشهيد مع السيد أحمد الشهيد في المعركة ضد الإنجليز والسيخ ، وذلك لأجل تحرير الوطن من برائن الكفر والإلحاد : أنظر الحركة السياسية لشاه ولى الله ص183 وماضي علماء الهند المجيد : جـ4 ملخص ص311 .

ولقد قدمنا هذا الشرح المختصر عن الحركة النضالية التي توالت حتى وصلت إلى العلامة الشيخ محمد إلياس ، وهي نفس الحركة المتصلة التي بدأت على يد مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد فاروقي السرهندي رحمه الله إبان فتنة جلال الدين أكبر المغولي ، ثم توالت هذه القيادات حتى هذه اللحظة ، ولا يزال أثرها واضحاً في البلاد، للمزيد راجع رحلة دعاة الرحمن في حظيرة عبدة الأوثان : ص9 (للمؤلف).

(أ ب) هو مؤسس جامعة على كرة .

(أ ب)كان الشيخ مملوك على رئيس قسم اللغة العربية في جامعة شاه جهان آباد (بدهلي) . (2 ب) هو مؤسس دار العلوم ديوبند .

(3 ب) هو أول رئيس لهيئة التدريس في دار العلوم ديوبند .=

= (4 ب) هو الخليفة الشاه عبد العزيز ولى الله ومن سلالة ولى الله (أي من احفاده) .

تلامذته السيد أنور شاه الكشميري[1] وغير هؤلاء) فقد تربت مئات من الشخصيات الفذة تحت إشراف الشيخ الجنجوهي، في دار العلوم ديوبند ومظاهر العلوم " سهارن فور " كما يبلغ عدد مؤلفات بعض تلامذته إلى مئات الكتب القيمة في شتي المجالات العلمية .

أما مركز الشيخ الجنجوهي ، وهو قرية جنجوه ، فكان يعد مركزاً لزيارة أهل العلم والفضل لكسب الفيوض المعنوية مباشرة من الإمام الجنجوهي ، حيث يتوافدون من كل البلدان ، من أرجاء شبه القارة وما جاورها ، إليه رحمه الله ، وعن هذا يقول صاحب كتاب " تاريخ يوسفي " : إن أبواب قرية " جنجوه " وجدرانها قد ملئت بالجو العلمي والروحي ، بحيث يبدو أنه لا يوجد أي مركز مثل هذا في تلك الآونة في شبه القارة الهندية وغيرها من البلدان المجاورة[2] .

علاقة الشيخ محمد إلياس بالإمام الجنجوهي :

مما لا شك فيه أن المجال التربوي يتفاوت ، كما وكيفاً ، بمقدار تباين البيئات ومكانة الشخصيات التي تقوم فيها بالتربية ؛ إذ ليس من العباقرة أحد في تاريخ

---

(1) هو الذى قال عنه حكيم الأمة الشيخ أشرف على التهانوي المتوفي سنة 1362 هـ بأن وجود الكاشميري بين الأمة الإسلامية هو برهان ساطع على ان الإسلام دين حق وصدق " نفحة العنبر للبنوري " ص99 .

وقال فيه الشيخ رشيد رضا مدير مجلة المنار حينما كان في زيارته لدار العلوم ديوبند عام 1330 هـ ، وقام الشيخ الكشميري خطيباً باللغة العربية الفصحي ، فقام الشيخ رشيد رضا معقباً وقال : والله ما رأيت مثل هذا الرجل قط : " مجلة خدام الدين " عدد خاص للبنوري ص40 .

وللشيخ أنور شاه مؤلفات قيمة يبلغ عددها أكثر من عشرين كتاباً مثل فيض الباري على صحيح البخاري ط القاهرة ، وكتاب "العرف الشذي في جامع الترمذي" وكتاب " أنوار الباري شرح صحيح البخاري " وثلاثة وثلاثين مجلداً وهو غير مطبوع وكتابه " التصريح بما تواتر في نزول المسيح " من أعظم التحقيقات العلمية في بابه ، وهذا غير مئات الأبحاث والمقالات القيمة التي لا غني عنها في المسائل العلمية ، وفي حل المشكلات المعاصرة الحديثة راجع كتاب " نفحة العنبر في حياة الشيخ أنور= = " باللغة العربية ، و " حياة الأنوار " باللغة الأردية ، نقلاً عن مجلة خدام الدين العدد الخاص للبنوري : ص90 .

(2) حياة يوسفي : ص77 .

البشرية إلا وتجد وراءه شخصيات عملاقة ، قامت على تربيته وتعيين مناهج سلوكه في المجالات المادية والمعنوية .

ويقول الشيخ محمد زكريا ، المعروف بلقب شيخ الحديث: بأن الشيخ محمد إلياس نال حظاً وفيراً من تربية إمام المشايخ الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي، وغيره من العلماء الأفاضل في جنجوه[1] ، وذلك بعد ما تخرج الشيخ محمد إلياس من المرحلة الابتدائية، ورحل إلى جنجوه لكي يواصل التعليم تحت رعاية الإمام الجنجوهي، وأخيه العلامة محمد يحي الذي كان يعد من أقرب التلاميذ للإمام الجنجوهي، والذي اختاره الإمام مدرساً في مركزه العلمي، وقد سافر الشيخ محمد إلياس مع أخيه العلامة محمد يحيي إلى جنجوه وهو ابن عشر سنين، ومن هنا استطاع محمد إلياس أن يتلقى التربية على يد أكبر مرشد في الهند، ومن ثم أصبح الشيخ محمد إلياس من أقرب تلامذته إليه ، حيث كان يلازمه معظم الأوقات ليلاً ونهاراً .

وقد بدأ الشيخ إلياس يشعر ، إثر وصوله إلى جنجوه ، أنه لابد أن يربط نفسه بتربية الإمام ارتباطاً وثيقاً لا ينقطع ، ولا يحول دونه أي شيء ، وأن ينهل من هذا المنهل الذي تفوق في عطائه على كل منابع العرفان في شبه القارة .

فطلب هذا التلميذ الصغير، برغم حداثة سنه ، المبايعة على يد الإمام ، ومع أن الإمام لا يعطي بيعة للطلاب الصغار ، لكنه لم يرفض مبايعة محمد إلياس ، نظراً لما رأي منه من حرص شديد على طلب العلم والاستغراق في العبادة ، وما وهبه الله إياه من طبيعة متواضعة[2] .

(2) تاريخي جائزة 88 وتاريخ يوسفي .

(2) تذكرة أمير التبليغ 27-28 .

وبذلك فقد بويع الشيخ محمد إلياس على يد الإمام الجنجوهي ، ولكن لم يكتف بالمبايعة فحسب ، بل طلب من أخيه أن يستأذن له من الإمام أن يسمح له بمذاكرة الدروس عنده في مكتبته ، كي يظل على قرب منه .

قال الشيخ محمد يحيي للإمام : إن محمد إلياس يرغب أن يذاكر دروسه وهو جالس أمامكم ، ولا يريد أن ينفصل عنكم بقدر الإمكان ، فإذن له الإمام حيث قال : لا بأس في ذلك ، لأن جلوس محمد إلياس معي لا يخل بخلوتي ومطالعتي للكتب ، ولا يتسبب في قطع أواصر التفكير العلمي[1] .

وبذلك استمر الشيخ محمد إلياس في صحبة الإمام وتربيته ، ويبدو أنه خلال إقامته في جنجوه ، صار من أقرب المتصلين بالإمام والمريدين له ، ويدل على ذلك أن الإمام حينما فقد بصره في آخر أيام حياته ، كان يتعرف على محمد إلياس بمجرد شم رائحته عن بعد ، وعن هذا يقول صاحب " تذاكره الرشيد " : ذات يوم من أيام الجمعة دخل الشيخ محمد إلياس إلى حفل كبير ، وهو يسير بهدوء كي لا يزعج الإمام بصوت أقادمه ، وجلس ساكناً في ركن بالقاعة ، فإذا بالإمام يقول : إني أشم رائحة الصبي في الحفل ، فقيل له : نعم لقد حضر محمد إلياس "[2] .

وقد استمر الشيخ محمد إلياس تحت رعاية الإمام حتى آخر أيام حياته ، لا ينفصل عنه في حين من الأحيان ، حتى حينما توفى الإمام وانتقل إلى الرفيق الأعلى ، كان الشيخ محمد إلياس يقرأ سورة يس وهو جالس بجانب سريره .

ويقول أبو الحسن على الندوي : إن تلك الفترة التي قضاها الشيخ محمد إلياس مع الإمام ، أي من العاشرة إلى العشرين من عمره ، كانت أحسن فترة يتلقى فيها الإنسان أصول التربية ، ويتقبل أثرها في طبيعته[3] .

---

(1) الندوي : ديني دعوت : ص61 .

(2) تذكرة الرشيد نقلا عن الولي الكامل : ص91 .

(2) الندوي : ديني دعوت : ص63 .

ولا يخفى هذا الأثر الهائل لهذه التربية التي تلقاها الشيخ محمد إلياس ليلاً ونهاراً مما زاده حمية دينية وفهماً للمشاكل المعاصرة للأمة الإسلامية .

وقد انتقل الإمام الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي إلى رحمة الله في عام1323 هـ ، وقد أحدث موته هذا ثغرات هائلة في المجالات الدينية ، لأنه ليس في استطاعة أحد أن يسد هذا الفراغ الذى تركه في تلك الظروف المؤسفة للغاية بالنسبة للمسلمين في شبه القارة . كذلك فإن وفاة الإمام ما كانت وفاة عالم أو مدرس فحسب ، بل إنها حرمت المراكز العلمية والخانقاهات والجبهات السياسية والحربية من معلمها ومرشدها ، ومشرفها ، وقائدها ومن الطبيعي أن تأثر الشيخ محمد إلياس – لوفاة – شيخه – كان أكبر بكثير من تأثر الآخرين .

يقول شيخ الحديث محمد زكريا : كنا ندرس الكتب الابتدائية عند الشيخ محمد إلياس في تلك الفترة ، وعندما حدثت وفاة الشيخ الإمام نزلت صاعقة من الصمت على الشيخ محمد إلياس، وصار لا يحادث أحداً، أما تلاميذه فكانوا يذهبون إليه ويفتحون الكتاب ويشيرون إلى درس اليوم بالأصبع، وكنا نبدأ القراءة في الكتاب، فلو أخطأ طالب في قراءة العبارة أو في ترجمتها كان الشيخ يأمر بغلق الكتاب، بالإشارة بأصبعه، وكان هذا يعني أن الاستعداد للدرس غير كاف ، ولابد من المطالعة من جديد[1] .

ويكفينا هنا ما قاله الشيخ محمد إلياس ، وما كان يردده طوال حياته : بأنني قد بكيت بكاء العمر يوم وفاة الإمام الجنجوهي[2] ، وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على العلاقات العلمية والتربوية الخالصة بين الامام رشيد أحمد الجنجوهي ، والشيخ محمد إلياس وما تركه الإمام من أثر في حياته .

(1) راجع سوانح يوسفي : لمحمد ثاني .
(2) راجع ملفوظات الشيخ محمد إلياس .

وهذا ولم تنقطع السلسلة الذهبية بوفاة الإمام الجنجوهي ، بل بويع الشيخ محمد إلياس على يد خلفاء الإمام ، وأصبح خليفة لهم في التربية الروحية ، كما أكمل تعليمه لدى تلاميذ الإمام ، وأصبح مجازاً عنهم في إسناد الحديث الشرف ، كما سلك نفس المنهج في التربية والتعليم .

العلامة محمد يحيي :

وأما الشخصية الثانية التي أثرت في حياة الشيخ إلياس، وهي التي كانت مسئولة عنه وعن تربيته في حياة والده وبعد مماته ، فهو أخوه الأكبر العلامة محمد يحيي بن محمد إسماعيل الذى كان له تأثير قوى على الشيخ محمد إلياس ، خصوصاً في المجال العلمي الذي هو أساس كل شخصية علمية ، والتي إذا بنيت على قواعد سليمة لاستفاد بها العالم أجمع ، حيث يستخدم هذا العلم للبناء والتعمير على أسس قوية راسخة لصالح الإنسانية .

وإن ضعف الأساس فسد البناء ، فيسئ استخدام هذا العلم، مما يؤدي إلى الخراب والتدمير، سواء أكان مادياً أو فكرياً ، وقد تيقن العلماء من تلك الحقيقة ، وهي أن للبيئة والتربية أثر بالغ في طبيعة الإنسان ، وتكوين مزاجه صلاحاً أو فساداً ، فلابد من إلقاء الضوء على من أشرف عليه في بياض النهار وسواد الليل ، لكي يحرز ما هو لازم في المجال العلمي والعملي ، وأن يصل إلى درجة يحتاج إليها المجتمع الإسلامي لتكوين الداعية وتوجيهه إلى الخير .

مولد الشيخ محمد يحيي :

ولد الشيخ محمد يحيي في يوم الخميس أول شهر المحرم عام 1287هـ الموافق 23 مارس عام 1871م ، وكان اسمه التاريخي " بلند اختر "[(1)] ، وقد ظهرت عليه علامات الذكاء والنبوغ منذ طفولته ، كما كان بسيط الفطرة متواضع الطبع .

(1) أي النجم الساطع أو النجم اللامع .

ويكفينا هنا بعض المعلومات الموجزة للإشارة إلى تربيته في البيت وخارجه ، والتي كانت منذ الصغر ، تربية علمية وعملية خالصة لا توجد إلا في بيوت عظماء الإسلام ، الذين خلفوا آثاراً خالدة للعلوم الاجتماعية والتربوية والدينية في التاريخ .

وقد حفظ الشيخ محمد يحيي القرآن الكريم على يد أبيه وهو ابن سبع سنين ، وبعد حفظ كتاب الله أمره أبوه أن يقرأ القرآن بأجزائه الثلاثين كاملة صباح كل يوم ، ثم يسمح له بالغداء والفراغ والراحة ، وفي هذا يقول الشيخ محمد يحيي : كنت أجلس كل يوم ، بعد صلاة الفجر ، على سطح بيت جدتي (أمي بي)[1] ، وما كنت أطعم شيئاً إلا بعد تلاوة القرآن كله ، وكنت أنتهي من هذه التلاوة قبل صلاة الظهر في معظم الأيام، ثم أتناول الغداء، وبعد الغداء كانت لي حرية تامة في أن ألعب أو أنام ، ولكنني كنت أقرأ الكتب الفارسية[2] وكتب اللغة العربية .

وقد تعلم الشيخ يحيي الكتب الابتدائية – في العلوم الدينية والأدب والمنطق – على يد أبية محمد إسماعيل ، ثم رحل إلى دار العلوم ديوبند وقرأ تسع مقامات من " المقامات الحريرية " ثم رجع بعد ذلك إلى مدينة كاندهله مسقط رأسه ، ودرس بقية الكتب المتوسطة على يد الشيخ " يد الله " ، وكذلك فقد نهل كثيراً من كتب الأدب والصرف والنحو بنفسه دون أستاذ ، ثم رحل إلى دهلى والتحق بمدرسة " حسين بخش "[3] لتكملة العلوم المتداولة في ذاك الحين[4].

وكانت عزيمته أن يتلقى علم الحديث ، في نهاية جولته العلمية ، على يد الإمام الجنجوهي ، ولكن أساتذة مدرسة " حسين بخش " أصروا على أن يشترك في

---

(1) وهي أمة الرحمن جدة الشيخ محمد يحيي ومحمد إلياس من الأم وذلك في مدينة كاندهله، انظر أمهات هذه الأسرة .

(2) يوسف ص70، أما الكتب الفارسية فقد كانت وسيلة في تعليم العلوم العربية وقد كانت توجد العلوم المتداولة المترجمة في تلك اللغة: حالات مشائخ كاندهله: نقلاً عن يوسفي ص70.

(3) اسم المدرسة الدينية .

(4) الولى الكامل 81 ، 82 وتذكره أمير تبليغ ص35 .

الامتحان النهائي، في الحديث الشريف وعلومه ، للتخرج في نفس المدرسة ، كي تكون نسبة تخرجه إليها ، ولكنه لم يرض بهذا ، وأصر أن يتلقى الحديث على يد الإمام ثم يشترك في الامتحان فقال أبوه : إنه لا حرج أن تشترك في الامتحان لنيل شهادة الحديث من هذه المدرسة ، فأجابه قائلاً : يا أبت إنني ما قرأت الحديث ، فكيف أستوعب كتب الحديث المقررة كلها ، ولم يبق سوى خمسة أشهر على الامتحان فقط ؟! ولكن أباه أخذ يشجعه ويحثه على المذاكرة ، وعن هذا يقول الشيخ محمد يحيي: " بعد ذلك اعتكفت في حجرة مسجد نظام الدين زهاء خمسة أشهر ، ولم يعرف أحد من الأسرة والأصحاب ذلك ، سوى من كان يأتي إلى بالأكل والماء للوضوء " .

هذا وقد وصلت برقية من مدينة كاندهله وكان فيها تاريخ نجاحي ، فردها أصحابي قائلين بأن المكتوب إليه لا يوجد هنا ، ولا يعرف أحد أين هو الآن ، وفى تلك الفترة القليلة قرأت البخاري وسيرة ابن هشام والطحاوي والهداية ، وفتح القدير ، باستيعاب كامل وحينئذ حدد المشرف العام على الامتحانات السنوية النهائية لنيل شهادة التخرج ، فكان أستاذ الأساتذة الشيخ خليل أحمد السهارنفوري الذي قال بعد ما قرأ أوراق إجابة الامتحان : " إن ما كتبه محمد يحيي إجابة لهذه الأسئلة لا يستطيع أن يكتبه أحد مدرسيه "[1].

رحلته إلى الجنجوه :

رحل الشيخ محمد يحيي إلى الجنجوه في عام 1311هـ ليقرأ الحديث الشريف على يد الإمام الجنجوهي، وذلك بعد ما درس جميع العلوم المتداولة ، ونال شهادة التخرج من مدرسة " حسين بخش "[2] .

(1) تذكرة الخليل 130 ولى كامل 82 ، 83 .

(2) ديني دعوت ص59 .

ولكن الإمام الجنجوهي ترك تدريس الحديث بسبب إصابته بمرض نزول الماء ، ولكن الشيخ محمد يحيي لم يترك الجنجوه ، واختار الإقامة بها مصمماً على الاستفادة من الإمام حتى أجبر الإمام على أن يبدأ درس الحديث مرة أخري ، وذلك بناء على طلب من قبل الشيخ أحمد السهارنفوري الذي أوصاه خيراً بالشيخ محمد يحيي[1] .

يقول العلامة عاشق إلهى " الميرتي " في تذكرة الخليل: إن هذا الدرس كان آخر درس في حياة إمام العارفين في " الصحاح الستة " حيث كانت نظرة الإمام مركزة على الشيخ محمد يحيي ، في حين اشترك فيه كثير من كبار علماء الهند ، لإتمام الفائدة والإجازة في علوم الحديث الشريف من الإمام .

ولكن الشيخ محمد يحيي كان المحور الرئيسي لكل جهود الإمام في شرحه للسنة الشريفة .

ولو غاب الشيخ محمد يحيي عن الدرس لأي سبب ما ، لأوقف الإمام الدرس قائلاً :" أين عصا الأعمى "[2] .

وقد اهتم الشيخ محمد يحيي خلال دراسته للحديث الشريف على يد الإمام ، بالالتزام بمحاضراته وشروحه وتعليقاته على الأحاديث النبوية في كل من الصحاح الستة ، فكان يرتبها وينسخها في أوقات فراغه من الدرس ، وقد صارت تلك المذكرات من نوادر الشروح لكتب الحديث، والتي استفاد بها أساتذة الحديث الشريف فيما بعد .

وقد طبع من تلك المذكرات شرح البخاري باسم " لامع الدراري " ، كما طبعت محاضرات الإمام لجامع الترمذي باسم " الكواكب الدرية " والتي رتبها الشيخ محمد يحيي ، وقد زاد عليها حاشية جيدة ابنه النبيل ، شيخ الحديث محمد

---

(1) حالات مشائخ كاندهله نقلاً عن يوسفي 71 .

(2) كان يريد بالعصا " الشيخ محمد يحيي " لكونه معه في معظم الأوقات، وذلك دليل على تواضعه وخدمته واتباعه للأستاذ كأنه أصبح شيئاً لا غني عنه للإمام.

زكريا ، وقد نالت تلك المحاضرات شهرة بالغة ، نظراً لما أجملته هذه الشروح والتعليقات المختصرة لكل ما يوجد من شروح مطولة للترمذي والبخاري[(1)] .

ويقول صاحب سوانح يوسفي: إن الشيخ محمد يحيي كان من تلامذة الإمام الجنجوهي، والذي كان يفتخر بتلميذه ، وقد عاش الشيخ محمد يحيي اثني عشرة عاماً في خدمة إمام العارفين ، حيث غادر الجنجوه بعد ما توفي الشيخ إلى رحمة الله، كما استفاد الشيخ يحيي من هذا المركز العظيم طوال تلك السنين ، طالباً ومدرساً .

ذكاؤه وحبه للعلم :

لقد رزق الله الشيخ محمد يحيي الهبات الجليلة والقلب الشغوف بحب العلم والمعرفة كما منحه الله عقلاً واعياً، وذاكرة قوية لا تنسي، ويذكر قوله الشيخ عبد الحي: كان والدى الشيخ محمد إسماعيل – رحمه الله – شديد المواظبة على الأوراد المسنونة، حيث كان يهتم بها اهتماماً كبيراً، فحينما كنا نتوضأ يقرأ والدي الأوراد المسنونة أثناء الوضوء وأنا أتدارس قواعد الصرف والنحو وأردد أشعاراً عربية من حفظي، فكان يوجهني بشدة للالتزام بالأوراد المسنونة في حينها .

ويقول الشيخ محمد يحي : " كنت أحب الأدب العربي للغاية منذ الصغر، ولذا قرأت كل كتب الأدب العربي المتداولة بنفسي بغير أستاذ ، اللهم إلا تسع مقالات من " المقامات الحريرية " حيث أمرني الأستاذ أن أقرأ كل تلك المقالات، وأنا سائر معه، وهو في طريقه إلى البيت، وذلك بعد فراغه من المدرسة، وكان الأستاذ يأمرني أن أنظر معاني بعض الألفاظ في القاموس، التي لم يحضر معناها في ذاكرته حينذاك ، ثم أكملت هذا الكتاب على يد الأستاذ " يد الله " في مدينة " كاندهله "[(2)] .

---

(1) الولى الكامل 81 ، 83 وتذكره الخليل نقلاً عن يوسفي 73 ، يوسفي 85 .

(1) راجع عن حياته تذكرة الخليل وتاريخ يوسفي 71 والولي الكامل ص82 مخلص.

ويقول الشيخ عبدالحي: إنني قرأت كتاب " حمد الله " على أستاذي في ثمانية عشر يوماً فقط ، وحفظت معظم كتب الأدب العربي المتداولة ، وكتاب " سلم العلوم " الذي قرأته مائتي مرة حفظاً من أوله إلى آخره .

ويقول المفتي البجنوري: من الممكن أن نقدم ذكاءه وذاكرته كمثال فذ من بين علماء دار العلوم ديوبند، حيث كانت ذاكرته قوية للغاية؛ ويتجلى ذلك حينما كان يقرأ الكتب القيمة ويشرحها للطلاب إلقاء من قريحته وذاكرته، حيث يكتبونها، وهذه الكتب التي أملاها على الطلاب عن حفظه لا تزال موجودة في المكتبة مثل " نفحة اليمن " و "ديوان الحماسة" للمتنبي وغيرهما من الكتب الدراسية في ذلك الحين[1] .

ويقول الشيخ محمد الثاني في كتابه : إن الشيخ محمد يحيي قد رزق ، في بادئ عمره، بمهارة فائقة في العلوم النقلية والعقلية، وأصبح شخصية مسلمة معروفة لدي علماء عصره، وكان العلماء ينظرون إليه نظرة إعجاب لما حباه الله من ذكاء وشغف بالعلم، كما كان العظماء والعلماء يفاخرون بمحادثتهم العلمية معه، وكذلك كانت مهارته في الأدبين العربي والفارسي تصل إلى درجة عالية ، حيث كان يتكلم بهما بطلاقة ، ويكتب النظم والنثر بدون تكلف ، في كلتا اللغتين[2].

ومع كل هذه الفضائل والحسنات والمكانة العلمية للشيخ محمد يحيي، فقد كان متواضعاً للغاية كأنه بحر هادئ ساكن سطحه ، أما عمقه فيهيج بالموجات الشديدة العالية كالبراكين النارية في عمق البحر[3].

التدريس ومنهجه فيه :

بدأ الشيخ محمد يحيى حياته كأستاذ في مدرسة الجنجوه عند شيخه في عام 1311هـ ، برغم أنه أكمل دراسة الحديث النبوى، وحصل على التربية الروحية

---

(1) تذكرة أمير التبليغ ص36 – 37 .
(2) يوسفي ص71 .
(3) يوسفي 74 و : ولي كامل 86 .

على يد الإمام في نفس الفترة، ولكن بعد وفاة الإمام توجه إليه أصحاب مدارس الهند يلتمسون منه أن يشرف على الهيئات التعليمية في مدارسهم وجامعاتهم، ولكنه نال نصيب الأسد على يد أستاذه الشيخ خليل أحمد السهارنفورى ، الذى كان معترفاً بذكائه وكفاءته العلمية وورعه منذ صغره ، في حين كان يأخذ بعض الدروس في الفترة من عام 1336 هـ إلى عام 1338 هـ ، كمساعد لشيخه خليل أحمد ، ولكنه عين أستاذاً للحديث في جمادي الأولى عام 1338 هـ في جامعة مظاهر العلوم في سهارنفور[1] ، وبذلك استمر الشيخ محمد يحيي في منصب شيخ الحديث الذي يعتبر أكبر منصب في الجامعات الدينية في شبه القارة الهندية الباكستانية .

ويقول الشيخ عاشق إلهي : لقد بلغ الشيخ محمد يحيي في العلوم الدينية مكانة عالية لم يبلغها بالجهود الخاصة إلا من شاء ربه أن يرفع مكانته حيث يشاء ، ويظهر ذلك حينما توفي الإمام الجنجوهي إلى رحمة الله تعالي ، وتولي منصب خلافته الشيخ خليل أحمد المحدث ، فقام الشيخ خليل أحمد بوضع عمامة الخلافة على رأس الشيخ محمد يحيي وهي التي أعطاه إياها إمام أولياء الهند رئيس المجاهدين الحاج إمداد الله المهاجر المكي وقال الشيخ خليل أحمد للشيخ محمد يحيي : إنك مستحق لهذه العمامة ، وبهذا أجازه لتدريس الحديث وتوجيه المسلمين إلى ذكر الله والدعوة إليه[2] .

ومن هنا أصبح الشيخ محمد يحيي وريث علوم الشاه ولى الله ، ووريث علوم الحديث للشاه عبد العزيز، ووريث علم الجهاد للسيد أحمد الشهيد بواسطة الشيخ خليل أحمد ، والشيخ الجنجوهي والإمام إمداد الله المهاجر المكي ، كما أنه اشتهر في الأدب وعلوم الحديث، ونال شهرة عظيمة في تدريس علوم الفقه ،

---

(1) تذكرة أمير تبليغ ص37 – 38 .

(2) تذكره الخليل ص131 .

حيث كان لا يترك أية مسألة إلا ويعقب عليها مع التطبيق الكامل للكتاب والسنة[1] .

وإلى جانب تلك الخصائص فقد كانت للشيخ محمد يحيي أساليب قيمة في فن التدريس، ولا سيما أنه كان مهتماً بعلوم الأدب والبلاغة اهتماماً بالغاً، حيث كان يقول: لا يمكن أن يفهم الطالب روح معاني القرآن والسنة الشريفة بغير أن يكون متبحراً في علوم النحو والصرف والأدب والبلاغة .

فعلي الطالب أن يبدأ في دراسة الحديث وعلوم القرآن بعد تمكنه من فهم اللغة العربية نفسها ، لأنها أصل الأصول في تحصيل العلوم النبوية الشريفة .

وكان الشيخ محمد يحيي لا يلتزم بالمنهج الدراسي المقرر في المدارس الدينية في شبه القارة ، حيث اعتقد أن المناهج المقررة في المدارس لا تصل بالطالب إلى درجة الكفاءة العلمية التي يجب أن يكون عليها في اجتيازه للمراحل العلمية ، ولذلك كان العلامة يمتحن الطالب ، ثم يقرر الكتب التي يجب أن يدرسها الطالب طبقاً لكفاءته العلمية ومهاراته في الفهم ، وكان جل عنايته هو ألا يرجع الطالب إلى حواشي الكتب وشروحها، بل كان يوجهه إلى استنباط المفهوم من نفس العبارة .

وكذلك كان يوجه الطلاب إلى عدم اللجوء للفهم من التراجم ، بل كان يحثهم على فهم الكتاب باللغة العربية نفسها[2] .

حبه للقرآن وعلومه :

لقد رسخ حب القرآن في قلب الشيخ محمد يحيي منذ الصغر ، حيث حفظت والدته القرآن في فتره رضاعته[3] .

(1) الولي الكامل : 28 .

(2) كان الحال في جميع المدارس أن يفهم المعاني بالترجمة الأردية أو الفارسية في تلك الفترة .

(3) ديني دعوت : ص55 .

كما حفظ القرآن وهو ابن سبع سنوات، فكان يقرأ القرآن بأكمله كل يوم ، حيث يبدأ تلاوته بسورة الفاتحة وينتهي إلى سورة " الناس " قبل صلاة الظهر . ولم يترك هذا الالتزام طوال حياته التي شغلته في أمور علمية أخري .

يقول العلامة عاشق إلهى الميرتي : إنه كان بكاء بالليل ، وبساماً بالنهار ، وكان دائم الوضوء ومشغولاً بتلاوة القرآن ، وذات يوم جاء إلى مدينة " ميرت " في شهر رمضان ليقرأ القرآن في النوافل[1] ، فوصل المدينة بعد صلاة العشاء ، ودخل المسجد مباشرة وهو متوضئ ، وقام على المصلي وقرأ عشرة أجزاء في ثلاث ساعات بدون أن ينسي أو يخطئ في المتشابهات ، وبهذا ختم القرآن في ثلاث ليال ، هذا وقد كان يتلو المصحف كله بالنهار وكانت سورة الناس على شفتيه – دائماً – قبيل صلاة المغرب[2] .

ويقول الشيخ احتشام الحسن في كتابه " حالات مشايخ كاندهله " إن الشيخ محمد يحيي كان يحضر كل شهر رمضان عند والدته وجدته لإسماعها القرآن في النوافل ، حيث كان يقرؤه كله في ثلاث ليال ، وفي عام وفاته ذهب الى والدته وقرأ القرآن في ليلة واحدة ثم رجع إلى " سهارنفور " وتوفي في شهر ذي القعدة من نفس العام .

وهذا يدل على حبه الصادق للقرآن وعلومه ، ويقال : إنه حينما تولى منصب التدريس في جامعة سهارنفور ، واستمر زهاء سبع سنين يدرس العلوم النبوية كان لا يأخذ أي أجر أو مكافأة مالية من قبل الجامعة نظير قيامه بالتدريس، حيث كان يغطي احتياجاته المادية ونفقات البيت من مكتبته التجارية التي كان يديرها

(1) كالعادة عند مسلمي شبه القارة يسمعون القرآن الكريم بأكمله في النوافل عدة مرات في شهر رمضان، أما القول: عن ختمه للقرآن قبل صلاة الظهر فكان في صغر سنه .

(2) يوسفي : 74 .

بنفسه لهذا الغرض[1]، وهذا وقد كان لا يأكل من طعام المدرسة ، بل كان يأتي بأكله من بيته .

يقول الشيخ محمد زكريا : في بعض الأحيان كان طعام الشيخ محمد يحي يبرد في الطريق خاصة في موسم الشتاء ، فكان يأمر أن يوضع هذا الطعام عند سخان حمام المدرسة ، ولذلك كان يدفع ثلاث أو أربع روبيات شهرياً إلى خزينة المدرسة نظير انتفاعه بسخان المدرسة .

منهجه في التربية :

يقول شيخ الحديث محمد زكريا: من أهم الأمور التي لا بد أن تكتب في حياة أي إنسان عي منهجه في التربية، وموضوع تربية الشيخ محمد يحيي هام للغاية .

وفي حقيقة الأمر فإن المراقبة الشديدة والدقيقة كانت من أهم أصول التربية عنده ، هذا وقد كان الشيخ محمد يحيي شديد الإنكار على دوام العلاقات بين الطلاب وغيرهم، حيث كان يعتقد أن الانسان مهما كان غبياً أو ضعيف الذاكرة ، ولكنه لا يرغب في إقامة العلاقات واستمرارها مع الناس ، لابد أن يصل يوماً إلى درجة عالية في الكفاءة العلمية .

أما إن كان ذكياً للغاية وذا فطنة وبراعة ، لكن لديه رغبة في إقامة الصلات مع الناس، فستضيع ملكاته الموهوبة، حيث إن إقامة العلاقات في بداية الفترة التعليمية بالذات أمر خطير جداً[2] ، ثم يقول : إنه كان شديداً في تربية الأولاد ، وكان يقول : لو أن الوالد أو الأستاذ ضرب أبنه للتأديب ومات ، فإنه يكون شهيداً ووالده مأجوراً (عند الله) وإنه لمن أشق الأمور أن تجتث جذور كبرياء أبناء الأساتذة وأولاد الشيوخ، كما أنه كان لا يسمح للطلاب بالإكثار من صلاة النوافل تاركين دروسهم أو مذاكرتهم[3] .

---

(1) يوسفي : 74 .

(2) ولى كامل ص11 – 13 .

(3) ولى كامل 14 – 16 .

ومن شدة حب الشيخ محمد يحيي وطلاب العلم كان يمنح الجوائز المادية كمكافآت معنوية للتلاميذ في بداية الكتاب ونهايته من جيبه الخاص ، ولكنه كان يرشدهم بأنه من حوسب عذب[1] ، كما أنه كان سخياً جداً على المساكين وغيرهم .

ويكفينا هنا دلالة على زهده وتقواه وسخائه في سبيل الله، معرفة أنه حينما توفي كانت عليه ثمانية آلاف روبيه قد اقترضها من أصدقائه[2] ، مع أن تجارته كانت واسعة النطاق واحتياجات منزله كانت محدودة للغاية[3].

علاقته بالشيخ محمد إلياس :

كان الشيخ محمد يحيي أخاً كبيراً للشيخ محمد إلياس ، فتولى تربيته في حياة أبيه وبعد وفاته ، حيث لم يفارقه أبداً ، واستمرت تلك التربية العلمية والعملية على تلك الأساليب المحكمة ، وحينما رجع الشيخ محمد إلياس من حج بيت الله الحرام في ربيع الثاني عام 1333 هـ ، وكان أخوه محمد يحيي قد توفي إلى رحمة الله، أحس الشيخ محمد إلياس بصدمة شديدة ، ونكبة مفزعة هائلة في حياته، لأنه حرم من التربية والإشراف، حيث افترق عن رفيق العمر والمعلم والمربي والأستاذ الذي فارقه ، ولكنه كان قد بلغ أوج المعرفة في العلوم النقلية والعقلية في هذه الفترة من العمر، وصار مثالاً ونبراساً يحتذي به في الورع والزهد والتقوي ، حين عين أستاذاً في جامعة مظاهر العلوم بمدينة سهارن فور ، وكان أخوه الشيخ محمد يحيي يرافقه ويشرف عليه حتى ذلك الحين .

ومن هنا نرى أن الشيخ محمد يحيي ترك لنا أروع نماذج التربية في الأخوة ، حيث يتسابق الناس في تربية أبنائهم ، ولكنه اهتم بتربية أخيه أكثر من عناية الإنسان بأولاده وذلك لأن الشيخ محمد إلياس قرأ معظم الكتب على يد أخيه،

---

(1) نفس المرجع .

(2) دفع هذا المبلغ ابنه بعد وفاته بعدة شهور .

(3) ولى كامل ص86 .

الذي كان يحثه على استيعاب الكتب التي درسها على يد غيره من الأساتذة مرة أخري ، وبعد ما تخرج محمد إلياس من مدارس العلوم الدينية ، بدأ أخوه يشرح له مرة أخري نفس الكتب التي قرأها من قبل ، وأكمل له دراسة الكتب المتبقية ، وكان الدرس يستمر طوال الليل والنهار إلا قليلاً من الراحة[1] .

هذا وقد كان الشيخ محمد يحيي يبذل لأخيه من ماله وحياته ، وكان بتحمل جميع مسئولياته المادية ، فكان الشيخ محمد إلياس يسكن ويأكل عند أخيه ، حتى أثناء فترة تدريسه في سهارن فور .

وحينما زادت مهام المكتبة التجارية على الشيخ محمد يحيي قال له ناظر المكتبة : لماذا لا يساعدنا الشيخ محمد إلياس في أمور المكتبة ؟ وماذا لو كلفته ببعض أمور المكتبة لكي تخفف عنكم بعض الأعباء من بين هذه الأعمال الكثيرة في مثل هذه الفترة من العمر ؟ فضاق الشيخ محمد يحيي بهذا الكلام وأجابه قائلاً : لقد جاء في الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم : " هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم "[2] ، ثم قال : إنني أعتقد أن الله يرزقني ببركة أخي : محمد إلياس[3] .

وفاة الشيخ محمد يحي :

بعد حياة مليئة بخدمة الدين الحق والخلق والمجاهدات النفسية ، توفي الشيخ محمد يحيي إلى رحمة الله في صباح الثامن من ذي القعدة سنة 1334 هـ بسبب مرض الكوليرا ودفن في مدينة سهارن فور ، بين مقابر العلماء والأكابر ، وبجوار قبر الشيخ محمد مظهر مؤسس مدرسة مظاهر العلوم ، وقد خلفه نجله الوحيد محمد زكريا ، الذي اشتهر في مجال التدريس والتأليف وخاصة في علوم الحديث

(1) راجع رحلته إلى الجنجوه وسهارنفور .

(2) صحيح البخاري مرسلاً ، والصحيح للحافظ أبي بكر البرقاني متصلاً .

(3) رواية الشيخ محمد زكريا : ديني دعوت للندوي : ص67 .

الشريف كشهرة الشاه عبد العزيز بن ولى الله الدهلوي في عصره ، حتى أطلق عليه علماء شبه القارة لقب " شيخ الحديث " بدلاً عن اسمه محمد زكريا[1] .

شيخ الهند محمود الحسن :

ولد الشيخ محمود الحسن ابن الشيخ ذو الفقار على في سنة 1850م في مدينة "بريلي" وتلقي العلوم النبوية على يد المجاهدين العظيمين حجة الإسلام الشيخ محمد قاسم النانوتوي ، وشمس العارفين الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي، وكان هو أول طالب في تاريخ دار العلوم ، بدأ حياته العلمية مع بداية تاريخ دار العلوم ديوبند[2] .

وقد اشتهر الشيخ محمود الحسن بذكائه وورعه منذ صغر سنة، كما اشتهر بنبوغه في شتي العلوم المتداولة، وخاصة في علوم التفسير والحديث الشريف ، كما كان يعتبر حجة في علوم الفقه .

واعترف العلماء بتفوقه على أهل زمانه في علم الكلام والمنطق والفلسفة ، كما تبحر في علوم الأدب والبلاغة ، وفي اللغات العربية والفارسية والأردية ، وكان مرجعاً في علوم الرياضة والهيئة (أي المساحة) وفي التاريخ الإسلامي وتواريخ السلاطين ، وفي علوم الاقتصاد والاجتماع ، ونال حظاً وافراً من العلوم الأخرى مثل الطب الإسلامي واليوناني ، وكان من أوسع الناس علماً في المعلومات العامة والنظم السياسية والثقافية العالمية ، وقد بدأ شيخ الهند حياته بعد تخرجه من العلوم والفنون المقررة في دار العلوم ديوبند حين عين أستاذاً في نفس المدرسة ، واستمر في التدريس حتى أصبح شيخاً للحديث ورئيساً لهيئة التدريس ومشرفاً عاماً لدار العلوم ديوبند[3] .

(4) يوسفي 74 وتذكرة أمير التبليغ 37 – 38 .

(1) بدأ أول درس في تاريخ دار العلوم على يد الشيخ ملا محمود ، وكان التلميذ الأول محمود الحسن في 15 من المحرم عام 1283 هـ مايو 1866 م . تاريخ دار العلوم ص44 إلى 70 .

(2) حركة شيخ الهند الجزء الأول : ص334 وما بعدها . حركة شيخ الهند / غلام رسول مهر .

واستمر شيخ الهند في هذا المنصب زهاء أربعين عاماً ، يخدم العلوم النبوية حتى تخرج على يديه جهابذة العلم والعرفان الذين جرت على أيديهم أنهار العلم ، أمثال السيد أنور شاه الكشميري والسيد حسين أحمد المدني وغيرهما من علماء الإسلام وقادة الفكر في ذاك الحين .

وقد اشتهرت شخصيات عملاقة انتشرت في أنحاء شبه القارة وأفغانستان وباغستان وتركستان وغيرها من البلاد المجاورة ، وكان الشيخ محمود الحسن يأمرهم بفتح المدارس ونشر الدعوة ، وبدء الحركات الدينية ومجابهة الاستعمار ، وكل من يهاجم الدين الحنيف فاشتهر تلامذته في ميدان العلم والتدريس والتأليف والسياسة والجهاد والدعوة والتبليغ .

وكانت المرحلة الأولى من خطة شيخ الهند هي فتح المدارس، في حين كانت الخطوة الثانية من تلك الخطة هي إنشاء مراكز خاصة لتدريب المجاهدين وتثقيفهم وتسليحهم بسلاح الإيمان والتضحية في سبيل الله ، وأول ما أمر به الشيخ في هذا المجال هو تأسيس جمعية الأنصار في عام 1906م ، وقام بهذا العمل نائبه الشيخ عبيد الله السندهي السيالكوتي، واجتمع في هذه الجمعية قدامي خريجي دار العلوم ديوبند ، كما ساعده في إنشائها أبو الكلام آزاد ، وكان من أهدافها الأساسية تدريس خطة الهجوم على الإنجليز بشكل نهائي[1] ، وفي عام 1913م أسس شيخ الهند " نظارة المعارف القرآنية " لتربية المجاهدين[2] في مدينة دهلى ، كما أنشأ أبو الكلام آزاد " جمعية حزب الله " في عام 1913م في مدينة كلكته ، وفي عام 1915 أنشأ " دار الإشاعة " كمساعدة لتلك الحركة[3]

(1) تحريك شيخ الهند لـ محمد ميان 334 .

(2) تقريرات المكتب السري للمخابرات البريطانية عام 1916 و 1918 .

(3) تحريك شيخ الهند .

وكان من أهم أمور تلك الجمعية هو التقريب بين طلاب العلوم القدامى والجدد، أي الطلاب المسلمين الدارسين في الجامعات الأجنبية الحديثة، والمدارس الدينية القديمة[1] .

ولذلك كان الشيخ منذ بداية حياته مهتماً بهذا الأمر ، حيث رأي أن غالبية المسلمين يلتحقون بالمدارس الأجنبية أكثر بكثير من المدارس الدينية ، وبهذا الوضع ستزداد الفجوة بينهم ، ولو استمر هذا التباعد سيكون ضربة قاصمة لوحدة الأمة الإسلامية .

وفعلاً تجلت هذه الظاهرة حينما قام طلاب جامعة على كرة بتغيير مفهوم الجهاد في الإسلام ، وكان هذا المفهوم المتغير نافعاً للاستعمار ، وضاراً بحرية الوطن ، فقام الشيخ بعقد جلسات خاصة مع مسئولي جامعة على كرة ، بما فيهم السيد آفتاب أحمد خان بن سير سيد أحمد خان ، ونجح في عقد اتفاق ينص على أن طلاب العلوم الإنجليزية الذين يرغبون في حمل لواء الدعوة والتبليغ تتولى جامعة دار العلوم ديوبند – بعناية خاصة – تعليمهم العلوم الدينية ، كما تتولي جامعة على كرة تعليم خريجي دار العلوم ديوبند اللغة الإنجليزية والعلوم العصرية الحديثة .

هذا وقد قام بعقد اتفاقيات مع الدول المجاورة لا سداء المساعدات الكاملة للمجاهدين وطلب من الدول العثمانية معونة السلاح المادي والفكري، وإصدار الفرمانات العثمانية لإقناع الدول المجاورة بمساعدة مسلمي الهند، ولطمأنتهم من قبل السلطة العثمانية لحثهم على الثورة ضد الإنجليز وتحرير بلادهم .

يقول شيخ الإسلام حسين أحمد المدني : بأن العلماء قد تيقنوا بأن الاستعمار لن يتخلى عن الهند بالوسائل السلمية ، ولذلك فقد قرر شيخ الهند إنشاء مراكز

(1) موج كوثر : ص203 .

حربية قوية في ياغستان[1] وغيرها من المناطق الشمالية الحرة ؛ وذلك فضلاً عن الاستعدادات السياسية الأخرى ، وقد انتشر تلاميذ شيخ الهند في القبائل الحرة ، ونجحوا في بناء مراكز قوية ضد جيوش الاستعمار[2] .

ولذا أرسل شيخ الهند نائبه[3] إلى أفغانستان لإقناع العاهل الأفغاني أمير حبيب الله بمنح المساعدات الحربية للمجاهدين .

كما قام الشيخ عبيد الله السندي بتأسيس حزب خاص لهذا الغرض في أفغانستان ، وأطلق عليه اسم " جنود الله " .

ثم قام بتأسيس الحكومة المؤقتة للهند ، بمشاركة الزعيم الهندوسي الذي يدعي "مهندر برتاب " وغيره من رجال السياسة الذين بذلوا كل جهودهم ضد الاستعمار، فيعنوا أعضاءهم ، وشكلوا لجانها ، واختاروا مراكزها ، كماعين قواداً للجيش ، وحددت المراكز الحربية[4] وغيرها مما يهم البلاد .

ثم رحل شيخ الهند بنفسه إلى الحجاز المقدس في عام 1333 هـ (1915م) مصطحباً معه أقرب تلاميذه إليه بغرض توضيح الوضع الراهن أمام أركان الدول العثمانية عن طريق حكام الحجاز المقدس ، وحتى يقنعهم بمساعدة مسلمي الهند لتحرير البلاد ، فقابل شيخ الهند غالب باشا حاكم مكة المكرمة ، وأخذ منه ثلاث رسائل مكتوبة بخط يده ومدموغة بخاتم الدولة العثمانية ؛ منها رسالة إلى أهل الهند ، ورسالة إلى حاكم المدينة المنورة " بصري باشا " ، أما الرسالة الثالثة فكانت إلى أنور باشا وزير الحربية بالدولة العثمانية ، وطلب فيها كل المساعدات التي تحتاج إليها الحركة لتحرير الوطن من الاستعمار كما ناشد غالب باشا مسلمي الهند مناصرة هذه الحركة كما طلب شيخ الهند من العاهل الأفغاني – أمير حبيب الله

(1) هي المناطق الشمالية الشرقية ل حالياً لجمهورية باكستان الإسلامية .

(2) حركة شيخ الهند ص117 .

(1) هو الشيخ العلامة عبيد الله السندي السيال كوتي وذلك في عام 1333 هـ 1915 م .

(2) راجع حركة شيخ الهند لمحمد ميان ص93 – 103 وما بعدها .

خان – مساعدة المجاهدين حيث وعده ، بأن الدولة العثمانية ستساعده إن ساعد هو (عاهل أفغانستان) المجاهدين[1] وعند مغادرته الحجاز عازماً على العودة إلى مركزه بأفغانستان ، قبضت جنود شريف مكة على شيخ الهند وزملائه[2] وأسلموهم ليد الإنجليز الذين حملوهم إلى جزر مالطة عن طريق مصر، واعتقلوهم لمدة غير معلومة ، ثم أفرج عنهم بعد ثلاث سنوات وسبعة أشهر في العشرين من رمضان عام 1338 هـ الموافق 8 يونية عام 1920م ، وذلك بعد ما أرسلتهم الجيوش الإنجليزية إلى الهند تحت حراسة مشددة[3] .

وبعد اعتقال شيخ الهند في مالطة ، عاد مرة أخري ليشترك مع زملائه وتلاميذه في " جمعية علماء الهند " التي أنشأها تلاميذه وزملاؤه في عام 1919م لدفع نشاط حركة "تحرير الهند" أثناء فترة اعتقاله في مالطة ، وإن كان قد تغير الأسلوب في سياسة البلاد لنيل الحرية من الاستعمار العسكري والفكري[4] ، ثم اشترك شيخ الهند في حركة الخلافة ، وأصدر الفتوي المعروفة بمنع الموالاة للإنجليز، والتي هزت أسس الحكم الإنجليزي ، حيث أشعرهم بأن الجماعة التي لاقت كل أنواع العذاب طوال سنوات في المعتقلات لم تتخيل عن سياستها ، بل هي مصممة على رفع علم الحرية حتى الموت[5] .

وبعد رفض مسئولي جامعة على كرة ترك الموالاة للإنجليز، قام شيخ الهند بوضع حجر الأساس للجامعة " الملية الإسلامية " ، لكي يفهم أهل البلاد أن تحصيل العلوم المعاصرة ، وإنشاء الجامعات الحديثة أمر يسير للمسلمين بدون المساعدات المادية والفكرية من قبل الاستعمار .

---

(3) أبو الكلام أزاد جـ1 ص14 – تحريك شيخ الهند ص113 .

(4) بعد هزيمة الأتراك تولى الشريف حسين حكم مكة ، وتحالف مع الإنجليز في المجال السياسي.

(3) تحريك شيخ الهند ص14 .

(4) تاريخ دار العلوم يوبند : 171 .

(5) روشن مستقبل جـ 9 ص460 ط مطبعة نظامية بديوان ، نقلاً عن تاريخ دار العلوم ديوبند 171 .

ومن الواضح أن اشتراك شيخ الهند مع (جمعية علماء الهند) وحركة الخلافة لحماية مسلمي العالم ، وتحرير الوطن، يدل على أن (حركة تحرير الهند) قد انتهت بعد قيام الثورة وحمل السلاح، وبذلك فقد تغير أسلوب العمل في داخل شبه القارة .

ومن هنا يبدو لنا حركة الخلافة وجمعية علماء الهند وغيرها من الحركات كانت صوراً متجددة ومتطورة لحركة شيخ الهند رحمه الله ، التي نجحت في تحرير الهند ، ومناصرة الأحزاب الأخرى بعد التضحيات الملموسة فائقة على جهود زعماء الهندوس[1] .

وهكذا يعتبر شيخ الهند محمود الحسن قائداً لحركة تحرير الهند ، ووريثاً للحركات التي قام بها علماء المسلمين منذ دخول الاستعمار في شبه القارة ، كما أنه كان وريثاً للعلوم والتربية والسلوك والفلسفة لمجدد الألف الثاني والشاه ولى الله ، والشاه عبد العزيز والسيد أحمد الشهيد ، وكان هو آخر شخصية عملاقة اتفق العلماء والزعماء على قيادتها وعلمها وزهدها وورعها ، حيث إن كل من قام بعده بأي من حركات الجهاد أو الدعوة أو غيرها في المجالات الدينية وتحرير الوطن ، حتى إنشاء دولة باكستان الإسلامية ، من العلماء كان ينتسب إلى شيخ الهند تتلمذاً وتربية وإرشاداً .

علاقة شيخ الهند بالشيخ محمد إلياس ومدي تأثيره فيه :

لم تكن العلاقات بين شيخ الهند ، والشيخ محمد إلياس علاقات جديدة ، بل كانت روابط قديمة بين علماء دار العلوم ، وعلما جهنجهانة وكاندهلة ، وذلك منذ بداية النشاطات العلمية والحركات النضالية ، كما كانت الصلات وطيدة بين أساتذة شيخ الهند ووالده الشيخ محمد إلياس وأسرته منذ فترة غير قصيرة .

(1) تاريخ دار العلوم بتصرف ص336 .

ولا شك أن تلك الصلات الروحية والعلمية قد ازدادت إلى قدر ملحوظ في تلك الفترة وذلك حينما رحل الشيخ محمد إلياس إلى دار العلوم ديوبند لإكمال علوم الحديث على يد شيخ الهند في عام 1326 هـ الموافق 1908م وقرأ عليه جامع الترمذي وصحيح البخاري[1]

وبعد ذلك اشترك الشيخ محمد إلياس مع المجاهدين لتحرير الوطن ، وانضم لجيش شيخ الهند ، وأصبح عضواً في جمعية الأنصار ، وذلك حينما قام الشيخ محمد إلياس بالمبايعة للجهاد على يد شيخ الهند ، وأصبح من أقرب الذين كان يعتمد عليهم[2] ، وذلك بعد وفاة شيخه السيد رشيد أحمد الجنجوهي ، وقد نال الشيخ محمد إلياس مكانة مرموقة لدي شيخ الهند ، بسبب فكرة الثاقب الفريد ، ومكانته الدينية، وبسالته في نصرة الحق ، وتواضعه وورعه ، وحبه العميق للصحابة رضوان الله عليهم ، كل هذه الصفات الحميدة حدت بالشيخ محمد إلياس إلى أن أصبح أقرب المقربين لشيخ الهند ، وحينما عزم شيخ الهند على رحلته التاريخية إلى الحجاز المقدس في عام 1333 هـ (1915م) أخذ الشيخ محمد إلياس يقول: إنني أنظر إلى الهند وأجدها مظلمة بعد الشيخ محمود الحسن والشيخ خليل أحمد ، وأصبح من الصعب على القيام في الهند بدونهما ، وبدأ الشيخ يرتجف كالسمك خارج الماء .

ونظراً لظروفه النفسية هذه أخذه الشيخان معهما إلى الحجاز في مهمة تاريخية تتعلق بتغيير مجرى حياة أهل الهند ، ومصير المسلمين فيها .

ومن فرط حب شيخه (الشيخ محمود الحسن شيخ الهند) له ، فإنه كان يردد دائماً : " حينما أري الشيخ محمد إلياس يحضرني على الفور سير صحابة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وذلك لكونه متحمساً للأمور الدينية ، ولما كان

---

(1) رواية زميله في الدراسة / وهو الشيخ محمد إبراهيم بلياوي نقلاً : عن ديني دعوت للندوي : ص64 وتاريخي جائزة ص89

(2) دي فيهت مومنت آف : محمد إلياس ص80 – 81 بتصرف .

يدور في قلبه لنشر الدعوة الإسلامية مثل الصحابة ، ومن شدة حبه لهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين " .

وكان يظهر هذا بشكل خاص في معظم أوقات الشيخ محمد إلياس ، بحيث كان يأمر تلاميذه دائماً بأن يقرؤا أمام عن حياة الصحابة ، وهو يستمع إليهم مستغرقاً والهاً في سيرتهم ، حيث كان جل اهتمامه أن يلتزم بقدوة الصحابة ، ولذا فقد أمر ابنه الوحيد بتدوين موسوعة قيمة عن حياة الصحابة وما عانوه من المصاعب والشدائد في سبيل نشر الدعوة إلى الله تعالى[1] .

وبعد ذلك أصبح الشيخ محمد إلياس وريث شيخ الهند في مجال نشر الدعوة وعلوم الحديث، نظراً لما قام به من مجهودات لإحياء الدعوة في أنحاء الهند، واستمراراً لجهود شيخ الهند، ومن أهمها التقارب والوحدة بين الطلاب الدراسين في المدارس الأجنبية وطلاب المدارس الدينية الذين يحصلون العلوم على النظام القديم، هذا ولم يكتف الشيخ بجهوده الذاتية، بل وجه أولاده وتلامذته إلى نفس المنهج في التدريس والتأليف ومناهج الإصلاح ونشر الدعوة[2] .

ومن الواضح أن اقتراب الشيخ محمد إلياس من شيخ الهند وصلة التتلمذ والمبايعة للجهاد على يديه ، ومرافقته له في المهام السياسية والحربية ، فضلاً عن التربية الروحية وكذلك الخطة المدروسة من شيخ الهند لإصلاح المجتمع الإسلامي في شبه القارة ، وكراهيته للإفرنج وتقاليدهم ، كل هذه النواحي التربوية والفكرية كان لها تأثير بالغ على الشيخ محمد إلياس، وتغيير مجرى حياته ، وأسلوب سياسته طبقاً للظروف التي أحاطت بالهند ومسلميها

---

(1) تذكرة أمير تبليغ 7/56 – 57 وندوى ديني دعوت 59 – 58 .

(2) راجع موج كوثر 303 ، وسوانح يوسفي .... الخ .

وفي النهاية نختم سلسلة شيوخه بمرشده الأخير الذي توجه إليه الشيخ محمد إلياس بأمر " شيخ الهند " وهو قدوة العارفين أستاذ المحدثين الشيخ خليل أحمد السهارنفوري رحمه الله .

الشيخ خليل أحمد السهارنفوري :

ولد الشيخ خليل أحمد في مدينة أنبيتهة[1] بمديرية سهارنفور عام 1369هـ الموافق 1853م في أسرة كريمة تدعي باسم الأسرة الأيوبية (نسبة إلى أبي أيوب الأنصاري) والشيخ خليل احمد من سبط سيد أساتذة الهند العلامة مملوك على[2] ، ويتصل نسبه العالي مع نسب الإمام رشيد أحمد الجنجوهي إلى الجد العاشر[3] ، كما تصل سلسلة نسبه إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك بنسبته لشيخ المشايخ الشاه أبو المعالى الذي كان مرجعاً للقوم في أنبيتهه[4] ويتصل إسناده في العلوم الشرعية والتربوية بالشيخ رشيد أحمد الجنجوهي والإمام الحاج إمداد الله مهاجر المكي والسيد مملوك على والشاه عبد الغني حتى تصل إلى الشاه ولى الله الدهلوي ، والشيخ أحمد مجدد الألف الثاني ، والشيخ عبدالقدوس الجنجوهي رحمهم الله[5] ، وقد بدأ الشيخ خليل أحمد حياته التعليمية على يد جده

---

(1) تقع مدينة " انبيته " في جنوب مديرية " سهارنفور " على بعد ستة عشر ميلاً ، وقد بناها " سعد الله خان " قائد جيوش فيروز شاه تغلق ملك الهند في عام 774 هـ وأسماها " فيروز آباد " كما اختارها مركزاً للجيوش، ولكن من الوقت اشتهرت هذه المدينة فيما بعد باسم " أنبيتهه " لأسباب مختلفة ، كما اشتهرت بأوليا الله وأصحاب العلم حيث أقامت فيها الأسر العربية وشيوخها من القدم مثل شيوخ الأسرة الصديقية والفاروقية والأيوبية وغيرها من الجاليات العربية والتركية والأفغانية. انظر تذكرة الخليل صـ4 وما بعدها .

(2) وهو أستاذ الشيخ محمد قاسم النانوتوي ورشيد أحمد الجنجوهي وسيرسيد أحمد خان وغيرهم من كبار علماء وقادة شبه القارة .

(3) اسمه القاضي بابن شاه .

(4) ولى كامل 96 .

(5) نفس المرجع .

(من الأم) الشيخ مملوك على[1] وقرأ القرآن والكتب الأردية والفارسية في مدينتي " أنبيتهه " و "نانوته"

ثم بدأ يقرأ كتب العربية على يد عمه الفاضل الشيخ أنصار على الذي كان صدر الصدور[2] في ولاية جواليار، وكان ذلك في نفس الفترة التي قام فيها أهل شبه القارة رجالاً ونساءً بآخر معركة ضد الإنجليز في عام 1857م [3].

ثم رجع إلى مدينته والتحق بمدرسة إنجليزية حكومية ، وحينما فتحت مدرسة دار العلوم ديوبند ، قصد إليها الشيخ لتحصيل العلوم الدينية في عام 1285هـ، ثم رحل إلى مدينة سهارنفور عند خلاله العلامة الشيخ محمد مظهر النانوتوي[4] ، وتلقي على يده العلوم النقلية والعقلية حتى وصل إلى الصحاح الستة في الحديث الشريف ، في عام 1288هـ وهو ابن تسعة عشر عاماً[5] .

ثم رحل إلى دار العلوم ديوبند مرة أخري في عام 1289 لتحصيل دروس الحديث النبوي علي يد قمة أهل العلم في عصره، فكان طالباً ومدرساً في نفس الوقت، وبعد تحصيله العلوم النقلية والعقلية، وتخرجه في علوم الحديث، حفظ القرآن الكريم في عام واحد ، ومن ثم نال شهادة الحديث الشريف من الحجاز

(1) تعتبر شخصية الأستاذ مملوك على مصدراً هاماً في المجال العلمي في مرحلة النهضة الجديدة بعد الثورة حيث بدأت كل الحركات الدينية والعلمية والنضالية على يد تلامذته ، علماً بأن حجة الإسلام محمد قاسم النانوتوي وإمام العارفين رشيد أحمد الجنجوهي وصاحب النهضة الجديدة في العلوم العصرية سير سيد أحمد خان وأمثالهم ، كل هؤلاء كانوا من تلامذة الأستاذ مملوك على الذي تلقي العلوم كلها من أسره الشاه ولى الله مباشرة، وهو الذي قال فيه سير سيد أحمد خان: لو = = فرض أن العلوم الدينية كلها قد نفدت من العالم، فمن الممكن أن ننقلها على القرطاس من ذاكرة الشيخ مملوك على رحمه الله .

(2) قاضي البلاد .

(3) تذكرة الخليل ص11 .

(4) هو مؤسس جامعة مظاهر العلوم بسهانفور .

(5) هكذا تكون سلسلة أسناده في الحديث الشريف كالآتي: حليل أحمد، عن الشيخ محمد مظهر، عن مملوك على، عن رشيد الدين، عن شاه عبدالعزيز، عن شاه ولى الله، ومن ناحية أخري: الشيخ محمد مظهر، عن الشاه إسحاق، عن الشاه عبدالعزيز، عن الشاه ولى الله الدهلوي.

المقدس على يد الشيخ أحمد زيني دحلان قاضي القضاة بمكة المكرمة، وذلك حينما رحل إلى الحجاز المقدس في عام 1293هـ[1] .

نشاطــــه العلمــي :

رحل الشيخ خليل أحمد إلى مدينة سهارنفور حيث عين مدرساً في مظاهر العلوم ، ثم انتقل إلى مدينة لاهور عند الشيخ فيض الحسن رئيس قسم الأدب العربي (في كلية اللغة العربية) في جامعة البنجاب ، ثم شغل منصباً هاماً وهو الإشراف على ترجمة قواميس اللغة العربية إلى اللغة الأردية، في مدينة (منصوري) وبعد فراغه من هذه المهمة العلمية عين مدرساً في مدرسة بنكلور ، ثم عين مدرساً في المدرسة التي أنشأتها أميرة ولاية (بهوبال) ثم عزم على الحج إلى بيت الله ، وبعد عودته من الحجاز في عام 1293 هـ دعاه علماء (بهاوالفور) للتدريس في جامعة العباسية الأميرية[2] ، ثم رحل إلى حج بيت الله الحرام مرة أخري في عام 1297 هـ ، وبعد عودته من الحج لاقته ظروف عاتية من قبل أهل الشيعة في ولاية (بهاوالفور)[3] ، ولكنه لم يقف مكتوف الأيدي ، بل ثار ضد هذه الفتنة وواجهها بالكلمة والكتابة ، حيث ألف كتاباً قيماً في الرد على الروافض أسماه " هدايات الرشيد "[4] .

وحينما دعي للمناظرة من قبل علماء الشيعة في مركز الولاية ، ذهب الشيخ مع زملائه وتولى بكل عزم ، دحض الأباطيل بالأدلة والبراهين القوية ، حتى ولى العدو مدبرا من ميدان المناظرة .

---

(1) ولى كامل ص98 .
(2) تذكرة الخليل ص66 .
(3) الواقعة في باكستان الإسلامية حالياً .
(4) ولى كامل 104 .

ومن هنا اشتهر الشيخ بلقب رئيس المناظرين[1] ، ثم عين الشيخ رئيساً لهيئة التدريس في مدرسة مصباح العلوم بمدينة " بريلى " وشغل هذا المنصب حتى عام 1308 ثم عين بعده مباشرة أستاذاً في دار العلوم ديوبند في نفس السنة ، ثم عين شيخاً للحديث ورئيساً لهيئة التدريس ، ثم مديراً في عام 1314 هـ ، ومن ثم اختير رئيساً لجامعة مظاهر العلوم في سهارنفور 1325 ، فهرع إليه جموع الطلاب للأخذ عنه ، وظل في هذا المنصب العظيم حتى عام 1344 هـ ، ثم رحل إلى المدينة المنورة مهاجراً وأقام بها. وبعد حياة علمية وعملية حافلة توفى إلى رحمة الله في الخامس عشر من ربيع الثاني عام 1346 ودفن في المدينة المنورة بجوار سيدنا عثمان ذي النورين رضى الله عنه[2] .

وكان من شيوخه العظام الإمام الجنجوهي ، والإمام إمداد الله المهاجر المكي ، ومن خلال هذه الحياة العلمية الزاخرة ، لا شك أن شيخنا هذا قد ترك ثروة من المؤلفات ، حيث إنه من الواضح أن الأعمال التعليمية والإدارية والتربوية استغرقت معظم أوقاته ، وبذلك لم يستطع أن يجرد نفسه للتأليف والتصنيف ، وعلى الرغم من ذلك فإنه قد خلف ثورة علمية ثمينة تدل على مكانته العلمية بما فيها الكتب والأبحاث والمقالات القيمة ، ومن أشهر مؤلفاته " شرح أبي داود "[3] في خمسة أجزاء وسماه " بذل المجهود في شرح أبي داود " حيث بدأه في عام 1335 هـ في مديرية سهارنفور ، وأتم هذا الجهد المشكور في المدينة المنورة عام 1345 هـ[4] .

علاقته بالشيخ محمد إلياس :

من الواضح أن الشيخ خليل أحمد استمر في تدريس العلوم الدينية النبوية والتربية الروحية ، والإشراف على الهيئات العلمية ، ونال فيها مكانة رفيعة بين

---

(1) نفس المرجع .

(2) تاريخ دار العلوم ديوبند ص187 .

(3) لأبي داود بن أشعث السجستاني المتوفي عام 375 هـ .

(4) ولى كامل ص 104 .

معاصريه ، وبذا تخرج على يديه آلاف من كبار علماء شبه القارة ، الذين جردوا أنفسهم للتعليم والتأليف والدعوة إلى الله ، ومن أشهرهم في ميدان التدريس العلامة محمد يحيي بن محمد إسماعيل وفي مجال الدعوة الشيخ محمد إلياس بن محمد إسماعيل ، ومجال مجال التدريس والتأليف شيخ الحديث محمد زكريا بن محمد يحيي بن محمد إسماعيل رحمهم الله جميعاً .

وكذلك فقد تلقي الشيخ محمد إلياس التصوف والتربية الروحية على يد الشيخ خليل أحمد السهارنفوري ، كما بويع على يده بأمر شيخ الهند محمود الحسن ، وذلك بعد وفاة إمام العارفين الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي[1] عام 1323 هـ ، 1905م .

ومن ثم أصبح الشيخ خليل أحمد مشرفاً علمياً وروحياً للشيخ محمد إلياس ، حيث لم يفارقه لحظة ، ولم يتحرك الشيخ محمد إلياس إلا بأمر مرشده ومشورته، حتى إنه كان يشرف على أموره المنزلية ، مثلما شارك في حفل زواجه في السادس من ذي القعدة عام 1330 هـ الموافق 17 أكتوبر عام 1913 م ، كما أنه لم يباشر أي عمل خاص بشئون أسرته إلا وكان يستشير مرشده وشيخه . وحينما عزم الشيخ خليل أحمد على الحج إلى بيت الله الحرام لم يقبل الشيخ محمد إلياس البقاء في الهند بدون شيخه ، ولذا فقد صاحب شيخه للحج إلى بيت الله الحرام عام 1333 هـ ، كما رحل معه للحج مرة أخري في عام 1344 هـ .

وفي تلك المرة طرأت حالة من الاستغراق علي الشيخ محمد إلياس أثناء إقامته بالمدينة المنورة ، وبدأ يرفض العودة إلى الهند ، فلما عرف بذلك الشيخ خليل أحمد قال : اتركوه على حاله ولا تجبروه ، فإنها حالة الاستغراق ومقام الفناء في حبه صلى الله عليه وسلم .

(1) ديني دعوت ندوى 65 .

وعن هذا يقول الشيخ محمد إلياس نفسه : " لقد أمرت بالدعوة أثناء تلك الفترة في المدينة المنورة "[1] .

الشيخ محمد إلياس واشتغاله بالتدريس :

من المعروف أن تدريس العلوم يحتاج إلى كفاءة عالية وخبرة واسعة ، وصبر وجلد وموهبة من الله سبحانه وتعالى ، لأن كثيراً من العلماء يحفظون العلوم ولا يجيدون أداءها وتوضيحها للغير ؛ إذ ليس كل عالم يصلح أن يكون مدرساً ، ولكن الشيخ محمد إلياس كان صاحب شخصية متميزة في الكثير من الأمور وخاصة في مجال التدريس وممارسة النشاط العلمي المحض ، فاتجه إليه اعتقاداً منه بأن العلم لا يثمر ولا ينتج إلا بالتفرغ له والانصراف إليه ، وأن العالم لا يجني ثمرات العلم إلا إذا وهب نفسه كلية للعلم ، لأن العلم يحتاج إلى تأمل وعمق في النظر والاستقراء للعلوم واستيعابها ، وكل ذلك لا يتأتى مع اشتغال النفس بغيره[2] .

وقد اشتهر الشيخ محمد إلياس في بداية حياته العلمية بالتدريس ونال مكانة مرموقة لدي علماء عصره في فن التدريس ، حيث كان معروفاً لدي العلماء بقدرته على التدريس في جميع علوم الصرف والنحو الأدب والبلاغة ، والمنطق والفقه ، والتفسير وعلوم الحديث وأصوله وغيرها من العلوم الشرعية المتداولة في ذلك الحين.

كما تولى عدة مناصب في التدريس ، وتخرج على يديه كثير من العلماء الأجلاء الذين عرفوا في شتي المجالات العلمية في التدريس والتأليف والدعوة والإرشاد ، فكان من الطبيعي أن يتبوأ مكانة مرموقة في المجال العلمي .

---

(1) ديني دعوت : ص97 .

(2) الندوي: مولانا محمد إلياس أوران كي ديني دعوت ص65 و 97 .

أما هؤلاء الذين تتلمذوا على يديه ، فكانوا يسعون إليه ويستمعون ويقرؤن العلوم الدينية، ثم يعودون إلى بلادهم لتولى مناصب التدريس والقضاء والأمور الدينية والاجتماعية وغيرها .

ومن بين تلامذة الشيخ رجال من العلماء قدموا إليه وتخصصوا على يديه في مناهج دعوة الأنبياء والرسل والصحابة ، حيث يلقى الشيخ عليهم دروسه الخاصة ، ويوجههم إلى الأمراض الحقيقية التي سادت مجتمعات المسلمين ، كما يقدم لهم صوفة الدواء وأساليب علاجها ، وكيفية بدء العمل بها ، وغيرها من الأمور اللازمة لنشر الدعوة الإسلامية ، وتطهير عقيدة المسلمين من الشوائب ، وإنقاذها من ظلمات الجهل ، وإنارة طريقهم بنور الكتاب والسنة الشريفة .

ومن بين تلاميذه أولئك الذين تلقوا التربية الروحية من فيض علمه، ثم أرسلهم الشيخ وأوقفهم لهذه الأمور في المناطق التي تحتاج لهذه التربية ، ومنهم كذلك من أمرهم الشيخ بتأليف الكتب عن الدعوة وأساليبها وفضائلها ومناهج الأنبياء والصحابة وأهداف الإسلام فيها .

ومن بين تلاميذه أيضاً، من يدربهم لفتح المكاتب والمدارس والجامعات في المناطق البعيدة، التي كانت في حاجة ماسة إليها، كما كان له تلاميذ من الطاعنين في السن، يتعلمون طبقاً لبرنامجه الخاص الذي يصلح للجميع، وذلك لمحو الأمية في كل أنحاء المجتمع الإسلامي .

وقد تخرج على يديه مئات من دفعات الدراسين طبقاً لهذا النظام الذي كان يوجه الناس فيه إلى منهج مختصر في المبادئ الإسلامية من العقائد والعبادات ، والأحكام والأخلاق ، وغيرها من الأمور اللازمة للتعرف على الدين الحنيف .

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن تلاميذ الشيخ لم يكونوا على وتيرة واحدة في التتلمذ على يديه ، بل تعددت أنماطهم باختلاف نوعية اختصاصهم في التعليم والتدريب والسلوك .

وهكذا تخرج على يديه جيل من خيرة علماء شبه القارة من المدرسين والمؤلفين، والدعاة والمجاهدين، والمصلحين الذين حملوا مشاعل العلم والعرفان، ليضيئوا بها أرجاء العالم ، ويفتقوا بها نور البصائر والأذهان ، وقد لعب هؤلاء الأفذاذ دوراً فعالاً في تربية المسلمين في شبه القارة ، وفي إقامة سد منيع في مواجهة حركات ردة المسلمين في الهند

أما مجال التدريس عند الشيخ محمد إلياس فقد تدرج في مراحل مختلفة كعادة أساتذة الأفذاذ ، حتى بلغ أسمي مراحل التدريس التي تدرجت إلى ثلاث مراحل

.

المرحلة الأولي :

بدأ الشيخ محمد إلياس التدريس منذ أن كان طالباً واستمر على ذلك حتى انتهي من دراسة العلوم والفنون وفق منهج أساتذته وشيوخه الأجلاء ، حيث يقوم الطالب بتدريس الكتب التي قرأها من قبل للطلبة المبتدئين ، وقد بدأت هذه المرحلة في مدرسة " جنجوه " واستمرت مع استمرار تعليمه في " دار العلوم ديوبند " ومظاهر العلوم بسهارنفور .

ويوضح الشيخ محمد زكريا " الملقب بشيخ الحديث " ذلك بقوله : كنا ندرس على يد الشيخ محمد إلياس أثناء قيامه في جنجوه " فتدارسنا في تلك الفترة كتباً ابتدائية في اللغة الفارسية[1] .

ولما توفى الإمام الجنجوهي في عام 1323 هـ الموافق (1905م)، أثر هذا الحادث على الشيخ محمد إلياس ، حيث كان لا يتكلم مع أحد طوال اليوم اللهم إلا مرة أو مرتين وكنا نذهب إليه ونشير إلى الدرس بالأصبع بعد فتح الكتاب ، ونبدأ بقراءة الشعر الفارسي وترجمته إلى الأردية ، فإذا أخطأ الطالب في القراءة أو

(1) يوسفي ص 80 .

الترجمة ، أشار الشيخ بطي الكتاب وكان غرضه من ذلك أن نطالع الدرس مرة أخرى طبقاً لمنهجه ، وهو أن يدرك الطالب مفاهيم الدرس ومعانيه بنفسه .

وكان الشيخ محمد إلياس في العشرين من عمره في ذلك الحين(1) .

المرحلة الثانية :

تبدأ المرحلة الثانية في التدريس بعد انتهاء الشيخ رحمه الله من دراسة العلوم والفنون ، وما استقاه من معارف السابقين، حيث آثر أن يهب نفسه للعلم ، وهو واثق من نفسه بعون ربه له لأداء الأمانة التي حمله الله إياها ، بما أودعه في نفسه وقلبه من مدارك ومواهب، وبما هيأ له من الثقافة وقوة التفكير وعمق الإدراك لاختيار الأساليب الدينية التربوية لتكوين جيل جديد من الدعاة الذين يرشدون الناس إلى الصراط المستقيم حتى ينالوا السعادة في الدارين ، خاصة أن الناس كانوا في حاجة ماسة لمثل هذه العلوم التي تخرجهم من نير هذه الظلمات .

لقد بدأ الشيخ محمد إلياس بالتدريس، كعادة السلف الصالح، لأن التدريس جزء هام في الحياة العملية، لاستيعاب الكتب العلمية بعد التخرج، حتى تسرى حلاوة العلم في شرايين الجسد، وتؤدي الأمانة كاملة إلى أهلها .

وقد عين الشيخ محمد إلياس بعد تخرجه – أستاذاً في أكبر مركز علمي في " جامعة مظاهر العلوم " بمدينة سهارنفور، وذلك عندما عزم معظم مدرسي الجامعة على حج بيت الله الحرام في عام 1328 هـ ، وعين المدرسون الجدد ليحلوا محلهم مؤقتاً ، وبعد رجوع الأساتذة من أراضي الحجاز المقدسة ، عزل الأساتذة الجدد وبقي الشيخ محمد إلياس، حيث أصر مسئولو الجامعة على بقائه في التدريس .

وفي تلك المرحلة كان الشيخ يدرس الكتب المتوسطة المتداولة آنذاك ، ومما يدل على ذكائه الفريد أنه كان يعلم بعض الكتب التي لم يدرسها في مراحل تعليمه ،

(1) وذلك بين عام 1318 هـ إلى 1323 (الموافق 1905) علماً بأن الشيخ محمد إلياس رحل إلى جنجوه عام 14 – 1315 هـ ديني دعوت ص59 .

بل كان يستعين بشروحها، كما يقول عنه الأستاذ أبو الحسن على الندوي ، بأنه كان ماهراً منذ مراحل تعليمه الأولى في استخراج المعاني والمفاهيم من الكتب بنفسه ، فكان يستعين بالشروح كلما احتاج الأمر إلى ذلك ، فمثلا يطالع كتب " البحر الرائق " و " الشامي " و "الهداية" وقت تدريسه " لكنز الدقائق " في الفقه ، ويستفيد " بتوضيح تلويح " و " شرح الحسامى " لكتاب " نور الأنوار" .

وهكذا كان منهجه في كتب المنطق وغيرها من العلوم المختلفة ، ثم أصبح الشيخ بعد ذلك مشرفاً على المرحلة الابتدائية بقسم الأدب العربي ، وفي عام 1350 هـ أصبح مشرفاً على جميع أقسام اللغة العربية وآدابها .

ولم تمض السنة حتى اختير عضواً لمجلس الشورى لدار العلوم ديوبند في عام 1351 هـ . وهكذا اشترك مع كبار علماء الهند في الإشراف على الشئون الدينية كلها في شبه القارة ، واستمر في هذا المنصب الكبير إلى عام 1353 هـ [(1)] .

المرحلـة الثالثـــة :

وهي أهم مرحلة خلال فترة تدريس الشيخ محمد إلياس رحمه الله ، وذلـك حينما توفى أخوه الأكبر الشيخ محمد بن محمد إسماعيل في عام 1334 هـ كما توفيت والدته في نفس العام .

وكان الشيخ محمد[(2)] بن محمد إسماعيل رحمه الله يدير " مدرسة كاشف العلوم " في قرية نظام الدين ، والتي أنشأها أبو الشيخ محمد إسماعيل .

---

(1) راجع حياة الشيخ محمد يوسف ص144 وما بعدها، والشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية لأبي الحسن الندوي ص69 وما بعدها ، واكابركي خطوط : ص162 ط لاهور .

(2) وكان الشيخ محمد بن محمد إسماعيل نبيل النفس، دقيق الحس، قوى الشعور، وكان عالماً ورعاً تقياً قليل النوم والكلام وكثير البكاء والعبادة، ومثالا للزهد والتقوي، ويقول عنه الأستاذ العلامة ظفر أحمد التهانوي: " إن الشيخ محمد بن محمد إسماعيل كان من أزهد الناس فلم تفته صلاة التهجد ستة عشر عاماً قبل وفاته ، كما لم يتوان عن صلاة الجماعة في حياته قط ، وقد فاضت روحه إلى ربها وهو ساجد في صلاة الوتر بعد صلاة العشاء ..الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية ص73 وما بعدها . وحياة الشيخ محمد يوسف ص45 ، 46 وما بعدها .

وبعد وفاة الأخ الأكبر أصر أهل البلدة والأقرباء المتصلون بهذه الأسرة الكريمة أن يتولى الشيخ محمد إلياس تلك المسئولية حتى يسد الفجوة التي فغرت فاها بعد وفاة أبيه وأخيه وأمه ، ولكن الشيخ يؤجل الأمر حتى يستأذن الشيخ خليل أحمد ، فأذن له الشيخ بأن يأخذ الإجازة المؤقتة من مظاهر العلوم بسهارنفور لمدة سنة واحدة ويذهب إلى قرية نظام الدين، وإذا ما اعترضه عائق فليرجع إلى الجامعة .

وهكذا انتقل الشيخ محمد إلياس من مظاهر العلوم في سهارنفور إلى " مدرسة كاشف العلوم " الواقعة في قرية نظام الدين بجوار مدينة دهلى . وأصبح مسئولا عن كل شئون المدرسة بما فيها نظام المدرسة، ورئاسة هيئة التدريس ، وحمل المسئولية بما تحتاج إلية المدرسة من النفقات المادية وغيرها من متطلباتها العلمية، حتى أصبحت المدرسة نموذجاً فريداً لمدارس شبه القارة الهندية الباكستانية، في التعليم والتربية والإدارة بما قدم لها الشيخ من خبراته الجليلة وتضحياته النادرة في سبيل العلم والدين[1] .

وهذا يوضحه قول الشيخ عبيد الله إنه لو ترك الطالب " مدرسة كاشف العلوم " والتحق بمدرسة أخري ، فما كان يمتحن امتحان القبول بها ، لأنها اشتهرت في الهند بكفاءتها العلمية وبطلابها الأفذاذ ، نظراً لحسن نظام التعليم والتربية فيها[2] .

ومع حمل كل هذه المسئوليات أخذ الشيخ محمد إلياس في تدريس جميع العلوم الشرعية المتداولة بحسب الظروف واحتياجات الطلبة في المدرسة ، وبذا أقبل عليه الطلاب من أنحاء المنطقة وغيرها من المناطق المتجاورة ، حيث

(1) الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية ص73 . وحياة محمد يوسف 146 .
(2) تذكرة أمير التبليغ 47 .

سطعت جواهره العلمية ، واتجهت إليه الأنظار ، وأصغت إليه أفئدة سامعيه وازداد عدد تلاميذه المتحمسين المعجبين بأسلوبه العلمي المتفرد وتربيته الروحية .

أسلوب الشيخ محمد إلياس في التدريس :

كان أهم الأهداف عند الشيخ هو تحصيل العلم ، حيث كان يعتقد – كما أشرنا من قبل – أنه لا حياة بدون العلم ، ولذلك فمن الطبيعي أن يتخذ الشيخ منهجاً سلوكياً يسير عليه في المجال العلمي ، وهو أن يختار أسلوباً حكيماً يكون أكثر نفعاً للتلاميذ في التربية والعلوم .

أما أسلوبه في التدريس فكان يختلف عن الأساليب السائدة في المدارس آنذاك، والتي كانت أن بشرح الأستاذ معاني العبارة ومطالبها ، ويوضح صعوبة المسائل، أما الطالب فكأنه شريك في المجلس أو مستمع فقط ، ولكن الأمر كان يختلف عند الشيخ محمد إلياس ، حيث يكلف الطالب بقراءة العبارة وترجمتها وشرحها، ويساعده الأستاذ حين يعجز عن إدراك المعاني والمفاهيم، نظراً لصعوبة العبارة أو عدم الحصول على الشروح وغيرها من الكتب الموضحة لها، حتى تزداد كفاءة الطالب ومهارته العلمية ، بالاطلاع على الموضوعات الجديدة وإدراك معانيها ومطالبها .

ويقول الأستاذ أبو الحسن على الندوي : إن الشيخ محمد إلياس كان له منهج فريد في التدريس، ورأي خاص في فهم النصوص من الكتب ، حيث كان يقسو على الطالب لاستيعاب دروسه ، موضحاً ذلك بقوله : إنه يجب أن يأتي الطالب لأستاذه شارحاً وموضحاً فهمه للدرس بنفسه ، كي لا يحتاج الأستاذ إلا لشرح ما استعصى فهمه على الطالب ، وكذلك كان الشيخ يهتم بقراءة العبارة ، مراعياً قواعد الصرف في اللغة العربية ونحوها[1] .

(1) الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية 65 .

ويذكر العلامة عزيز الرحمن المفتي في " تذكرة أمير التبليغ " أن الشيخ محمد إلياس رحمه الله ، كان يقول : " إن الغرض الأول والأخير من التعليم في المدارس هو أن تتولد في الطالب ملكة الاستعداد للمطالعة ، وإدراك صلب الموضوع ، حتى يصبح الطالب أستاذاً لنفسه ولغيره خلال فترة تعلمه"[1] .

رأيه في مناهج التعليم وأساليبها :

عرفنا فيما سبق أن الشيخ الدهلوي كان له أسلوب خاص في التدريس ، إذ نجد له منهجاً فريداً في جميع مراحل التعليم ، وكان له رأي خاص في مناهج التدريس ، غير ملتزم بالمناهج المقررة ، وبالمواد الإجبارية في عامة المدارس ، بل كان يقرر بعض الكتب الجديدة على حسب حاجة الطالب ، وأحياناً يأتي بالكتب القديمة وغيرها ، مما يفيد الطالب في فهم المادة نفسها ، كما كان يبدع أنماطاً وأشكالاً جديدة لترسيخ المسائل في ذهن الطلاب[2] ، كما كان يحدد لكل طالب مناهج وكتباً خاصة على حسب قدراته قبل أن يلحق الطالب بالصف المناسب له ، ويدرس كل ما هو مقرر عليه إجبارياً[3] .

إن أهم مرحلة في حياة الطالب هي بداية رحلته في مجال التعليم ، ولهذا فقد اختار الشيخ محمد إلياس منهجاً خاصاً في الكتب الابتدائية ، وهي كتب علوم الصرف والنحو والأدب العربي والبلاغة ، حيث كان يقوم بإملاء قواعد الصرف والنحو على الطلاب بترتيبه الخاص ، من ذاكرته ، دون الرجوع للكتب المقررة في المدارس ، وكذلك كان الشيخ يكثف للطلاب التمارين الشاقة لاستخراج الصيغ الصرفية ، وذلك بإنشاء العبارة وتطبيق القواعد النحوية عليها ، كما كان لا يعتمد

---

(1) تذكرة أمير التبليغ ص48 .
(2) محمد إلياس ودعوته الدينية 69 .
(3) حياة يوسف ص81 .

على كتب الأدب العربي التي تشمل القصص والحكايات الواهية ، بل كان يختار الكتب التي تفيد الطالب في فهم اللغة والدين والأخلاق[1] .

ويقول صاحب التذكرة : إن الشيخ كان يهتم باستخراج الصيغ من القرآن وتصريفها فكان يعطي لكل طالب كراسة ومصحفاً ، ويأمرهم بكتابة ألفاظ القرآن واستخراج الصيغ الفعلية لكلماته مراعياً قواعد علم الصرف ، وماهية الصيغة على حسب المعني ، وتحديد أبوابها وأقسامها وأصلها ، وتكوينها واشتقاقها سواء كانت ثلاثية أو رباعية أو غيرها من أبواب الصرف[2] .

ويؤكد هذا قول الشيخ محمد يوسف الدهلوي بأنه قد أتم استخراج الصيغ الفعلية ، وتطبيق قواعد النحو لستة أجزاء من القرآن الكريم في السنة الأولى للمرحلة الابتدائية على يد الشيخ محمد إلياس[3] .

ويقول الشيخ محمد إدريس الأنصاري أيضاً إنه حين كنا نقرأ الكتب الابتدائية على يد الشيخ محمد إلياس الدهلوي وكان كتاب " ميزان الصرف " مقرراً علينا كأول " كتاب في الصرف " وكان على كل طالب أن يستخرج الأسماء والافعال من الجزء الأول من القرآن الكريم ، ثم قرأنا كتاب " ميزان منشعب " مع كتاب " صرف مير " و "بانت سعاد" و " مجموعة الأربعين " التي تشمل أربعين حديثاً نبوياً من جمع وترتيب الشاه ولى الله ، ومجموعة أربعين حديثاً من ترتيب " ملا جامي " ومجموعة أربعين حديثاً من ترتيب الشيخ ثناء الله أمرت سري[4] .

ذلكم هو المنهج الدراسي الذي قرره الشيخ محمد إلياس الدهلوي للسنة الأولى الابتدائية ، ولا ريب أنه أعظم وأنفع منهج في تعليم اللغة العربية لغير العرب، لأن هذا المنهج القوى يجعل الطالب الأعجمي قادراً على فهم معاني القرآن من الناحية

---

(1) مثل ديوان على وديوان حسان وغيرهما من كتب الأدب : تذكرة أمير التبليغ ص47 .
(2) تذكرة أمير التبليغ ص47 .
(3) نفس المرجع السابق .
(4) نفس المرجع السابق .

الأدبية والعلمية ، وليس التقليدية المحضة، التي توجد في تراجم الأردية وغيرها من اللغات الرائجة في شبه القارة الهندية الباكستانية .

منهجه في تدريس الحديث :

أما عن منهجه في تدريس الحديث ، فمن الواضح أن الغاية المنشودة من جميع العلوم الدينية المتداولة هي فهم العلوم القرآنية والسنة النبوية الشريفة .

ولهذا كان الشيخ يهتم اهتماماً بالغاً بمناهج علوم التفسير والحديث وتدريسها ، كما كان له اهتمام خاص بإلقاء دروس الحديث الشريف وآدابها ، إذ كان لا يقوم للتدريس إلا وهو متوضئ ، ويصلى ركعتين ، ويشكر الله على هذا التوفيق ، ويتوجه إليه ويستلهمه العون ، ويثني عليه ويصلى ويسلم على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، كما يوصي الطلاب أن يصلوا على خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام سراً في كل حديث وعند كل كلمة توحي بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم يدخل في صلب الموضوع ، فيذكر المراجع التي استفاد بها ، ويسند كل رأي أو قول أو سؤال أو جواب لقائله ، وكذلك كان يشرح الحديث طبقاً لأقوال وآراء الفقهاء والمجتهدين، مبيناً اختلاف آرائهم أو اتفاقهم ، مدعماً آراءه بأسانيد المراجع الأصلية لكل منهم، ثم يقارن بينهم مرجحاً أفضلهم ، مع تبيان أسباب الترجيح ، وأيضاً كان يجمع بين استدلالات الفقهاء وطريقة المحدثين من زمرة المتقدمين والمتأخرين موضحاً أقوالهم وآراءهم ، مع بيان قوله ورأيه ، مراعياً في ذلك الأدب والرأي المرجح عنده ، والاحترام لجميع المذاهب الفقهية ، فهو لا يرجح الرأي إلا وقد ذكر سبب الترجيح[1] .

وكان الشيخ يتناول كل أطراف الحديث مثل بيان درجته ودرجة إسناده ، والبحث في رجالاته ، مع مفهوم الحديث والمتون والمتابعات والعلل ، مع بيان

(1) راجع حياة يوسف 188 وتذكرة أمير التبليغ .

الاختلافات في المتون وطرقها ، وإذا ما جاء الاختلاف في الروايات كان يسعي جاهداً بالجمع والتوفيق بينها كلما أمكن ذلك بطريق علمي[1] .

هذا وقد كان الشيخ يهتم أيضاً بإيضاح الغرض من الموضوع ، والكتاب الذي يتحدث عنه ، كما كان يذكر درجة أهمية الكتاب واسمه بالكامل مع بيان مكانة مؤلفه ومميزات أسلوبه ، وإلى جوانب ذلك كان يشير إلى المحاسن الأدبية والبلاغية في السنة الشريفة ، فضلاً عن إظهار الألفاظ الغامضة وإيضاحها ، كما كان يجمع أقوال الباحثين في موضوع ما على بساط البحث مبيناً موضع اهتمام الباحثين به ، ثم يبسط الشرح ليتيسر للطالب فهمه .

وإلى جانب هذا كان يقارن شروط المحدثين بقبول الحديث ، ولا يترك الشبهات التي أثارها المستشرقون حول السنة الشريفة وتدوينها ، إلا وقد قام بالرد العلمي عليها[2] .

وكل ذلك كان يساعده فيه تدريس كتب العلوم المختلفة ، ولذا فإن استحضار جميع العلوم اللازمة في تدريس الحديث الشريف ، كانت تظهره بأنه أديب وفقيه ومحدث ومفسر في آن واحد ، كما كان مرشداً روحانياً يهتم بالتدريب العملي من خلال تدريس العلم ، وهذه كلها جعلت بينه وبين طلابه صلات روحية قوية ، فلا يفارقه أحد قط خلال الدراسة حتى لو أصابه الجوع فترة طويلة .

ونظراً لاطلاعه الواسع في العلوم الدينية كان يقول : إنه كما يلزم تفسير القرآن بالقرآن في أول الأمر ، كذلك فإنه يلزم شرح الحديث بالحديث قدر الإمكان ، ولهذا فقد أدخل في منهجه الدراسي للحديث الشريف كتباً أخري من السنة الشريفة التي لم تدرس في المدارس الأخرى بعد ، ولم يترك الشيخ أسلوبه في تدريس الحديث حتى يفهم الطالب الدرس بنفسه .

---

(1) نفس المرجع .

(2) تاريخي جائزة ص90 وما بعدها .

وفي هذا القول الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي : إننا لما بدأنا كتاب : " مشكاة المصابيح " على يد الشيخ محمد إلياس الدهلوي رحمه الله ، كان على أن أتابع سير وأحوال الصحابة وحياتهم ، أما الزملاء الآخرون ، فكان عليهم دراسة وإيضاح مسائل الأحكام ، واختلاف المذاهب الفقيه الخاصة بالأحاديث الشريفة فحينما كان الطالب يقرأ نص الكتاب ، فإذا بالشيخ يستوضحه عما كان مسئولاً عنه من قبل .

وهذا الأسلوب لم يجعل الطالب قادراً على فهم الكتاب فحسب ، بل كان يجعله قادراً على التحقيق والتأليف والشرح ، وفضلاً عما كان يملأ قلبه من حب لعلوم التفسير والحديث وكل ذلك كان يجعل الطالب شغوفاً بتلك العلوم الجليلة وراعياً لها[1] .

وكل تلك المحاسن قد ظهرت على تلاميذ الشيخ الدراسين لعلوم الحديث وغيرها ، مثل الشيخ محمد يوسف الكاندهلوى الذي قرأ " مشكاة المصابيح " على يد الشيخ محمد إلياس ، ثم بدأ خلال نفس الفترة بمشروع التحقيق في رواته من الصحابة والتابعين ، ثم ألف كتاباً ضخماً في ثلاثة مجلدات عن حياة الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

ولما كانت تلك هي البداية الطيبة المفيدة في دراسة الشيخ محمد يوسف العلمية، فقد بلغ بها قمة درجات المعرفة لعلوم الحديث ، وعندما بدأ في قراءة الصحاح الستة ومستدرك الحاكم ، وشرح معاني الآثار للطحاوي على يد الشيخ محمد إلياس، أمره أبوه وأستاذه أن يقوم بتأليف شرح الكتاب " شرح معاني الآثار " باللغة العربية ، فبدأ تأليفه وأسماه " أماني الأحبار " وأنجزه في ثلاثة مجلدات كبار .

---

(1) تذكرة أمير التبليغ ص147 وما بعدها .

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن منهج الشيخ محمد إلياس وأسلوبه في تدريس الحديث الشريف ، لم يكن فريداً في طريقته فحسب ، بل كان أفضل وأمثل منهج لعلماء عصره[1] .

وقد تجلت تلك الحقيقة واضحة في تلاميذه الآخرين الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الدين والعلوم النبوية ، وقاموا بالتدريس والتأليف ، ونشر الدعوة علي أحسن وجه بالقول والعمل حتى اشتهروا في العالم الإسلامي ، ومنهم الشيخ محمد زكريا والشيخ إنعام الحسن وغيرهما من كبار الأساتذة في شبه القارة[2] .

انهماكه في التدريس :

منذ أن بدأ الشيخ مرحلة التدريس ، فقد ظهر عليه بوضوح حبه الشديد للعلوم الدينية ، وخاصة في المرحل الأخيرة التي تولى فيها مسئولية مدرسة " كاشف العلوم " في قرية نظام الدين " بدهلى " ، فقد واجه ظروفاً طاحنة من نواح عديدة في تلك الفترة المريرة في شبه القارة ، ولكنه لم يتزعزع ولم يفر أمام الموجات المجابهة له ، بل كان ذلك حافزاً له على التوكل على ربه حتى يشد أزره ، ولذلك صار قدوة للمتوكلين ، ونموذجاً للعلماء والمدرسين ، ونبراساً لمن يخلفه من خادمي الدين المتين .

يقول الشيخ أبو الحسن على الندوي : إن الشيخ محمد إلياس بدأ حياة المجاهدة بتحمل جميع مسئوليات مدرسة " كاشف العلوم " في ظروف لم يكن هناك أي ميزانية خاصة لتغطية نفقات المدرسة ، بل كانت أحواله تسير على حسب الظروف العادية والقاسية منها معتمداً فيها على القناعة والتوكل على الله ، وقد كانت المجاعة تنزل به أحياناً ، ولا يجد ما يأكله هو أو الطلاب ، ونظراً لحدوث مثل تلك الظروف المريرة كان يعلن في المدرسة : "إن الطعام غير موجود

(1) راجع حياة يوسف من ص188 وما بعدها وتاريخي جائزة ص90 .

(2) حياة محمد يوسف 179 ، 185 ، وتذكرة أمير التبليغ 36 وما بعدها وتاريخي جائزة ص90 و 128 ما بعدها .

، فمن رغب أن يواصل دراسته في هذه الظروف ، فعليه أن يصبر ويضحي في سبيل العلم والدين ، ومن يرد الرحيل فلن نحول دونه " .

ولكن الطلاب كانوا قد نهلوا منه دروس التضحية وكئوس الصبر والجلد ، فلم يتركه أحد ، وظلوا يتلقفون العلم وهم جياع ، فأحياناً يأكلون أوراق الأشجار ، وتارة يقتاتون بالجميز أو على " الأسودين "[1] لمدة أيام .

هذا ولم تكن الأيام أيام يسر مثل أيامنا هذه ، بل كانوا يأتون بالأخشاب من الغابات ويوقدونها لإنضاج الخبز عليها بأيديهم ، ويأكلونها بالطحينة(2) فقط ، اللهم إلا بضعة أيام نادرة يوزع فيها الأرز والخضروات المطبوخة وغيرها من المأكولات العادية[3] .

ويذكر صاحب حياة يوسف أنه اجتمع الطلاب والأساتذة ذات يوم حول حوض المسجد بعد ما طالت المجاعة عدة أيام ، وبدأ الشيخ يخاطبهم قائلاً : " لماذا تعذبون أنفسكم معي في تلك الظروف القاسية ؟ عليكم بالرحيل إلى أية مدرسة أخري ، أما أنا فيكفيني أن أعيش على ماء هذا الحوض " فأجابه الطلاب والأساتذة بصوت واحد قائلين : إننا سنعيش معك على ماء هذا الحوض ، ثم دلف الشيخ إلى غرفته وخرج بعد قليل وهو يقول : " إن الله سبحانه وتعالى سيبارك في أحوالنا ويفرج كربتنا "[4] ورغم كل هذه الظروف كان يحذر تلاميذه من حياة الترف والبذخ التي تأتي بعد كل عسر طبقاً لسنة الله تعالى في قوله : " إن مع العسر يسر " .

---

(1) الأسودين هما : التمر والماء .

(2) الطحينة هو نوع من الأكل المكون من البصل والثوم والملح والفلفل فقط ، وهي معروفة في باكستان والهند .

(3) راجع حياة يوسف 179 ، 185 وتذكرة أمير التبليغ ص36 وما بعدها وتاريخي جائزة ص90 ، 138 وما بعدها .

(4) حياة يوسف ص173 وما بعدها .

وكان يوصيهم بتقوى الله والصبر ، وتحمل المشاق والأذى في سبيل الدين ، في حين أنه كان يوقن – بإيمانه القوى – بأن أمور الدين لا تسير إلا بالتوكل على الله والإخلاص الكامل ، أما المال ، فلا صلة له بتلك الأمور إلا كصورة ظاهرة فقط .

وإن الباحث ليري تلك الحقيقة في الأحداث العجيبة التي كانت تحدث في حياة الشيخ رحمه الله، ونكتفى بذكر حادثة وقعت له في أقسي مراحل حياته في مدرسة "كاشف العلوم" حيث أتاه رجل من كبار رجال الأعمال من مدينه دهلى وطلب منه أن يدعو له ، فوعده الشيخ بالدعاء ، وحينئذ قدم التاجر مبلغاً كبيراً من المال للمدرسة ، رفضه الشيخ ، ولكن وكيل المدرسة[1] أخذ المبلغ نظراً لظروفها ، فغضب الشيخ لهذا ، وأصر على إعادته لصاحبه ولم يهدأ خاطره إلا بعد أن نفذ أمره ، ثم قال الشيخ : " إن الأمور الدينية لا تتأثر بالمادة وإن كان مدارها على المال لكان من البديهي أن يبعث الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - بأموال كثيرة في بدء نشر دعوته ويفتح له خزائن السموات والأرض " .

ومن هنا نرى أن الشيخ قد تغلب على كل الصعوبات التي تراكمت عليه وواجهته سواء كانت مادية أم علمية ، متوكلاً فيها على الله سبحانه وتعالى ، وهكذا فإنك برغم كل تلك البلايا التي حلت به – تراه منهمكاً في الأمور التعليمية، ويزداد انهماكه حين لا تسمح ميزانية المدرسة بتحمل عبء الأساتذة، فيتولى الشيخ تدريس جميع الدروس بنفسه، وإننا لنجد الشيخ السيد رضا حسن يقول عنه: إنه كان يدرس الكتب دون تخصيص المواد في المناهج الدراسية ، وكانت حلقات التدريس تستمر ليلاً ونهاراً ، ابتداء من المراحل الابتدائية إلى المستوي الأعلى ، وأن درس " مستدرك الحاكم " كان يدرس قبل صلاة الفجر بينما تبدأ

(1) وهو الشيخ عبد الرحمن وكيل المدرسة وهو عالم جليل أسلم على يد الشيخ محمد بن إسماعيل ثم أصبح داعية في سبيل الله وأسلم على يده أكثر من ألف كافر ، وكان أكثر ما يشغله فتح المدارس في القرى: راجع تاريخي جائزة ص86 . والدعوة الدينية ص77 .

الدروس الأخرى بعد الصلاة ، وتستمر طوال النهار ، وإذا ما احتاج الأمر استمرت تلك الدروس ليلاً بلا تحديد للوقت[1] .

ويقول صاحب حياة يوسف : إن الشيخ محمد إلياس رحمه الله كان يقوم بتدريس النحو والصرف والأدب والبلاغة والفقه والتفسير مع الصحاح الستة ، وشرح معاني الآثار ومستدرك الحاكم في فترة واحدة[2] .

ويقول عنه صاحب التذكرة : إنه كان مستعداً للتدريس طوال الوقت بلا انقطاع ، حيث كان يعلم كل يوم ثلاثا وثلاثين حصة من الدروس ، بعضها قبل صلاة الفجر مثل حفظ القرآن ، ومستدرك الحاكم ، والباقي يستمر تدريسه بعد الصلاة طوال النهار[3] .

فياليته قد حان الوقت لأن يتخذ هذا الأسلوب النادر والمنهج العظيم في عصرنا هذا وأن يهتم الأستاذ اليوم بنشر العلوم بنفس الصورة ، وأن نستفيد من هذه القدوة الحسنة لكي نكفي حاجاتنا العلمية ، وننقذ جيلنا الجديد مما أصابه من الضعف والحرمان في الميادين العلمية المختلفة ، خاصة في المدارس والجامعات الدينية في أنحاء العالم كله .

ورغم هذا فإننا لا ننكر أن هناك أساتذة أجلاء – في جميع الميادين – في هذا العصر لا يحصون عدا، ولكنهم قلة قليلة لا تفي بالإصلاح المنشود ، وتكوين المجتمع المثقف بالدين الفطري ، الذي فطر الله الناس عليه .

---

(1) راجع الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية للأستاذ أبي الحسن الندوي ص73 ، وحياة يوسف ص46 وما بعدها .

(2) حياة يوسف 180 بتصرف .

(3) راجع تذكرة أمير التبليغ 37 ، 48 وما بعدها .

الفصل الثالث

المؤثرات التى عاشها الشيخ محمد إلياس
وعلاقته بها ورأيه فيها

لمعرفة الحياة التي عاشها الشيد محمد إلياس وعلاقته بها ، فلا بد من دراسة التيارات المختلفة التي جابهته، والظروف التي أحاطت به والمجتمع الذي عاش فيه ، والتي أثرت كلها علي شخصيته وتسببت في تغيير حياته ، إلى أن بدأ دعوته الكبرى لتعريف العامة بالدين الإسلامي ، ونشره في تلك المنطقة ، وسنوجز في ذلك قدر الإمكان .

لقد عرفنا فيما سبق أن شخصية الشيخ محمد إلياس كانت من أشرف وأكبر علماء المسلمين في شبه القارة ، فقد نال خلال حياته حظاً وافراً من التربية على يد كبار علماء شبه القارة، وأعظم مرشديها في التربية العلمية والروحية والعملية حتى صار له شخصية خاصة مميزة ، وحماسة نادرة في الدين ، وحمل مسئولية العلوم النبوية ونشرها عن طريق التدريس، كما فتح مئات المدارس الدينية العربية الأهلية في الفترة التي صعب فيها على أبناء الأمراء وعامة المسلمين، الحصول على لقمة العيش، وذلك فضلاً عن تحمله مسئولية الآلاف من الطلاب، وتعليمهم وتربيتهم، والاهتمام بمتطلباتهم من المأكل والمشرب والمسكن، وكل ما يحتاج إليه الطلاب خلال مراحل تعليمهم .

ولا شك أن الشيخ قد لاقي المصاعب الجمة في افتتاح تلك المدارس والمكاتب ، والتي وصل عددها أكثر من مائتين وخمسين مدرسة في منطقة " ميوات " وحدها ، حيث كان مصمماً على فتح ألف مدرسة دينية لتربية أهل " ميوات " وتعليمهم وحدهم ، وذلك إذا وجدت الغاية المنشودة ، والنتيجة المرجوة من المراكز العلمية والتربوية التي أقامها من قبل .

ولكن الشيخ اتجه إلى دعم حركة الإيمان ، ونشر الدعوة إلى الله بوسائل أخري عندما قدم منهجه النظري والعملي في هذا المجال ، وأجل حركة فتح المدارس إلى الشطر الثاني من الحركة ، وكان ذلك لأسباب عديدة حدت به إلى هذا التحول برغم أنه لم يصل إلى غايته المرجوة ، لكنه بلا ريب – كان قد سبق كل مراحل الدعوة والإرشاد غي عصره بدرجة لم يستطع غيره بلوغها في تلك الفترة .

وهذا يثير في أذهاننا التساؤل عن ماهية الغاية المنشودة للشيخ ؟ وما هي نقطة التحول التي حولته من التدريس وفتح المكاتب والمدارس الدينية إلى دعوته الكبرى ، التي تحمل في طياتها كل ما يحتاج إليه المجتمع الإسلامي من التمسك بالكتاب والسنة ، والصمود أمام ظروف المجتمع المريبة ، والجلد في مواجهة الهجمات الخارجية والداخلية على الدين الحنيف ، خاصة في شبه القارة .

وتأسياً بأقوال الشيخ محمد إلياس سنلقي الضوء على أحوال البيئة التي عاشها، والظروف التي أحاطت بالمجتمع الإسلامي في تلك الفترة، ومدي تأثره بها .

البيئة التي عايشها الشيخ محمد إلياس :

لا يخفى على أحد أحوال مسلمي العالم ومدي تسلل الاستعمار الغربي إلى العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر.. ويتضح ذلك في شروح أحد الباحثين هو العلامة الدكتور محمد البهى قائلا : إنه قد تم للإنجليز الاستيلاء على الهند سياسياً في بداية القرن التاسع عشر، وعلى التحديد في عام 1857 م ، وزالت بذلك إحدى الدول الإسلامية الكبرى ، وهى دول المغول الإسلامية في الهند في آسيا الوسطى[1] .

(1) هذا مع وجود الدولتين الاسلاميتين في البلاد الآسيوية وهما : الدولة العثمانية في تركيا، والدول الصفوية في إيران، ولكن لم يأخذ أحد في الاعتبار هذه الإمبراطورية المسلمة حتى رجعت الهند إلى سيطرة المسيحية، وأعقبها حكم الهندوسية الوثنية في تلك الآونة .

كما تم في السنة نفسها ، أي سنة 1857م ، استيلاء فرنسا على الجزائر كلها حتى الصحراء ، بعد أن بدأوا غزوها سنة 1830م .

ومن ناحية أخرى احتلت هولندا في بداية القرن التاسع عشر جزر الهند الشرقية وهى " إندونيسيا " ، وقد سبق كل ذلك إعلان " البابا إسكندر " على صك رسمي ، بأن البرتغال " سيدة بحار العرب والعجم والهند والحبشة " . وبعد قرنين ونصف أي منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي إلى النصف الثاني من القرن التاسع - تمكن الاستعمار الغربي المسيحي من السيطرة التامة على المسلمين في وسط آسيا وشرقها ، واتخذ له نقطة ارتكاز رئيسية في أفريقيا ، كما تمكن من مد نفوذه إلى قلب العالم الإسلامي ومركزه الرسمي في منطقة الشرق الأدنى، وبذلك طوق العالم الإسلامي من الشرق والغرب، وسلط ألاعيبه ودسائسه على بقية المجتمعات الإسلامية الأخرى بين هذين الطرفين (الشرق والغرب) ، فوهنت هذه المجتمعات ، وانحل عقدها ، وسقط بعدها إسر بعض تحت نفوذ المستعمر الغربي . وما إن جاءت الحرب العالمية الأولى وانقضى أجلها ، إلا وأصبح العالم الإسلامي كله تحت نفوذ هذا المستعمر[1] .

وهذا يوضح لنا أن الشيخ محمد إلياس قد عاش وسط ظروف قاسية حادة ، أثرت في حياته وشخصيته ، حيث إن الإنسان دائماً يتأثر بظروف زمانه ، حيث لا تخلو شخصية من التأثر بالظروف والبيئة التي نشأت وترعرعت فيها ، وكل هذا ينسحب على الشيخ محمد إلياس الذي عايش تلك الفترة وهذه الظروف في غرة شبابه ، فضلاً عما حدث للمسلمين حتى نهاية الحرب العالمية الثانية (حيث واجه المسلمون أهم أسباب تخلف الأمم وانهيارها) مما أدي إلى الانحطاط والضعف لا في شبه القارة وحدها فحسب ، بل وفي مشارق الأرض ومغاربها ، حيث تعرضت

(1) البهي (الدكتور محمد البهي) : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي : 22 وما بعدها : ط . القاهرة .

البلاد للحركات الهدامة ، فصار المسلمون في تلك الفترة في حالة يرثي لها ، لأول مرة ، بل كانت أسوأ مرحلة مرت عليهم خلال ثلاثة عشر قرناً سيادة ولا نفوذ ولا سلطان ، بل تجدهم في بلادهم مجبرين مقهورين ، مكتوفي الأيدي ، متأخرين متخلفين في السياسة والعلوم والفنون والاقتصاد والأخلاق ، وقد كثر أعداء العلم ، وانتشرت الأمية ، وفسدت الاخلاق ، ولا سيما أخلاق الأمراء والعلماء ، وسيطر عليهم الجبن والهلع والجمود والجحود ، واليأس والقنوط ، ونسيان ماضيهم المجيد .

ومن هنا استغلت القوى المعادية للإسلام والمسلمين هذه الفرصة الذهبية وسارعت إلى تمهيد السبيل لإعادة شبه القارة إلى حظيرة الإلحاد والعلمانية ، وكان سبيلها إلى ذلك هو التحرك باسم " القومية الهندوسية " والتي كان هدفها القضاء على الإسلام والمسلمين في شبه القارة ، حيث تدعو المسلمين إلى الهندوسية الوثنية ، أو تجبرهم على الخروج من الهند ، وليس أمامهم خيار ثالث إلا القتل ، ومن ثم قامت الحركات الهندوسية الخالصة بهذا العمل ، وساعدها في ذلك الإنجليز وبعض الخونة من المسلمين ، ومن أكبر تلك الحركات حركة " آرية سماج " و " سنكتن " و " شدهي "[1] .

ترى ألم يدرك الشيخ تلك الظروف المريرة ؟ أولم يشعر بها وهي تجرى أمامه ؟ كلا بل ، إنه كان أكثر الناس شعوراً بهذه الأحوال والظروف المريبة التي كادت تقضي على كيان الإسلام والمسلمين في شبه القارة أبد الدهر[2] .

---

(1) راجع تلك الحركات في كتاب: رحلة دعاة الرحمن ، تحت عنوان حركة آرية سماج، وحياة يوسفي صـ170 وموج كوثر صـ13، 14 .

(2) قد قال مؤسس حركة آرية سماج وهو (ديانندسرسوتي) بيتا من الشعر وترجمته : إننا سنبني تمثال إله " فشنو " في كعبة المسلمين بعد القضاء عليهم في الهند، وكان كل الهندوس يرددون هذا البيت الشهري في الشوارع. موج كوثر صـ13 – 14 ورحلة دعاة الرحمن تحت عنوان : حركة آية سماج .

ومن المعروف أن الشيخ محمد إلياس ، كان من أسرة لم تنفصم عراها يوماً عن أية حركة من الحركات التي قامت ضد العدوان في شبه القارة ، سواء أكانت دينية أو سياسية أو في المجالات العلمية والتربوية ، أو الدعوة أو الجهاد أو غيرها مما يفيد الوطن وأهله فإنك تجد أسرته الكريمة ، وفي يدها زمام تلك الحركات ، لا تتواني عن التضحية بأبنائها وأساتذتها وتلاميذها ، وبذل كل غال ونفيس في سبيل الحق والوطن .

الشيخ محمد إلياس وعلاقته بالسياسة :

لقد عايش الشيخ محمد إلياس قمم زعماء السياسة، وشارك معهم في الحركات النضالية مشاركة تامة وفعالة ، كما أوضحنا من قبل في حياة الشيخ ، مثل الإمام رشيد أحمد الجنجوهي ، وشيخ الهند محمود الحسن ، زد على ذلك علاقاته الخاصة بأكبر زعيم سياسي في الهند وهو شيخ الإسلام الشيخ حسين أحمد المدني ، وما سجله لنا التاريخ من المؤازرة والمعاضدة بين هذين البطلين ، كما لن ينسي التاريخ أنصاره من أكبر زعماء حركة تأسيس جمهورية باكستان الإسلامية أمثال الشيخ أشرف على التهانوي، الذي افتخر به محمد على جناح فلا مؤازرته له في تأسيس باكستان الإسلامية، كما كان الشيخ أشرف على التهانوي يفاخر بجهود الشيخ محمد إلياس .

وقد أمر الشيخ أشرف على، أكبر خلفائه – أمصال الشيخ شبير أحمد العثماني –[1] والشيخ ظفر أحمد التهانوي[2] بمساعدة الشيخ محمد إلياس وأصحابه في حركتهم الإصلاحية .

(1) يعد أحد مؤسسي باكستان ، وأول من عين شيخاً للإسلام في باكستان ، وأول من رفع علم باكستان الغربية حيث قال له الزعيم محمد على جناح : " أنت أحق برفع هذا العلم مني " . راجع حركة باكستان ومساهمة العلماء فيها . للشيخ محمد عبدالقادر آزار .

(2) وهو أول من رفع علم باكستان الشرقية في عام 1947 .

وتبدأ حياة الشيخ محمد إلياس السياسية منذ بدء حياته في جنجوه وهو لا يزال في العاشرة من عمره .

إذ بدأ يتربى على يد إمام العارفين العلامة رشيد أحمد الجنجوهي ، الذي كان مرجعاً لأصحاب السياسة في البلاد ، فتلقي تربية كاملة في هذا المركز زهاء عشر سنين[1] ، وبهذا سنحت له الفرصة للاطلاع على أحوال البلاد وسياساتها من خلال هذا المركز العظيم ، حيث لم تصدر أية أوامر للمجاهدين وساسة المسلمين إلا من هذا المعقل العظيم ، ولكن بعد وفاة إمامه (الجنجوهي) ، أخذ الشيخ محمد إلياس بيعة الجهاد على يد الشيخ محمود الحسن[2] رئيس المجاهدين في شبه القارة ، ولكنه لم يبدأ حركته حتى ذلك الحين ، بل سار على منهج الجهاد المسلح ، وهو المنهج الذى وضعه أستاذه ومرشده شيخ الهند ، والذى يعتبر الشيخ محمد إلياس من أهم وأقرب مساعديه ومناصريه في حركة تحرير الهند ، حيث صحبه شيخ الهند في مهمته إلى أراضي الحجاز المقدسة ، حيث كانت من أجل المهام السرية التي يعول عليها مستقبل المسلمين في شبه القارة ، ولم يطلع عليها الاستعمار البريطاني إلا بعد فترة طويلة .

فكان من أجل الأمور وأخطرها أن يأخذ شيخ الهند معه ، لأنه كان أقرب من يثق فيهم ويعتمد عليهم[3] .

يقول الشيخ حفظ الرحمن زعيم " جمعية[4] علماء الهند " في بيانه الذي نشر في كتاب ألفه الشيخ حسين أحمد المدني باسم " كشف الحقيقة " قال فيه : " إن

(1) راجع الشيخ محمد إلياس وعلاقته بالإمام الجنجوهي في الصفحات السابقة .

(2) وهو الملقب بشيخ الهند ، وهو مؤسس حركة تحرير الهند التي عرفت فيا بعد باسم : " حركة شيخ الهند " راجع حركة شيخ الهند لأبي الحسن الندوي ، ورحلة دعاة الرحمن تحت عنوان حركة شيخ الهند ، كفاح المسلمين لتحرير الهند للدكتور النمر

(3) أنظر صلة الشيخ محمد إلياس بشيخ الهند في الصفحات السابقة .

(4) تعد الجمعية الوحيدة التي ترعي الأحوال السياسية للمسلمين في الهند .

الشيخ محمد إلياس ومن تبعه وجمعية علماء الهند وأصحابها كانوا مترابطين متناصرين في الشئون الدينية والسياسية .

وقد عرفت صلاتهما بشدة الحب والتكاتف والتناصر الذي كان بينهما ، حتى أن الشيخ محمد إلياس قد اشترك في حركة " ترك الموالاة " وأمر أصحابه بالمقاطعة التامة للاستعمار ومن يعاضده ، ولو كانت بأي تسمية دينية مثل " حركة الصلاة " والتي بدأها بعض مساعدي الإنجليز في مدينة دهلى[1] ، ومن المعروف أن تلك الفترة هي التي كان الشيخ محمد إلياس يباشر فيها التدريس في مدرسة مظاهر العلوم ، في حين اشترك جميع خريجي دار العلوم[2] ديوبند في حركة " جمعية الأنصار " والتي أمر شيخ الهند محمود الحسن الشيخ عبيد الله السندي بتأسيسها في عام 1906م ، وكان من أهم أهدافها تدريس خطط الهجوم على الإنجليز بصورة نهائية ، كما أسس أستاذه شيخ الهند " نظارة المعارف القرآنية " في عام 1913 م لتربية والمجاهدين ، وغيرها من الحركات ، تحت رعاية شيخ الهند ، لتنفيذ الخطة الداخلية في شبه القارة ، والتي بدأت بتدريب المجاهدين وتحريض المسلمين لإقامة نظام إسلامي محض ، يعد نجاحهم في تحرير الوطن من أيدي الاستعمار الغاصب[3] .

وبعد فشل حركة " شيخ الهند وانقلاب الأحوال السياسية العالمية في تلك الفترة ، تغير الاتجاه السياسي مع تغيير أساليب العمل في البلاد كلها .

ونتيجة لذلك انقسم العلماء إلى اتجاهات عدة تتفق في مبادئها ، وهي الجهاد في سبيل الله ، والحفاظ على الدين الحنيف في شبه القارة ، بغير طريق العنف ، أي بالوسائل السلمية ، سواء في تأسيس الجمعيات والأحزاب ، أو في إنشاء المدارس والجامعات الدينية أو في قطع العلاقات مع الاستعمار في جميع مناحي الحياة ،

---

(1) تبليغي جماعت برجند عمومي اعتراضات أوراسكي جوابات صـ117 .

(2) من المعروف أن الشيخ محمد إلياس كان من خريجي دار العلوم ديوبند .

(3) راجع : حركة شيخ الهند لمحمد ميان صـ234 – وماضي علماء الهند المجيد جـ4 .

حتى استقر زعماء المسلمين على نهج سياسة جديدة قوامها الحرب الفكرية ، بعيداً عن القتال والمواجهة بالأسلحة المادية ، إلا إذا اضطروا دفاعاً عن النفس .

ونجح علماء المسلمين في اختيار تلك الأساليب السلمية بوسائل الصراع الفكري ، كما أحرزوا إنجازاً باهراً في الحفاظ على التراث الإسلامي ، والقيام بتدريس العلوم الإسلامية للراغبين فيها عن طريق المراكز العلمية التي يفتحونها .

ولقد كانت هناك فجوات هائلة تزداد يوماً بعد يوم ، ولا يقاومها إلا فئة قليلة لا تكفي لمقاومة هذا العدوان الفكري ، الذي يمد أوصاله بين المسلمين ، كفريسه له ، ليبعدهم عن الإسلام بسبب جهالتهم .

وعلى هذا الأساس اتجه الشيخ محمد إلياس إلى هذا المجال الذي يعد خطوة أولى لكل مناضل في سبيل الدعوة ، وهو تفهيم معاني القرآن والاستعداد للتضحية من أجل الإسلام ، وبذل الجهود المتفانية لإصلاح النفس والمجتمع الإسلامي .

وبهذه الوسيلة كان الاتجاه الأمثل للشيخ محمد إلياس لإصلاح نفوس الملايين ، الذين حرموا من التربية الإسلامية زهاء قرون طويلة ، نظراً لسوء الأحوال السياسية في العالم الإسلامي كله ، وخاصة في شبه القارة .

وبذلك فقد أعرض الشيخ كلية عن سياسة البلاد التي كانت عائقاً كبيراً في طريق الإصلاح ، وعمل على القيام بتعريف عامة المسلمين بالتعاليم الأساسية للدين الحنيف .

ولكننا هنا نجد شيئاً آخر وهو السياسة القائمة في البلاد ، والتي قد تعوق طريق الإصلاح في معظم الأحيان ، مع أن الشيخ لا ينكر ولا يخالف أصحاب السياسة القائمين على هذا المجال في البلاد ، بل ظل يشكرهم علي قيامهم بشغل الاستعمار بسياساتهم حتى لا يلتفت الإنجليز إلى هذه الجبهة الفكرية الداخلية ، وتبدو تلك الحقيقة واضحة من أقواله رحمه الله كما في حديثه مع " رئيس مجلس

الأحرار " البطل المعروف السيد / عطاء الله شاه البخاري ، فيقول : أشكر الزعماء السياسيين الذين لفتوا أنظار الحكومة الإنجليزية بعيداً عنا ، وشغلوها بأمور السياسة ، وبذلك فقد تحينت الفرصة في بذل الجهود للإصلاح باطمئنان في تلك الفترة [1] .

ولعل من العجب أنه لم يثر انتباه المصلحين من المسلمين وساستهم وملوكهم هذه الفجوة الشاهقة التي حدثت في المجتمع الإسلامي .

إن أكثر ما رأيناه كان نتيجة الجهل والغفلة عن الدين ، في أكثر المناطق القريبة لعاصمة الإمبراطورية المسلمة [2] ، والتي نالت حظاً وافراً من الحضارة والثقافة والتمدن استمرت كلها زهاء ثمانية قرون ، ولكن لم يفطن لتلك المناطق التي كانت لا تزال تعيش حياة شبيهة بالهمجية الجاهلية .

وذلك لأسباب شتي سنورد قدراً منها على حسب حاجة البحث فيما بعد .

منهجه فى السياسة :

مما لا شك فيه أن الدستور الذي أمر به خالق البشرية لا يدانيه نظام ، بل هو أفضل من جميع النظم التي قدمتها البشرية حتى يومنا هذا ، وهو الذي يوجه الإنسان إلى إصلاح النفس أولاً ، ثم إصلاح الآخرين من الأفراد والمجتمعات على المستوي العام والشامل حتى يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويطهر قلوبهم ، فتنهض به المجتمعات البشرية على أسس سامية ، ترقي بالأمم والشعوب إلى السعادة الكاملة التي تحمد لها في الدنيا والآخرة .

ولكن الشيخ محمد إلياس يري أن أصحاب السياسة إذا نجحوا في تولى زمام الحكم في أية بقعة من بقاع العالم ، فإنه يقتصر نشاطهم على فتح الولايات ، وبذل جهودهم لكسب الأراضي ، وتحصيل الخراج ، وجمع الأموال بأية وسيلة ، مشروعة

(1) الملفوظات 140 وحركة محمد إلياس الدينية باللغة الإنجليزية صـ171 .

(2) الملفوظات 140 وحركة محمد إلياس الدينية بالإنجليزية صـ171 .

كانت أو غير مشروعة ، ولو بالوسائل غير الشريفة لإشباع رغباتهم وشهواتهم ، قانعين بأن هذه هي غاية الحياة .

أما عن مسلمي شبه القارة وحكامها ، فقد كان الفساد موجوداً في نظام حكم الإمبراطورية نفسها ، كما كانت السلطة المطلقة في قبضة القائمين على هذا الفساد ، حيث كانت تتعدد أساليبهم الوحشية في إشباع أطماعهم وشهواتهم ، تحت اسم الإمبراطورية التي كانت تنسب إلى المسلمين ، وقد أدي ذلك إلى الاضطراب في الأسرة الملكية ، ورغم هذا الفساد الذي استشري في جذور الحكم المغولي ، فلم تظهر نتائجه على الشعب المسلم أو في المجتمع الإسلامي ، لأنها كانت مستترة وراء كواليس الإمبراطورية التي كانت تشرف على هذا الحكم الفاسد ، ولكن بعد ضعف الحكم وقضاء العدو على الإمبراطورية وتدميرها فسرعان ما تطفو وتتفشي آثارها المسمومة على وجه المجتمع ، ثم يتبعها انقراض بذور الإمبراطورية المسلمة وحكامها وسلالتها إلى الأبد .

وهذا هو ما حدث بعينه في الإمبراطورية الإسلامية المغولية في شبه القارة ، فلم تقم للدولة الإسلامية قائمة ، ولم يعد سلطانها ذا نفوذ ، ولم تكن له القدرة على توجيه البلاد وتوحيدها .

ويري الشيخ أن أسلافه قد قاموا بحروب عاتية ضد السياسات الباطلة ، حتى بين صفوف المسلمين أنفسهم ، وذلك مثل ما قام به الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي ضد فتنه الإمبراطور المغولى جلال الدين أكبر، وبقيامه بهذا العمل الرائع رجعت الهند دولة مسلمة، وفشلت المحاولات في جعلها دولة هندوسية أو علمانية ، أو دولة شيعية .

وكذلك فقد قام الشاه ولى الله الدهلوي وأولاده بمحاربة السياسة الفاسدة لدسائس الإنجليز والإمبراطورية المغولية في فترتها الأخيرة ، وعملوا على نشر الدين الصحيح، وانتشار مصادره ومبادئه على أسس قوية سليمة، كما ألفوا كتباً قيمة

مبتكرة تمهد العقول والنفوس لإقامة دولة إسلامية، وكذلك فقد رسموا خطط الجهاد ، وقاموا هم وأصحابهم بمجابهة كل من يمد يده إلى الإسلام والمسلمين بسوء أو أذي .

وفي هذا يري الشيخ محمد إلياس أنه لابد من مواجهة ذلك الفساد الذي استشري خطره في قومه، فبدأ يختار منهجه في إصلاح المجتمع وأحوال المسلمين طبقاً للظروف الراهنة ، وفي ضوء خبرات أسلافه ، فهو يري أنه لابد من التربية الصحيحة القويمة للمجتمع الإسلامي قبل القيام على مقاليد الحكم ، لأن تربية الملك أو الإمبراطور على الإسلام لا تكفي للبلاد كلها ، لأنه إذا مات الملك المسلم الورع ، عاد المجتمع كما كان .

ويري الشيخ أن الثورات العنيفة تؤدي دائماً إلى الفشل ، وإذا نجحت فلمدة وجيزة، حتى تقهرها العناصر المعادية، فتلهيها بالصراع على السلطة والاحتفاظ بها، وبهذا يبتعد هذا الحكم الإسلامي عن منهج الإصلاح، أما إذا فشلت القيادة الإسلامية، فإن ذلك يؤدي إلى انقراض العناصر التي تحب الدين بكل صورها المختلفة، ولكن إذا أصلح الفرد نفسه ومجتمعه فستنبت منه القيادة السليمة التي لا تزول ولا تنهار، كما لن يتغير وضع الدولة الإسلامية بموت واحد من الملوك أو الأمراء المسلمين، ولهذا كان إصرار الشيخ أنه لابد من تربية العامة تربية إسلامية كاملة[1]، حتى يصلح المجتمع كله بأفراده وحكوماته ، فيؤتي ثماره المرجوة منه .

ويقول الندوي : كان الشيخ محمد إلياس يعتقد تمام الاعتقاد أن الإيمان هو العمود الفقري في الدعوة إلى الله في أول الأمر ، ولن تتولد الرغبة إلى التمسك بالدين والعمل بالشريعة المطهرة ، ولن تؤتي ثمارها إلا بالإيمان الكامل ثم الانقياد التام لربه الذي آمن به ، لأنه لن تصلح الأخلاق والمعاملات في الحياة إلا بإيمان

---

(1) ملخص من ديني دعوة للندوي صـ305 وما بعدها و : حركة محمد إلياس الدينية بالإنجليزية صـ167 إلى 169 بتصرف .

الفرد إيماناً كاملاً لمالك الملك ، مالك يوم الدين ، وكذلك لن تكون الحكومة إسلامية، ولن تقوم للسياسة قائمة بغير الالتزام بالعبودية والانقياد الكامل لحاكمية الخالق الواحد القهار، كما أنه لن ينال هذا الانقياد إلا بالنجاح في الدعوة إلى الله ، وبذل كل الجهود لأجلها .

فمن هنا اعتقد الشيخ أن السياسة التي ليس قوامها الدعوة إلى الله ، فهي ليست إلا بناءا متزلزلا لا أساس له، وإن بنيت فلن تلبث أن تنكص على أعقابها ، كبيت بني على كثيب من الرمال فانهار .

فالمراد هنا بالسياسة هو تنفيذ الأوامر بالحكم والقوة تحت نظام وضوابط شرعية.

أما المراد بالدعوة ، فهي الترغيب والتقريب إلى هذه الأحكام الإلهية التي تتفق مع الفطرة اتفاقاً تاماً .

ولذا كان الشيخ يعتقد أن السياسة، بمفهومها الصحيح هي جزء من الدين الإسلامي كما اعتقد أن السياسة لا تنفع بغير العلم والإخلاص والتربية الروحية الخالصة، كما أنه لن تأتي هذه السياسة بنتائج سليمة بغير أن تبدأ بالعمل الجاد ، وتطبيق المبادئ والعناصر الأخرى التي لابد من معرفتها بجانب التربية العلمية السليمة .

وأول هذه المراحل هي الاشتغال بالدعوة إلى الله، وتربية النفس والمجتمع على أسس إسلامية نقية خالية من الشوائب ، وفي هذا يقول الشيخ: إن هذا العمل ليس إلا لإدراك علوم الشريعة والطريقة والسياسة والعمل بها ، لأن الدين يقوم على ثلاثة مبادئ أساسية هي : العقيدة والعبادة والسياسة ، وأن طريق دعوتنا من نظم التعليم فيها لا تتضمن تحصيل هذه العلوم فحسب ، بل تحتوي على التجربة العملية لهذه المبادئ الرئيسية ، حتى تزداد هذه العلوم الثلاثة في الإنسان

بمنهج العلم والعمل ، وذلك لا يكون إلا بتمسك الإنسان والتزامه بأصول دعوتنا الإيمانية [1] .

رأيه في سياسة المسلمين:

كانت نظرة الشيخ محمد إلياس لسياسة المسلمين حين ذاك نظرة ثاقبة ، حيث يقول: " إن الكفاءات السياسية في الأمة قد أنهكت قواها منذ قرون ، فهل تستمر تلك الحالة المريرة ؟[2] كلا ، بل علينا بالعمل بمبادئ الدعوة إلى الله وأصولها السليمة مع الصبر والتحمل ، وأن نختار منهجاً قوياً ينفع المسلمين في جعلهم أهلا لرسم الخطط وتشكيل النظم وتنفيذها، وخاصة بعد تحملهم المسئولية الكاملة في الطاعة والانقياد الكامل للنظام الإلهي واحترام شرعيته ، والسير على هداه ، بدلا من اتباع أهواء النفس وشهواتها والمنافع والمصالح الذاتية، فإن السياسة في ماهيتها البسيطة تحتاج إلى دعوة كبيرة في الكم والكيف[3] .

ويستدرك الشيخ محمد إلياس قوله " إن كل ذرة كامنة في كيان السياسة تحتاج إلى دعوة وجهد كبيرين حتى يقضي على كل أسباب الضعف في تلك الذرة ، فلا تضعف أمور السياسة حين لا تضعف أمور الدعوة ، لأن العجلة في أمور الدعوة وازدياد سرعتها دون الجدية في الكيف تكون السبب في التدهور في السياسة ، وتصاب بالخمول ، وتصرع في الوادي المجهول ، بل لا تقوم للسياسة قائمة في الوجود ، حتى وإن تجدد كيانها ، وظهرت عمارتها فإنها تعود خاوية على عروشها[4] .

---

(1) محمد أنوار الحق (الدكتور): دي فيت مومنت آف محمد الياس : صـ167 – 169 بتصرف : جـ1 : لندن .

(2) يقصد بذلك التمسك بالسياسة الفاشلة التي تضر بكيان المسلمين يوماً بعد يوم بدلاً من تحسين أحوالهم، أما السياسة الحقيقة فهي اسم يطلق على: ترتيب نظم الحياة وتسييرها طبقاً للقانون الإلهي .

(3) الحركة الدينية للشيخ محمد إلياس (بالإنجليزية) ص169 .

(4) نفس المرجع والدعوة الدينية للندوي 305 وما بعدها وراجع الحركة الدينية للشيخ محمد إلياس بالإنجليزية .

وكان الشيخ يضرب الأمثلة من الأحداث التي وقعت في التاريخ الإسلامي وبالأخص في عصر صدر الإسلام والصحابة وغيرها من النماذج الكثيرة .

وكان يعني بها أن المسلمين قد استطاعوا السيطرة على مقاليد الحكم وتقويته بفضل سياسة سليمة ومتينة ، وذلك بعد قيامهم بالدعوة الإلهية الخالصة لمدة طويلة ، ولكن لما ضعفت جهود الدعوة بدأت تضعف أسس الحكومة العادلة .

ومن ثم كان الشيخ يذكر وصية سيدنا الحسن بن على رضي الله عنهما لأخيه سيدنا الحسين رضى الله عنه وهو يقول : بأن أمور الأمة تسير بطريق الدعوة بعد يومنا هذا[1] .

ثم ينهي الشيخ كلامه مؤكدا عدم انتسابه إلى الجماعات والأحزاب السياسية التي تشرع أمورها على نمط الآمر والمأمور ، وتفلسف أعمالها وسياستها بعيداً عن الشريعة الإسلامية .

فكان يري أن السبب الوحيد في كل ما يعانيه المسلمون من الاضطراب والخلاف هو السياسة الفاشلة ، خاصة في شبه القارة ، لأن المسلمين قد بدأوا في العصور الأخيرة اتباع منهج السياسة قبل الدعوة ، بأن صبغوا الأمور الدينية بصبغة السياسة الغربية، وحاولوا أن يأخذوا طرقها وأساليب تنظيمها وإدارتها.

وقد أدت تلك الطرق والأساليب إلى نشر الأفكار الغربية التي لا تؤدي إلى قيام الحكم الإسلامي في البلاد مطلقاً[2] .

ومن هذا فقد ثبت لنا أن الشيخ محمد إلياس لم ينكر السياسة الإسلامية الخالصة لوجه الله ، شريطة أن تكون أهدافها إعلاء كلمة الله .

ولذلك لم يتفق مع السياسة الباطلة والفاشلة في مبادئها وأهدافها ، بل شارك في السياسة التي لا تخرج عن حدود الإسلام في مبادئها ونظمها وأهدافها ، ويدل

(1) نفس المرجع .

(2) نفس المرجع .

على ذلك ما ذكرنا من علاقات عميقة قوية مع زعماء السياسة ، مثل قادة حركة الخلافة ، أمثال محمد على جوهر وغيره وجمعية علماء الإسلام (الهند) ، وكذلك صلاته العميقة بأكبر عدو للاستعمار وهو السيد / عطاء الله شاه البخاري (رئيس مجلس الأحرار) ، وصداقته أيضاً لزعماء حزب الرابطة الإسلامية أمثال الشيخ محمد أشرف على التهانوي ، وشبير أحمد العثماني ، وظفر أحمد التهانوي وغيرهم .

ومما لا شك فيه أنه لم يتخل برهة واحدة عن جهاد المسلمين ضد الاستعمار ، والدليل على ذلك ما ذكرناه من قبل ، بما فيه حصوله على المبايعة للجهاد على يد شيخ الهند ، حيث لم يفارقه في حياته ، بل كان من أقرب المقربين إليه ، فلم يتركه قط ، بل رافقه حتى لفظ أنفاسه وهو يقرأ له سورة يس على رأسه ، إلى أن لقي شيخ الهند ربه ، كما ذكرنا من قبل .

وقد ترك شيخ الهند تعليماته ونظرياته التي رسخت في أعماق تلاميذه ، والتي كانت تتجلي كل يوم في أقوالهم وأفعالهم ، وها هو ذا تلميذه الشيخ محمد إلياس يحمل نفس الأفكار عن الاستعمار ، وما كان يعتقده أستاذه ، حيث يقول (الشيخ محمد إلياس): إن الخصم الوحيد والعدو اللدود للإسلام هم الانجليز[1] .

ويقول الدكتور أنوار الحق : إن الشيخ محمد إلياس كان يعتقد أن الإنجليز هم العدو الوحيد للإسلام في هذا العصر ، ولهذا خالف نظام تعليمهم ، خاصة ما قدموه للمسلمين في منهاج الدراسات العربية والإسلامية[2] .

(1) دي فيهت مرمنت آف محمد إلياس : صـ98 .

(2) قرر الإنجليز في تلك الآونة منهج الطلاب الدراسين وشهادتهم المعترف بها طبقاً لمنهجهم في الدراسات العربية والإسلامية ، وأسموها : " عربي فاضل " و " فاضل فارسي " ومنشي فاضل و " الفاضل في الدراسات الإسلامية " وغيرها من المواد الإسلامية المقررة في مدارس الارسالية التبشيرية وشهادتها في تلك المواد : محمد ميان (الشيخ) : علماء هند كاشاندار ماضي : جـ4 صـ22 .

كما خالف الشيخ السياسة التي تقوم على أسس غربية حيث كان يقول :" إن المقصد الحقيقي لإعطاء الحكم للمسلمين عند الله ليس إلا إعلاء كلمة الله " ثم تنفيذ الأحكام المنزلة من عنده سبحانه وتعالى ، فإن لم يقم الزعيم السياسي بالعمل على شريعة الله ، وتنفيذها على نفسه أولا ، فكيف يمكن تنفيذها على غيره من الناس ؟!"[1] .

ويقول الدكتور أنوار الحق عن الشيخ محمد إلياس أيضاً : كل ذلك يدل على إخلاصه الكامل للسياسة الإسلامية ، حتى أنه لم ينشئ جمعية سياسية ، أو يستعمل العنف ضد من يخالفه في منهجه السياسي ، لأنه لم يرغب في الحكم ، ولم يطمع في الشهرة ، كما أنه لم يهاجم أحداً ممن ألصقوا به التهم الكاذبة ، بل كان فكره أسمى وأعلى من تلك المعايير الراهنة التي تسير بها السياسة، فتجلت بصيرته الفذة في أقواله ، وما رتبه من مناهج الإصلاح حتى يعود المسلمون إلى قوتهم ومجدهم .

وطبقاً لهذا التسامي الفكري ، فقد جرد الشيخ محمد إلياس نفسه لخدمة المجتمع الإسلامي ، والتربية الروحية طبقاً للكتاب والسنة الشريفة ، وآمن إيماناً كاملاً بأنه يمكن إصلاح الأمور السياسية بإصلاح المجتمع دينياً وخلقياً .

وبهذا فهو يحدد منهجه وأسباب اغترابه عن السياسة المعاصرة له في الآونة الأخيرة موقناً بالشروط التي لابد وأن تكون في شخصية تتحمل أمور السياسة الإسلامية ، فيقول (الشيخ محمد إلياس) : " إن القيام بالعبادات يؤدي إلى الإصلاح في الأخلاق والمعاملات والمعاشرة ، وكل ذلك يجعل الفرد أهلا للأخذ بزمام الحكم " فإن الصلابة في الدين تجعل الحاكم قوياً عن الآخرين في جميع أمور الحياة بما فيها السياسة، وخاصة في تنظيم وتنفيذ الأحكام في البلاد "[2] .

---

(1) دي فيهت مومنت آف محمد إلياس : ص98 – 99 .

(2) ويؤكد هذا القول الدكتور ذاكر حسين رئيس الهند الأسبق (من عام 1967م – 1969) أثناء مقابلة صحفية في الولايات المتحدة الأميركية حيث قال : " إن اصلاح الأمور الدينية في المجتمع يمكن به اصلاح الأمور السياسية في البلاد ، ويقدم أهل "ميوات" (منطقة قام بها الشيخ محمد إلياس بدعوته الدينية) كنموذج ،

وهذا الأمر يجعل الدارس في حيرة للغاية ، لأن الفترة التي قدم فيها الشيخ محمد إلياس منهجه في الدعوة ، ودعا القوم إلى التربية السليمة المؤدية إلى الانتجاع في السياسة الإسلامية الخالصة ، مجنباً نفسه السياسة المعاصرة ، لأن تلك الفترة لم تنشأ فيها أية حركة سياسية إلا وكانت تجعل شعارها " الدين " كما لم تنجح أية حركه دينية إلا واستمدت شعارها من الدعوة الخالصة إلى الاشتراك في سياسة البلاد اشتراكاً كلياً ، ولكن الشيخ محمد إلياس هو العبقري الوحيد الذي أثبت لأول مرة أن القيام بالدعوة الخالصة للإسلام يمكن إحرازه بنجاح دون المشاركة في سياسة البلاد[1] .

ويقول الدكتور أنوار الحق إنه كان من أصعب الأمور أن يتوجه المسلمون إلى التربية الدينية الخالصة، والقيام بنشر الدعوة إلى الله، والحفاظ على القيم الإسلامية للمسلمين الذين كادت أن تقضي عليهم فتنة الردة في تلك الفترة[2].

وهذا هو ما تأثر به الشيخ محمد إلياس من سياسة البلاد ، وما نتج عن تأثره في تلك الفترة من أفكار شتي متباينة ظهرت كلها في دعوته إلى النهوض بالمجتمع دينياً وسياسياً وأخلاقياً .

ومن المعروف أن لكل إنسان أفكاراً خاصة في السياسة وغيرها من الأمور الدينية والاجتماعية ، وليس من الواجب أن يفرض منهجه الذاتي على جماعته ، ويجبر أصحابه على التمسك به ، حتى يعد من يتخلى عن ذلك من أعدائه ، ثم يصدر ضده فتوى الكفر ويأمر أتباعه باجتنابه والابتعاد عنه أو محاربته .

ويشبههم بالبدو العرب حيث كان إصلاحهم دينياً في بداية الأمر ، قبل أن يظهروا على الساحة السياسية في العالم : محمد أنوار الحق (الدكتور) دي فيت مومنت آف مولانا محمد إلياس صـ126 – 168 .

(1) نفس المصدر السابق ص168 .

(2) نفس المصدر السابق ص171 .

ويعد هذا العرض السريع لمنهج الشيخ محمد إلياس في السياسة ، وفكره فيها ، نعرض – في عجالة – للخطوط والنقاط الأساسية لسياسته والتي توصلنا إليها بعد دراسة عميقة ، وتتلخص فيما يلي :

أولاً : أن سياسة البلاد ، وإن كانت ظاهرة ، في صورتها على الأسس الإسلامية ، لكن كان له فيها آراء ومواقف خاصة .

ثانياً : إذا كانت السياسة – في حقيقتها – غير إسلامية ، فلا داعي له بإدلاء دلوه الفكري فيها .

أما " الزعامة" التي كانت تهدف إلى تطبيق وتنفيذ النظام الإسلامي ، شريطة أن يكون ذلك مطبقاً على نفس الزعيم والأفراد والمجتمع برمته – فله فيها منهج ورؤية خاصة لأن كل الأنظمة الاقتصادية والسياسية في العالم أجمع تهدف إلى أساسين هما : "الإصلاح" الذي يؤدي إلى "السعادة الكاملة" وهو الهدف المقصود والأخير الذي تبني عليه سياسات العالم .

انتشار الجهل بين المسلمين :

من الواضح أن التقدم في الحضارة والتمدن والثقافة التي هي ثروة الشعوب والأمم وتزدهر بها أعلامها ، وتنير الأذهان والقلوب ، وتعد تلك المرحلة هي فترة الازدهار ، أو كما يسميها البعض " العصور الذهبية " ونقيض ذلك هو التدهور والانحطاط والتخلف الذي يؤدي إلى الفقر والجهل واليأس وسوء الخلق ، حتى يبتلى الشعب بالمجاعة ، ويدنس اسمه بالخزي والعار ، في سجل التاريخ البشري ، فيكون عصر ظلام وانحطاط في حياة الأمة .

هذه هي لعبة الحياة الدائرة بين الدين والسياسة والسلطة، في العواصم العالمية ، يمثلها الزعماء السياسيون على الأمم الساذجة ليلهوهم بأمور السياسة عن أهدافهم الحقيقية ، سواء نالت هذه السياسة قدراً من النجاح أو الفشل ، أو

انتفع بها المجتمع الإسلامي أم لا ، وحتى إن تحدد بها مصير الشعب ، أو امتدت جذور هذا النزاع إلى ما لا نهاية .

والأمر الذي يقودنا إلى صلب الحقيقة أثناء تلك اللعبة، هو أن تلك الصراعات الفكرية تشد الناس إليها ، وتبعدهم عن التربية الدينية والأخلاق الحميدة، وهي إحدى عوامل التخلف عن التعليم والرقي – وبذلك تظهر ثغرات هائلة بين الشعوب ، خاصة حينما تفشل السياسة أمام العدو الظالم ، فيفشل الإنسان في كل ميادين حياته .

ومن الحقائق الدامغة أنه حين فشل المسلمون في ميدان الحكم والسياسة على الساحة العالمية أمام قوي الكفر، بدأ التاريخ يغير مجراه، ويظهر أثر تلك الظروف السياسية على الاقتصاد والدين والأخلاق ، ونجحت قوى الإلحاد في توجيه ضربة قاصمة لتلك المبادئ الأساسية التي تنهض الشعوب والأمم على أساسها ، ويظهر الخراب والدمار عند فسادها .

ويذكر العلامة منظور أحمد النعماني (مدير مجلة الفرقان) أن من أهم ركائز تحول الشيخ محمد إلياس من التدريس إلى حركة الدعوة ، ما حز في نفسه من أحوال المسلمين وهي تتلخص في أن الإمام محمد إلياس قد أحس إحساساً شديداً بأن حياة المسلمين الآن ليست هي الحياة التي كانت على عهد محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنها لا تتسق مع حياة الصحابة رضوان الله عليهم ، لا في ظاهرها ولا في بواطن أمورها ، حتى في معظم الناس من المسلمين ، وكذلك في معظم أفراد الأسرة الدينية ، فالنتيجة واضحة : وهي أن حياة المسلمين من حيث المجموع هي حياة زائفة مثلما كانت حياة أهل الكتاب وقت بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويترتب على ذلك طبقاً للأوامر القرآنية ، وسنة الله في الكون ، وتاريخ الأمم التي تبرهنها الظروف الراهنة ، أن كل تلك الأحداث والأوضاع تؤدي إلى غضب الله وقهره .

ومن المؤكد أنه لو استمرت حالة مسلمي الهند على هذا المنوال ، فليس ببعيد أن يتحول عدد كبير من المسلمين إلى الكفر، وبذلك ينزع الله سبحانه وتعالى من هؤلاء القوم نعمة الإيمان، ويزيغ قلوبهم بالكفر والعصيان ، لأن الأمر قد وصل إلى درجة أن معظم مسلمي شبه القارة لا يعرفون حقيقة نسبتهم إلى الإسلام ، بل يعرفون أنهم مسلمون فقط وأنهم قد ورثوا الإسلام عن آبائهم وأجدادهم ، ولا حاجة لهم بالتعرف على أحكام الإسلام ومبادئه وتاريخه ، بل من الملاحظ أنه لو تغيرت الأحوال في شبه القارة – خلال تلك الظروف القاسية ، حل الخطر المادي ، وأحاط بأرواح المسلمين ، فليس لهم إلا أن يرتدوا إلى الكفر ، إذ ليس لهم حاجة أن يبذلوا جهودهم للبقاء على الإسلام أو نسبة أنفسهم إليه[1] لأن إيمانهم لم يكن عن عقيدة ، بل ورثوه بالتقليد ، وليس بالتحقيق والاقتناع بماهيته وأصوله .

ثم يذكر العلامة النعماني استدلالا على صحة هذه النظرية أنه عقب أحداث عام 1947 ارتد العديد من الناس عن الإسلام حين استقلال شبه القارة الهندية الباكستانية ، وذلك خوفاً على أموالهم وأنفسهم من الهندوس الآريين ، وحين عاد الأمن والسلام في المنطقة لم يرض هؤلاء الآلاف بالعودة إلى الإسلام ، كما لم يعد إلى الإسلام مئات الآلاف مثلهم من المرتدين عن الإسلام إبان حركة الردة عام 1931 في وسط الهند[2] .

وكان هذا هو حال عامة الشعب من البسطاء، أما من بقي في الإسلام وادعي معرفته به ودرايته بأصوله ، فهم يمثلون خمسة وتسعين في المائة من سكان المدن، ولا غرابة أيضاً يعد تعليمهم وتثقيفهم في المدارس الأجنبية أن يبتعدوا عن الروح الدينية، فهم يعتدون على حرمات الإسلام، ويتجاوزون حدود الله أملا في

(1) دعوت وتبليغ صـ3 وما بعدها بتصرف.

(2) وقد بلغ عدد هؤلاء المرتدين ما بين أربعمائة إلى خمسمائة ألف.

الوظائف العالية في المناصب الحكومية ، فلا يشعرون بالخزي والعار من أفعالهم هذه، ولا يلومون أنفسهم عليها .

والحقيقة الواضحة الثابتة هي أن أي شيء يمكن أن يؤثر على هؤلاء المسلمين البسطاء ، فيؤدي بهم إلى ترك أحكام القرآن ، أو ترك دينهم كلية ، لأن الإيمان لم يكن راسخاً في قلوبهم[(1)] .

وبعد ذلك يضيف العلامة النعماني : إنه لم يمض عام واحد على الدور الجديد في الهند[(2)] إلا وقد تغيرت الأحداث بشكل ملحوظ ، لأن الموظفين المسلمين في الدوائر الحكومية كانوا يحاولوا إخفاء صورة الإسلام وسيرته خوفاً من الهندوس ، وتقرباً إليهم ، وتذلفاً لهم حتى أنهم خلال أسفارهم ، أو في محلاتهم التجارية كانوا يتبعون نفس الأسلوب ، أي إخفاء هيئتهم الإسلامية ، حتى لا تؤذي مشاعر الهندوس برؤية المسلمين داخل بلاد الهند التي رجعت إلى الوثنية مرة أخري بعد عدة قرون .

وبلغ الأمر غايته لدرجة أن الهندوس كانوا لا يستعينون بالعمال المسلمين مساعدين لهم في المحلات التجارية أو الدوائر الحكومية ، وكذلك كان التجار المسلمون وأصحاب المحلات يأخذون مساعديهم من غير المسلمين أيضاً ، حتى يتوجه إليهم الكافر والملحد دون قلق .

ولو استمر هذا الابتعاد الجزئي عن الإسلام ، فليس من المستبعد – مع مضي الوقت – أن يتركوا الإسلام بصورة نهائية[(3)] .

---

(1) وهؤلاء يصدق عليهم قوله تعالى : " ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين " .

(2) يقصد العلامة فترة استقلال حكم الآريين وتأسيس باكستان الإسلامية .

(3) دعوت والتبليغ ص5 وما بعدها ، وراجع : الأصوات المجهولة في الهند لوزارة الاعلام الباكستانية ، والفحص الاجتماعي والسياسي للمذاهب العالمية لأحمد عبدالله المسدوسي.

هذا من ناحية رجال المسلمين ، أما من ناحية المرأة المسلمة في شبه القارة ، والتي اشتهرت بالحجاب اقتداء بأمهات المؤمنين ، فيري الشيخ محمد إلياس أن المرأة المسلمة الأولي ، كانت هي المسئولة عن تربية أهل البيت وتكوين الأسرة تكويناً دينياً سليماً لا غبار عليه ، كانت هي المؤثر الأول في تكوين المجتمع الإسلامي القويم ، وكانت تربيتها هي العامل الرئيسي في تحسين أوضاع البلاد للأجيال التالية ، ولها أهمية بالغة في الكيان البشري .

ولكن للأسف ، فقدت المرأة أهميتها ، وخرجت إلى الشوارع ، وأغرقت نفسها في ظلمات البر والبحر – مع أنها كانت اللآلى النادرة ، فأضاعت مكانتها ، وفقدت كرامتها في الأسواق بعد أن حرضها المستغلون والحاقدون على الإسلام للمطالبة بشعار كاذب هو "حرية المرأة" بدعوى أن تنال مكانتها الرفيعة في المجتمع بعد خداعها بهذه الأباطيل ، ولكنها لم تنل السعادة الزائفة بالتقدم المزعوم بعد أن نالت تلك الحرية .

وهكذا تغير المجتمع الإسلامي ، وبدأ كيانه يتلون بالتقاليد الدخيلة ، وبذلك تحولت السكينة إلى اضطراب ، والراحة إلى حزن ، وكان هذا نتيجة أن المسلمين قد نهلوا من مفاسد الأعداء، ولم يتركوا شيئا منها إلا وأخذوه عنهم بل إنهم اتبعوا خطوات الشيطان ، فلم يأخذوا من محاسن الإسلام شيئا ، كما لم ينالوا من حسنات الأغيار ! وانحصرت جهودهم في كسب المادة وأغراضهم الخاصة بدلا من رضاء الله ، فالحاكم المسلم لا يتكلم عن الإسلام إلا لتقوية حكمه وبقاء سلطانه ، ويصلى المسلم صلواته أملاً أن ييسر له الله أموره المادية هذا إلى جانب الصورة البشعة للتقاليد المسمومة والمشبوهة التي تسللت من المجتمعات المجاورة .

كل ذلك كان سبباً في الانحطاط السياسي والاقتصادي والديني والخلقي ، مثلما يوضحه الشيخ محمد أكرم في كتابه "موج كوثر" : إن انحطاط المسلمين السياسي قد وصل إلى ذروته في نهاية القرن الثالث عشر الهجري ، حيث

خرجت معظم مناطق الهند من أيدي المسلمين ، والمأساة الكبرى هي أن معظم المسلمين الجدد كانوا لا يعرفون عن الإسلام شيئاً فكانت حياتهم مثل الهندوس الوثنيين في جميع شئون الحياة ، فإذا كانوا يسجدون لتماثيل آلهتهم في الكفر فقد بدأوا في الإسلام يعبدون مقابر أولياء المسلمين ، كما حل الشيوخ المرشدون محل كهنة البراهمة ، وكان الحصول على التعاويذ والتمائم ، وتقديم النذور لكهنة المسلمين هو غاية الإسلام عندهم ، إذ أن جميع المشاكل المادية والروحية كانت تحل لدي سدنة تلك الأضرحة[1] .

ويذكر العلامة وحيد الدين خان عن حياة الشيخ محمد إلياس ، وفترة قيامه بالتدريس وغيرها من الأمور الدينية في البلاد ، وأساليب جهاده ودعوته فيقول : " إن المرحلة الثانية لجهاد الشيخ محمد إلياس رحمه الله بدأت بعد اتصالاته بأخل منطقة (ميوات) [2] ، حيث عزم على بدء حركة فعالة نشطة ضد الجهل بين عامة

(1) محمد أكرم (الدكتور) : موج كوثر ص13 وما بعدها ط باكستان .

(2) تنسب منطقة " ميوات " (بكسر الميم وسكون الياء وفتح الواو وسكون الألف والتاء) إلى قبيلة " ميو " (بكسر الميم وسكون الأخيرين) وتتشابه هذه القبيلة المسلمة مع بداوة الجزيرة العربية القديمة في جهلها وبداوتها وشجاعتها وتقاليدها العتيقة . يقول العلامة وحيد الدين خان : إن هذه القبيلة قد أسلمت منذ قرون ، ولكن مع الأسف لا يعرف المؤرخون زمن دخولهم الإسلام (محمد إلياس وحركته الدينية وحيد الدين خان وراجع دعوة دينية لأبي الحسن الندوي ص83 وما بعدها) .

أما منطقة (ميوات) فهي تقع في جنوب العاصمة (دهلى) وتتراوح مساحتها بين مائتي كيلو متر طولاً ومائة عرضاً (وحيد الدين خان مولانا محمد إلياس أوران كي ديني تحريك : ص57) . وكانت منطقة (ميوات) تشمل الإمارات الهندية المتعددة ، كما تشمل مناطق حكم الإنجليز ومنها " بهارت بور " و " الور " و"كوركانوان" يليها منطقة "دوآبه" والتي تشمل على المدن الكبرى الآتية (كرنال ، سهارن فور ، مظفر نكر " ميوات " وبلندشهر و " بريلي " وكلها من مديريات العاصمة دهلى (إرشادات محمد إلياس ص5) .

وكانت تلك المناطق تقطنها قبائل (ميوات) وهم من قدماء الهند غير الآريين ، غير أنهم ينسبون أنفسهم إلى سلالات قبائل (راجبوت) ، وقد أفضي إلينا بهذه الحقيقة التاريخية كتاب (آئين اكبرى) أي مجموعة قوانين جلال الدين أكبر " بأنهم من فصيلة كانت تدعي (جادو) من قبائل (راجبوت) وأطلق عليها اسم "الميواتيون" بعد دخولهم في الإسلام (راجع يوسف ص65) . وكان يتراوح عدد هؤلاء الميواتيين في تلك المنطقة ما بين

المسلمين، وذلك لأن هذه المنطقة كانت أقرب المناطق للعاصمة (دهلى) في تلك الآونة ، كما كانت أبعدها اثرا في التربية الإسلامية فاختارها كحقل تجارب له في بداية حركته الإسلامية ، معتقداً بأنه لو نجحت خطته في هذه المنطقة فإنها ستكون برهاناً على نجاح هذا المنهج في العالم أجمع .

ويستطرد العلامة وحيد الدين خان حديثه عن الأحوال الدينية لأهل (ميوات) فيقول : إن قبيلة(ميو) [1] قد أسلمت منذ قرون ، ولكن مع الأسف الشديد كان معظمهم لا يعرفون عن الإسلام شيئاً سوى الاسم فقط ، وأنهم مسلمون ، في حين يسمون أولادهم بأسماء الوثنيين مثل ناهر سنك وبهوت سنك ، ويطيلون جدائل شعور رؤسهم مثل الوثنيين ، ويعبدون التماثيل ، ولآلهتهم ، وإنك لا تجد لديهم شيئاً من الإسلام ، اللهم إلا عند احتفالهم بليلة القدر برفع العلم باسم شخصية إسلامية تدعي " سيد سالار مسعود غازي " وهو أحد قادة جيوش المسلمين في شبه القارة ، ثم يتجهون إلى قبره مقلدين كل أنواع الخرافات والبدع المتولدة من الجهل المطلق ، مثلما يفعلون في حفلهم باسمه ، برغم أن هذا من محرمات الإسلام والشرك الأكبر ، وهم يفعلونه باسم الإسلام.

ومن هذا أيضاً أنهم لا يعرفون الكلمة الطيبة ، وإن زارهم مسلم وأدي صلاته فهم يلتفون حوله ناظرين إليه باستغراب ، سائلين أنفسهم عما يفعل هذا ، هل يعاني من آلام في بطنه ؟ أم أنه مجنون ؟ ولماذا حركاته هذه ؟ قياماً وقعوداً وسجوداً ؟ .

وكانوا كذلك يرتدون اللباس الاعجمي الذي لا يوارى سوءاتهم ، أما المهن المعروفة لديهم ، غير الزراعة ، فكانت السرقة ، والنهب والسلب والقتل ، بل كان من أحب الأعمال إليهم الاعتداء على الغير ، وسفك الدماء ، وغيرها من الأعمال

ثلاثة أو أربعة ملايين نسمة ، أما منطقة (دوآبه) فهي أرقي مناطق المسلمين وأكثرها عدداً في شبه القارة : (أيك اهم ديني دعوت ص5) .

(1) أي قبائل الميواتيين.

الشرسة لأدني الأسباب ، ولم تتغير حياة هؤلاء القوم الهمجية – برغم ما اتسموا به من شجاعة في كيانهم وفطرتهم – نظراً لعدم تعلمهم وتلقيهم التربية الإسلامية السليمة[1] .

ولقد اتفقت جموع المؤرخين على تلك الحقائق والظروف التي عاناها أهل ميوات من جهالتهم ، وبعدهم الكامل عن الإسلام ، وفي ذلك يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي : إن قبائل الميواتيين قد بلغوا أقصي درجات الجهالة التي ليس بعدها إلا " الردة " .

ويقول العقيد " باولت " الإنجليزي[2]: إن " الميواتيين " المسلمين كانوا نصف هندوسيين في عاداتهم وتقاليدهم .

ويذكر خان بهادر دبتي مظفر أحمد فضلى في كتابه " سيمرغ ": إن الميواتيين كانوا يعبدون " ستيلا "[3] ويحتفلون بأيام الهندوس المعروفة مثل " هولى " و " ديوالى " وكانوا على تقاليد الكفر ، من عامة الناس وخاصتهم ، وكانوا يعوذون برجال من الجن ، ويقدمون لهم النذور لحل مشاكلهم ، وكان علم " كوكا "[4] معلقاً في أنحاء المنطقة ، وكان كل منهم ينسب عبوديته إلى " لوناجارى "(5) كما كانوا يقيمون المعابد عند الآبار وينسبونها إلى الإله " هنومان "[6] ، وكانوا كذلك

(1) وحيد الدين خان : مولانا محمد إلياس أوران كي ديني تحريك : ص وما بعدها .

(2) كان ناظراً لولاية ألور من قبل الاستعمار في ذلك الحين : نفس المصدر السابق .

(3) هو أحد آلهة الهندوس .

(4) وهو أحد الشخصيات الوهمية من الجان .

(5) وهو اسم وهمي من الجنيات .

(6) وهو إله يعبد لدي الهندوس ، انظر تقرير باولت الصادر في مجلة الحكومة عام 1878 ، وديني دعوت ص85 (كزيتر الور سنة 1857 لندن) .

يسجدون لغير الله ، وكان الحداد على الميت لديهم عاماً كاملاً ، وكانوا يوشمون على أجسادهم بالرسوم والأشكال الهندوسية المختلفة "[1] .

ويتحدث الأستاذ الندوي عما أثر في نفس الشيخ محمد إلياس من أحوال المسلمين وجهالتهم قبيل بداية الحركة الإيمانية التي دعا إليها ، وخاصة عن الظروف التي حلت في منطقة " ميوات " المسلمة فيقول : من الأسباب الهامة التي أثرت في الشيخ: هذه المنطقة المسلمة التي كانت متاخمة للعاصمة " دهلى " مباشرة، ومع ذلك كانت محرومة من التعليم الإسلامي كلية، برغم ما اشتهرت به قبائلها من الشجاعة والغيرة النادرة، ولكنها بسبب عدم التعليم والتربية السليمة فقد وجهت تلك المميزات إلى التدمير والتخريب بدلا من البناء والتعمير، كما اشتهروا بالسرقة وقطع الطرق والنهب من المناطق المجاورة.

وقد بذل سلاطين المسلمين الجهود الوفيرة لردعهم عن تلك الأعمال الشرسة في المنطقة وما جاورها ، كما فعل السلطات المسلم غياث الدين " بلبن " الذي وجه قصاري جهده لمحاربتهم ، فأرسل جيوشه ودارت معارك كثيرة أسفرت عن خسائر فادحة في جيش غياث الدين ، كما قتل عشرات الآلاف من الميواتيين ، وأعد القائد المسلم مراكز للجيش في مناطق " ميوات " كما حذا حذوه غيره من السلاطين الذين سلكوا نفس الأسلوب ، ولأنه لم يتوجه أحد لتربيتهم تربية إسلامية صحيحة ، فلم تصل جهودهم الإصلاحية إلى غايتها وقد فشل الاستعمار الإنجليزي للحيلولة دون هذا الأسلوب الهمجي برغم كل الجهود المادية والمعنوية التي بذلها في سبيل ذلك[2] .

(1) تاريخ ميوات ص82 وما بعدها ، ومآثر الأجداد للدكتور منظور الحق الصديقي ص97 إلى مائة وثمانية ، نقلاً عن تاريخي جائزة ص44 وما بعدها .

(2) راجع مآثر الأجداد لـ : منظور الحق (الصديقي) وديني دعوت للندوي ص83 ، ومحمد إلياس وحركته الدينية لوحيد خان ص7 وما بعدها .

وتقول جريدة حكومية بولاية " جورجانوان " في تقريرها السنوي عام 1910م عن أهل تلك المنطقة وتقاليدهم الإسلامية : أما الباقي من التقاليد التي ينسبونها – في زعمهم – إلى الإسلام فهي : إنشاء البدع ، وزيارة القبور ، وتقديم النذور ، والخروج بالأعلام تعظيماً لأصحاب القبور .

ونستخلص من ذلك أنهم كانوا غير متمسكين بأي ديانة مستقلة ، ولا يؤدون أحكام الإسلام إلا ما قد علموه من الختان والنكاح ودفن الموتى، وتكفي عندهم زيارة الأضرحة بدلاً من الحج إلى الكعبة ، وزيارة روضة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم مثل السيخ – ضعيفو الاعتقاد – لا يتزوجون من أقاربهم ، وأكثرهم من مدمني المخدات ، ويلبسون لباس الهندوس ، كما يقرر لهم كهنة الهندوس أيام أفراحهم ، وكانوا يتخذون أسماءهم من أسماء الهندوس[1] .

ويقول الشيخ محمد إلياس متأثراً بتلك الظروف المريرة : " إن مسلمي ميوات يعبدون آلهة أخري من دون الله ، وهم أقبح شركاً من المشركين القدماء الذين كانوا يعبدون تماثيل مسجعة جميلة تلمع بجمالها وألوانها ، أما أهل " ميوات " فيعبدون " كالى "[2] السوداء قبيحة المنظر ، وقد بلغ بهم السفه أن عبدوا " روث الحيوان " بغية الحصول على بركتها "[3] .

وقد كتب الشيخ محمد إلياس عن تأثره هذا ، وعما رآه ، إلى جميع علماء الهند ، فكتب رسالة إلى الأستاذ أبي الحسن على الندوي يقول فيها : " لاشك أن المرض المتفشي أكبر بكثير مما يمكن أن تعبر عنه أية كلمة أو قرطاس، لأن الوباء العام لا يخلو منه أحد ولا يترك أحداً ، والجميع مترعون بالسموم التي تفسد كل كيان ، وإن الهداية لمرتبطة بالجهد الدائم المستمر ، فالشئ الذي يكشف وينجلي على الطبيعة الإنسانية ، بالجهد الدائب، فهو الحقيقة التي تنشرح بها الصدور

---

(1) ديني دعوت للندوي 83 ، 86 وما بعدها .

(2) إحدى آلهة الهندوس .

(3) أي روث البقرة (المقدسة عند الهندوس) راجع ملفوظات الشيخ محمد إلياس ملفوظ رقم 163 .

وتؤدي بنا إلى الاطمئنان اليقيني الذي يفتح به أبواب العلم والمعرفة ، وهو الأمر الذي يتذوق الانسان به حقيقة الإيمان وحلاوته ، ويشرح القلوب والأذهان بصورة يعجز عنها إطار البيان وهي " معرفة وجه الحقيقة " .

أما القول الصادق والأمر الواقع الذي يمكن معرفته بالكلمة والكتابة ، فهو موضوع يتمخض عنه الزعم المحض وهو " ستار الحقيقة " الذي يقول عنه العلماء " علم الحجاب الأكبر " الذي يضع السد الإسكندري[1] في الطريق إلى الله "[2] .

وكلمات الشيخ محمد إلياس هذه يعني بها الإفصاح عن وجه الحق ضد الجهل المتفشي في المجتمع ، ثم يدعو العلماء بأن يقوموا عملياً بإيضاح الحقيقة وبواعثها الأساسية ، كما يرفض القعود والجلوس وإصدار البيانات المحضة في الجرائد ، والاكتفاء بإلقاء الخطب وغيرها من الوسائل الرائجة في ذاك الحين حتى نعرف المرض وتشخيصه وعلاجه ، بل ويدعو الشيخ إلى ضرورة القيام بثورة قوية للقضاء على هذا الفساد الذي ظهر بكل أنواعه وأشكاله بعد ضعف الحكم الإسلامي في شبه القارة ، لأن كل العيوب والفتن والمفاسد التي كانت متخفية وراء ستار الحكم المغولي ، فلما تظهرها الأحداث من وراء كواليس القصور ، سرعان ما ظهرت تلك الخرافات ، وأثرن على عامة الشعب بعد عزل المسلمين عن عرش الهند ، وتولى الاستعمار مقاليدها بمعاونة الهندوس ، فبدأت قوى الكفر – بكل طاقاتها – تستغل زوايا الضعف في المسلمين[3] .

ومن البديهي أنه إذا تغيرت هذه الأحوال ، فقد عرف كل مسلم علاقته بالله ورسوله حق المعرفة وآمن بها إيماناً كاملاً ، وتهيأ للانقياد كلية لما جاء به خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، وبهذه النقطة الأساسية تنقشع فيوم الظلام

(1) يعني الشيخ بهذا (السد الإسكندري) هو العائق الذي يحول كلية دون الوصول إلى شيء وهذه إشارة رمزية إلى قصة يأجوج ومأجوج في القرآن .

(2) أبو الحسن على الندوي : ملفوظات الشيخ محمد إلياس ص15 .

(3) موج كوثر ص13 وما بعدها .

والجهل وتتفتح أبواب العلم ، لتنقذ المجتمع من غياهب الجهل والضلالة ، وتخرجه من الظلمات إلى النور ، وتذكره بأمر الله .

معاصرته للحركات المعادية :

إن فشل المسلمين في السياسة قد أدي إلى الجهل المطلق ، لذا حل البؤس والحرمان والتخلف بالمجتمع الإسلامي ، فضلاً عما تمخض عنه من توقف المسار العلمي في المحافل الإسلامية ، بل وتم القضاء على مراكز العلم التي أوصدت أبوابها حينذاك نظراً للقصور في فهم الأمور الدينية الإسلامية ، إذ لم يجد الانسان المسلم صورة صحيحة للعمل أو الخلق الديني القويم ، مما دفعه إلى تعلم لغة القوم المستعمرين والتحلي بأخلاقهم ، واتباع ما تدلي به الخرافات المحرفة من كتبهم ، والتي تزعم أنها هي التي تقضي على ما فيه المسلمين من التخلف[1] ، وهذا يجلي لنا القول بأن الانحلال السياسي والثقافي قد شجع المذاهب الهدامة على مهاجمة المسلمين من زوايا ضعفهم ، وبذا قامت الحركات المعادية للإسلام تنقض بهجوم شرس عنيف من جميع الاتجاهات الممكنة لضرب الإسلام والمسلمين

ونذكر هنا بعضاً من الحركات المعادية للإسلام ، والتي قامت بمحاربة الإسلام والمسلمين بكل الوسائل المادية ، والمعنوية ، والمعروفة كوهج الشمس في ساطعة النهار بأنها من أساليب الحكم الاستعماري ووسائله المادية والمعنوية لإحكام حكمه وتقويته مثل : إغراء المسلمين بالمال والمناصب تارة ، أو معاملتهم بالظلم والنهب والإرهاب والقتل والرعب والتشريد تارة أخري ، في وقت يتمسك فيه المسلم بتلابيب دينه وبعض عليها بالنواجز .

أما الوسائل المعنوية فهي تبدأ ببث الشكوك بالقول أو الكتابة ، أو استخدام وسائل الاعلام ضد الإسلام والقرآن ، وما نزل عليه – صلى الله عليه وسلم –

---

(1) برغم أن تعلم الإنجيل ولغة قومه لم تعد من العلوم الراقية ولا تجدي في إحراز وظيفة فاضلة، بل تسبب في أبعاد المسلمين عن دينهم، بالدرجة الأولى ليس إلا، فإن إفشاء الجهل بين المسلمين، وإن أثر على جميع من أدركوا تلك الظروف، فلابد وأن يؤثر على جميع مفكري الإسلام، وخاصة على المخلصين لدينهم ووطنهم.

ثم عقد الحفلات للقيام بالمناظرات والمؤتمرات والجدل السفسطاني ، والتي تؤدي كلها إلى اضطراب في المجتمع الإسلامي ، فيلهو المجتمع بهذه الأمور ، ويتفرغ الاستعمار لسلب ونهب خيرات البلاد وأموالها ومصادرتها لحساب بلاده ، كما تتفرغ الدوائر الحكومية والجيوش لرسم الخطط المحكمة للهجوم على الإسلام والمسلمين من جديد .

وإذا نظرنا للمسلمين وما لديهم لمواجهة هذه المكائد الاستعمارية ، لما وجدنا لديهم أية حركات منظمة لمجابهة الفتن المدعمة من داخل البلاد وخارجها من الهندوس واليهود والكنائس العالمية، ولكن إذا كان هناك بعض الحركات النضالية للمسلمين، فهي إما شغلت في جبهات الجهاد ، أو غيرت مجراها من الدعوة والدفاع عن الدين إلى السياسة، أو فشلت بسبب عدم إخلاص ذويها، أو عدم توافر الأموال لديهم، أو تفككت عراها بسبب الخلافات فيما بينهم ، أو صارت غير مؤثرة بعد وفاة زعمائها ومؤسسيها ، أو أنها كانت ضعيفة جداً لا جدوى منها .

أما تلك الهجمات العنيفة المنظمة القوية فلا يستطيع قهرها أفراد يعدون على الأصابع في لحظات صعب فيها على المسلمين التقاط أنفاسهم ، وصار من المستحيل أن يأكل المسلم لقمة عيش ، أو يشرب شربة ماء في وطنه[1] وهو آمن مطمئن على دينه ويومه وغده ، وقد سطر لنا التاريخ صورة للجهود الذاتية لبعض الحركات والأفراد، مع اعترافه بأعمالهم النبيلة وجهودهم المشكورة في هذا المجال ، لكن لم تظهر لنا نتائج ملحوظة عن تلك المحاولات الضئيلة " في الكم والكيف " اللهم إلا ما قام به أصحاب حركة فتح المدارس وعلى رأسها مؤسس دار العلوم ديوبند ، ومظاهر العلوم سهانفور ، وأصحاب ندوة العلماء ومؤسس الحركة الإيمانية الشيخ محمد إلياس ، كما أوضحنا من قبل .

---

(1) راجع نقش حياة وماضي علماء الهند المجيد، ودي أوراندينز: للمؤرخ البريطاني د/ هنتر . وتاريخ المسلمين في الهند للنمر وكفاح المسلمين في تحرير الهند لنفس المؤلف .

ولا مراء في أن حركة فتح المدارس كانت البيان الحقيقي لهذه الحركات وأساسها ، والتي أجبرت الإنجليز على فتح مدارس مماثلة ، تهدف إلى غزو فكري جديد ضد تلك المؤسسات الدينية والتي على رأسها دار العلوم ديوبند .

ورغم كل ذلك فإن الحركات الهندوسية لم تحرز أي نجاح في كبح جماح الدعوة الإسلامية وتغيير مجراها، لأنها تدعو إلى دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

كما فشلت بعدها حركة البهاكتية الهندوسية وأخواتها في مزج الإسلام بالأديان الوثنية ويليها حركة الاستشراق والتبشير الاستعماري اللتان فشلتا في تنصير الهند بأكملها ، وكذلك فإنه لم تنقطع – ولن تنقطع – تلك الحركات المعادية للإسلام والمسلمين في أية فترة من الفترات بعد دخول الإسلام في شبه القارة حتى يومنا هذا ، بل تطورت أساليب الهجوم مع التطور السياسي للبلاد ، حتى أنها لتتلون كالحرباء طبقاً لما يحدث من الأحوال على الساحة النضالية بين الطرفين .

وكذلك لم يتوقف الآريون عن أي هجوم ضد الإسلام والمسلمين ، هادفين إلى إعادة الهند إلى نفس النظام الطبقي القديم الذي يضمن لهم السيادة على البلد للأبد ، ولذلك فقد اتفق الآريون مع الاستعمار ضد المسلمين ، وبدأوا حركة " آريه سماج " وهي تعني "النهضة الكبرى لإحياء المجتمع الآرى " ثم حركة " شدهي " ومعناها " التطهير " أي تطهير الهند من المسلمين ، وتليها حركة " سنكهتن " وغيرها من الحركات العديدة التي ترنو إلى نفس الأهداف والتي سارت على نفس المبادئ الهدامة .

يقول صاحب كتاب " الفحص التاريخي لجماعة التبليغ " : " إن الآرايين قد بدءوا حركة " الردة " منذ أن وطئت أقدام الاستعمار أرض الهند ، ولكنهم

أعادوا هذا العمل في عام 1918م وبدأ كل منهم يبذل أقصى ما في وسعه لتطهير الهند من المسلمين بوسائل منظمة وهادفة "[1] .

وقد تجلت تلك المحاولات بصورة رهيبة حينما أثير انتباههم بأنه قد حان الوقت لرحيل الاستعمار ، وعلى أهل الهند أن يقوموا بمحاولاتهم للقضاء على الإسلام والمسلمين في شبه القارة ، كي لا يطالب أحد بشرعية حكمه في شبه القارة سوى الآريين ، فبدأوا بتوزيع مئات الآلاف من الآريين في المدن والقرى ، قاصدين في كل حركاتهم أن كل قاطني الهند الذين دخلوا في الإسلام من الهندوسية الوثنية على مر العصور ، عليهم أن يعودوا إلى الوثنية الآرية القديمة[2] ومن ثم بدأ تحديهم للمسلمين بأن الهند لا تتسع للمسلمين ، ولذلك فعليهم أن يرتدوا إلى دين آبائهم ، أو يخرجوا من الهند ، وإلا فهم يعرضون أنفسهم للقتل بلا جرم اقترفوه[3] .

واتجهوا بعد ذلك لنشر الأكاذيب كوسيلة لاصطياد الفريسة ، مدعين بأن آباء هؤلاء المسلمين وأجدادهم قد أرغموا على الدخول في الإسلام إبان الغزو الإسلامي للهند ، ولم يعتنق أحدهم الإسلام إلا وقد أرغمه ملوك المسلمين ، فلا حرج أن يترك كل مسلم نسبته للإسلام ، ويرفض الاحتفال بأعياد المسلمين فهذا وحده يكفي لعودته للهندوسية[4] .

وبدأت الحملات الضارية في جميع أنحاء الهند ، وخاصة في المديريات الغربية في ولاية " أترا برديش " ومدنها مثل " متهرا " و " بهرت بور " و " أغرا " وهي المناطق التي كانت تقطن فيها قبائل " راجبوت "[5] كما كانت تقطن فصائلها في "

(1) تاريخي جائزة جماعه التبليغ ص78 .
(2) حركة الشيخ محمد إلياس لوحيد الدين خان ص7 .
(3) تاريخي جائزة ص70 إلى 79 ملخص .
(4) تبليغي جماعة اوراس كي بنيادي أصول من 30-31 .
(5) هي نفس القبيلة التي كانت وتحكم الهند وقت دخول الإسلام .

كجرات " ومنها فصيلة "لال خانيين " و " أغاخاني "[1] وهكذا في ولاية كاتهياوار أيضاً ، وفي ذلك يقول العلامة وحيد الدين خان : " إن تلك الحركات قد اشتد أوارها ، فأظهرت بطش قواتها على تلك القبائل ، فكانت حملاتهم ضاربة على قبائل " ملكانة "[2] و " الميواتيين "[3] التي يبلغ عدد كل منها في حدود أربعة إلى خمسة ملايين نسمة[4] .

ومن هنا ظهرت عداوة الهندوس بشكل واضح ، حيث عزلوا جميع المسلمين من مناصبهم في دوائر الولايات الهندوسية ، وأخذ الآريون لأول مرة في التاريخ يستأجرون المبلغين من الهندوس للدعوة إلى الردة ، حيث يساعدهم أمراء الهندوس ، وكونوا جيشاً مستقلاً لإجبار المسلمين على الارتداد ، أو يقتلوهم أو يحرقوا قراهم ، ثم قام زعماء تلك الحركة بتأليف الكتب ضد المسلمين ، مثل ما قام به ديانند سرسوتي بتأليف كتاب أسماه "ستهارتهـ بركاش " يوضح فيه أغراض جماعته وحركته ـ معترضاً على الإسلام والمسلمين بوسائله السمحة ، وقد اعترض فيه ايضاً على القرآن الكريم ، تسعة وخمسين ومائة اعتراض ، ويشمل كتابه هذا على أربعة عشر باباً ، وقد ألفه تحت إشراف الأمير الهندي "راجه جي كشن داس" أمير ولاية "مراد آباد" .

ومن ثم طبع الكتاب في إحدى وعشرين مجلداً منسوباً إلى الأمير "نبير سنكه" أمير ولاية كشمير سابقاً ، وهو مؤلف باللغة الهندية ، وقد أوضح مؤلف هذا الكتاب مسألة ردة جميع مسلمي الهند وأساليبها وطرقها[5] .

---

(1) هما فصيلتان من قبيلة الراجبوت : تاريخي جائزة ص78 – 89 .

(2) فصيلة من قبيلة الراجبوت ، أما (راج بوت) وهم الطبقة الثالثة من الهندوس ، أي الحكام وأصحاب الجيش ، ومعناها : ابن الأمير .

(3) وهم أيضا من قبيلة الراجبوت . نفس المرجع .

(4) حركة الشيخ محمد إلياس لوحيد الدين خان ص7 .

(5) تحريك ارتداد كي مجمل تاريخ د/ غلام بهيك نيرنج ص7 ط دهلى 1937م وراجع : تاريخي جائزة ص79 حاشية .

ويسبب تلك الحملات العنيفة حدثت ضجة كبيرة بين صفوف المسلمين ، وفتح باب المناظرات والمشاجرات ، وبدأت تمتد جذور العداوة بشكل مخيف حيث لا يدري أحد وسائل إخماد هذا الفساد الذي ظهر لأول مرة في تاريخ شبه القارة ، وليس هناك من سبيل للقضاء على هذا السيل الجارف الذي يزداد كل يوم في البلاد(1) للقضاء على المسلمين وتدمير بنيانهم .

ويتحدث العلامة أحمد عبدالله المسدوسى في كتابه عن هذه الحركة وأهدافها ، ومدي نجاحها على مسرح شبه القارة فيقول : إن زعماء الآريين لحركات " البهاكتية " و " آرية سماج " وحركة " شرهي " قد قاموا على الديانات الدخيلة في الهند غير المسيحية ، للأخذ بثأر قديم ، فشدوا أزرهم للقضاء على الديانات كلها ، وخاصة الإسلام والمسلمين ، ورغم أنه لم تنجح تلك الهجمات العنيفة طبقاً لخطتهم في إبادة الإسلام والمسلمين جميعاً ، لكن نجح الآريون في زيادة عدد الهندوس في العالم وخاصة في شبه القارة ، مثلما نجحوا في ارتداد أكثر من أربعة ملايين من مسلمي " آغرا " وما جاورها من قبائل " ملكانة الراجبوتية" فقط ، في حين ضموا خمسة وعشرين مليون فرد من المذاهب الأخرى مثل البوذيين والسيخ والمنبوذين وغيرهم إلى الهندوسية ، وذلك كي يزداد عدد الهندوس عن مسلمي العالم كله وبذا تثبت شرعية السلطة للهندوس وحدهم في جنوب شرق آسيا على الأقل(2) .

انتشار الإلحاد :

ساعدت تلك الصراعات في شبه القارة على نشر الإلحاد بين سكانها ، فمثلاً لو رفض المسلم الارتداد عن الإسلام إلى الهندوسية – فعلية أن يعلن قطع صلته بالأديان كلها حتى تنفصم علاقته مع الله ورسوله ، وبذا يقل عدد المسلمين ،

(1) نفس المرجع 75 ، 80 .

(2) الفحص الاجتماعي والسياسي للمذاهب العالمية للدكتور أحمد عبدالله المسدوسى من ص325 إلى 392 .

ويزداد عدد البراهمة الآريين[1] ، وقد بدأوا تلك الأمور بدعاويهم الكاذبة بأن " الإلحاد " هو مستقبل الهند .

ويوضح الشيخ محمد طيب " عميد دار العلوم في ديوبند " في اجتماع دولي " للدعوة والتبليغ " في مدينة سهارن فور عن تلك الحالة ونتائجها فيقول : " إنه من الممكن أن يرضي الناس عن كل أمر باسم الثقافة والتمدن والحضارة ، ولكن ليس من الممكن أن يرضوا عن نفس الأمور باسم الله، فكل غضب وسباب وسخط ليس إلا بسبب دعوتنا إلى الله وإيماننا به ، ففي الدنيا توجد عبادة الأصنام ، وعبادة الأمراء، وعبادة المادة ، وعبادة القومية والوطن ، لكن عبادة الله لا توجد ، فلا يريد أحد أن يذكر اسم الله في هذه الحياة أبداً "[2] .

وهذه نفس الحالة التي حدثت بعد تلك الحركات المعادية للإسلام من خارج المسلمين ولا غرابة أنه بعد نجاح تلك الحركات ، وكسب المروجين ، ظهر دعاة لهذا العمل من داخل المسلمين أنفسهم، وهم الذين كانوا يتفننون في تدمير القيم الإسلامية من الداخل، مثل الطبيعيين والقاديانيين، ومنكري الحديث، ومدعي التجديد بوسائل التفسير المادي ، والإباحيين والخرافيين الذين يوقعون الملايين من الجهلة السذج في حبائلهم، وكل هؤلاء قد حققوا اسماً كبيراً وشهرة رفيعة لدي سادتهم من الإنجليز والآريين[3] .

أما الحركات الإسلامية التي قامت لمكافحة تلك الضلالة، فيقول عنها الأستاذ العلامة شبلي النعماني : بأن جهود المسلمين في هذا المجال إما أنها كانت فردية، وإما أن الحركات الإسلامية كانت غير كافية وغير منظمة لمواجهة هذه السيول الجارفة[4] من التيارات الملحدة .

---

(1) وكانت تلك السماحة في أخر أيام الاستعمار بعد قيام الحركات الإسلامية في شبه القارة.

(2) أصول الدعوة للشيخ محمد طيب ورحلة دعاة الرحمن تحت عنوان" انتشار الجهل " للمؤلف .

(1) راجع رحلة دعاة الرحمن تحت عنوان : الخطة الداخلية للاستعمار : للمؤلف .

(2) مقالات شبلي أعظم كره 1938 ص5 نقلاً عن تاريخي جائزة 78 .

أما مدي تأثر الشيخ محمد إلياس بتلك الظروف التي سادت شبه القارة ، فلم يتأثر الشيخ بها كشخص عادي ، أو كعامة المفكرين ، بل هو الوحيد الذي جهر برأيه عن هاتين الفتنتين ، وبدأ يحذر قبل بدايتهما ، مظهراً تلك الحقيقة بجلاء تام ، كما أنه رأي بعين اليقين ما نبه إليه المسلمين من هذا الخطر القادم ، وذلك يدل على قوة بصيرته ، حيث إن الكفار قد نفذوا نفس الخطط التي أشار إليها الشيخ محمد إلياس من قبل، حيث يقول : أيها الأصدقاء : إن الفرصة باقية أمامنا للعمل ، فأدعوكم إلى القيام للحفاظ على الدين الحنيف ، لأنني أري أن المسلمين سيواجهون في المستقبل خطرين : أحدهما : الدعوة إلى الكفر ، وإجبار المسلمين على الارتداد كمثل حركة " شدهي " وهذا الخطر يهدد عامة المسلمين في بلدانهم .

أما الخطر الثاني فهو الإلحاد والمادية القادمان مع الحكم الغربي وسياسته ، وسيكون هجوم هذين الخطرين كالعواصف والأعاصير العاتية المدمرة ، فاعملوا ما استطعتم قبل أن يأتي هذا البلاء[(1)] .

وقد ازداد قلق الشيخ حينما بدأت تلك الحركات هجومها العنيف على مسلمي شبه القارة وخاصة على قبائل " الراجبوت " التي تقطن المناطق التي ترعرع وتربي فيها الشيخ محمد إلياس ، وبدأت قبيلة " ملكانة " ترتد إلى الهندوسية الوثنية حيث بلغ عدد المرتدين أربعمائة وخمسون ألفاً من هذه القبيلة فقط ، والباقون فيها على وشك الارتداد ، وتليها منطقة "ميوات" التي تقطنها فصيلة من أعمامهم (أي من قبيلة الراجبوت) وتماثلهم نسلا وأصلاً وعملاً وجهلاً ، فكيف يمكن إصلاح تلك القبائل وأمثالها التي لم تصل إليها جرثومة الارتداد بعد ؟ وإن وصلت ، فلا غرابة أن ترتد تلك القبائل بسبب جهالتها وسذاجتها ؟[(2)]

(1) الملفوظات للشيخ محمد إلياس ملفوظ رقم 83 .

(2) جماعة تبليغ أوراس كي بنيادي أصول ص30 ، 31 وتاريخي جائزة 80 ديني دعوت ندوي 69 .

ولهذا اتجه الشيخ إلى بدء حركة عملية بفتح المكاتب والمدارس ، كما قام بتكوين جماعة الدعاة ، حيث تتجه هذه الجماعة إلى منزل كل مسلم لإرشاده – قدر الإمكان – بأساليب التربية الإسلامية والترغيب في إرسال الأولاد إلى المدارس ، فصعب هذا الأمر على أهل " ميوات " بحجة أنهم كيف يتفرغون هم وأولادهم لشئ لا يفيدهم مادياً ، ومن الصعب عليهم أن يأمروا الأولاد بترك أعمالهم والذهاب إلى المدارس التي تعطلهم عن الكسب زهاء عدة سنين ، حتى يتفهموا الدين الذي لا يأتيهم إلا بالمشاكل والعداوة مع الهندوس وحكم الاستعمار .

ورغم تلك الظروف القاسية استمر الشيخ في افتتاح مراكز العلم في تلك المنطقة ، حتى فتحت على يديه المباركة مئات المدارس الدينية التي تحمل الشيخ نفسه كل نفقاتها[1] .

وعلى هذا فكان الشيخ يعتقد تمام الاعتقاد أن غير المسلمين لا يتعاطفون مع الإسلام ولا يعطونه شيئاً من الإجلال والاحترام والتقدير والعزة ، حتى يظهر الهندوسي المذهب والمسيحي ميله إلى الشيوعية ، والنظام الماركسي ويعتبر الإسلام في نظره من المذاهب البالية القديمة المتخلفة غير النافعة للحياة البشرية، وقد تسللت تلك الأفكار بين بعض المسلمين أنفسهم الذين يظنون أن الإسلام مشابه لقصة طائر العنقاء الخرافي ، وتلك الظروف لم تتولد إلا ببعد المسلمين عن الحياة الإسلامية وتعاليمها ، وذلك لأنهم لم يعيشوا ولم يعايشوا الحياة الإسلامية بعد .

ومن الواضح أن الأديان والمذاهب لم تفهم من الخطب الرنانة ، وإصدار البيانات في الجرائد أو بتأليف الكتب فحسب، بل إن فطرة الإنسان تقوم باستدراك أعمال وأفعال أصحاب تلك الديانات والقائمين عليها ، والجريمة الكبرى هي أن المسلمين كانوا يمثلون الإسلام في أعمالهم وأفعالهم تمثيلاً زائفاً ، فكانوا يشهدون

(1) محمد إلياس وحركته الدينية لوحيد الدين خان ص8 .

الزور مما يدفع غير المسلمين إلى النفور والهروب من هذا الدين ، مع أن المسئولية الأولى الهامة لهذه الأمة هي في اتباع رسالة الأنبياء وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يؤدوا الأمانة إلى البشرية بالقول الصادق والعمل الصالح الذي يفتق العقول ، ويؤثر في كيان المجتمع تأثيراً بالغاً ، لأن البعد والانحراف عن التعاليم الإسلامية لدي معظم أفراد هذه الأمة ، والبعد عن الهدف الحقيقي للإسلام ، والاستغراق في اللذات وأهواء النفس ، ما هي إلا شهادة واضحة ضد الدين الحنيف أمام شعوب العالم الضالة عن سبيل الله الخالق القدير .

وهذا الأمر يجرنا إلى التفكير السليم بالتساؤل : هل يظل هؤلاء القوم على حالتهم هذه ؟ وبذا تجري عليهـــم سنة الله بقضائه ويستبدل قوماً غيرهم حين لا تجد لسنة الله تبديلاً ؟ أو ترجع تلك الأمة إلى أصلها ، ويقوم كل منهم بإصلاح نفسه حتى يمكن إصلاح الأمة الغافلة كلها ؟ .

وبينما كان هذا الفساد يزداد يوماً بعد يوم ، كانت المراكز الإسلامية تفتتح للتعليم ، والمجلات الدينية تصدر ، ولا ينكر أحد جديتها ، والمؤلفون دائبون في التأليف والترجمة فما هو النقص في تلك الجهود الجبارة التي لو آتت ثمارها لاكتمل حق الدعوة وتحسنت الأمور وزال الفساد .

يذكر الشيخ أبو الحسن على الندي ما رآه الشيخ من نقص في المجتمع ، ومن حاجته إلى مزيد من الدعوة فيقول : إن الشيخ محمد إلياس قد رأي أن القيام على تدرس العلوم الدينية بهذا الأسلوب الراهن ، والقيام بالتأليف والإفتاء والقضاء، والرد على البدع والخرافات ، والقيام بالمناظرات ضد الباطل لإحقاق الحق ، والقيام بالتربية والسلوك ، كل هذه الوسائل قد فقدت غايتها المنشودة من ترسيخ الإيمان الكامل بأمهات العقائد ومبادئها فلم تبق ميزة لتلك العقائد ، حيث ضعف الإيمان بربوبية الله، ورسالة إمام الأنبياء، كما وهن الاهتمام بيوم البعث ، وافتقدت أهمية وعزة أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقل احترام الدين والشرع ،

فضلاً عن الرغبة والشوق للأجر والثواب ، ويقول الشيخ محمد إلياس في ذلك : إن هذه العقائد هي أساس تلك الجهود التي تبذل لأجل الدين ، ولكن للأسف الشديد فإن سجرة الإسلام التي كانت تقوم على أرض ثابتة بدأت تتهاوى تحت الأقدام كجرف هار[1] .

وهذا ليس معناه أن الشيخ ينكر التدريس، وهو الذي كان معلماً ممتازاً، ويفتتح المدارس بجهوده الذاتية ، وهذا لا يعني أيضاً أنه ينكر التأليف ، وهو الذي كان يأمر زملاءه وتلاميذه بذلك، ولا نستطيع أن نستنبط أنه كان يحول دون المناظرات ، مع أنه كان يقوم مع أصحابه بالعمل ضد المرتدين ، ويدعوهم إلى القيام بالمناظرات في مواجهة كل من يهاجم الإسلام من أعدائه ، وذلك مثلما كتب إلى العالم الجليل الشيخ عبداللطيف (وكيل جامعة مظاهر العلوم) يدعوه (الشيخ محمد إلياس) إلى القيام بالمناظرات على نهج علمي ، بل يأمره أيضاً أن يأتي بجماعة العلماء المتخصصين في فن المناظرة ، قائلاً له : إن الآريين قد بدأوا حركة الردة بين مسلمي منطقة ميوات بأحط السبل ، ويرغمونهم بكل الوسائل والأساليب الممكنة على الالتحاق بحركة " شدهي "[2] لذا فمن الواجب أن تقام المناظرات علانية ، ويبذل فيها كل الجهود ضد الآريين ، وإلا فسيحيط بنا الخطر الفكري من كل اتجاه ، حتى يوقع الآريون الكفرة أولئك السذج في شباكهم ، وكذلك كان عامة الناس من الجهلة يتشوقون لتلك المناظرات للدخول في هذه الحركة أو رفضها دحراً ، فعليكم بإرسال العلماء مثل الشيخ أسعد الله[3] وغيره من المتخصصين ، وتوفير التجهيزات اللازمة لهذا الأمر ، ولا تغفلوا عن الأوراد المأثورة ، والابتهال

(1) الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية للندوي 381 .

(1) أي حركة تطهير الهند من المسلمين .

(2) هو عالم جليل تتلمذ على يدي قمة رجال العلم مثل الشيخ أشرف على وغيره ، واشتهر بالعلوم المتداولة ، حتى ذاع صيته في أنحاء البلاد ، وخاصة في فن المناظرة ، وله خدمات جليلة في مواجهة حركة الردة . راجع تاريخ مظاهر العلوم جـ2 ومجموعة "كلام أسعد " نقلاً عن رسائل الأكابر ص167 .

إلى الله لطلب النصر منه ، وعاقبة ذلك عنده حيث لا يعلم أحد ماذا سيحدث ، إلا أن إسلام القوم معرض الآن للخطر "[1] .

ومن هنا تتضح لنا صورة تأثر الشيخ محمد إلياس بالأحوال الراهنة في عصره من بين المسلمين أو من أعدائهم ، وما أثرته تلك الخطط المرسومة بعد تطبيقها على المجتمع الإسلامي .

فنري أن الشيخ – بعد كل ما رأي من سوء الأحوال والفساد في المجتمع – بدأ يوجه نفسه إلى تربية عامة المسلمين وتعليمهم ، داعياً زملاءه وتلاميذه إلى القيام بهذا العمل الملموس، وكان ذلك بعد ما تيقن أن كل تلك الهجمات العنيفة لن تؤثر على المسلمين، خاصة إذا كانت تربيتهم إسلامية خالصة .

ولذا كان يأسف لأحوال المسلمين أكثر مما يوجه الاتهامات لغيرهم ، وتظهر تلك الحقيقة في معظم أقواله وكتاباته إلى عظماء القوم ، فمثلاً يكتب إلى شيخ الإسلام (بالهند) الشيخ حسين أحمد المدني (رئيس هيئة التدريس في دار العلوم ديوبند ورئيس المجاهدين ورئيس جمعية علماء الهند) قائلاً : إن العالم الإسلامي لم يبق فيه شيء من السخرية إلا وقد استخدمت ضد التعاليم الإسلامية ، وبدأ المسلمون أنفسهم يسخرون عند ذكر الصلاة والزكاة ، واتباع الكتاب والسنة ، استخفافاً بهذه الأمور[2] .

ولكن من يدرك هذه الحقائق ويشعر بهذه الأمور الملموسة – إلى حد ما – فعلية أن يبذل مساعيه قدر الإمكان لإصلاح هذه الأمة، لأن الجهاد العظيم في الوقت الحاضر هو نفخ روح الدين في أمة ميتة، والقضاء على الأعمال الحياتية التي لا تتعلق بهذا الدين لأنها تسبب غضب الله والحرمان من نعمه، وعلينا أن نأتي بدلاً منها بالأعمال الصالحة التي تسمو بالأمة إلى مجدها ، وتقربها إلى الله ، ولن

---

(3) خطوط أكابر 54 – 55 .

(1) الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية ص381 للندوي .

تنال تلك المكانة إلا بالقيام على الدعوة إلى الله بكل القوى الروحية والمادية التي أعطانا الله سبحانه وتعالى إياها، وأن تبذل كل الجهود الممكنة مثلما كان يفعل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وقد كان هذا هو حال عامة المسلمين الذين تأثروا تأثراً بالغاً وسط هذه الأجواء من السياسة والحملات التكفيرية، حيث تبين لنا ما أثر في الشيخ من تلك المآسي المؤلمة .

إن دواعي الاغتراب عن الإسلام هي أحد الأسباب الأساسية التي أثرت في كيان المجتمع الإسلامّي ، والكوارث الناتجة والمؤسفة التي حاقت به هي نفس الأعراض التي تعاني منها الشعوب حين زوالها، وهي ليست إهمال الفئة المسئولة عن التربية والتعليم فحسب ، أو عدم العناية بواجبهم الحقيقي ، ولكن الأمر الحقيقي كان أكبر مما جابهه الشيخ كما ذكرنا من قبل ، ومن تلك الأسباب أن الشيخ قد استمر طوال حياته في إصلاح ما حدث بالمراكز الدينية والمدراس الإسلامية ، فضلاً عن خنوع العلماء والصوفية، وما وقع من تنافر بين رجال الدين وعامة الشعب الذين تركوا أمر الدين، كما أنه لا ينسي عواقب هذا الخلاف ، المدمر للمجتمع ، بين الخاصة والقائمين بأمور الدعوة ، وذلك بسبب عدم عنايتهم بالمهام الموكولة إليهم .

ومن دواعي ذلك أيضاً خطط الاستعمار، وخاصة في رسم مناهج العلوم الإسلامية والعربية – من وراء الستار – في مدارسهم الأجنبية، حسبما يروق لأهوائهم[1] .

ويتحدث الأستاذ أبو الحسن على الندوي عن هذا التأثر فيقول: إن الشيخ محمد إلياس رحمه الله قد أدرك أن العلماء والمدرسين قد اكتفوا بالتدريس داخل المدارس فقط ، وأشاحوا وجوههم كلية عن الفتن التي مدت جذورها في البلاد ،

---

(1) تبليغ كيابي ص54 .

وأخذ الدراويش والصوفية يلجأون إلى الخانقاهات ، معتكفين على الذكر والصلاة ، وقصروا حياتهم بالخلود إليها ، وآثروا عيشة الترف والراحة ، بين الخدم والمريدين ، لا يغادرون حجراتهم ، تاركين المجتمع في غياهب الظلمات ، منفصمين عن الحياة التي تدعوهم إلى التربية وإصلاح المجتمع ، وبهذا فقدت الأمة منابع الإرشاد والهداية على كل مستويات الحياة وفي جميع طبقات الشعب ولم يستجيبوا لقول الله تعالى : {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}(1) .

كما نسى هؤلاء المرشدون ، من العلماء ، معني قوله تعالى أيضاً : {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}(2) .

وهذا لأن الدعوة إلى الله ، منذ عصر الصحابة والتابعين ، كانت في قبضة جماعة فطرت على التأسي بالمصطفى صلى الله عليه وسلم ، فحملوا ألوية الحكم والجهاد والدعوة وكل ما تحتاج إلية البشرية في وقت واحد بلا تفرقة بين غني وفقير ، لأن الدعوة إلى الله كانت غايتهم المنشودة قبل كل شيء ، فإذا نجحت دعوتهم فقد نجحت كل جهودهم التي بذلوها في كل مجالات الحياة حيث صارت أمور الحياة في أيدي المسلمين سواسية ، سواء أكان أستاذاً أو تلميذاً ، شيخاً مرشداً ، أو فقيراً أو غنياً ، ولكن تلى ذلك بدعة تقسيم الخلافة بين الروحية والمادية ، فأصبح الحكم في أيدي البعض من الحكام ، كما صار العلم والتربية الروحية ، فالعلم في قبضة الأساتذة والعلماء ، ومركزه المدرسة ، والتربية الروحية في قبضة الشيخ المرشد ومركزه الخانقاه ، ومع هذا فكان العالم من أزكي الناس عملاً ، والمرشد من أعلم الناس علماً ، وبرغم هذا فقد زادت الفجوة بين المعلم

(2) سورة آل عمران الآية 110 .

(3) سورة آل عمران الآية 104 .

والشيخ والمرشد حتى أصبح العالم عارياً عن التربية الروحية وتزكية النفس ، متمسكاً بالسند الظاهري للدين لا غير ، كما بدأ الشيوخ المرشدون بتزكية النفس دون علوم الشريعة ، وبذلك انحصرت التربية في الخانقاهات والتعليم بين جدران المدراس .

وهكذا انقسمت المدرسة الدينية (الإسلامية) إلى شعبتين: شعبة علمية خالية من التربية، وشعبة عملية خاوية من العلم .

ومن الواضح أن عباقرة الإسلام الذين تجلت فيوضاتهم في العالم كله كانوا أكثر علماً وعملاً ، متحلين بالتعليم والتربية معاً ، فإذا فقدت إحداهما فهي تؤدي إلى الجهل والضلالة والإلحاد .

ومن هنا تعددت أبواب الرشد والهداية فهذا باب " العلم " ، وهذا بابا الحكمة ، وذاك باب التزكية ، مع أن وظيفة الداعية كانت من أهم الوظائف البشرية والتي تسمى خلافة الله أو خلافة الأنبياء ، لأن ذلك واضح من الكتاب والسنة ، وقوامها قوله تعالى { وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ }[1] .

وقوله تعالى : { وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[2] . وإذا نقص أمر من تلك الأمور ، أو لم يكن الداعية متحلياً بتلك الصفات معاً ، فلن يحول شيء دون انتشار الجهالة والضلالة والفساد ، وبذا يضعف بنيان الجماعة والهوية الإسلامية بين الأمم والشعوب[3] .

وهذا الانقسام في فروع العلم والتربية الإسلامية ، وإقصاء كلاهما عن الآخر كان يؤثر تأثيراً بالغاً خاصة في المجتمع الهندي ، وكان ذلك هو السبب الرئيسي في إفساد أجواء شبه القارة الدينية ، فآل حال مجتمعنا على الحال التي نراها اليوم .

---

(1) سورة البقرة الآية 129 .

(2) سورة آل عمران الآية 104 .

(3) الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية للندوي من9 إلى 14 ملخصاً .

ولاشك أن تلك الظروف المريرة قد بلغت أسوأ أحوالها منذ بداية القرن الثامن عشر إلى بداية القرن التاسع عشر الميلاديين حتى ظهرت نتائجها المؤلمة في بداية القرن العشرين واستمرت إلى يومنا هذا ، وكانت تلك هي الأسباب التي رآها الشيخ محمد إلياس في عصره ، والتي آلت به إلى تغيير مجرى حياته رحمه الله على حسب تلك المؤثرات التي ارتآها من ظروف عصره وأحواله .

ويقول الأستاذ أبو الحسن على الندوي : " إن الشيخ محمد إلياس رحمه الله كان يعتقد تمام الاعتقاد أن كل ما حل بالمسلمين لم يكن إلا نتيجة لبعدهم عن الكتاب والسنة وقد سيطرت تلك الفكرة على ذهنه ، فكان قلبه مفعماً بالحزن دائماً لهذا السبب " .

ثم يتحدث الأستاذ الندوي عن معني ابتعاد المسلمين عن الإسلام ، وماهية هذا البعد في ضوء كلمات الشيخ محمد إلياس نفسه فيقول : لقد بدأ التمسك بالدين يقل يوماً بعد يوم ، بين المسلمين ، حتى انحصرت التقاليد الإسلامية في بعض الأسر الخاصة بدلاً من عامة المسلمين ، بحيث انحصرت تلك التقاليد الإسلامية في بوتقة محدودة في قبضة الخاصة ، ثم ضاقت دائرته في قبضة خاصة الخاصة ، وبذا بقي الإسلام وتقاليده بين قلة من الأفراد ، وسرعان ما وهن عدد هؤلاء الأفراد ، فماذا يكون الأمر بعد هذا ؟! .

أما عن انتشار الإسلام ودعوته فلا نري أي أمل ، ولا نجد أي مجال لأن يقوم المسلمون بهذا العمل ، ولهذا بدأ الإسلام يتدهور يوماً بعد يوم بين مسلمي شبه القارة "[1]

ويتدرج الندوي في حديثه قائلا : " كان الخطر المحزن ، والذي ألم بقلبه (الشيخ محمد إلياس)، هو أن قوى الكفر قد تقضي على الدين الحنيف بعد انقراض هذه القلة من الخاصة ورجال الدين، لأنه لم تسد الثغرة التي تحدث بعد

(1) محمد إلياس ودعوته الدينية للندوي ص13 ، 14 .

وفاة آية شخصية كانت تحمل لواء الجهاد أو العلم أو الدعوة، فلا تجد الخلف مثل السلف ، وبذا صارت المدن والقرى خاوية من كل شيء وهي التي عرفت بالعلم والعلماء والأفذاذ والعباقرة، وكانت تضيء البلاد بنور الإيمان[1] .

ويقول الشيخ محمد إلياس في رسالة إلى أحد أقربائه يواسيه فيها ، فيقول : "للأسف الشديد أن هؤلاء " الأفذاذ " كانوا من ذرية أولياء الله الذين ذاقوا حلاوة اسم الله جل وعلا ولكنهم يرحلون إلى الله تاركين خلفهم من لم يتحمل مسئوليتهم ولم يتذوق مشربهم "[2] .

ثم يذكر الأستاذ الندوي أن الشيخ محمد إلياس كان يدرس بعناية فائقة قضية ما حل بمثقفي المسلمين من بعد واغتراب إذ بدأوا يظاهرون برأيهم في الدين متأثرين بكل ما كان يجري أمامهم ، فأدرك الشيخ أن المثقفين قد اعتقدوا أن الإسلام مشكلة كبيرة في الحياة المعاصرة ، ولذا أصبح الدين الإسلامي غير ممكن العمل به في هذه الحياة ، كما فهموا معني الإسلام على حد زعمهم – بأنه " ترك أمور الدنيا كلها " وعلى هذا فقد يئسوا من الإسلام ، واتجهوا إلى المادة وانهمكوا فيها كلية ، ورضوا بتلك الحياة المادية بعيداً عن الإسلام وتعاليمه ، فانقطعت أواصر القلب بالله ، وتعلقت بالمادة وحب النفس ، فصدق عليهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ، أو عالماً ، أو متعلماً "[3] صدق رسول الله . حتى بلغ الأمر إلى درجة أنه حينما كان يوجه أي أمر من أمور الدين لأي شخص فهو يقول بلا كلفة أو ملل : نحن أصحاب الدنيا (أي أصحاب المادة) ولا علاقة لنا بالدين ، أو يقول البعض : " نحن عباد البطن وكلاب الدنيا "[4] . فصدق عليهم قوله صلى الله عليه وسلم : " الدنيا

---

(2) المصدر السابق نفس الصفحات .

(3) محمد إلياس ودعوته الدينية للندوي ص14 ، 15 .

(1) رواه الترمذي في باب الزهد برقم 2323 . وقال حديث حسن .

(2) محمد إلياس ودعوته الدينية للندوي ص131 .

جيفة وطلابها كلاب"[1] ولم يصل الأمر إلى هذا الحد فقط ، بل بلغ الأمر أقصي من ذلك ، حيث يقول الشيخ محمد إلياس : " إن الناس بدأوا يكرهون رجال الدين ولا يقبلون تربيتهم لهم ، وبلغ الأمر أكثر من ذلك بأن الناس كان يعتدون على الدعاة بدون أي رهبة أو أسف فضلاً عن السخرية منهم[2] . وقد بلغ الأمر حد أن جهلة المسلمين بدأوا يعتدون على الدعاة في المدن والقرى ويتهمونهم بالوهابية ، وجههم إلى ذلك بعض الخرافيين بأن عليهم أن يضربوا الوهابيين الذين يدعون إلى فهم الشريعة ويوجهون الناس إلى تطبيق أحكامها "[3] .

ولكن لا ذنب لهؤلاء الجهلاء لأنهم أصبحوا فريسة الخرافيين المبتدعين ، قبل أن يتذوقوا حلاوة الإيمان ، فكانوا يؤذون محسنيهم الذين يدعونهم إلى الرشد والسعادة في الدارين .

وهذا هو الشيخ محمد إلياس الذي زار يوماً إحدى القرى في منطقة "ميوات" والتقي برجل خلال جولته للدعوة ، فدعاه "الشيخ" أن يصلى معهم جماعة ، فسخط الرجل من دعوته ولطمه لطمة شديدة على وجهه ، فإذا بالشيخ يقع على الأرض مغشياً عليه ، وحينما أفاق الشيخ بدأ يمسك ذيله عن رفله وقال له : " لقد انتهيت من عملك ، فعليك أن تسمع لي الآن " ، ثم بدأ يتأسف (الشيخ للرجل) قائلاً : " لعلني دعوتك بطريقة غير مناسبة" ثم بدأ ينصحه ويوضح له أهمية الحياة ، وضرورة الإسلام فيها[4] .

وكان هذا نموذجاً من نماذج تحقير واستخفاف عامة الناس والجهلة بالدعاة ، أما الوضع الحقيقي الذي وصلت إليه أحوال رجال الدعوة ، فلا يمكن أن نذكر منها إلا أنه قد ملئت بها عشرات الكتب المفعمة بتلك المآسي التي تبين لنا كيف كان

---

(3) رواه البزار في مجمع الزوائد وإسناده ضعيف : جـ 254/10

(4) حركة الشيخ محمد إلياس لوحيد الدين خان ص58 .

(3) راجع نقش حياة لشيخ الإسلام حسين أحمد المدني .

(4) حركة الشيخ محمد إلياس لوحيد الدين خان ص58 .

ينعم أعداء الإسلام في حين كانوا يعتدون على الدعاة وغيرهم من الأعداء وسط جموع الناس ، كما يلقون بهم في غياهب ظلمات سجون الإنجليز ، وأحياناً تعلق جثثهم في الميادين العامة ، ولا يستطيع أحد أن ينبس ببنت شفة ، أو يتفوه بكلمة عن هذا الحال وإلا يلاقي نفس الأسلوب[1] .

فهل يا تري من الممكن أن تنتشر الظلم والجهل في أي زمن ، وفي أي عهد أكثر من هذا ؟! .

تأثر الشيخ محمد إلياس بالمدارس الدينية :

عن مؤثرات المدارس الدينية ونظم تعليمها ، على الشيخ إلياس والمجتمع ، يقول أبو الحسن الندوي : " قد أدرك الشيخ أن عامة الناس قد اعتقدوا بأن الدين وتعليمه لا يمكن إدراكه بغير قراءة الكتب والعلوم المقررة في المدراس الدينية على أيدي الأساتذة المتخصصين والقائمين بهذا العمل في المدارس العربية الدينية ، فمن المعروف أنه لا يمكن لأي فرد من عامة الناس أن يتفرغ تفرغاً كاملاً ، زهاء عشر سنين على الأقل ، لتحصيل العلوم الدينية ، ومعرفة الإسلام وأركانه ، هذا وقد اعتبر المسلمون أن تحصيل العلوم الدينية، ليس من نصيبهم، ومن هنا قرروا بأنهم سيعيشون حياة الجاهلية[2] .

ولكن الشيخ لم ييأس لهذا الوضع مع أنه يقول : " إن الأوردة والشرايين التي كان يغذي بها المسلم إيمانه بدأت تجف وتنعدم " . ويقول في خطاب له إلى أحد زملائه: "لقد أدركت بصيرتي قبل خمسة عشر عاماً ميول أهل الوفاء وطبائعهم، وتأكدت من ذلك أن الحركة التي تسير عليها المكاتب والمدارس الدينية بطيئة جداً بقدر ملحوظ، ومعني ذلك أن ميول الناس ورغباتهم في فتح المدارس ومساعدتها

(1) راجع عن هذه الأحوال المريرة: مسلمي الهند لـ هنتر، وماضي علماء الهند المجيد للعلامة محمد ميان، وحركة شيخ الهند لغلام رسول مهر، وداستان مجاهدين لنفس المؤلف، والوجه الثاني لمسلمي الهند .

(2) راجع عن هذه الأحوال المريرة. مسلمي الهند لـ هنتر، وماضي علماء الهند المجيد للعلامة محمد ميان، وحركة شيخ الهند لغلام رسول مهر، وداستان مجاهدين لنفس المؤلف، والوجه الثاني لمسلمي الهند .

قد تنتهي بعد قليل، وأعني بذلك أن الطريق للمدارس والمراكز الدينية سيكون مغلقاً تماماً في المستقبل القريب، كل ذلك يحدث نتيجة لعدم فاعلية تلك المدارس والمراكز الدينية ، وعدم قيامها برسالتها على الوجه الأكمل "[1] ، زد على ذلك أن العلوم التي كانت تدرس معينة وغايات هامة قد انفصمت أواصرها عن غاياتها وأغراضها ، وبذا أصبحت غير نافعة ، فلم تحظ العلوم بنتائجها المرجوة أو تلقي التوقير في قلوب الناس ، ومن هنا فقد ابتعد عامة الناس عن تلك المدارس ، وصعب عليهم التوجه إليها[2] .

ولكن حين أغلقت مئات المدارس في أنحاء البلاد، وقضي الاستعمار وعملاؤه على البقية الباقية منها، قام الشيخ لمواجهة هذه الهجمات المدمرة، بافتتاح المدارس وتوجيه أتباعه إلى حقيقة الأمر ، ونذكر هنا ما كتبه إلى جماعة من أتباعه قائلاً لهم: " عليكم أن تشدوا أزركم لبيان تلك الحقيقة وترسيخها في أذهان الناس ، بأن إغلاق مئات المدارس الدينية وبال وقهر لأهل العصر ، وهو الخطر الأكبر الذي نسأل عنه يوم القيامة ، لأن العدو كاد يقضي على القرآن وتعليمه ، وما تألمت قلوبكم لهذا ! وما كان لكتاب الله نصيب في أموالكم !! وقال : " وكل هذا يؤدي إلى خطر عظيم "[3] .

وكان الشيخ يعتقد أن وجود المدارس من أهم الأمور في التربية ولا يمكن تثقيف المسلمين إلا بافتتاح العديد من المدارس وإعطائها دفعة قوية حتى تزيد فاعليتها ، ويكون العمل سليماً كماً وكيفاً ، وبذا يزداد حب الناس لتعاليم القرآن والعمل بها .

(1) محمد إلياس ودعوته الدينية للندوي 283 .
(2) نفس المرجع ص284 .
(3) نفس المرجع .

وما كانت مسألة افتتاح المدارس الجديدة غاية الشيخ فحسب ، بل شملت فكرة الشيخ جميع مراكز العلم بما فيها النظام التربوي ، وغيرها من الأمور اللازمة لها حتى تؤتي ثمارها المنشودة .

يقول العلامة محمد إسحاق الصديقي السندهلوي بأن الإمام الشيخ محمد إلياس قد أحس أن المدارس والمكاتب الإسلامية عديدة ، ولكن عدد الطلاب بدأ يقل رويداً رويداً في تلك المراكز ، وبدأ الناس يتجهون هم وأبناؤهم إلى المدارس الأجنبية، كما قل عدد الحاضرين في مجالس الوعظ، وذهبت هيبة الخانقاهات[1] ، وكادت تنفصم وشائج الناس بالعلماء مما يهون الأمر للعدو للقضاء على كل مراكز الهداية لمسلمي شبه القارة[2] .

ويقول الشيخ في خطاب له إلى أحد زملائه : " ولكن تلك الفتن القاصمة المظلمة الملتهبة والمحرقة للإيمان ، التي تقضي على حماسة المسلمين لدينهم ، سرعتها أكبر بكثير من سرعة القاطرة ، أما حركة الدعوة للحق فسرعتها أبطأ وأقل من سرعة النملة ، وهذا القدر لا يكفي لإرواء الظمأ أمام تلك الفتن ، فالاشتغال بالدعوة ، وسط هذه الفتن ، هو الطريق الوحيد لإنقاذ البشرية من ظلمات البر والبحر ، ولرفع مكانة الأمة وتقربها إلى الله ، ولكن تلبية الناس بالتشوق المحض – دون العمل – لا تكفي لري الأرض اليابسة ، ولا يكفي هذا المرهم للشفاء ، لأن الناس قد نسوا العمل لدرجة أنهم يعتقدون أن الموافقة بالقول أو التلبية باللسان فقط ، هي غاية العمل وانتهاؤه ، فإن لم يقم البعض بالعمل السليم – كقدوة – للتضحية في سبيل الدعوة إلى الله ، فلا يمكن أن نصل إلى طريق العمل السليم من ميدان التلبية "[3] .

---

(1) مراكز مشايخ التصوف .

(2) تاريخي جائز لجماعة التبليغ ص11 وما بعدها .

(3) مكاتيب الشيخ محمد إلياس 120 ، 121 .

ومن كل ما ذكرناه في هذا الموضوع يتضح أن الشيخ محمد إلياس رحمه الله كان يهتم اهتماماً بالغاً بتعميم التعليم في الشعب المسلم ، ثم نجد اهتمامه الخاص بجدية العمل الخالص، لأن العمل الموتور هو المؤثر الأكبر على ضعف تلك المراكز ، نظراً لعدم قدرتها على إنتاج سليم للمجتمع ، الذي يحتاج إلى رجال يملؤهم العلم والتقوى والورع ، وتكوين شخصية تؤثر على ذويها وغيرهم من داخل المسلمين وخارجهم .

يقول العلامة وحيد الدين خان : " إن الشيخ محمد إلياس قد نجح في إقامة مئات المكاتب والمدارس الدينية التي اشتهرت بتعليمها وتربيتها في منطقة ميوات كتجربة ابتدائية للتربية والتعليم على مستوي الشعب ، ولكن تحول ذهنه إلى نقطة أخري وهي أن التربية المؤقتة في جدران المدرسة لا تكفى للإنسان ، لأنه ينقلب بسرعة إلى ما كان فيه من الجهل قبل دخوله المدرسة ، وكما أنه تحيط به نفس الظلمات ، من كل الاتجاهات ، بعد فراغه منها "[1] .

وقد بلغت تلك الفكرة إلي درجة الاعتقاد ، حتى أنه حينما قدم إليه أحد شباب المنطقة من خريجي تلك المعاهد الدينية – التي فتحها الشيخ في تلك المنطقة – وأثني عليه ثناء حسناً بالعلم والعمل ، إلا أنه لم تكن تبدو عليه سمات المسلمين ، بل كان على ما كان عليه في الجاهلية كالميواتيين والهندوس ، وعندئذ فطن الشيخ إلى عدم جدوي هذا الأسلوب النظري في الإصلاح .

يقول وحيد الدين خان في سرد كلامه : " إنه مما لا شك فيه أن المدارس التي فتحت على يد الشيخ محمد إلياس كانت مفيدة للغاية ، حيث أنها أصبحت مراكز للتربية والإصلاح في المسائل والمشاكل التي كان يعانيها الشعب ، وأصبحت شخصية الشيخ محمد إلياس معروفة ومعترفاً بها لدى كل صغير وكبير في المنطقة ، ولكن الشيخ لم يطمئن بعد لنتائج التربية لأبناء أهل ميوات ، وخاصة إذا عاد

---

(1) نفس المصدر السابق .

بعضهم إلى نفس التقاليد بعد تخرجهم من تلك المدارس ، ويتجلى ذلك في قول الشيخ محمد إلياس : " إن شخصية هذا المتخرج لا تصلح ولا تكفى لتمثيل أمور الدعوة والتربية في المنطقة كلها ، كما لا يكفي الوعظ وحده لعامة الناس لأنهم يتلذذون مؤقتاً بالقصص والمسائل الدينية ثم ينسونها بعد انشغالهم بأمورهم "[1] ، وقد حدث للشيخ تغيير هائل في أفاكره بعد ما تأكد من النتائج التي أسفرت عن الجهود التي بذلت من قبل .

ولعل هذا التغيير يتضح من قوله للداعي الكبير[2] رئيس مجلس الأحرار ، ورئيس جمعية تحفظ ختم النبوة ، وقد سجلت تلك الأقوال على يد العلامة منظور أحمد النعماني[3] حيث قال الشيخ : " إن لقاء المسلم بأخيه ليس إلا لنشر الدعوة وتقويتها ، وإلا فلا فرق بين لقاء المسلم والكافر ، وإنني حين قمت بالتدريس ، أقبل على مجلسي حشود الطلاب من ذوي المهارات الفائقة والكفاءات العالية ، فأصبحوا علماء أجلاء بعد بذل الجهود المضنية ، ولكن هذا الإنتاج لم يفرق كثيراً بين الشيوخ والعلماء العاديين ، لأن معظم المتخرجين ليسوا كالسابقين الذين كانوا يذهبون إلى الجهاد ، أو يضحون بأموالهم وأنفسهم لنشر الدعوة ، بل إن الظروف قد تغيرت بشكل ملحوظ ، وذلك بتعلمهم الطب القديم ، فبدأوا مهنة التطبيب في الحارات (بعد الخرج من المدارس الدينية) أو يتقدمون لاختبارات المدارس والجامعات الإنجليزية ، ثم يحتلون المناصب فيها ، أو يقومون بالتدريس في نفس المدارس الدينية التي تخرجوا منها ؛ وإلا سيعود إلى نفس الحياة المعيشية التي جاء منها من قبل فتتغلب عليه ألوان الجاهلية بعد مرور الزمن ، فيسئ بذلك إلى سمعة العلماء ، وكل ذلك يبعدنا عن الهدف المنشود ، وهو توجيه المسلمين إلى التمسك بالكتاب والسنة ومجابهة الهجمات الفكرية المعادية للإسلام ، والقيام

(1) حركة الشيخ محمد إلياس لوحيد الدين خان ص8 وما بعدها .
(2) وهو السيد عطاء الله شاه البخاري يعد من أكبر أعداء الاستعمار في عصره .
(3) وهو مدير مجلة (الفرقان) .

بالتربية السليمة لعامة المسلمين ، وبعد ما أدركت بعين الحقيقة أن إنتاج بعض المتخرجين كالعادة ليست هي الغاية المنشودة ، ولن يحدث بها أي انقلاب أو تغيير في جذور التربية لدي المسلمين ، كره قلبي التدريس المحض ثم حان الوقت الذي أمرني فيه الشيخ[1] بالقيام على التربية الروحية ، وأن أجلس على سجادة التربية ، لتربية الناس في الاشتغال بالعبادة والذكر ، فأعطاني الخلافة وأجازني للبيعة ، فتوجه الناس إلى ، فجاءت تلك الخطة بثمارها الهائلة .

وحينما استرعي نظري نتيجة هذا العمل ، تبين لي أن غاية هذا العمل ليست إلا توجيه بعض الناس إلى العبادة وذكر الله ، وأن يكونوا مشغولين به ، ومن ثم ينالون الشهرة بين العامة ، فيأتي الناس إليهم كي يدعوا الله لهم بالزيادة في الأموال والبركة في الأولاد ويطلبوا منهم التمائم والتعاويذ ... الخ . أو يتركوا جيلاً – كأمثالهم – يسيرون على نفس المنوال ، فانصرفت عن هذا ، وتوجهت إلى الله أن يشرح قلبي للعمل الذي يكون علاجاً للأمراض الخبيثة في المجتمع ، فأكرمني الله بنصرته ، وشرح صدري إلى أن القوي الظاهرة والباطنة الموهوبة من عند الله سبحانه ليس مآ لها إلا أن تصرف في العمل الذي قام به محمد صلى الله عليه وسلم .

وليس العمل إلا أن نوجه عباد الله إلى ربهم ، حيث تتولد فيهم الرغبة إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وأن يرسخ في قلوبهم مبادئ الإيمان ومشاعر التضحية ، حتى يصبح شعار الناس أن الروح والجسد لا قيمة لهما بدون قيام الإنسان بالعمل على إعلاء كلمة الله على وجه الأرض .

وهذه هي حركتنا ، وهذا هو ما نقوله للمجتمع ، فإذا بدأ هذا العمل وانتشر في البلاد فستقام المدارس ومراكز التربية الروحية أكثر ألف مرة مما هو الآن ، بل

(1) هو المحدث الجليل الشيخ خليل أحمد السهارنفوري ، رئيس هيئة التدريس وشيخ الحديث بمدرسة مظاهر العلوم بمدينة سهارنفور .

يصبح كل مسلم مدرسة ومركزاً للتربية ، وبذلك توزع نعمة الله التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم بالحق بين العامة والخاصة[1] .

أسباب انحطاط المسلمين ومواضع الداء في نظر الشيخ محمد إلياس :

أما أسباب انحطاط المسلمين، وما نتج عنها فهي واضحة في نظر الشيخ محمد إلياس، وهو ما رسمه أذناب الشياطين من المستعمرين والمبشرين، والمستشرقين والملحدين ، من الهندوس والآريين وغيرهم من أعداء الإسلام ، وخلاصتها أن المسلمين ابتعدوا عن الكتاب والسنة ، وبدأوا يرتابوا في آيات الله ، وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانقطعت علاقتهم بالله ، فأغلقت دونهم أبواب الرحمة والنصرة ، بل وأكثر من ذلك فقد أصبحوا من أذل الناس في حين كان أسلافهم من أعز الناس على وجه الأرض .

أما ما ارتآه الشيخ محمد إلياس، رحمه الله، ببصيرته الثاقبة ، فنذكر هنا خلاصة ما أمر به الشيخ خليفته المحدث الفقيه المؤرخ العلامة احتشام الحسن[2] الكاندهلوي بأن يجمع ما تنبأ به الشيخ من أسباب زوال المسلمين ، وخاصة في مجال الدعوة إلى الله .

وأول ما ذكره خليفته هو نظرة الشيخ إلى تاريخ المسلمين حيث يقول : " إننا حينما نظرنا إلى تاريخ المسلمين، وتصفحنا أوراقهم، وجدنا أن العزة والكرامة، والجاه والحكم وغيرها من النعم الكونية ، ما هي إلا للمسلمين ، وأن المسلم هو المالك الوحيد ، والموكول إليه هذه النعم والأشياء جميعها .

ولكن لو نظرنا إلى الأحوال والظروف الراهنة التي أحاطت بالمسلمين ، فسنجد أنفسنا في غاية الضعف والإفلاس والمذلة ، فلا حول ولا قوة ولا ثروة ولا جاه، ولا سلطان ولا ألفة، ولا رحمة ولا أخوة بين الناس ، ولا تجد أيضاً

---

(1) راجع ملفوظات الشيخ محمد إلياس ، ملفوظ رقم 138 ، وديني دعوت للندوي ص299 .

(2) هو الشيخ احتشام الحسن بن رءوف الحسن بن ضياء الحسن بن نور الحسن ، اشتهر في جميع العلوم المتداولة وخاصة في مجال التأليف وله كتب قيمة ومنها: (حالات مشايخ كاندهلة) .

الأعمال الصالحة، والتقاليد الحسنة فضلاً عن مبادئ الأخلاق في السيرة والسلوك ، فكل السيئات موجودة بين المسلمين، وكل الحسنات بعيدة عنهم كل البعد ، وبذا يفرح الأعداء بأحوالهم هذه ، ويضحكون منهم ساخرين كما ينقبون عن أسباب ضعف الأمة ، ثم يستغلونها وينشرونها في أرجاء العالم .

وحتى فلذات أكبادنا ، مدعي التحضر، يسخرون من المبادئ الإسلامية المقدسة ، وينتقدون كل شيء في الدين الحنيف ، معتقدين أنه وأحكامه غير قابلين للعمل بهما في هذا العصر ، وبناء على ذلك يسمونه " باللغو " وكل هذا يحير العقول ، لأن الأمة التي كان أصحابها هم المنهل العذب للبشرية وأنهارها المتدفقة ، تجدهم اليوم عطشي ، فلا مدنية ولا حضارة لأمة وهبت للبشرية مشارب الثقافة وأساليب الحياة المتقدمة الراقية "[1] .

ويري الشيخ أن الأمة مع أنها في طفرات مستمرة من ناحية بالعدد ، وسعة الأرض في أقطار العالم ، تعاني من ضروب المحن والبلايا ، فرؤسها حانية ، ونفوسها كاسرة ، وحميتها فاترة ، وصار أبناء الأمة يرضون بحياة الذل ، وتدنوا إلى الدركات الوضيعة، وازدادت الهوة بينهم وبين أسلافهم المكافحين المجاهدين من أصحاب العزة والغير والشجاعة خلفهم على العكس منهم ، في حالة من التناحر والتدني، مما ينذر بخطر جسيم، ولم تعد الأمة، من حيث المجموع، تتمتع بمكانتها السامية الحقيقية لا روحاً ولا مادة ، كما حرمت من المعاني الرفيعة والفضائل الخلقية التي امتازت بها في أمسها ، وجنح بها الشيطان عن سبيل الله، وأبعدها عن اتباع أوامر الله سبحانه وتعالى ، فصارت حياتها جحيماً بعد أن كانت نعيماً ، كما صار عيشها عذاباً بعد أن كان هنيئاً رغيداً ، وظهر الفساد في البر والبحر برغم مئات الألوف من علماء المسلمين وزهادهم ، وشاعت المنكرات، وسادت الكبائر مع وجود آلاف المدارس والمساجد، ولم تعد العبادات باقية، وما بقي منها أصبح

(1) يستي اوراس كاعلاج ص3 .

فارغاً أجوف لا روح فيه، فلا القلوب تخشع لذكر الله ، ولا الصلوات تنهي عن الفحشاء والمنكر ، وأصبحت الأمة في مسيس الحاجة لأن يعني بها المعنون ويرقي بها المسئولون ويسمو بها السامون ، ولكن كيف السبيل إلى توجيهها وتقويمها وتذكيرها ؟[1] .

وقد رأي زعماء الأمة تلك الظروف وشعروا بها منذ زمن ، وقدموا لها الحلول العديدة ولكن المرض كلما عولج زادت حدته ، لأنه إذا بلغت الأمور الراهنة غايتها من الفساد ، فالمستقبل أكثر منها فساداً وخطراً ، لأن الصمت أو الكسل عن الجهود العملية ما هو إلا جريمة غير قابلة للإبدال والتسامح[2] .

وقد اعتقد الشيخ محمد إلياس أن المبادرة إلى أية عملية إصلاحية لا تنفع إلا بعد أن تدرس أسبابها وبواعثها الأساسية ، التي أدت إلى ذلك الانهيار والمذلة ، التي ابتليت بها الأمة ، فاختار الشيخ أسلوب تدريس الحقائق والبواعث على ضوء الحلول التي اختارها السابقون ، ولم تكلل تلك الحلول بالنجاح ، بل فشلت ، إلى درجة جعلت اليأس يسيطر على زعماء الأمة في شبه القارة على الأقل .

ويقول الشيخ : " إن الحقيقة الثابتة هي أن المرض الحقيقي لم يكتشف بعد في صورته الحقيقية وأسلوبه الكامل ، لأن الأساليب والبواعث التي ذكرت – من قبل بعض المصلحين – ليست هي أصل المرض بل كانت عوارض بحتة لا غير[3] .

ومن ثم قام الشيخ بتحديد الداء، موجهاً أصحابه إلى ما رآه من الحقائق الثابتة قائلاً : " ولاريب أن القرآن هو الدستور الكامل للحياة البشرية للأبد . ولا معني للقول بأن القرآن الكريم قاصر عن تلك الهداية ، ومن هنا يجب أن نبحث عن المرض الحقيقي ، وعلاجه من القرآن نفسه ، حتى ترجع هذه الأمة إلى مجدها

(1) محمد إلياس ودعوته الدينية لصدر الدين الأنصاري ص8 وما بعدها بتصريف طفيف .
(2) مسلما نون كي بيستي اوراس كاعلاج : ص4 وما بعدها .
(3) نفس المرجع .

الغابر على حسب ما وعدنا الله سبحانه بالخلافة والعزة والكرامة والنصر ، والشئ الذي ينقصنا الآن ليس إلا معرفة سبب الحرمان من هذا كله ، ولكننا نجد أن عوامل الهداية والفلاح والعزة والكرامة والمجد كلها متصلة ومرتبطة بالإيمان الكامل بالله ورسوله وما أنزل عليه ، كما نجد أن الضلالة والحرمان والخسران والذلة كلها تأتي بمقدار الضعف في الإيمان .

وعلى سبيل المثال فلم تقع أية حادثة غريبة شاذة في عصر الصحابة إلا وكانت حافزاً لهم على الصبر وتحمل الشدائد والتضحية والشجاعة والقيام بالعمل الصالح ، واجتناب ما يخالف شرف الإنسانية ، حيث كان الإيمان الكامل هو العامل الأساسي لهؤلاء العباقرة خلال تاريخ البشرية كلها[1] .

ومما لا شك فيه أن الضعف ينزل بالأمة بقدر ما يزداد الضعف في الإيمان .

ومن هنا يتأكد لنا أن الإيمان هو أساس الإسلام والدين الحنيف ، وأن قوة الإيمان هي السبب الوحيد والعامل الأساسي في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والأخلاقية حيث تزدهر بازدهارها وتنهار بانحطاطها ، وهذه هي القضية الكبرى التي بني عليها أساس الأمم والشعوب ، فلم ينجح أي قوم في تلك القضية إلا من أسلم وجهه لله وهو محسن واستمسك بالعروة الوثقي لا انفصام لها .

ومن الممكن أن نخلص ما رآه الشيخ من مواضع الداء في النقاط الآتية :

مواضع الـــــداء :

أولاً : اكتشف الشيخ أن الإيمان قد ضعف في قلوب المسلمين إلى أقصي درجة حتى أن الأغلبية لا تعرف ما هو إيمان المسلم .؟ ومن هو المسلم ؟ ومن هو المؤمن ؟ وما هي الحياة التي لابد لها من الإيمان بالله ورسوله ؟ هذا فضلاً عن الداعين إلى الإيمان بالله ولم يؤمنوا ، وغيرهم الداعين إلى معرفته وهم لم يعرفوه بعد .

---

(2) نفس المرجع .

ولهذا قام الشيخ محمد إلياس برفع شعار الإيمان داعياً الناس إلى ما يدعوهم إليه القرآن[1] بقوله تعالى : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ }[2] .

ثانياً : اعتقد الشيخ أن الإيمان مرتبط بالقول والعمل ، ومن لم يقم بما أنزل الله فهو ليس بمؤمن كامل ، ولهذا قام بإفهام الناس أن الحياة العملية هي معيار العروج والانهيار للأفراج والشعوب ، فالفرد المتحلى بالأعمال الصالحة متحضر ومحمود ، والقوم الذين عمتهم الأعمال الصالحة يعدون قوماً راقين متحضرين ، ذوي عزة وكرامة ، والعكس بالعكس وما كانت حياة الصحابة عظيمة بسبب علومهم فحسب ، بل يرجع الفضل إلى حياتهم العملية التي دفعهم إليها الإيمان الكامل ، فإن ثبت أن العمل لا ينفع إلا بالإيمان ، فمن المؤكد أيضاً أن الإيمان لا يكتمل إلا بالانقياد الكامل في العمل ، لأن العمل شاهد على الإيمان ، بل هو الإشهاد العملي بما يؤمن به الإنسان في قلبه ، ولذا جاءت جميع آيات الإيمان في القرآن الكريم مقرونة بالعمل كقوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ولم تكن هناك آية (إن الذين آمنوا) فقط .

ويقول الشيخ: " للآسف الشديد أننا زعمنا أن " العلوم وحدها " هي الغاية المنشودة وهي الأصل ، ولكن الاستغناء عن العمل تضيع به الإفادة من العلوم ، ورغم أننا نعلم ونعرف كل شيء إلا أنه لا يظهر من أعمالنا أي شيء يذكر ، بل يكثر الكلام ولا نفعل شيئاً " .

ونتيجة لذلك فقد عزلت مراكز العلم عن مراكز العمل .. وبعد العلم عن العمل ، وما استطاع العامة أن يتابعوهما في آن واحد ، فكانت نتيجة ذلك ابتعاد الناس عن مراكز العلم والعمل معاً ، حيث لا ينفع العلم بدون العمل ، ولا العمل بدون العلم .

(1) نفس المرجع .

(2) سورة النساء : آية 136 .

كما أدي هذا البعد إلى تدمير مراكز العلم والمعرفة معاً ، وأصبحت خاوية أو غير مؤثرة في المجتمع ، أما المراكز التي بقيت ، إلى حد ما ، بعيدة عن تلك الأنواع السابقة ، فلا علاقة لها بالشعب وتربيته على أية شاكلة .

ومن المعلوم أن الشعوب فيها الخاصة والعامة ، حيث يلزم تربيتهم ، وإن لم يكن كذلك فالموت للجميع ، لأن الكثرة هم عامة الناس ، فإن ابتعدوا عن التربية السليمة والعمل الصالح ، فقد تزلزلت أقدام الخاصة ، ولذا يلزم التوازن والاستقرار في الطبقتين ، كما يلزم التوازن في العلم والعمل .

ثالثاً : والمرض الثالث هو أن الناس قد أخذوا بعض أحكام الإسلام ، وتركوا معظمها ثم لجأوا إلى النظم الأخرى المعادية للإسلام والفطرة .

رابعاً : ومن أسباب الداء أيضاً أن الناس قد اشتد خلافهم في الفروع ؛ حيث اختفت الأصول ، ووقعوا في غفلة منها ، وذلك نتيجة عدم المعرفة بالدين الكامل .

خامساً : وانتكاسة أخري هي أنه إذا قام أحد لإصلاح أمر ما فهو يعتقد أن الملة الإسلامية لا ينقصها سوى هذا الأمر ، ويزعم أنه إذا صلح هذا الأمر تصلح به كل الأمور وهذا باطل ، لأن هذا المصلح يريد ، عند بدء عمله إصلاح النهاية ، والحقيقة أنها تحتاج إلى الإصلاح من البداية ، حيث يتدرج هذا الإصلاح .. حتى يصل رويداً رويداً إلى نهاية الأمر المنشود ، وان الأمر يحتاج في البداية إلى الطرق والوسائل التي اختارها الصحابة في صدر الإسلام[1] .

سادساً : أما هذا الداء فهو أننا اعتقدنا أن الدنيا ، هي أيضاً ضمن المقاصد الحقيقية وعلينا أن نضعها نصب أعيننا ، والشئ الذي لابد من معرفته هو أنه لاشك في أهمية كسب الإلهية بقوة الحكم الإسلامي .

(1) راجع تبليغ كياهي ص53 وما بعدها ، وإصلاح انقلاب ص30 وما بعدها .

ومن المستحيل أن ترتفع هامة المسلمين ، وتقوي شوكتهم على وجه الأرض بالاستهانة بأحكام الله تعالى علانية ، وإذلال إسلامه في العالم ، على أيدي أبنائه ، فضلاً عن أعدائه .

سابعاً : وهذا الداء هو اعتقادنا بأن التقدم الجديد ، والتمدن الغربي هو غاية الكمال في الحياة ، ناظرين إلى الثقافة الإسلامية وحضارتها بالتخلف والرجعية ، في حين أن التمدن الإسلامي وثقافته هما اللذان يدمران كل الثقافات الباطلة ، حيث يقدمان لنا أساليب الحياة العصرية بصورة مبسطة دون تعقيد ، وتقوم حضارته على المساواة بين الحاكم والمحكوم والغني والفقير ، والعاجز والقوى ، والأسود والأحمر ، وأن تكون صبغتهم واحدة كي تعم الأخوة والمساواة بين أهل الأرض .

ومن الواضح أن الإسلام لا يمنع أخذ العادات الحسنة من الأمم والشعوب ، ما لم تخالف الكتاب والسنة الشريفة ، كما لا يمنع التكاتف والتناصر بين الجديد والقديم ، بل يحث على التعلم والتفكير في الكون .

ولكن مع الأسف الشديد فقد حدثت الظروف التي أدت إلى التصادم والتنافر والبعد الكامل بين الجديد والقديم ، وبذا اختلفت الطرق والأهداف والمبادئ ، وابتعدت بعد المشرقين فأثر هذا البعد على جميع مستويات الحياة في الرجال والنساء ، حتى طلب المرء المسلم الحرية في العقيدة والعمل والرأي ، ولو كانت ضد الإسلام ، كما طلبت المرأة المسلمة حريتها تشبهاً بحرية الغرب على حقيقتها .

وهذا هو أكبر دليل على انهيار المجتمع الإسلامي ، كما أنه دليل واضح على الانهيار الخلقي بين المسلمين ، حيث يحاولون نزع قلادة الإسلام عن أعناقهم ، والتخلي عن مبادئه رافضين أحكامه علانية ، فضلاً عن أنهم رفضوا حمل أمانة الإسلام منذ زمن بعيد[1] .

---

(1) تبليغ كياهي من 53 إلى 57 بتصرف .

ثامناً : أما الخطر الأكبر فهو : أن أصحاب التعليم الجديد ، من المدارس الأجنبية وغيرها ، حينما يريدون أن يتقربوا إلى الدين بإظهار تشوقهم لتحصيل معارفه ، فهم يبدءون بتعلم اللغة العربية ، ويقومون على دراستها بضعة أسابيع ، ثم يبدءون التكلم بها ، وبذا يزعمون أنهم على قدرة تامة بفهم رموز القرآن والسنة الشريفة ، ومن ثم يقوم البعض منهم بتحديد وشرح مفاهيم الآيات والأحاديث النبوية بعقولهم التي تخالف تماماً ما ثبت بالكتاب والسنة الشريفة ، فيضلون ويضلون .

ومن الواضح تماماً أن إتقان اللغة العربية شيء ، وفهم رموز كلام الله ورسوله شيء آخر ، ولو كان علم اللسان هو علم الدين لكان جميع مشركي العرب من أعظم علماء الدين ، لأن لسانهم كان عربياً خالصاً ، وعلى هذا فلا تحتاج جماعة الصحابة لفهم القرآن إلى أكثر من الوحي الصادق ، لأنهم أفصح لساناً من الآخرين ، ويشير إلى هذا قوله تعالى : {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم}[1] وقال تعالى : {فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُون}[2] .

ثم تأتي طائفة أخري ليست أقل من الأولي في فهم القرآن والأحاديث الشريفة ، باستعانتهم بالمترجمات ، ثم يبدءون في المجادلة ونقد الدين ، داعين إلى حرية الرأي في الأمور البينة من الدين ، وذلك أمر خطير لا يقل خطراً عمن يزعم أنه صار طبيباً بعد قراءته لبعض كتب الطب في بيته ، ثم يبدأ التطبيب ، حيث يخدع نفسه ويهلك الآخرين .

هذا وقد أخذ بعض مدعي الحضارة يلجئون إلى الكتب التي ألفت من قبل غير المسلمين لفهم الدين الحنيف ، ولا يختلف هذا الأمر عن الذي يسأل مهندساً معمارياً عن الأمراض القلبية[3] .

---

(1) سورة يوسف : آية 76 .

(2) سورة النحل : آية 43 وسورة الأنبياء : الآية 7 .

(3) تبليغ كيابي 57 ، 58 .

ومن هنا اتضحت الحقيقة وهي أن الإسلام مهدد من داخل المسلمين أكثر مما تهدده القوى الخارجية[1] .

ويلخص لنا العلامة احتشام الحسن ، تأثرات الشيخ محمد إلياس بذلك فيقول : "للأسف الشديد أننا صادفنا ما كنا نخاف منه ، ورأينا بأعيننا أن علامات العلم والعمل لهذا الأساس (أي الإسلام) قد اختفت ، وولت معها التقاليد الحسنة وبركاتها ، ورانت طباع الذلة والحقارة على القلوب ، وانفطرت علاقات العبد مع ربه وتجاسروا باستبسال في اتباع أهواء النفس كالحيوانات .

وليس هذا من المستغرب ، بل صار من النادر أن يوجد إنسان صادق مؤمن يضحي بماله ونفسه ، ويتحمل لوم اللائمين في سبيل إعلاء كلمة الحق ، بل سيطرت عليهم سحابة الغفلة والنسيان ، ورضوا بالذلة والخيبة والمهانة[2] .

أسباب الغفلة ونتائجها :

مما لا شك فيه أن الغفلة من وسوسة الشيطان ، حيث إن الغافل لا يعتبر نفسه غافلاً ، بل يختلق الأسباب والحجج للبرهنة على صحة ما يفعله ، ويجتهد بنفسه في تحديد أسباب انشغاله ، معتقداً بأن هذا هو الواجب ، وبذا يترك معظم الأمور المعنية ، مجلياً أسباب إهمالها وتركها ، على حد زعمه ، ثم يوطد نفسه على ما يؤديه من الأعمال وما يتركه منها ، وبهذا يبتعد عن المتطلبات الملموسة طوال حياته ، وبناء على ذلك فإن الشيخ يوضح أباب الغفلة فيما يلي :

أولاً : لقد خصت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالعلماء فقط ، مع أن الخطاب في القرآن عام للأمة جمعاء ، ويشمل كل أفرادها ، ويستدل الشيخ بحياة الصحابة وعظماء الدهر ، ولكن ترك المرء مسئولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اعتقاداً بأنها مسئولية العلماء فقط ، خطأ كبير .

---

(1) نفس المرجع 59 .

(2) بستي أوراس كاعلاج ص13 .

ويقول : إن فرضية العلماء هي الهداية إلى الصراط المستقيم ، وبيان كلمة الحق ، أما العمل بها وتنفيذها بين خلق الله ، فهي وظيفة كل فرد ، وهذا هو ما يوجهنا إليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم : "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير راع على الناس وهو مسئول عنهم ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأى راعية على بيت بعلها وولده ، وهي مسئولة عنهم ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته "[1] .

وقال عليه الصلاة والسلام : الدين النصيحة ، فلنا لمن ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .[2]

وإذا فرضنا بأن المسئولية مقصورة على العلماء فقط ، فإن الأمر يحتاج الآن في مثل هذه الظروف المحيطة بالأمة الإسلامية أن يجمع كل مسلم قواه لإعلاء كلمة الله ، والحفاظ على الأمانة الإلهية على وجه الأرض .

ثانياً : أما السبب الثاني فهو : اعتقادنا بأن ضلالة الآخرين لا تؤثر علينا ، إذن فما معني هذا الحديث النبوي الذي روي عن أبي بكر رضي الله عنه وهو يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه "[3] .

ثالثاً : والسبب الثالث للغفلة عند الشيخ : " اليأس " ، حيث يقول : إن اليأس قد عم الخاصة والعامة من العلماء والجهلة ، فكل منهم اعتقد بأن الإصلاح أمر مستحيل ، حيث تيقنوا أن عودة مجد المسلمين وتقدمهم أمر صعب بل ومحال ، ونظراً لبعد المسلمين عن الحكم والسلطان ، وتخلفهم في التكنولوجيا الحديثة خاصة في المعدات الحربية، ونقص الأموال والاتحاد والترابط فيما بينهم ، ومعاناة

---

(1) نقلاً عن مسلما نون كي بستي اوراس كاعلاج ص14 أما الحديث : رواه مسلم في باب الايمان برقم 55 .

(2) رواه البخاري في باب الأحكام ومسلم برقم 1829 متفق عليه ،

(3) نقلا عن المرجع السابق : الحديث رواه أبو داود برقم 4338 وصححه ابن حبان برقم 1873 .

العالم الإسلامي من اللامركزية ، وعلى الأخص كون الطبقة الدنيوية الدنيئة قد زعمت أن الزمان قد بعد عن عهد الرسالة في القرن الرابع عشر الهجري ، فبذلك لزمه الانحطاط وأصبح الفناء هو الأمر الحتمي ، كما اعتقدوا أن بذل الجهود للإصلاح في المسلمين أمر باطل ولغو .

ومن العجب أن المذهب الذي كان بناؤه على العمل الخالص والجهد الدائم ، قد يئس أتباعه فأهملوا العمل به ، ولم يبذلوا الجهود المشكورة كأسلافهم ، ناسين قوله تعالى : "إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم " . .

رابعاً : ومن هذه الأسباب أن المسلمين قد اعتقدوا بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يجب على كل من يتبع أوامر الله ، أما من لم يقم على الامتثال لأوامر الله كاملة وتنقصه بعض منها ، فلا يليق أن يقوم بهذا ، ولأننا لسنا أهلا لهذا المنصب الكبير ، فكيف نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ؟ .

وهذا يخالف قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه الطبراني في الصغير والأوسط ، عن أنس رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله ، لا نأمر بالمعروف حتى نعمل به كله ؟ ولا ننهي عن المنكر حتى نجتنبه كله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " بل مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله ، وانهوا عن المنكر وإن لم تجتنبوه كله "[1] .

خامساً : وهذا السبب الهام هو اعتقادنا بأن المدارس الدينية ، والمراكز الإسلامية والخانقاهات ووسائل الاعلام والجمعيات الدينية ، والأحزاب كلها بفروعها وشعبها ، مسئولة عن الدعوة والإصلاح ، إذن فلا حاجة لنا أن نبذل جهودنا الفردية والاجتماعية الأخرى ، ولا داعي لنا القيام بها ، وبدعوة الناس ، نظراً لوجود تلك المراكز التي تؤدي واجبها في تلك المجالات بطرق أفضل .

(1) رواه الطبراني في الصغير والأوسط كذا في مجمع الزوائد، وقال اسناده ضعيف.

وعن هذا يقول الشيخ : لا شك أننا نحتاج كلية لتلك الدوائر الإسلامية ، وأن إشراقة النور التي نجدها الآن هي من تجلى هذه المراكز المباركة ، ولكن الاحتياج الملموس في هذه الفترة المريرة هو ثورة قوية ، ونهضة عظيمة تحبب فيها غير الراغبين لبث الحب بين الغافلين ، وقبل خمسين عاماً كانت تلك المدارس كافية لنشر العلم – نظراً لكفاءتها الملحوظة – وكذلك كانت الرغبة والطلب متوافرة لدي المسلمين ، ولكن اليوم قد طمست مشاعرنا بسبب الجهود المتفانية للشعوب المعادية للإسلام ، والتي أحالت الرغبة إلى النفور ، وإن استمر هذا البعد والنفور ، فستغلق تلك المراكز التي نسميها مراكز الدعوة ، فالأمر يحتاج إلى بدء حركة قوية يتجدد بها حب الدين والترغيب فيه ، كما تؤدي إلى يقظة المشاعر ، وإلا اندثرت تلك المراكز ، فضلاً عن الانتفاع بها[1] .

والخلاصة التي ركز عليها الشيخ محمد إلياس عن نتائج تلك الغفلة وأسبابها هي ما أجمله الأستاذ أبو الحسن على الندوي في كتابه[2] حيث يقول : " إن تلك الأوضاع والأسباب قد أدت إلى انقسام الشعب إلى أربعة أحزاب فكرية ، وذلك تحت شعار إصلاح القوم ، أو لأغراض أخري ، وهي كالآتي :

أولاً : طبقة تصورت أن عهد الرسالة قد انتهي ، والأمر يحتاج إلى نبوة جديدة ، لإصلاح الأمة ، فادعوا النبوة ، ولكن فشل هذا الادعاء حتى انفصلوا عن الإسلام والمسلمين

ثانياً : أما الفئة الثانية فهي التي تعترف بالنبوة الخاتمة ، ولكنها تفسر الآيات القرآنية على حسب الضروريات الراهنة ، وتنكر الأحاديث النبوية إنكاراً تاماً ، فأصبح كل منهم يدعي التجديد قائلاً : حسبنا كتاب الله ، وبذلك غيروا مفهوم

---

(1) مسلمانون كي بستي أورا س كاعلاج من ص13 إلى 31 ملخص .

(2) الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية .

الزكاة والصلاة والحج، ودونوا التشريعات الإسلامية الجديدة وأحكامها في الدين باسم الإسلام .

ثالثاً: وهى الفرقة التي تؤمن بالكتاب والسنة وتؤول في معانيها ، ولذلك أنكروا الجنة والنار وأجازوا الربا ، كما أنكروا الغيبيات واعتبروا العقل معياراً لجميع المسائل الدينية

رابعاً : هي طبقة تحب كل شيء كما هو ، ولم تغير في الأمور الدينية ، بل تأمل في إمام يقوم بانقلاب في الأوضاع الراهنة ، ويقضي على كل الخلافات الفقهية ، والأحكام والعقائد والسياسة ، أو يقوم بانقلاب مشابه للثورات الدينية في أوربا مثل ثورة مارتن لوثر وكارل ماركس ، وجان جاك روسو وغيرهم ، وبذلك تبني عمارة الإسلام بصورة جديدة لا خلاف فيها ولا جدال ، ويقضي على كل ظالم جبار ولكن هذه الفكرة تخالف الفطرة تماماً .

وكانت هذه الظروف والأسباب والنتائج تدور في ذهن الشيخ محمد إلياس، وتثير قلقه ، وذلك فضلاً عما جرى للمسلمين في تاريخ العالم، وخاصة في شبه القارة، والجهود التي بذلت للقضاء على سلالة المسلمين، وطمس معالم الإسلام، وهى التي لا تزال مستمرة وقائمة على نفس المنوال، بل وتزداد فاعليتها كل يوم، فلم تخمد نار انتقام الإنجليز والسيخ والهندوس بالطلقات النارية بالرشاشات والمدافع على جموع المسلمين ، بما كانوا يختارونه من الطرق الوحشية العديدة التي يندي لها جبين البلشفية والنازية إذا قورن بما كانوا يفعلونه، كما كانوا يتفننون في قتل أبرياء المسلمين، حيث لم يقتنعوا بموت المسلمين بطلقة نار واحدة ، أو بإحراقهم في بيوتهم فحسب، بل كانوا يدفنونهم ويئدونهم في الأرض وهم أحياء، أو يخيطونهم في جلود الخنازير ، ثم يدهنونهم بشحمها ويحرقونهم وهم فرحون، كما يلقون أولاد المسلمين في الزيت المغلي بالنار ، ثم يقدمون أكبادهم وفروجهم لآبائهم ، ويهتكون أعراض النساء بكل سبل السخافة والسفاهة .

فبالله عليك كيف السبيل ؟ وكان الشيخ يري بعينيه هذه اللعبة الدنيئة ، حيث لم تمض أيام على قتل جماعة المجاهدين الفاتحين على يد السيخ والمبتدعين في مدينة "بيشاور" و " بالاكوت"[1] ، بل كانت تحدث كل يوم أحداث لم يشهد مثيلها التاريخ من قبل ولم تلتفت إلى تلك الظروف أية دولة مسلمة في العالم بسبب أحوال العالم السياسية أو غيرها، وكأن هذه البقعة العظيمة أصبحت منفصلة عن العالم الإسلامي، وهي على وشك الانهيار والعودة إلى وثنيتها القديمة .

وكل تلك الصور الرهيبة كانت تدور في ذهن الشيخ مستعيداً ذكرياتها كلما فكر في أمة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فيزيده ذلك قلقاً ، وقد رأى الناس أن الشيخ لا يتحمل هذا العبء ، بل كان يتجه إلى الغابات ، ويمكث فيها أشهراً ، ويبكي بدموع الأسى ، ويملأ الجو بصرخاته ، منادياً : يا أمتاه وا أمتاه ، ولم يهدأ بال الشيخ حتى رحل إلى أرض الحجاز المقدسة[2] يستلهم العون والرشد من الله ، وقد رآه الآلاف يدخل الكعبة المشرفة ويلصق صدره بباب الملتزم الشريف ، وأحياناً يمسك بأستار الكعبة ويبكي ويصرخ ، ويدعو الله لأمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يغدو إلى المدينة المنورة مصلياً وداعياً ، ثم يزور الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد رآه القوم أيضاً مستغرقاً في حالة روحانية غريبة طيلة عدة

---

(1) مدينة تقع بين حدود كشمير والحدود الشمالية الباكستانية ، ويقصد بها السيد أحمد الشهيد ، والسيد إسماعيل الشهيد بن عبدالغني بن ولى الله وجماعته .

(2) قد رحل الشيخ محمد إلياس رحمه الله إلى حج بيت الله الحرام أربع مرات حيث كانت رحلته الأولى في شوال 1332 عام 1915م وعاد من الحج في ربيع الثاني عام 1333 هـ الموافق فبراير عام 1916 ، ثم عزم على الرحيل للحجاز في سنة 1334 الموافق 1916م وعاد بعد خمسة أشهر قضاها في الحرمين الشريفين في 13 ربيع الثاني عام 1335 هـ أما الرحلة الثالثة فهي تبدأ من مدينة كراتشي (الباكستانية حالياً) وذلك في شهر رمضان المبارك في عام 1351 هـ الموافق عام 1932 م حيث رحل من مكة إلى المدينة في الثاني من المحرم عام 1352 هـ الموافق 27 إبريل عام 1933 م ، وعاد إلى الهند في جمادى الأولى سنة 1952 هـ الموافق أغسطس 1933م أما الرحلة الرابعة والأخيرة إلى الحجاز المقدس فبدأت في الثامن عشر من ذي القعدة عام 1356 هـ الموافق 21 يناير عام 1938م وعاد الشيخ من الحجاز في العشرين من ربيع الأول عام 1357هـ .

أسابيع ، ولا يتكلم مع أحد إلا وهو يصرخ أحياناً بكلمتي : يا أمتاه وأمتاه حتى أنه تأخر بسبب ذلك هو وأصحابه وشيخه خليل أحمد الأنبيتوى عن العودة إلى الهند ، وقد منع الشيخ خليل أحمد زملاءه عن محادثة الشيخ محمد إلياس بسبب استغراقه في حالة الفكر العميق التي جاءته ، حتى يرجع إلى حاله ، واستمرت تلك الحالة حتى فتح الله عليه وهداه إلى ما كان يطلبه وهو طريق الإصلاح للأمة – وظهرت تلك الأنوار على وجهه وهدأ باله ، وبدأ يصر على العودة إلى البلاد بأسرع ما يمكن ، بعد ما كان يرفض العودة رفضاً باتاً[1] .

وقد ذكر كثيراً من حالات استغراقه ، وما كان يبشر به في المنام ، ومما رآه بعض الصالحين عنه في الحرمين الشريفين أن الله سبحانه أنعم عليه وألهمه القيام بخدمة دينه وإحياء سنة نبيه صلى الله عليه وسلم[2] .

*****

(1) راجع (حالات مشايخ كاندهله) ومحمد إلياس ودعوته الدينية للندوي ومقامي كام ص37 محمد عيسي.

(2) راجع الكتب التي ألفت عن حياة الشيخ محمد إلياس مثل: مولانا محمد إلياس أو ران كي ديني دعوت للندوي، ومحمد إلياس أوران كي ديني تحريك: لوحيد الدين خان .

الباب الثانى
منهج الشيخ محمد إلياس العملى في الدعوة إلى الله

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : أهمية العمل ومدي علاقته بالإصلاح في فكر الشيخ محمد إلياس .

الفصل الثاني : مبادئ الدعوة وغاياتها فى منهج الشيخ محمد إلياس .

الفصل الأول

أهمية العمل ومدى علاقته بالإصلاح فى فكر الشيخ محمد إلياس

المدخل إلى المنهج :

لقد ثبت لنا في الحقائق العلمية المدونة في الكتب المقدسة ، أن الرسالات السماوية كلها جاءت على منهج واحد ، لا زال الدعاة ينتهجونه سيراً على نهج الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد ثبت أيضاً أن الرسل والأنبياء وأولياء الله الصالحين ، قد قاموا بتحليل دور الإيمان في حياة الشعوب وأقوامهم ، كما أوضحوا نوع الفساد وماهية الداء ، مظهرين – بتفحص دقيق – الدواعي والأسباب الأساسية للحقائق المسببة في فساد القوم ، وانهيار كل سبل الحياة سواء كانت مادية أو روحية .

وعندئذ كان دور الأنبياء هو القيام بتقنين العلاج، طبقاً لشرائعهم لإبادة جراثيم الفساد من جذورها، حيث وضعوا مناهج خاصة وأساليب حكيمة ، وبينوا الطرق المؤدية إلى الإصلاح المنشود حتى يخرجوا الناس من الظلمات إلى النور .

ومما لا شك فيه أن الداعية يبذل كل جهده لتبيان هذا المنهج وأساليبه ، وغيره من الوسائل التي ينشدها بين قومه خلال دعوته إلى الله سبحانه وتعالى، مستعيناً به ، واضعاً نصب عينيه كتاب الله وسنة رسوله ، مستفيداً من تجارب أسلافه ، ومسترشداً بعظماء عصره ، متحملاً الشدائد في سبيل الحق ، ومضحياً بنفسه وماله وولده في المسار الذي اختاره لنفسه .

ومن هنا نستطيع أن نقول : إن دراسة منهج أي داعية في الدعوة إلى الله ، يحتاج قبل كل شيء إلى الإحاطة بالظروف الراهنة في عصره ، والأمراض الاجتماعية التي يعاني منها الشعب ، وكذلك دراسة التيارات الفكرية التي تتصارع بعضها مع بعض ، فتؤدي بشعوبها إلى الهاوية ، وبيان الدوافع والبواعث الأساسية

التي تدفعهم إلى القنوط التام ، مما يساعد على تكاثف سحب الظلام على مستقبل الشعب المسلم .

أما من لم يهتم بالدراسة العلمية للبيئة الخاصة التي عاشها الداعية ، والتي وضع لها منهجه وفقاً لظروفها الخاصة بها ، فليس ببعيد أن يرتاب الكاتب في منهجه العلمي أو يفهم الموضوع فهماً خاطئاً ، نظراً لعدم معرفته بأحوال وظروف البيئة ، أو متأثراً بما أشاعه أعداء الداعية ، ولكن الدارس الذي يقوم على دراسة المنهج العلمي الصحيح ، ويطلع على الظروف التي أحاطت بالقوم في تلك الفترة ، لابد أن يتوصل إلى فهم منهج الداعية السليم وما وضعه من معالجة صحيحة ، وأساليب حكيمة لاستئصال الفساد من جذوره ، وبذا يمكنه أن يمتدح هذا الداعية ويثني عليه لما بذله من جهود مضنية لنشر الدعوة الإسلامية

وأما من يكفر أو يفسق أي داعية إلى الله ، مدعياً أنه قد درس منهجه دراسة علمية عميقة ، فإنه لن يخلو من أحد أمرين وهما :

إما أن هذا الدارس لم يفهم منهجه الذي يدرسه بطريقة علمية سليمة ، وإما أن منهجه منهج عناد وعدوانية بحتة ، ولا يتعلق بدراسة علمية نقية تقوم على الإيمان بالحق وعدم الانحياز كلية لأي رأي ، لأن النقد العلمي البحت لابد وأن يكون بعيداً عن العناد والمكابرة أو أية مؤثرات نفسية أو خارجية .

والجدير بالذكر أن التاريخ قد بين لنا أمثلة عديدة في هذا الباب ، فإذا عرف المرء منهج الأنبياء معرفة حقيقية ، فقد آمن بهم ، اللهم إلا من كان مكابراً أو معانداً .

والأمر كذلك في الاعتقاد في الصحابة رضوان الله عليهم ، فمن درس وعرف حياتهم وتضحياتهم الجليلة فقد تأسي بمنهجهم ، وسار على دربهم ، واقتدي بهم ، وإلا فقد افتري عليهم فرية الجاهلية .

أما غيرهم من الدعاة ، فيدلنا تاريخ الدعوة على شخصيات عديدة ، أمثال الإمام ابن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية ، ومحمد بن عبدالوهاب النجدي وأمثالهم، فكل من درس وعرف الظروف التي أحاطت بالمسلمين في عصورهم يطمئن لقولهم ويؤيدهم في مناهجهم وأساليبهم ، ويعترف لهم بما قدموه من خدمات جليلة في مجال الإصلاح والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وأما من عرف ولم يؤمن، أو أفتي بتشددهم ، أو تجرأ وتفوه عليهم بالكفر ، فلا يمكن أن يكون دارساً بل هو – على حسب المنهج العلمي – يعتبر معانداً ومكابراً لأنه لا يبغي سوي الإضرار بالمسلمين وتمزيق وحدة الأمة الإسلامية .

وأما الجاهلون فهم فريسة المستغلين ، ولا جدال في عقيدتهم ؛ حيث لا علاقة لهم بالدراسة العلمية ، اللهم إلا من أتي الله بقلب سليم ، ومن يهدي الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له .

خطـــة الإصـــلاح :

اتجه الفكر الإسلامي، المقاوم للاستعمار الغربي وأعوانه منذ نهاية القرن التاسع عشر إلى طريقين :

الطريـــــــق الأول : الاتجاه إلى التعبئة الروحية والإصلاح عن طريق عرض الإسلام عرضا واضحاً ، والعمل على جعله أساساً في التربية الوطنية ، وإحياء كتب التراث الإسلامي .

أما الطريق الثاني : فالاتجاه إلى تعبئة الحماس القومي في الجيل الناشئ عن طريق الصحافة، وعقد الاجتماعات العامة، ثم عن طريق تأسيس الجمعيات والأحزاب الدينية والسياسية[1] .

ولقد ذكرنا تلك الاتجاهات الفكرية بالتفصيل ، قد امكاننا ، في مدخل هذا الكتاب ، وركزنا فيه على الاتجاهات الفكرية وبواعثها وعواملها وأساليبها ، ومدي

(1) الفكر الإسلامي الحديث ص155 محمد البهى ، بتصرف .

نجاح تلك الأفكار أو فشلها، مع إيضاح الاتجاهات المعادية للإسلام والمسلمين ومدي تأثيرها ، مع ذكر نتائجها ومؤثراتها على مستقبل شبه القارة .

ولكن الأمر الذي جعلني أذكر منهج الشيخ محمد إلياس – في مواجهة العدوان الثلاثي[1] في شبه القارة – هو أن منهجه يختلف تماماً عن كل من سبقه في هذا المجال مع أن أهدافهم جميعاً واحدة لكل من يحب الإسلام ويضحي في سبيله .

وقبل أن نتحدث عن منهجه الفريد للإصلاح يجب أن نوضح تقسيماته للطبقات المحتاجة للإصلاح من المسلمين في شبه القارة الهندية الباكستانية .

يذكر الشيخ احتشام الحسن – خليفة الشيخ محمد إلياس – ما وقر في فكر الشيخ من أمراض المجتمع وأنواعها، والنتائج التي أسفرت عنها بسبب تأثيرها على المسلمين ، حتى أصبحت كل طبقة مختلفة في التفكير عن غيرها اختلافاً جذرياً ، فيقول : إن المسلمين الآن منقسمون إلى ثلاث طبقات ، وكل منها في حاجة إلى الإصلاح ، وهي كالآتي :

الطبقة الأولـــي : هي طبقة المتدينين التي تعرف الدين وتلتزمه وتمسك به ، ولكنها متأثرة بالبيئة الهندوسية وما يجري حولها ، فغلبت عليها مؤثراتها ، وبذلك نراها محرومة من الصبغة الحقيقة للإسلام ، والتي يجب أن تظهر في حياة المسلم القوى الصادق الأمين .

الطبقة الثانية : وهي التي حصلت على التعليم الجديد (على النظام الأجنبي الاستعماري) وتأثرت به إلى حد أنها انحرفت عن الإسلام ، وهي نافرة منه فتتبرأ من إسلامها .

الطبقة الثالثة : وهم عامة الناس الذين بعدوا عن الإسلام بسبب الجهل ، وعدم المعرفة بالدين الحنيف ، وبذا ضلوا ضلالا بعيداً .

(1) وهم : الاستعمار، والهندوسية الوثنية، والمفسدون من داخل المسلمين .

وإنك لا تجد أية خرافة أو بدعة ابتدعها الوثنيون والاستعماريون إلا وهي موجودة عند هؤلاء السذج ، الذين يلعب بهم كل مستغل لعبة دنيئة ، حتى يجعلهم مستغرقين في تلك الخرافات ، بعيدين عن الإسلام ، ومن ثم تناهض هذه الطبقة الدين الإسلامي بعد ترسيخ هذه الخرافات فيهم .

ويقول الشيخ محمد إلياس : فلولا القيام بتربية تلك الطبقات لصدق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث عهد الله بن مسعود : " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد السفيه ، ولتأطرنه على الحق أطرأ ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم يلعنكم كما لعنهم "[1] .

وبالفعل حل بهم غضب الله حيث ارتد مئات الآلاف عن الصراط المستقيم ودخلوا في ظلمات البر والبحر إلى الأبد .

مبادئ العمل وأسسه عند الشيخ محمد إلياس :

حين اكتملت خطة الإنجليز والهندوس ، بشتي صورها ضد المسلمين ، وكان من أهمها إقناط المسلمين في مستقبلهم بشبه القارة ، ثم في علاقتهم بإسلامهم ، حيث كانت هناك حملات مزدوجة في مجالات السياسة والدين ، لتحديد مصير شبه القارة الهندية الباكستانية .

فكان ولابد للمسلمين أن يأخذوا الاتجاه الفكري المقاوم للاستعمار الغربي ، الذي يهدف إلى إطالة مدة حكمه أو تحويل الهند إلى عميل له بعد رحيله منها ، وبذلك كان على المسلمين أيضاً أن يأخذوا نفس الإجاه الفكري المناهض للهندوس الآريين الطامعين في رجوع الهند إلى وثنية قديمة لها نظام الطبقات العنصرية .

وقد احتاج الأمر إلى أن تعرض خطة عملية حكيمة ذات منهج علمي سليم ، لمواجهة هذه التيارات الفكرية المناهضة للدين ، وذلك لإنقاذ الشعب المسلم من دسائسهم ، كما احتاج الأمر إلى عرض النقد النظري لمثالب العناصر الفكرية

(1) سنن أبي داود والمسند ، نقلا عن مسلمانون كي بستي أوراس كاعلاج .

المعينة للاستعمار في شبه القارة والمشجعة لمكائده ، ومن أشهر هؤلاء : المستشرقون الغربيون والآسيويون ، الذين لبسوا ثوب العلم لبث أفكارهم المسمومة ، ثم أتباع سير سيد أحمد خان ، والقاديانيون ، ومن أخطرهم : المبتدعون الذين لبسوا ثوب الحب والعشق ، وحرموا الجهاد ضد الاستعمار ولونوا التقاليد الإسلامية بثوب الوثنية القديمة .

وقد اشتغل العلماء والزعماء بالسياسة ضد تلك التيارات ذات النوع السياسي، وعلى رأسهم علماء دار العلوم ديوبند، كما اشتغل العلماء والمجاهدون من أبناء دار العلوم ديوبند ضد التيارات الفكرية المعادية للدين ، والتي تهدف إلى إبعاد المسلمين عن إسلامهم

وما زالت هناك ناحية أخري لم تتوجه إليها الأحزاب والجمعيات ، كي تملأ ثغرات تلك الناحية ، ولا تقل عن غيرها شأنا ألا وهي ناحية التربية العامة للشعب، وقد جاء هذا في وقت اهتم فيه الأعداء بتنظيم صفوفهم وقوتهم وعتادهم، وكانوا ينقبون من خلف الأستار عن السذج ، ويبعدونهم عن الإسلام بكل ما يمكنهم من وسائل الإغراء والاستغلال .

وبذا يوجهونهم إلى الحياة المادية البحته ، أو التصوف الوثني والمسيحي ، ولذا فقد كان الاحتياج إلى أن تقوم جماعة قوية الإيمان، تحمل العلم والحكمة والموعظة الحسنة وتقوم على تعليم الأسس الإسلامية لعامة الشعب ، وتدعوهم إلى التمسك بالكتاب والسنة وتوضح لهم أهمية الإسلام في حياة البشرية ، حتى لا يصبح المسلم فريسة في أيدي الأعداء ، ولا يموت دون معرفة الكلمة الطيبة ، لأن تلك الصراعات السياسية من قبل الاستعمار والهندوس قد زلزلت كيانه ، فلم تسنح له الفرصة للاهتمام بالدين .

فكيف يستطيع هذا المضطرب أن يحدد نهاية لهذا الصراع المستمر ؟ .

لقد قام الشيخ محمد إلياس رحمه الله بتوجيه القوم إلى أمر لابد من الانتباه إليه وهو أن اشتغال المسلمين في تربية الفرد والمجتمع تربية دينية لا يمنع من انشغالهم في أي مجال من مجالات الحياة ، سواء كانت سياسية أو اقتصادية ، أو من تحصيل العلوم الحديثة وغيرها من الاحتياجات البشرية . كما وجه القوم إلى أن الدوائر الدينية لم تنتبه لهذا المجال بعد ، اللهم إلا بعض الجهود الضئيلة للغاية ، والدليل على ذلك أن أكثرية المسلمين لا تزال تعيش حتى الآن في حضانة الجاهلية . ونظراً للظروف التي تحدث للمسلمين وتزداد مرارتها يوماً بعد يوم ، أصبحت الحاجة ملحة إلى أن تبدأ محاولات قوية للدفاع عن العقيدة الإسلامية بطرق حكيمة حتى لا يشك المسلم في دينه ، ولا يتردد فيه .

ونجح الشيخ في محاولاته، حيث أوقف حياته على مكافحة تلك الهجمات الفكرية الفاسدة بأسلوب قوى محكم ، ولم يستطع الإنجليز والهندوس فهم فاعلية هذا المنهج السليم إلا بعد مدة طويلة حتى اضطر رئيس وزراء الهند (جواهر لال نهرو[1] وزعماء الهند الآرية العلمانية الوثنية إلى البحث عن سبب ازدهار تلك الحركة الإيمانية وسط تلك الحركات الفاسدة ، بما لديها من الملك والقوة والسلطة والعون من قبل كل من يريد القضاء على المسلمين والإسلام في العالم .

وبدأ " جواهر لال " يبحث عن العلامة " أبو الكلام آزاد "[2] سائلاً إياه : ماذا تفعل هذه الجماعة ؟ وما أهدافها ؟ فأجابه العلامة أبو الكلام قائلاً : " لا تخف إنهم لا يتكلمون عن الأرض التي تحكمونها ، أو عما يحدث في حكمكم ، وما تعلمونه على وجه الأرض ، بل إنهم يتكلمون عما يجري تحت الأرض أو ما وراء السماوات السبع "[3] . وقد اشترك جميع علماء شبه القارة مع الشيخ محمد إلياس

(1) هو أول رئيس وزراء للهند بعد الاستقلال .

(2) هو أول وزير تعليم للهند بعد استقلالها، ورئيس الحزب الوطني الهندي سابقاً .

(3) رواية الإمام محمد عبدالقادر آزار مفتي بلاد بنجاب باكستان .

رحمه الله ، واتفقوا معه فيما قدمه في منهجه النظري والعملي[1] وما دعا الناس إليه من الجهاد العملي في سبيل الله ، حيث لو نجح المسلمون في نيل الحرية ، أو في إنشاء دولة إسلامية ، لصار المجتمع الإسلامي نموذجاً تحتذي به مجتمعات الإلحاد والكفر والوثنية .

وبذلك يبدأ الطور الأول في حياة الدعوة الإسلامية –كما يريد علماء المسلمين – ويتأثر كل ذي عقل بحياة المسلمين وبأعمالهم الطيبة ، بما فيها الأخوة الإسلامية ، وهكذا لا يمنعهم شيء من الدخول في الإسلام ، فيسعدون ويسعد غيرهم .

ومن هنا يحدد الشيخ محمد إلياس موقفه من اصلاح الفرد والمجتمع فيقول : في مثل هذه الظروف ليس أمام المسلمين سوى طريقين ، وأن هذين الطريقين يختلفان في أصلهما ، حيث يتصادم أحدهما بالآخر .

ورغم ذلك كله فقد تشابكت المشاكل ، وسدت طرق الإصلاح في كل مكان ، ولكن لابد من الوصول إلى حل شامل لهذه الأمة .

فالطريق الأول هو أن نترك الماضي وننساه مثل الشعوب الأخرى ، وبهذا تضل الأمة طريقها ، وتحرم من امتيازاتها وخصائصها التي نالتها عن الدين الحنيف ، وتنغمس في الأحلام المزيفة التي تدعو المسلم إلى ترك الدين وتحرضه على حل المشاكل بقوة العقل المحض .

ولكن إذا لم تكلل جهود الدعوة بالنجاح والفوز ، فسينهار أصحابها ، معتقدين باستحالة النجاح ، وبذلك تضيع قوتنا وتهدر أوقاتنا ، حيث ظهرت تلك النتائج من التجارب التي بدأت منذ قرن واحد بتقليد البدعة الأجنبية التي جاءت نتيجة الحرمان واليأس والفضول فضاع كل ما كان عندهم من الحضارة والتمدن والثقافة ، التي تحمد بها الأمم والشعوب في العالم ، وبذلك سادت ظلمات الحسرة على الأمة ، ولم يبق أي أمل لدي أهلها بعد فشل تلك التجارب العقلية التي استمدوها من

(1) سيأتي ذكر المنهج مفصلاً في كتاب مستقل إن شاء الله .

الغرب ، لإصلاح الأمة ، وإعادتها إلى مجدها الغابر ، بل أنها انحدرت إلى أسفل سافلين ، يهزأ بها كل ذليل ومهين ، وهي لا تستطيع أن تبعد تلك المهانة عن نفسها ، إلا باتباع منهج قوي سليم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ويبذل كل غال ونفيس في سبيله .

وليس هذا إلا الطريق الثاني الذي ذكرناه آنفاً ، وهو الصراط المستقيم ، طريق الإسلام فمن أسلم وجهه لله الواحد القهار سخر الله له كل ما خلق .

والمقصود من التقدم والرقي عند الكفار ، ليس هدف المسلمين ، لأن غاية السعادة عند هؤلاء الكفار هو التقدم المادي ، الذي يعبدونه ويضحون بأنفسهم وأعراضهم من أجله أما غاية المسلمين ، فهي رضا الله الذي تفتح به كل أبواب الكرامة والمجد .

ومن الحقائق الثابتة أن القوانين الوضعية تخالف الفطرة تماماً ، وقد جربت منذ آلاف السنين ، فلم تعلم البشرية إلا سفك الدماء ، والبربرية الوحشية والدمار والتنافر بين شعوب الإنسانية ، ولم تحل بها أية مشكلة بشرية بل طالت آمادها إلى ما لا نهاية .

أما الإسلام فقد شهد له ثلاثة عشر[1] قرناً بالدور الذي أداه في حل مشاكل البشرية كلها ، فقد تأكد أن الحل الوحيد للمسائل البشرية ، لا يوجد إلا في التعاليم الإسلامية ، وأن نجاة العالم كله لا تتحقق إلا بالتمسك الحقيقي بتلك التعاليم الإلهية التي لن تؤتي ثمارها اليقينية إلا بإطاعة الإنسان كلية لهذه التعاليم ، وتتولد فيه صفة العبودية لتلك الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فالإسلام هو الأساس المرتب والمنظم لهذه العبودية ، ووظيفة الأنبياء ما هي إلا توطيد العلاقة بين العبد وربه ، وتوجيه الغافلين إلى الحق الأعلى سبحانه حتى ينمو الحب في غير الراغبين ، وتتولد الرغبة في غير الطالبين للوصول إلى الحق المبين .

(1) هذه الكلمات كتبت وقت تأليف الكتاب في أوائل القرن الهجري الماضي .

وخلاصة القول : فإننا نحتاج إلى نظام كامل للدعوة إلى الله ، ولربط علاقة قوية صادقة بين العباد وربهم ، حتى تتولد الرغبة الصادقة فيمن لا رغبة لهم في الناحية الدينية

ثم يقول الشيخ في ثنايا كلامه: إن عدم الاعتراف بالعبودية قد تفشي بين المسلمين في حين أن الاعتراف بالعبودية لا يكفي ، لأن الأنبياء والصحابة قد اعترفوا بالعبودية اعترافاً صادقاً كاملا ، وقد أكد واقع حياتهم هذا الاعتراف بالإيمان الكامل، والانقياد التام لله الخالق الواحد الأحد .

إذن فما الفرق بين اعترافنا واعتراف الأنبياء والصحابة ؟ إن الاعتراف بدون الانقياد التام للحق لا يعتبر اعترافاً قط[1] .

ثم يطرح الشيخ سؤالاً استفهامياً عن العلاج لقوم ينسبون أنفسهم إلى الإسلام ، وليس فيهم من الإسلام شيء ؟ .

فيقول : إنه لا علاج لقوم إلا بما قاله الإمام مالك : بأنه " لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها " . ثم يطرح الشيخ سؤالاً عمن هو المسلم الحقيقي ؟ برغم أن كلمة المسلم تطلق على رجل يتكون من مجموعة من الفضائل الحميدة ، والمحاسن الرفيعة ، والخبرات الوفيرة ، مما نراه في تاريخ الإسلام ورجاله ، فلا توجد تلك الأمور في أخلاق معظم المسلمين . فهل يتبدل اسم هذه المجموعة التي يطلق عليها اسم المسلم ؟ أو نصل إلى حقيقة يكون المسمى فيها متصفاً بصفاته اللازمة ؟ .

إن من الصعب تبديل الاسم ، ونسمي المجتمع الإسلامي بمسميات أخري لا تنبئ عن علاقتها بالإسلام ، أما الوصول إلى الحقيقة فهي أن يكون المسمى متصفاً بصفاته الذاتية ، وهذا أصعب من الأول ، فالمطلب الأول والمهم هو : أن يدعي كل مسلم إل التيقظ من غفلته، حتى يشعر بأمراضه المادية والمعنوية ، وأن يكون واعياً ويقظاً في حرص وذكاء لما يحدث من انهيار روحي في داخله وداخل أمة نبيه

(1) إصلاح انقلاب من ص5 إلى 38 ملخص .

، لأنه إذا اعتقد المريض في نفسه بأنه صحيح الجسم سليم الفكر ، وأنه ليس في حالة من المرض . بل هو في صحة جيدة وقوية ، فلا ينتظر منه الاستجابة للعلاج .. وكيف يمكن شفاؤه دون وعيه بمرضه وإرادة ودواء ؟[1] .

عندئذ يجب على كل فرد أن يحس إحساساً كاملاً بمرضه، وأن يقوم بالإفصاح عما أفسد داخله ، ثم يستعد للعلاج والإصلاح .

ويقول الشيخ : إذا ثبت بأننا أفسدنا أنفسنا بأيدينا ، فعلينا أن نقوم بإصلاحها بأنفسنا أيضاً ، لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً[2]

إذن فما هو طريق الإصلاح ؟ وما هو السبيل لرأب الصدع من تلك الفتن التي حلت بأفراد الأمة ومجتمعاتها ؟ .

يقول الشيخ محمد إلياس رحمه الله ، موجها أحد أصحاب المدارس الدينية – في سلسلة رسائله إلى علماء الأمة – حيث يبين له أهمية القيام بالحركة التي تدعو الناس إلى فهم مبادئ الإيمان وأهميته في حياة المسلم – إذ كلما كانت تشتد حملات الكفر ، كان يقوم بكتابة الرسائل إلى علماء الأمة يحرضهم على توجيه كل القوى الظاهرة والباطنة إلى هذا العمل – فيقول في رسالته : بأي قدرة أفهمكم ؟ وبأي لسان أبين لكم ؟ وبأي قوة أرسخ في فكرى وأؤكد غير هذا ؟ وكيف أجعل المعروف مجهولاً والمجهول معروفاً ؟ فإنني قد تأكدت تماماً أن علاج تلك الفتن – التي تسيل مثل نهر " أتك "[3] وتسرى في شرايين مسلمي شبه القارة ، كمثل

---

(1) تبليغ كياهي ص61 .

(2) تبليغ كياهي ص59 .

(3) يقع في شمال باكستان الإسلامية وكان يعتبر باب شبه القارة .

نهر " جمنا "[1] – ليس لها السد الإسكندري[2] إلا ببذل كل القوى الظاهرة والمشاعر الباطنة قدر الطاقة الإنسانية وأن توجه كل المساعي بكل جرأة إلى حركتنا (حركة الإيمان) . فإن الله يخلق لكل داء دواء على حسب قدرته السرمدية .

والكفران بالنعمة التي وهبت لنا كعلاج ، وعدم تقبلها بالحماس والحفاوة ، وعدم إعزاز الضيف الكبير[3] وإكرامه بما يناسبه، كل هذا ليس في صالح الأمة ، بل يؤدي إلى الحرمان وسوء الحظ ، وذلك هو الخسران المبين "[4] .

ويري الشيخ أنه لا يمكن مواجهة تلك الفتن إلا بقيام كل فرد بالمقاومة العاتية ، وبأن يستعيد في ذهنه تاريخ أمته ، وكيف قام الصليبيون ضد الإسلام من أجل مصالحهم المادية باسم الدين ، وأقاموا جبهات عديدة ضد المسلمين .

ويدعو الشيخ إلى أهمية قيام جبهة قوية خالصة للإسلام فيقول : كما أن جنود الإمبراطورية الاستعمارية يلتحقون بالجيش لمنافع الحياة المادية لرفعة العلم البريطاني، فعلي المسلمين أن يجتهدوا مثلهم في إعلاء كلمة الحق ورفعة المسلمين، وإعادة مجد الأمة الإسلامية، وأن يبذلوا جهودهم في الدين، كما تفعل جيوش الاستعمار طمعاً في المادة ، لأن النصر والرفعة مرتبطان بهذا الجهد: { وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً }[5] ، { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }[6] .

---

(1) هو النهر المقدس لدي الهندوس الوثنيين ويعتبر شريان الهند مثل النيل في مصر ، ولعل الشيخ يشير هنا إلى بث أفكار الوثنية في المسلمين ، ورجوع قاطني الهند إلى الوثنية بما فيها عبادة مياه نهر " جنجا " و " جمنا " .

(2) نسبة إلى الإسكندر الأكبر الملقب بذي القرنين .

(3) يريد به القرآن الكريم .

(4) صدر الدين الأنصاري : محمد إلياس ودعوته الدينية : ص134 وما بعدها .

(5) سورة الفتح : الآية 23 .

(6) سورة البقرة : الآية 218 .

وهذا هو العلاج الوحيد لكل نكبات المسلمين ومشاكلهم ، فعليهم أن يحددوا الداء والدواء ، وأن يوقنوا بهذا الحل ، ويبذلوا جهودهم فيه ، فيأتيهم وعد الله : " من كان لله كان الله له " .

وبذا يتوجه سبحانه القادر ، بإرادة الغيب ، إلى سلامة المسلمين ، ويكتب لهم كل حسنات الدنيا والآخرة ، ويبعد عنهم كل السيئات في الدنيا والآخرة ، فالله فعال لما يريد . وقد جاء في الخطبة المأثورة : " إن الدنيا خلقت لكم ، وانكم خلقتم للآخرة " فبقدر ما تبدو آثار أعمالنا من حقيقة " خلقتم للآخرة " فتبدو آثار " الدنيا خلقت لكم " بنفس القدر ، فإن العمل للآخرة ليس إلا القيام بأعمال الدين ، والاهتمام بها ، وهو أعظم وأرفع وسيلة لتسخير العالم كله "[1] .

لائحـــة العمـــــل :

يقول الأستاذ أبو الحسن على الندوي : إن الشيخ محمد إلياس قد أدرك أن المرض الأساسي هو تزلزل الأسس الدينية في قلوب المسلمين ، مؤكداً أن أهم الأمور قبل كل شيء هو تقوية الأسس الدينية في قلوب المسلمين ، ولا يتحقق هذا إلا بمعرفة تلك الأسس بصورتها السليمة غير المشوهة ، كما لا يتحقق هذا التعرف إلا بالقيام على تعميم التعليم الديني للمسلمين .

ومن هنا بدأ الشيخ يشد أزره ، ويصرف كل قواه الموهوبة من عند الله لنشر التعاليم الإسلامية بين المسلمين ، وكان يقول : إنه لابد من نشر التعاليم الإسلامية بين المسلمين وازدياد عدد علماء الدين ، لأنه من الواجب على كل مسلم أن يعرف دينه وأحكامه ، فلا يكون أي مسلم مسلماً إلا إذا عرف أسس الحياة الإسلامية ، بل لابد أن يعرف مبادئ الإسلام بما فيها : العقائد والأحكام والمسائل التي يلزم معرفتها في حياة كل مسلم ومسلمة ثم يأتي بعدهم جيل يحمل أمانة الدين ، ويبلغ

(1) محمد إلياس ودعوته الدينية ص50 وما بعدها .

رسالته إلى من لم تبلغ إليه بعد ، وبهذا تنتشر دعوة الإسلام ، ويعم التمسك بالدين ، وترجع كرامة المسلمين أفراداً وشعوباً[1] .

أما عن تحديد مراكز التعليم ، وعن التعليم الأجنبي ، ومن أين يبدأ هذا التعليم ؟ فلا يعارض الشيخ تعلم العلوم الحديثة في أي شكل من الأشكال ، وذلك إذا لم تؤثر تلك العلوم على شخصية المسلم الصادق .

وقد تتضح لنا وجهة نظره مما لخصه خليفته الشيخ احتشام الحسن الكاندهلوى حيث يقول : إن اتهام التعليم الجديد بإفساد المجتمع إن صح هذا إلى حد ما – فلا يجب القول بأنه هو المسئول الوحيد عن إفساد أخلاق المسلمين وتنفيرهم من الدين ، لأننا قد أخذنا العلوم والفنون من الشعوب الأخرى – بلا قيد أو شرط أو ضجر – مثل الفلسفة والمنطق والرياضة ، والفلك والهندسة والطب والجغرافيا وغيرها من العلوم والفنون ـ فلم تؤثر تلك العلوم والفنون على عقيدتنا . ولم توجد لغة معروفة في العالم البشرى إلا وقد تعلمها المسلمون وتبحروا في آدابها وبلاغتها ، ولم تتغير عقيدتهم .

فما هو النقص والفساد في اللغة الإنجليزية، والذى يجبرنا على أن نسميها شجرة ممنوعة ؟ ونصدر الحكم بعدم الاقتراب منها ؟

إن أسلافنا عند الاستفادة بأي شيء من الأعداء كانوا يصبغونه بصبغة إسلامية ، ثم يستخدمونه في صالح الإسلام والمسلمين .

ولكن الحاجة الملحة هنا هي الخطر الأكبر الذي يجعل متعلمي اللغة الإنجليزية يلونون أنفسهم بثقافة غريبة حتى ينفوا عنهم الأثر الإسلامي ، فنتج عن ذلك أن تفرنج كل شيء في حياتهم من الشكل واللباس والمأكل والمعيشة ، حتى أن بيوتهم كلها صارت متفرنجة ، أما الروح الإسلامية فقد فقدت وكأنها لم تكن شيئاً مذكوراً .

---

(1) محمد إلياس ودعوته الدينية للندوي ص122 .

فهل هذا الوضع يعني عند دعاة اللغات العالمية أن يترك المسلم ثقافته الإسلامية ويختار التقاليد الفاسدة ، مع العلوم الحديثة واللغات ؟ مع أن الطالب المسلم كان يدرس أفلاطون وأرسطو وسقراط وفيتا غورث وغيرهم من الفلاسفة والعلماء غير المسلمين ، ولكن عند رجوعه إلى البيت كان يجد نفسه محاطاً بالجو الإسلامي الخالص ، الذي يفرض عليه التمسك بما ينفعه ويبعده عما يضره في دينه ، ولكن التلميذ اليوم يقرأ الكتب الدينية عند الأستاذ ، ثم يرجع إلى بيته فيجد ما حوله مخالفاً للشريعة الإسلامية كلية ، ويدعوه إلى التفرنج القبيح المسموم ، فهل من الممكن أن تجابه هذه المؤثرات المتفرنجة المسمومة بالكلمة والمحادثة والحوار العلمي ، أو بالتعليم والتعلم من الكتب ، وإصدار المجلدات ذات اللون الديني .... ؟!

إن اللبنة الأولى للتربية هي البيت ، وتربية الوالدين بأي صورة يريدونها لأولادهم ، وفي أي قالب شاءوا أن يكونوا أخلاقهم ، لأن كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، أو يربونه تربية سليمة فطرية حتى يتعود عليها ، فإن فسدت هذه التربية الأولى التي تنقش في قلب الإنسان فلا يتوقع له الصلاح في المستقبل . قال الشاعر :

وينشأ ناشئ الفتيان منا - على ما كان عوده أبوه

ولهذا كان الشيخ محمد إلياس يفكر في المبدأ الأساسي الذي يبدأ بالتعليم والتربية الدينية ، إذا لابد من دراسة واعية لهذا الجانب ، وبعد دراسة طويلة وخبرات عميقة ، وصل الشيخ إلى منهج فريد ، هو أن يهتم بتعليم الآباء قبل الأبناء ، وأدرك أن هذا المحك الرئيسي الذي تقوم عليه البنية الأساسية في تربية المجتمع ، والحاجة الماسة لهذا هي إصلاح البيت ومربيه ، لكي ينشأ الجيل الجديد متحلياً بالتربية والأخلاق الحميدة ، متحمساً لدينه ، فلا يؤثر عليه العوارض الخارجية برغم كثرتها لأن هذه المؤثرات الخارجية الفاسدة وإن أثرت عليه ،

فستمحي بعد عودته إلى البيت الذي يعطيه الجو الصافي الخالي من الشوائب ، لأنه يرجع كل يوم إلى مهد التربية السليمة التي طبعت آثارها في قلبه وقالبه .

وكان هذا هو محك تفكير الشيخ بأنه من الممكن أن يغير ما حول المدرسة الأولى على مستوى المسلمين جميعاً ، بلا تفرقة بين الطبقات والجماعات والأحزاب ، وبذا يصلح بناء المجتمع ثم المجتمع نفسه[1] .

الترغيب في الإسلام والدعوة إليه :

تأكد الشيخ محمد إلياس أن من أهم أسباب قيام المدارس الدينية هو الطلب والرغبة في دراسة العلوم النبوية ، وأن هذا الطلب قد يقل رويداً رويداً حتى تكاد تتلاشي رغبة الدين من قلوب المسلمين، وذلك لأن جموع الفساد تزداد بسرعة رهيبة ، مما يشجع طلابه في كل الدوائر الشيطانية عن طريق الروايات والقصص الواهية، والمسرحيات التي تحكي وتدعو إلى الجنس وتخرب الأخلاق ، وهذا ما تنشره الإذاعات المحلية والعالمية وما تقدمه الأفلام السينمائية وغيرها . وهي دعوة جريئة للانحراف عن الإسلام ، وترك أحكامه مما يحرم الشعوب من عفتها وعصمتها ، كما أنها ضربة قاصمة للاقتصاد ، وإضاعة الوقت بدعوتها إلى تعدي حدود الشرع والحكم ، وتقاليد الأسرة ، مما يؤدي إلى انتشار الأفكار السيئة ، والدعوة إلى المخدرات والسرقة ، وجعل بنات المسلمين وشبابهم عبدة للمادة والإباحية ، وتحريضهم على إشباع أهواء النفس ولو بقطع الطرق والقتل ، ومخالفة شرعية القانون ولو على حساب الشرف والكرامة .

ولو زادت الرغبة في الفساد ، وقلت في العلوم الدينية ، فما هو مصير تلك المدارس والمراكز الدينية ؟ ![2] .

---

(1) محمد إلياس ودعوته الدينية ص285 للندوي .

(1) إصلاح معاشرات ص15 لاحتشام الحسن .

وفي مثل تلك الظروف يجب علينا القيام بالدعوة حتى تزداد الرغبة والشوق في قلوب المسلمين ، فيختارون الوسائل السليمة للترغيب في اكتساب الأسس الدينية والتعرف عليها وذلك بمنهج موجز يستطيع كل رجل أن يطلع عليه ، ويساهم فيه بسهولة مع عدم التقصير في شئون الحياة الأخرى[(1)] .

وإن كان هذا واجب على عامة المسلمين ، فيجب على خاصة رجال الدين أن يقوموا بتضحيات نادرة في سبيل ذلك الأمر ، ولكن للأسف الشديد ، فإن الحركات التي تتفاني للإصلاح لا يوجد فيها رجل يملك القوى والمواهب الفذة الخارقة مثل دعاة الإسلام السابقين لأن الأسلاف كانوا يضحون بأنفسهم بصورة تفوق كل تخيلات العقل ، بل وتسمو فوق كل الرغبات في الحكم أو المصالح .

ولكن هل يمكن أن تكون تلك المشاعر وليدة العلوم المتداولة في المدارس بشكلها الراهن ؟ أو تكون وليدة الخطب الرنانة ؟ أو بتأليف الكتب وإصدار المجلات الدينية والثقافية أو غيرها من المؤثرات الخارجية ؟ كلا وألف كلا ، لأن الشعور بالتضحية والإيثار هما وقود أية حركة إصلاحية .

ومما لاشك فيه أن كل تلك النماذج كانت نتيجة الإيمان الكامل بالغيب والذي بدأ يضعف في قلوب المسلمين بالتدريج ، ولذا فلم تجد الدعوة إلى الله ، أو التضحية في سبيل دينه وإعلاء كلمته أهمية في قلوبهم[(2)] .

دعائم الدين :

إن لكل شيء دعامة ، ودعامة كل شيء هي منهجه وأساسه الذي يسير عليه ، حتى يبلغ أغراضه التي يتوخاها ، وهذا ينضوي عليه منهج الشيخ محمد إلياس وفكره في جهوده التي كان يبذلها في سبيل إنجاح دعوته . لكن يتجلى لنا هنا

---

(2) إصلاح معاشرات ص15 لاحتشام الحسن .

(1) محمد ثاني (مولانا) : سوانح مولانا محمد يوسف : ص22 .ط.

تساؤل هام هو : على أي أساس ديني تبدأ تلك الجهود القوية التي يسير عليها الشيخ لنيل مراده وأهدافه ؟

عن هذا يقول الأستاذ أبو الحسن على الندوي : إن الشيخ محمد إلياس قد رأي أن أساس الدين هو الإيمان بالله الواحد القهار ، والتمسك بأصول الدين الذي تقوم عليه بناء عمارات الإسلام وأساطينها ، وإن طلب الدين وتوقيره في نفس الانسان ، هو رأس المال الذي هو أساس كل فوز وسعادة .

ولهذا بدأ الشيخ محمد إلياس يبذل كل جهوده الممكنة حتى يتولد حب الدين ويزيد توقيره في قلوب المسلمين .

وقد أكد الشيخ محمد إلياس بانه لم يعترض على الطرق التي سلكها الآخرون لخدمة الدين بأي صورة ما ، كما أكد الشيخ أيضاً – بعد ما منحه الله البصيرة النافذة والخبرات العالية في حياته – بأن كل ثروة من الفكر والقلق من أجل الدين ، وكل القوى الممنوحة من الله ، لم ولن يصرفها إلا في أمرين ، ألا وهما :

الأول : أن يتولد حب الدين وتوقيره في قلب كل مسلم .

الثاني : أن يفهم عامة المسلمين مبادئ الإيمان وأصول الدين .

وهذه هي خلاصة كشفه للأمراض الخبيثة، وتحليله للجرثومة الفاسدة التي تؤدي بالأمم إلى الانهيار التام ، كما كانت هي السبيل للعلاج الذي يقدمه كمرحلة أولى من خطته في الإصلاح .

وهذا هو الذي قدمه الشيخ إلى أئمة علماء عصره وأهل البصيرة ، فصدقوه وأيدوه جميعاً ، نظراً لأن مبادئه مطابقة للكتاب والسنة، وهي علاج شاف للأمراض التي تفشت في الأمة، ثم قدم لأصدقائه وزملائه وتلاميذه مبادءه للأصلاح، وقام بإفهامهم إياها ، وتبصيرهم برموزها وحكمها، ثم دربهم تدريباً عملياً، وبدأ يرسلهم إلى المناطق المعينة بالدعوة، ومن ثم يسألهم بعد عودتهم عن كل ما

كان يحدث أثناء الدعوة والتبليغ ، ثم يصلح ما يراه عندهم من نقص في أداء واجبهم [(1)] .

أهمية العمل والإيمان :

كان الشيخ محمد إلياس رحمه الله يركز فكره على العمل الخالص ، ليوضح أهمية العمل بشتي الطرق ، وكان يؤكد لأصحابه أن العمل هو العلاج لكل مرض أو فساد ، إذ لا تكشف حقائق الأمور إلا حين يقوم الإنسان بالتعرف كلية على تلك الأمور بطريق علمي .

وفي هذا يقول الشيخ محمد في رسالته إلى الأستاذ أبي الحسن على الحسيني الندوي : " إن الحقيقة التي تتجلى بالاجتهاد في العمل هي التي تنشرح بها طبيعة الأنسان وتفتح بها أبواب العلم ، ويتذوق بها الإنسان لذة الاطمئنان والإيمان الحقيقي ، وتروق بها الأذهان والقلوب بواسطة الحقيقة والمعرفة ، وهي التي لا تظهر في إطار البيان ، أما الأمر الواقع الصادق الذي يأتي – بلا جهد أو عمل – مجرد سماع الوعظ والإرشاد ، أو محرراً على القراطيس ، فهو مضمون يتمخض عنه حجاب الحقيقة الذي قال عنه العلماء : " علم الحجاب الأكبر ، وهو السد الإسكندري في الطريق إلى الله "[(2)] .

وقد اعتقد الشيخ محمد إلياس أن الحقيقة لا تكشف أسرارها حتى تقوم على العمل وبدونه لن تفتح أبواب رحمة الله ، فيقول : " إن الله يفتح أبواب رحمته على الإنسان بقدر تحمله للمشاق ، وإذلال نفسه بصرف قواه الحسية والفكرية في كل أمر نافع ، كما في قوله تعالى : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ }[(3)] . فإن الإنسان لا ينال العزة في سبيل الله بغير تحمل المذلة فيه .

(1) محمد عيسي فيروز يورى : تبليغ كا مقامي قام ص38 وما بعدها ، الطبعة الأولى ، باكستان .
(2) أبو الحسن على الندوي : مكاتيب الشيخ محمد إلياس : ص15 . ط : باكستان .
(1) سورة العنكبوت : الآية 69 .

وفي الحقيقة فإن الشيخ محمد إلياس يرى أن الإصلاح يحتاج إلى التضحية من أبناء الأمة فيقول : إن المقامات والدرجات التي حصل عليها الرسول صلى الله عليه وسلم كانت ببذل النفس ، كما أمر ببذل الجهود بتضحية الأنفس ، بالعشق والفناء في سبيل دين الله ، لأجل إصلاح البشرية جمعاء ، فإن الصحابة قد أفنوا حياتهم في سبيل الوصول إلى هذه الغاية ، فهل أنتم تريدون بلوغها بقراءة الكتب والاستكانة ورغد العيش ؟! .

ثم يقول : إن النعم وثمرات العمل التي كانت مرتبطة ومرتهنة بالفداء ، فهي تحتاج الآن إلى بذل العرق على الأقل[1] .

وينظر الشيخ محمد إلياس أحياناً إلى الظروف المعاصرة له ، وما يكيده الأعداء للمسلمين ، ثم ينظر إلى أبناء الأمة وتخاذلهم ، فيقوم بتحريضهم وتوجيههم إلى الخطر المقبل ، ويوضح لهم أهمية الوقت والعمل ، فيقول : إن الوقت قاطرة تجري ، والساعات والدقائق واللحظات هي " عرباتها " ، ومشاغلنا هي " راكبوها " فالمشاغل المادية الدنيئة قد حلت بعربات القاطرة بصورة لا تسمح للأعمال الأخروية الشريفة من السيطرة عليها ، فعلينا أن نعقد العزم ، ونبذل الجهد حتى تسيطر الأعمال الشريفة على عربات الحياة ، محل أولئك الركاب الأرازل ، ويأتي بدلاً منها أعمالاً ويرضي الله عنها ، تقوم عليها حياة الدنيا والآخرة[2] .

ويكتب في رسالته إلى تلميذه الشيخ محمد عيسي الفيروز بورى فيقول : يا عيسي ركز في تفكيرك ، إن أفراد الأسرة يعملون دائماً لبناء البيت المادي ، ولا يقوم أحد منهم ببناء البيت الأخروى ، أليس هذا استخفافا بالآخرة أمام الدنيا ؟[3] .

(2) أبو الحسن على الندوي : مكاتيب الشيخ محمد إلياس : ص15 .

(2) محمد منظور نعماني مولانا: ملفوظات مولانا محمد إلياس ص37.

(3) أبو الحسن على الحسني الندوي. مولانا محمد إلياس أوران كي، ديني دعوت ص230.

ويؤكد الشيخ على أهمية أن يكون العلم متواصلاً غير مقطوع ، وأن يكون جاداً في الكم والكيف ، فيقول : للأسف الشديد إن أغلب الناس مقلون في العمل متأثرين في ذلك بالذين لا يعملون شيئاً للدين ، فيتخلفون عن التربية الدينية وتعاليمها ، ويغفلون كلية عن هذا الجانب الهام في حياة الإنسان .

وبذلك يعتقد الإخوة بأننا قد أدينا واجبنا بهذا الجهد القليل ، بينما كان عليهم أن ينظروا إلى أعلامهم الذين ضحوا بأنفسهم ، وتفانوا بجهودهم ، ومع كل هذا كانوا حريصين قلقين معتقدين في أنفسهم بأنهم مقصرون في أداء واجبهم .

وهذا هو سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، الذي كان حريصاً طوال حياته أن ينال مقام أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، في خدمة الدين "[1] .

كما أكد محمد إلياس أن الموافقة الفكرية، أو التلبية لأي عمل جاد لا تكفي وحدها بل إن القيام بالعمل هو دليل الموافقة على شيء فيقول : إن التلبيات بالشوق لا تروي الأرض الظمئة ، كما لا يشفي مرهم التلبية هذا المرض ، لأن الناس قد اغتربوا عن العمل لدرجة أنهم يعتقدون أن الموافقة باللسان على شيء ما هو إلا غاية العمل ، ولكن إذا لم تقم بعض الشخصيات بالتفاني في العمل الحقيقي كنموذج كامل ، فمن الصعب الوصول إلى شارع العمل من ميدان التلبية[2] .

ثم يوضح الشيخ أهم خصائص هذا العمل حتى يكون مصاحباً للإيمان الكامل ، حيث يقوم : " إن طريق الدعوة والتبليغ يتعلق بعضها بالقلب ، والبعض الآخر بالجوارح أي بالإيمان ، وتصحيح النية ، والعمل المستمر ..... الخ[3] .

ومن ثم يبين الشيخ ما يحتاج إليه هذا العمل بعد الإيمان فيقول : إن هذا العمل العظيم لا يقوم عليه غير أصحاب الهمم العالية . كما يوجه العلماء بقوله : إن الهمة والشجاعة والرجولة العظيمة القوية ، والصلابة والتطابق في الطبيعة والتفكير

---

(2) محمد منظور نعماني (مولانا) ملفوظات مولانا محمد إلياس ص166 .

(3) مكاتيب محمد إلياس 131 .

(4) محمد إلياس ودعوته الدينية لأبي الحسن على الندوي ص305 .

، كل هذا يحتاج إلى العمل ، لأن العمل إذا كان ذا روح قوية لا يقوم عليه إلا رجل قوى الجسم والإيمان[(1)] .

وقد اعتقد الشيخ أن الحياة بدون العمل لا تنفع وأن العمل بدون الإيمان لا أجر له وأما النجاح في هذا العمل فيفسره بقوله :

إن العمل بغير الإيمان بالله، وبعظمة نبيه، وباليوم الآخر يعد باطلا ، أما النجاح فلابد أن يكون بالإيمان واليقين الكامل بأن الفوز في العمل لا يأتي إلا من عند الله[(2)] .

وقال الشيخ أيضاً : لا يؤتي العمل ثماره إلا بالإيمان الكامل ، كما لا يطبق المنهج العملي إلا بالإيمان والاحتساب ، ولذلك فقد اختار الإيمان كنقطة للبداية وأساس للعمل . كقوله : إن باطن الدين هو الإيمان والاحتساب الذي ذكر في معظم الأعمال صراحة بكلمات : إيماناً واحتساباً [(3)] .

ثم يوضح الشيخ تلك الحقيقة بقوله: إن الأعمال فد حد ذاتها لا تحمل أي قيمة ، وأن القيمة تأتي بالامتثال لأحكام الله وعلاقة العبد بربه سبحانه وتعالى ، فتقدر قيمة الأعمال بقدر ما تكون علاقتها بالقلب ، وحسن أدائها والسيطرة على الربط بالأسباب والعلل ، فالشئ الوحيد الذي تزداد به قيمة الأعمال وقدرها ، هو اعتقاد المرء بأن تلك الأوامر الواردة هي حبل الوصال إلى الله ، ثم تمسكه واعتصامه بتلك الأوامر ، وجده وسعيه بها للوصول إلى الله عز وجل[(4)] ، لأن الأعمال والأوامر ليست مقصودة بذاتها ، بل المقصود هو السعي للوصول إلى الله سبحانه وتعالى[(5)] ، فيحدد الشيخ قيمة السعي وماهيته ويقارنه بالسعي إلى المادة ،

---

(1) مكاتيب محمد إلياس ص115 .

(2) محمد إلياس ودعوته الدينية للندوي 308 ، نفس المرجع 31 .

(3) محمد إلياس ودعوته الدينية ص38 .

(4) محمد إلياس ودعوته الدينية ص31 ، 33 نفس المرجع 31 .

(5) نفس المرجع .

ويوجه تلاميذه إلى ذلك ويرشدهم على حسب احتياجهم فيقول : " إن هذا الزمن الذي راح الناس فيه ضحايا يموتون من أجل لقمة العيش ، فلا حرج أن مستهم حرارة الحمي لخدمة الدين ، لأن رحمة الله لا تسمح للإنسان أن يستغني عن نعمة الدين إلا أن يجعل الإنسان أسرار أسباب الحياة الدنيا بسعيه فيها مستكيناً أمام أمور الدين فإن سنة الله مرتبطة بمقدار السعي ، وبذل الجهد في الدين في أغلب الأحيان "[1] .

وبعد ذلك يحدد رحمه الله مبادئ العمل وغاياته ، ويوضحها بأسلوب محكم ، مبيناً الخطورة التي واجهها معظم الناس بغير علم ، حيث يقول : " إن الخطأ الواضح قد عم كل المجالات الدينية حيث بدءوا يفهمون أن المبادئ هي "الغايات" ، ويعطون الوسائل درجة المقاصد ، فإن فكرنا بأسلوب سليم وإمعان بالغ سنجد أن هذا الخطأ قد تسلل إلى كل الأمور الدينية ، وتلك هي أسس المفاسد والنقائص والعيوب خاصة في الميدان العملي "[2] .

ومن الواضح أن كل من يقوم بالعمل لا يعمله إلا بنية خالصة ، مع أن أحداً لا يريد أن يفشل فيما وضعه نصب عينيه ، فيضع له الأسباب ويحدد منهجه العملي حتى يصل إلى غايته المنشودة .

وأهم ما قام به الشيخ محمد إلياس في هذا الصدد هو أنه بدأ يحدد المبادئ وخواصها ومتطلباتها ويشرح الغايات ومعانيها ، وما عليها ، ثم يتدرج إلى تحديد السبل المثلي للوصول إلى غاياته ، وينكر فهم العامة لمعني القيم والمبادئ والغايات ، أو النجاح والفوز أو الفشل في هذا الموضوع .

(1) نفس المرجع 237 .

(2) ملفوظات الشيخ محمد إلياس ص85 .

العمل والعلم هما معياراً تقدم الشعوب :

آمن الشيخ محمد إلياس رحمه الله ، بأن العمل الجاد هو الوسيلة الوحيدة التي تدفع إلى التقدم والعلو ، كما أنه المعيار الوحيد الذي تحمد وتمجد به الأقوام والشعوب في تاريخها كما اعتقد الشيخ أنه لا تظهر جدية هذا العمل بغير مصاحبة الإيمان الكامل ، حيث يقول: بأن معايير التقدم والرقي في حياة الأفراد والشعوب هي: الحياة العملية، فالفرد الذي يتحلى بالأخلاق الفاضلة ، والأعمال الصالحة ، فهو مثقف ومتمدن ومتحضر ، والقوم الذين اعتاد أفرادهم على أداء الأعمال الصالحة ونشرها ، يكونون ذوي عزة وكرامة وحضارة وثقافة عالية ، وبذلك تخطو نحو الازدهار والرقي في كل شئون الحياة ، وأن عظمة الصحابة – رضى الله عنهم – وكرامتهم لم تكن بسبب علومهم ومعارفهم فحسب ، بل بسبب حياتهم العملية التي لم يوجد مثلها في العالم البشري[1] .

ولهذا أكد الشيخ أن إصلاح النفس بالنفس أمر لابد منه ، لأن المجتمع الصالح لا يتكون إلا بإصلاح الفرد ، وإصلاح الفرد لا يأتي بغير إصلاح الفرد نفسه ، فيقول في ذلك : " إن الغاية الأولى من هذا العمل ما هي إلا أن يعتقد الرجل تمام الاعتقاد بأنه قام لإصلاح نفسه ، لا لإصلاح غيره ، فلا يزعم أنه هاد للناس ، فإن الله هو الهادي لا شريك له ، أما الدعوة فإنها لا تؤثر إلا بتقديم نماذج عملية ، لكي تؤثر على المدعو حق التأثير المرجو"[2] .

وبعد هذا يأتي أمر هام وسؤال أهم وهو : من أين يبدأ هذا الإصلاح ؟ هل يبدأ بالعلم أم بالعمل ؟ أم يكون الالتزام بهما معاً ؟ عن هذا يقول الشيخ محمد إلياس رحمه الله : إن كل الأعمال لا تأتي ثمارها إلا بالإيمان واليقين الكامل ، وأن

(1) تبليغ كياهي ص48 .

(2) إرشادات ومكتوبات الشيخ محمد إلياس ص88 .

البداية لابد وأن تكون بالعمل قبل العلم ، لأن تحصيل العلم ليس إلا لاحتياج العمل له وأن العلم لن يحصل إلا بأن يقوم بعمل للحصول عليه[1] .

وأما التيقن وقوة الفكر والخشية ، فكلها معينة لترسيخ عظمة الله ودينه في القلوب ومعني عظمة الدين في القلوب هي التفاني في إحيائه ، ولا يمكن هذا بغير العلم والعمل معاً .

ويقول الشيخ : إذا اعتقدنا أن العلوم هي المقصودة بالذات ، لاستغنى الناس عن العمل ، ولكانت نتيجة ذلك أننا نعلم كل شيء ولا نعمل به شيئاً وبذا يقل العمل ويكثر الكلام[2] .

ثم يقول قوموا وتعلموا هذه المبادئ بالعلم والعمل، ثم انتشروا في العالم وابحثوا عن العلوم بحثاً صحيحاً في سبيل العالم ، وابحثوا عن رضا الله في أعمال محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن العمل لم يكن مقصوداً بل المقصود هو المشقة التي تكمن في هذا العمل ثم الجهد الذي تنطوي عليه المشقة نفسها ، والذي تسمو الروح به ، وفي هذا الوقت يأتي وعد الله[3] .

وكان الشيخ يوضح تلك الحقيقة أمام زملائه وتلاميذه بشتى الوسائل ، مؤكداً أن الإيمان والاحتساب إلى الله، والعلم والعمل: هي أمور لابد منها لإصلاح النفس والمجتمع فإن نقص شيء منها يؤثر تأثيراً مباشراً على المقصود ، فمثلاً يقول: " في الصدر الأول من الإسلام كان بدء الأمر بالعلم والعمل معاً، فكانت الأذن تسمع الأوامر ، ثم يعيها القلب والعقل، فتعمل بها الجوارح ، ولذا كانت حياتهم نموذجاً للعلم والعمل معاً، ثم استمر هذا الوضع بنفس الأسلوب، وبذا صلحت أحوال القوم ، وتغيرت أوضاعهم، وأصبحوا خلفاء لله في الأرض بعد أن كانوا رعاة ثم فتحت مراكز للعلم وأخري للعمل، كل منها بعيدة عن الأخرى، ومستقلة

---

(1) يقصد الشيخ هنا أن العلم لن يحصل إلا ببذل الجهود العملية التي تلزم في تحصيله .

(2) تبليغ كيا هي ص48 ، 49 .

(3) إرشادات ومكتوبات الشيخ محمد إلياس ص44 .

بمناهجها، حتى يتوفر العلم هنا ، وتتوافر الرياضات الروحية هناك ، ولكن العامة لم يستطيعوا مصاحبتها في وقت واحد، كما عجزوا عن تقديم العون لها ، فنتج عن ذلك تقدم القلة وتخلف الكثرة ، وبذا لزم انهيار تلك المراكز نظراً لبعد الأكثرية عن العلم والعمل، وهذه المراكز موجودة حتى الآن ، ولكن القوم اجتنبوها ، فأصبحت غريبة عليهم[(1)] .

الإصلاح والعمل وآثارهما :

لقد عرف الكثيرون الحقيقة القائلة بأنه ما دام الإصلاح مرتبطاً بالعمل الجاد فلا سبيل بدونه ، ولكن الشيخ محمد إلياس لم يقتنع بمفهوم تلك الحقيقة ، بل أكد أن الاعتقاد بهذه الحقيقة لا يعد شيئاً حتى يقوم بالفعل الجاد مع الإيمان الكامل ، فقام الشيخ بنفسه ، وأقنع الأصدقاء بذلك حتى يقدموا للدعوة نماذج عملية مؤمناً بأنها أكبر وسيلة لإصلاح النفس والمجتمع ، وأن الوسائل الأخرى وإن كانت لها أهمية فلا قيمة لها دون استخدام هذه الوسيلة الأساسية التي التزم بها الأنبياء والصحابة ، فيقول الشيخ : " عليكم أن توضحوا وتبينوا للمخاطب الضر والمنفعة بطريق القول والعمل ، حتى يتضح له الأمر كعين اليقين "[(2)] .

ويقول : " إن هدفنا الوحيد هو : أن ندعو الناس إلى دين الله بواسطة الدعوة بالقول والنماذج الواقعية بالعمل ، أي بالتطبيق العملي لكل ما تنادي به الدعوة "[(3)] .

ويقول الشيخ صدر الدين الأنصاري : "كان الشيخ يؤكد على بذل كل الجهود في العمل بالتمرين والتدريب – دون استخدام أية وسائل أخري غير مثمرة ، لأن المقصود من الدعوة هو تأثر القلب بها ، بحيث تتجلي تلك الآثار في الحياة العملية

---

(1) تبليغ كياهي 49 : 50 .

(2) إرشادات مكتوبات الشيخ محمد إلياس ص18 .

(3) دعوت وتبليغ 34 .

، فتجري الحياة طبقاً للسنة النبوية ، على صاحبها الصلاة والتسليم " ، وهذا المقصود كما يري الشيخ لا يتم إلا بالتدريب العملي "[1] .

فمثلاً يقول : " كما يحتاج العلم إلى مدة طويلة لمعرفته نظرياً ، كذلك يحتاج العمل أكثر من ذلك التدريب على ما تعلم من الكتب ، ولابد أن يكون ذلك بإشراف المعلمين المتخصصين لفترة طويلة ، فن الخروج بالجماعة يهيئ الفرصة بالعمل بكل ما نتعلم . فلا يتلذذ الإنسان بحقيقة شيء لمجر قراءته ، بل بعد أن ترسخ تلك الحقيقة في صميم عقيدته عن طريق العمل ، لأن الحاجة الماسة هي معرفة الدين بالتجربة العملية بعد تعلمه[2] ثم شغل الوقت طبقاً للسنة النبوية على صاحبها الصلاة والتسليم ، وإذا واظب العبد على هذا التدريب العملي ، فقد صيغت حياته في قالب الشريعة[3] " .

ومما لاشك فيه أن هذه النظرية قد أصبحت حقيقة ثابتة بعد تجارب عديدة لا تحصى ولكن الاستحالة كانت في قيام جماعة نشطة تحث على القيام بهذا العمل بكل وسائل الترغيب والتشجيع في العصر الحديث، وتتفق مع كل الاتجاهات الدينية، في وقت رصد العدو فيه شراكه على كل شبر في البلاد ضد كل القائمين في سبيل الحق المبين ، فإذا ما قام أحد بحمل لواء الدعوة ناهضه مئات من أهل دينه ووطنه إرضاء للاستعمار ومساعديه

وبعين البصيرة أدرك الشيخ محمد إلياس بخبراته الواسعة ، وطبقاً للظروف التي أحاطت بالمجتمع الإسلامي داخل البلاد وخارجها – أدرك أن العالم الإسلامي لا يحتاج إلى الدعاية بالكتابة والمقالات الفياضة والخطب الرنانة ، بل يحتاج إلى النموذج العملي الكامل الممكن تطبيقه في العصر الحديث وفقاً للكتاب والسنة ،

(1) الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية ص3 .

(2) ولا ينفى هذا قوله : البداية من العمل ، لأن الاهتمام بالتعليم يسبق عملية التعليم نفسها ، كما تسبقه الإرادة والرغبة نفسها وغيرها من الأمور : ديني دعوت للندوي ص319 إلى 320 .

(3) راجع الشيخ محمد إلياس دعوته الدينية ص6 وما بعدها الشيخ صدر الدين الأنصاري .

واتفق معه في ذلك المحدثون والفقهاء والعلماء المعاصرون له ، وأيدوه كل التأييد بالفكر والقول والعمل .

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي موضحاً منهج الشيخ محمد إلياس العملي في دقة واضحة ، وذلك بعد زيارته لجميع المناطق التي بدأ الشيخ محمد إلياس عمله فيها ، فيقول المودودي : " نظراً للظروف التي يواجهها مسلمو شبه القارة ، يقتضي الأمر أن ندعو المسلمين إلى الإسلام من جديد ، وأن نجعلهم مسلمين كما جعل محمد صلى الله عليه وسلم العرب مسلمين مؤمنين ، لأن الأمر الذي يتعلق بإصلاح العامة ، قد تأكدت أنه ليس هناك طريق للعمل أفضل مما قدمه الشيخ محمد إلياس ، فالذي يرغب أن يقوم بالإصلاح ، فإني أشير عليه بأن يذهب إلى الشيخ ويري أسلوب عمله ، وأن يتعاون مع مبلغيه تعاوناً عملياً حتى يأخذ الدروس القيمة من المنهج العملي ويتدرب عليها ، ثم يتجه كل منهم إلى منطقته ويبدأ نفس العمل على نفس الأساليب ، ومن أهم الأمور قبل كل شيء في هذه العملية هو التحمل والصبر لأن الخردل لا ينبت هناك على كف اليد[1] فأحياناً تحتاج سنين طويلة حتى تظهر بضع شخصيات تصلح للعمل ، وقد يظن القائم بهذا المجهود أن جهوده قد باءت بالفشل ، فيحزن قلبه ، ولكن بعد حمل الشدائد والعثرات لابد وأن تظهر براعم النجاح "[2] .

ويقول محدث العصر العلامة محمد يوسف البنورى[3] ، في مقال طويل تحت عنوان "البصائر والعبر" : " إن الأمة لا تحتاج اليوم إلى الخطب والكتابة عن

---

(1) ترجمة مثل يضرب للصبر وأن ظهور الثمار لهذا العمل لن تكشف إلا بعد عمل مستمر جاد ، وأن النتيجة لا تظهر على الفور

(2) جريدة ترجمان القرآن عدد شعبان عام 1358 هـ الموافق أكتوبر عام 1939 نقلاً عن جماعة التبليغ والجماعة الإسلامية والبريلوية ص27-28 .

(1) وهو المؤلف الإسلامي الكبير، المحدث الفقيه، المجاهد الإمام محمد يوسف بن زكريا الحسيني البنورى رئيس جمعية تحفظ ختم النبوة ورئيس مجلس وفاق المدارس العربية، ورئيس مجلس الدعوة والتحقيق الإسلامي، والمشرف الأعلى للمجلس العلمي الباكستاني والهندي، وعضو المجمع العلمي بدمشق ، كما كان

الإسلام . فكل هذا قد قيل وكتب من قبل، ولكن الاحتياج الملموس هو أن تقدم النماذج العملية الكاملة، لأن الأمة قد فاضت منها أنهار الفصاحة والبلاغة ، ولكنا اليوم نحتاج إلى دعوة عملية بشتى الطرق اليسيرة البسيطة . والحمد لله لما وفق الله سبحانه الشيخ محمد إلياس وجماعته للقيام بهذا العمل، حيث يذهب الطبيب إلى المريض دون أن ينتظر مجئ المريض إليه بنفسه ليبدأ العلاج بعد، فإذا انتشر هذا الطريق العملي، وكثر في هذه الأمة بهذه الوسيلة وهذا الأسلوب، فمن المتوقع أن تنجو سفينة هذه الأمة وتنال السعادة الأبدية " [1] .

ومن الواضح أن التوافق والتأييد ، وإن قام بها جميع الأحزاب والجمعيات ورؤساؤها، لا تساوى شيئاً كما ثبت من التجارب العملية الواقعية . فإن التقارير المتواصلة من أقصى بلاد العالم تؤكد الاحتياج لهذا المنهج العملي في جميع أنحاء المعمورة ، نظراً لفاعليته الملحوظة ، وكونه منهجاً بسيطاً قابلاً للعمل ، نقياً من كل الشوائب ، موافقاً للكتاب والسنة الشريفة ، مطابقاً لحياة الصحابة ومؤدياً إلى الرشد والهداية للفرد والمجتمع .

ومن الممكن أن نذكر ملخص أحد هذه التقارير الواردة من أنحاء العالم ، ومنها ما أرسله أمير جماعة وفقها الله في رحيلها إلى الولايات المتحدة الأمريكية للدعوة ، فهو يتحدث عن البيئة الأمريكية وتقدمها في الصناعة ، وتخلفها في الأخلاق ، وكأنه يظهر لنا صورة حقيقية عن بواعث تلك التقدمية ونتائجها التي تؤكد تدمير الإنسانية وخرابها ، لأن تدمير القيم الأخلاقية يؤدي إلى استخدام الوسائل المادية لتدمير الإنسانية نفسها ، مهما تكن صورتها الظاهرة في البناء والتعمير ، ثم يواصل هذا الأمير كلماته عن الناس الذين يهربون من الأضواء الساطعة الخادعة ، تخطف الأبصار، وتضيق الأنفس، وتموت بها القلوب ، ويبحثون عن الحق فيلجأون إلى

عضواً بارزاً في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف بالقاهرة وإسلام آباد بباكستان ، مجلة البيانات العدد الخاص بالشيخ البنورى، ومجلة خدام الدين : عدد خاص بالشيخ ص14 .

(1) راجع كتاب: محمد يوسف البنورى وجماعة التبليغ ص18 للشيخ محمد شاهد المفتي ، وما بعدها .

السبل الروحية لتطمئن قلوبهم ، فلا يجدون هادياً ولا مرشداً ، فيقعون فريسة المحلات التجارية باسم الدين ، فيهربون منها بسبب عدم اقتناع الفطرة الكامنة في داخل الإنسان ، لأن الدعوة لا تؤثر إلا حين يكون بناؤها مؤسساً على الإيمان الكامل والإخلاص ، وتكون نقية من كل الشوائب ، هذا فضلاً عن الأديان المحرفة والملل والنحل والأهواء التي تسببت في نشر الإلحاد في العالم بدلاً من الروحانية فيقول : "إن الناس قد اضطروا إلى البحث عن الحق ، وإن الأمريكان أنفسهم لا يريدون التعاليم التي توجد في الكتب السماوية ، بل يحبون أن يروا الإسلام في الناس قائمين عليه بصورة عملية ، تحتضن في كيانها تأثيراً مغناطيسياً جذاباً ، ولهذا كانت حياة محمد صلى الله عليه وسلم مليئة بالنماذج العملية "[1] .

ومما لا شك فيه أن العمل له أهمية بالغة في حياة الإنسان ، وهذه الحقيقة لا تحتاج إلى إيضاح في هذا العصر الحديث ، وقد كتب عنها فلاسفة كل زمان ومكان ، فضلاً عما جاء في التعاليم الروحية ، ولكن المهم في هذا الباب هو أين يصرف الإنسان هذه القوى العملية ؟

يقول الشيخ محمد إلياس رحمه الله : " إن العمل والمشقة شيء فطرى للإنسان ، كما قال الله تعالى : { لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَد }[2] فإن لم يتحمل تلك المشاق في الأمور الدينية فإنه سيصرفها في الأمور الدنيوية التي لا أجر لها ، وبالفعل كثر هذا العمل وشغل الناس في أمور دنياهم وسعوا وراءها يبذلون فيها الجهود الجبارة بدرجة جنونية ، ولا تجد هناك شخصاً يتحمل المشاق في سبيل الدين ، أو لأجل الآخرة "[3] .

(1) حياة الشيخ محمد يوسف الكاندهيلوي ص537 .

(2) سورة البلد : الآية 4 .

(3) الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية ص232 للندوي .

الإصلاح بالحوار والكلمة :

حينما وضحت هذه الحقيقة للشيخ محمد إلياس بأن العمل الجاد له أهمية بالغة لإنقاذ النفس من تيه الظلام والضلال ، وهو نقطة البداية ، لتكوين مجتمع سليم ، كما أنه الوسيلة الوحيدة لعزة الأمم وكرامتها ، لأن العمل لا يؤتي ثماره إلا بالإيمان الكامل بذات الله وصفاته .

فقام الشيخ يحدد كيفية العمل الجاد منكراً ما لا ينفعه ، موضحاً مدى تأثير الوسائل الأخرى التي تستخدم في الدعوة – في معظم الأحيان – مثل وسائل الإعلام والحوار والوعظ والكتابة ، والمناظرة ، وغيرها من الأساليب المستخدمة في هذا المجال .

ومن أهم ما أحس به الشيخ هو : أن تلك الوسائل تؤدي إلى الإصلاح نظرياً في حين أن المرض الخبيث يحتاج إلى الإصلاح في الفكر والعمل معاً ، ثم إنها تستخدم لتوجيه الآخرين ، والاحتياج هنا في بداية الأمر هو إصلاح الفرد نفسه لا لغيره حتى تتكون به شخصية مستعدة لتحمل المشاق في نشر دعوة الحق على وجه الأرض، وعن هذا يقول الأستاذ أبو الحسن على الندوي: "كانت أساليب الدعوة والتبليغ والإصلاح تتعلق بالوسائل الإعلامية بما فيها الكلمة والكتابة وغيرها، ولكن حمل المشاق وبذل الجهود العملية ، والسعي فيها لازدياد هذه المساعي والجهود عن كل ما بذل من قبل في مجال الكلمة والكتابة لهذا الغرض، كان هو الشعار المتفرد للشيخ محمد إلياس رحمه الله ، والذي ألهمه الله إياه كحقيقة جلية لبلوغ الهدف المنشود "[1] .

يقول الشيخ محمد إلياس في رسالته إلى شيخ الحديث محمد زكريا الكاندهلوى:

" إنني أتمني من صميم قلبي أن تدعو الله بكل عناية وهمة واهتمام خاص ، وأن تكون لتلك الحركة " حركة العمل الخالص " ، وألا يأتي عليها الغبار والكدر بكثرة

(1) الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية ص 232 للندوي .

القيل والقال، بل يكون الوعظ والأقوال قدر الحاجة المرجوة والمساعدة للعمل ، وما ذلك على الله بعزيز "[1] .

ويقول الأستاذ الندوي أيضاً : " لقد قام الشيخ بنفسه بهذا العمل ، برغم أنه ضعيف البنيان نحيل الجسد ، واستمر في جولات الدعوة ليلاً ونهاراً بين السفر والحضر ، ونسي الراحة والنوم ، فكان يسير حافياً عشرات الأميال ، كما كان لا يأكل أحياناً لعدة أيام ، برغم وجود الطعام ، لكنه ينسي نفسه بسبب كثرة انشغاله بالدعوة ، وتبلغ تلك الحالة أقصي درجة حتى تستمر ثلاثة أيام بلياليها ، حيث يتناول الشيخ طعامه قبل خروجه للدعوة يوم الجمعة ، ثم يعود إلى بلدته مساء يوم الأحد ، ولا يتناول طعامه في معظم تلك الأسفار إلا بعد عودته إلى منزله – حيث يعبر الغابات ، ويصعد الجبال ، ويسير في الصحراء وقت الحر الشديد لشهري مايو ويونيه، وفي زمهرير شتاء ديسمبر ويناير، ويقطع الصحراء والميادين قائلاً لأصدقائه : إن خلاصة حركتنا الإيمانية والعملية هي أن ينشأ حب تضحية النفس في سبيل انتشار الدين الحنيف ، وأن تبذر بذور حب الدين حتى تهون قيمة الجسد المادية أمام التعليمات الإلهية .

وكان الشيخ يشرح لزملائه سبل تحمل المشاق في سبيل الدعوة بقوله : " إن الله موجود وراء " جبل الجهد "[2] ، فمن يريد مقابلته فليتفضل "[3] معتقداً – بأنه لن ينال العبد رضا الله حتى يقوم بالجهد والتضحية في سبيله ، أما من قال ولم يقم بنفسه فلا شك أن هذا لغو ومرفوض من الجميع .

ويقول العلامة محمد منظور النعماني : إن الشيخ محمد إلياس كان يحزن على الحال الذي وصل إليه المسلمون ، إذ كان يشعر بخطورة ترك العمل من أجل الدين، والاكتفاء بالكلمات عنه فقط، مما يؤدي إلى عدم فاعليته وتأثيره في

---

(2) نفس المرجع .

(1) أي العمل وتحمل المشاق من أجل الدين .

(2) أي يقوم بهذا العمل لإعلاء كلمته المصدر السابق ص233 .

القلوب، لأنه إذا توارت النماذج العملية عين العيون، أصبح الناس ينكرون الأقوال، وينقدون الدعاة غير العاملين بدعوتهم ، ويكرهونهم، ثم يبتعدون عنهم ، فكان الشيخ يقرأ هذا البيت من الشعر وهو يبكي قائلاً :

أستغفر الله من قـــول بلا عمل　　لقد نسبت به نسلاً لذي عقـــــم

ظلمت سنه من أحياالظلام إلى　　أن اشتكت قدماه الضر من ورم[(1)]

ويقول الشيخ محمد إلياس : " أما الأمر الثاني فهو ليس هينا ، وهو يعتبر أحد الأمراض الأساسية ، حيث استخدام الأمور العملية في غير محلها ، ثم الاكتفاء بالوعظ وإلقاء الكلمة ، حيث لا يتم العمل بما يقال " . ومن هنا احتاج الأمر إلى الترغيب حتى يزداد العمل الجاد دون الأقاويل ، ومن مظاهر اهتمام الشيخ بالعمل : اهتمامه الخاص بعمل العلماء حيث يقول : " إن عمل العلماء يؤثر على الناس أكثر من مواعظهم الحارة وتظهر تلك الحقيقة في اسلافنا – والتي يعرفها أهل العلم – لأن عمل الدعوة لا يتم إلا بتقديم نماذج عملية على ما قيل فيها ، فعلى العلماء أن يخرجوا إلى المدن والقرى ، ويطرقوا باب كل واحد وغافل "[(2)] .

أما الكتابة عن الإسلام كوسيلة للدعوة ، فقد اعتقد الشيخ أن الحاجة الماسة هي العمل بما كتب ، وهي لا تعطي الأهمية لها إلا إذا قرئت كضرورة للعمل ، كما تعتبر الكتابة مثل البريد ونظام توزيعه، فوجه رسالته إلى أبي الحسن على الندوي قال فيها : " إن وساطة البريد وجهد ساعي البريد لا يساوي الجهد الذاتي ولا يكون بديلاً عنه "[(3)] .

وحينما أخبر الشيخ أن جماعة من العلماء قاموا بجمع أقواله في شكل كتاب مستقل قال : " عندما سمعت أن الأصدقاء قد جمعوا أقوالي ورسائلي المكتوبة إلى

---

(1) ملفوظات ص59 .

(2) رسائل الأكابر ص79 ، جمع الشي محمد شاهد السهارنفوري .

(3) مكاتيب الشيخ محمد إلياس ص82 ويقصد هنا أن كتابة المؤلفين والقراءة لهذه الكتب لا تتساوي بالجهود المتفانية في هذا المجال .

بعض الإخوة في الدين ، أحس قلبي بشئ من القلق ، لأنني قد أرسلت إلى هؤلاء العلماء بأن الكتابة والتأليف ما هي إلا وسيلة للعمل فقط، ولكنها إن كانت غاية فحسب، فكان يكفي ما كتبه السلف مثل السيد أحمد شهيد، والشاه ولى الله ، والشيخ أحمد السرهندي ، وهذا ليس بقليل لتوجيه الناس إلى الصراط المستقيم ، وزد على ذلك فإن القرآن الكريم ، والسنة الشريفة لا يكفيان بدون العمل بهما في هذا العصر، لأن الحاجة الأساسية هي ضرورة العمل، حيث يستفاد به في كل ما كتب في هذا المجال من قبل "[1] .

ولم يترك الشيخ رحمه الله شيئاً يمس العقيدة إلا وقد تحدث عنه، كما تحدث عن الوسائل التي يمكن استخدامها خلال الدعوة ، مبيناً أهميتها واستخدامها عند الحاجة إليها

وحينما كثر السؤال عن المناظرات في المسائل الجدلية ، والتي أثارها العدو بين المسلمين ، حتى يبعد أنظارهم عن الأمور الملموسة في ذاك الحين ، قال الشيخ رحمه الله : " قوموا وأعلنوا في المساجد والجامعات بأن الذي لا يعرف معني الكلمة الطيبة ، وإقامة الصلاة وأركانها ، فلا معني للقيام بعمل المناظرات والمجادلات في موضوع لا مجال للقيام به أمام العامة ، بل هو الخطر العظيم ، لأن العامة لا يفهمون ما يقال في المناظرات ، وهذه الفترة لا تسمح لنا بالقيام بالجدل العلمي أمام العامة "[2] .

ولقد قامت تلك المناظرات من قبل الآريين الهندوس ، كما أقامها المبتدعون حتى تدب المشاجرات والقتل والفساد ، وحتى يغتنم العدو فرصة عدم الانتباه لما يجري في البلاد لتحديد مصير المسلمين في شبه القارة .

---

(1) مكاتيب الشيخ محمد إلياس ص83 .

(2) مكاتيب الشيخ محمد إلياس ص113 .

ومن ثم قام الشيخ يوجه الناس إلى المنهج السليم ، ويؤكد لهم أهميته في مجال التبليغ موضحاً معني التبليغ وحقيقته ، فيقول : " إن الأصل في التبليغ شيئان : شيء يتعلق بالروح ، وشئ يتعلق بالمادة ، فالمراد من المادة هو الأمور التي تتعلق بالجوارح من حيث تكوين جماعة تجوب البلاد والأقاليم لإحياء سنة الخروج والجهاد في سبيل الدعوة ، متحلية بكل ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، أما المراد بالتبليغ الروحي فهو إبلاغ المشاعر لترويج سنة التضحية بالنفس لإحياء أحكام الله[1] سبحانه وتعالى بين عباده " .

ومن هنا يؤكد الشيخ على أن الكلام والنصح والمناظرات ، لا تنفع في مثل تلك الظروف ، بل الأمر أصعب من ذلك فيقول : " إن القيام بالعمل عسر ، والقيام بالمشاجرة يسر "[2] .

ويريد الشيخ بذلك أن غاية المناقشة والمناظرة ما هي إلا الوصول إلى كشف الحقيقة ولكن الظروف لا تسمح بهذا الأسلوب بل تؤدي إلى المشاجرة في معظم الأحيان ، وقد يحتاج الأمر إلى أن يكون هناك منهج عملي بسيط ، يتضمن مبادئ محدودة ، توضح للبسطاء فهم الحقيقة بالتدريج ، وذلك ببذل جهود ذاتية في هذا المجال ، فيقول الشيخ : "بالجهد المستمر تنكشف أسرار هذه المبادئ[3] وبركاتها في قلوبكم ، فاستمروا في العمل ، واستمروا في الدعاء ، وتقدموا وسابقوا ، فإن هذا العمل لا يفهم بالألفاظ ، بل يكشف الله سبحانه وتعالى حقيقته في قلب الإنسان بعد قيامه بالجهد والتضحية والمشقة والذلة والبكاء والتضرع إلى الله تعالى "[4] .

(1) إرشادات الشيخ محمد إلياس ص27 .
(2) إرشادات الشيخ محمد إلياس ص102 .
(3) يعني المبادئ التي حددها للتبليغ .
(4) مقامي كام ص38 .

الإصلاح الروحي وظهور البركات والكرامات :

لا شك أن تحديد النجاح وظهور البركات ، أو الاعتماد على الكرامات هو باب واسع يستحق النقاش في هذا المنهج العملي ، حيث يجلي لنا مدي تأثير العوامل التي تتربي في وجدان المشتغلين به ، إذ لابد أن الفوز والنجاح هو حافز نفسي قبل القيام بأي عمل ، تزداد الرغبة فيه بعد ظهور البركات والكرامات ، وهذا يوضحه الشيخ في رسالته إلى الجماعات فيقول : " إن كل من يقوم بالعمل الجاد يواجه المشاكل والعوائق أثناء عمله، وهذه المشاكل تجلي لنا صفحة جديدة في حياة الإنسان ، وهو إما أن ينجح في عمله ثم يبدأ عملاً آخر يليه ، أو يفشل ويترك ما بدأه ، فإن نجح في عمله فعليه أن يشكر الله سبحانه ، وإن فشل فعليه أن يستغفر الله ويدعوه أن يوفقه في العمل القادم .

أما نجاح الإنسان في العمل وإنجازه فيه ، فإن تصور أن ذلك من نفسه فقد أشرك بل يجب أن يعتقد أن كل النجاح والإنجاز من فضل الله سبحانه وتعالى ، وعليه أن يشكره سبحانه بكثرة الذكر والصلاة له ، فإن لم يشكر فهو كفران بالنعمة ، وله وعيد وعذاب "[(1)].

ثم يأتي المؤثر الآخر وهو ظهور البركات ، فيقول الشيخ : " إن الزملاء قد فهموا من ظهور البركات أن العمل سائر على ما يرام ، في حين أن العمل شيء وظهور البركات شيء آخر " ويقول : " انظروا فإن البركات قد بدأت تظهر منذ ولادة الرسول عليه الصلاة والسلام . ولكن العمل جاء بعدها بكثير . وإنني لا أكذب قولاً بأن العمل الحقيقي لم يبدأ بعد فإذا بدأ العمل عاد المسلمون إلى حالتهم التي كانت قبل سبعمائة عام ، ولكن استمرار الحال على نفس السبيل الخرب يدل على أن العمل لم يبدأ بعد . وقد فهم الناس أن هذه الحركة ليست إلا كحركات عادية ، وبذا فقد أخطأ الناس – ومنهم القائمون على هذا العمل – في فهم غاية

(1) ملفوظات الشيخ محمد إلياس، ورواية علامة ظفر أحمد العثماني ص43 .

هذا العمل ، لأن الفتن التي تأتي في قرون ستأتي في الشهور ، بسبب هذا الخطأ في فهم غاية العمل .

والحاجة الماسة الآن هي أن يفهم الناس ماهية العمل وأهميته ، وأن يستمروا عليه دون التأثر بنتيجة أي فشل أو نجاح "[1] ، وكذلك فإن الشيخ ينكر أن يتأثر المجاهد في سبيل الله بالكرامات ، أو يعتمد عليها خلال سعيه في هذا المجال ، فيقول الشيخ : " إنني لا أريد أن تتبع تلك الحركة منهج الكرامات ، لأن الحركات التي تنهج هذا المسلك تعتبر حركات مؤقتة تتعلق بشخصية خاصة وكرامتها ، أما الحركة الإيمانية فقوامها الجهد والعمل الخالص الذي يحتاج إليهما أهل كل العصور والبلاد ، فلا تنسبوها إلى شخصي ، ولا تسموني بالمجد ، بل الحركة نفسها هي المجددة"[2] .

ويقول أيضاً : " على الإنسان أن يعمل امتثالاً لأوامر الله ، ومن ثم فلا يعتمد ولا يثق في عمله هذا[3] فحسب ، بل يحترف ، فإن التضحية بالنفس وترك الوطن هو باعث ودافع لتربية الآخرين[4] على المنهج العملي المنشود .

الدعاية وعلاقتها بالإصلاح :

اعتقد الشيخ أن العمل الجاد فوق كل الوسائل التي تستخدم أثناء الدعوة بعيداً عن الكلمات ، أو الحوار المجرد ، أو الدعاية أو الرياء ، فيقول أثناء خطابه للمبلغين : " إن الابتهاج بالحوار العادي أصبح من عاداتنا ، كما أننا اعتقدنا أن الحديث بالكلمات الطيبة هو الغاية المنشودة ، فاتركوا هذا التعود ، وتعالوا إلى العمل ، قوموا للعمل قوموا للعمل "[5] .

(1) ملفوظات الشيخ محمد إلياس، ورواية علامة ظفر أحمد العثماني ص43 .
(2) محمد إلياس ودعوته الدينية للندوي ص341 .
(3) إرشادات الشيخ محمد إلياس، رتبه افتخار فريدي ص45 .
(4) أي يكون هذا العمل وسيلة حتمية وسبباً وحيداً في النجاة من العذاب .
(5) ملفوظات الشيخ محمد إلياس ص36 .

ومن ثم فإن الرياء المقرون بالعمل القليل ، خداع وسراب ، لا يأتي به النور ولا يزداد به الإيمان . يوضح هذا الشيخ محمد إلياس بقوله : " إن الكسل قد عم بين المسلمين وإن قاموا بالعمل فالرياء متوافر ، ولأن العمل البعيد عن مشاغل الدنيا وأهوائها يتجلى بالنور ، فقوموا بالدعوة إلى كلمة التوحيد حتى يشرق عليكم النور ، ولهذا السبب فإن الصلاة تتجلى بالنور على الإنسان في أعماله التي يقوم بها "[1] .

يقول الشيخ ميان جي محمد عيسي : إن الإمام محمد إلياس كان يؤكد لزملائه تجنب الدعاية لهذا العمل ، فكان يقول : " تحاشوا الدعاية لهذا العمل ، لأن الدعاية من مهام الأمور السياسية الخاوية من الصدق والإخلاص ، والتي ليس لها أي فاعلية تؤثر على وجدان المخلصين . فعليكم أن تتقدموا مائة ميل إلى الأمام حين يكون صوتكم إلى الوراء مائة ميل "[2] .

ويقصد الشيخ بهذا القول أن يكثر العمل وتتجنب الدعاية قدر الإمكان لأن المؤثر الحقيقي هو العمل الصادق الذي يكشف للقلوب الأسرار والحقائق نتيجة تحمل المشاق في المجال العملي .

العمل بين المنهج التقليدي والمنهج التجريبي :

رأي الشيخ محمد إلياس أنه لا يلزم القائم بهذا الجهد العظيم أن يسلك نفس الطريق الذي سلكه الآخرون من شيوخه وآبائه، فعليه أن لا يعتمد على التقاليد التي سيطرت على المجتمع بدون جدوى، دون أن يقدرها بميزان العقل والتجربة الفطرية، ويختار الوسائل السليمة وإن اختلفت عن سبل المتأخرين عنه من الدعاة ، فيقول الشيخ في هذا : " إن قال أحد إن هذا المنهج يخالف منهج الشيخ فلان رحمه الله ، أو هو يخالف ذوق شيوخنا فإني أقول : " إن ترك العمل السليم الذي

(1) إرشادات الشيخ محمد إلياس ص73 .

(2) مقامي كام للشيخ محمد عيسي ص116 .

ظهرت فوائده – بالدلائل الثابتة ، والبراهين القاطعة ، والتجارب المستمرة – خطأ عظيم ، لأن الشيخ هو مرشد وليس بإله "[1] .

ويقول الشيخ : " لقد جربت كل طرق الدعوة التي استخدمت حتى الآن ولكنى تيقنت أنه لن يحدث الانقلاب والتغيير في الأمور حتى تصرف كل القوى الظاهرة والباطنة الموهوبة من عند الله – في عمل قام به محمد صلى الله عليه وسم وأصحابه ، لأنها هي الطريقة السلمية والمنهج الفطري لإصلاح البشرية كلها "[2] .

ويقدم الشيخ أمثلة كثيرة لشرح هذه الحقيقة وهي أن استخدام الطرق الفطرية وتنفيذها بالتدريج هو أمر لا يستغني عنه في مجال الدعوة .

فمثلاً يقول : " إن بذل الجهود في المرحلة الأولى من منهجنا ما هو إلا تمهيد للأرض لبناء قواعد أمور الدين وإدارتها ، وهي بمنزلة مياه المطر ، أما الأمور الأخرى في الدعوة فهي بمنزلة رعاية الحدائق والبساتين والجنات ، بمختلف أنواعها ، ولكن لا يستفاد بأي من أنواعها إلا إذا توافر لها شيئان أساسيان وهما : " تسوية الأرض والتربية السليمة بعناية خاصة " .

وهكذا فلأن أرض المذهب غير مستوية ، فإنه كلما يظهر نبت في حدائقها يكون في غير موضعه، وفي صورة لا تفيد ، فلم ولن تنبت حدائق الإيمان على هذه الأرض الوعرة، وبسبب هذا النقص الأساسي في الأرض أصبحت كل الدوائر الدينية خراباً ويهددها الدمار ، لأن النفس لأمارة بالسوء والشيطان اللدود ، الذي فرض علينا للابتلاء ، قد نصب شراكه على أفكارنا وأذهاننا وأعمالنا ، وهو مسيطر عليها يدفع بالإنسان إلى التدمير والتخريب بدلاً من البناء والتعمير ، وإننا لنفرح بازدهار الأشجار ، غافلين عن تخريب الأرض ، وعما يجري من الفساد في جذورها وأصولها .

---

(1) ملفوظات الشيخ محمد إلياس ص145 .

(2) راجع محمد إلياس ودعوته الدينية للندوي ص399 وما بعدها .

فإن لم تستمر الجهود المتواصلة بالعزيمة والجرأة والاستغلال بالمنهج السليم ، فلن تثمر تلك البساتين ، بل ولن تستوي الأرض التي يقوم عليها هذا البناء العظيم "[1] .

ويعني الشيخ بهذا أن أرض الدين تحتاج إلى الإصلاح أولاً ، ثم يقام عليها البناء ، ومقصده بالأرض هنا هو " عقيدة الإيمان " لأن جميع المناهج التي تستخدم في هذا المجال لم تتوجه بعد إلى تلك المهمة التي لابد منها قبل كل شيء ، ثم يؤكد أن هذا الإصلاح لا ينال النجاح إلا باتباع طريق فطرى اختاره الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، والصحابة رضوان الله عليهم ، وأن المنهج الذي اتخذناه لهذا الإصلاح هو منهج الأنبياء الفطري والتجريبي ، الذي أخذت به الأمم قديماً وحديثاً.

بين القواعد العامة والعمل :

لقد أدرك الشيخ أن الوعظ والنصيحة لا تكفي حتى يقوم الواعظ والناصح بتقديم نماذج عملية لما يدعو إليه .

وهذه الدعوة تحتاج إلى منهج سليم توضع له قواعد أساسية لابد منها في هذا المجال ، فكما لزم وضع قواعد قيمة ، فقد لزم العمل بها حتى يصل إلى الغاية ، فإذا فقد إحداها تأتي نتائجه بصورة عكسية تماماً ، ويقول الشيخ محمد إلياس رحمه الله : " إن المواعظ لا تكفى حتى يكون هناك تدريب عملي لما قيل من الوعظ ، لأن الوعظ هو ترغيب الناس وتوجيههم وإعدادهم للعمل . فمن الواجب أن يقوم بإعداد برنامج عملي بعد الوعظ . وإلا فإن الناس ينقدون في وقاحة ، ويتهمون العلماء والناصحين ، ويوجهون – بوقاحتهم المعتادة – اتهامهم بالتكاسل عن العمل "[2] .

ثم يتجه الشيخ إلى تحديد الخطة ووضع المبادئ فيقول: إن الأمر السهل يصعب على الناس مباشرة عمله دون تحديد خطة العمل وأصولها ، حيث يصعب

---

(1) مكاتيب الشيخ محمد إلياس ص137 .

(2) محمد إلياس ودعوته الدينية للندوي ص138 .

الالتزام بقواعد الدعوة وأصولها ، ومع أن أيسر أمور العالم لا تنجح دون قواعد أو ضوابط، فإن الطائرة والسفينة والقاطرة والسيارة كلها تجري بقواعد مقننة مضبوطة، حتى الخبز والطهي لن ينضج إلا بقواعد معينة ، فكيف يقوم أصحاب الدعوة دون بصيرة وبغير خطة سليمة ، أو قواعد أو ضوابط معقولة للقيام بدعوتهم ؟ "[1] .

ثم يحذر الشيخ مما يحدث في تلك الدوائر وهو أن الناس يضعون خطة مدروسة على أسس قيمة ، ويشرحونها في يسر وبساطة ، ولكنها تظل زينة على الأوراق ، أو تستخدم على سبيل الدعاية ، أو يتمنون أن يأتي غيرهم ليقوم بتنفيذها .

فيقول الشيخ عن هذا : " تحاشوا أن يصير التفكير كله كهيكل صوري لا روح فيه ولا معني ، وأن تكون مجموعة القواعد والضوابط كنظام مادي "بحت"[2] .

ويقول الأستاذ أبو الحسن على الندوي : " إن الشيخ رحمه الله كان يرتعد ويرتجف قلبه دائماً من هذا الخطر ، خشية أن تصبح هذه الحركة هيكلاً للقواعد الصورية البحتة دون العمل "[3] .

وكان الشيخ محمد إلياس يقول في هذا الصدد : " إن المواظبة على مبادئ التبليغ أمر هام جداً ، وإن الإهمال والتقصير في المبادئ هو دعوة لعذاب الله ، لأن العذاب الذي يمكن أن يأتي مؤخراً ، ينزل على رؤسكم بغير تأخير . وإن بلغت تلك الحركة (الإيمانية) أسمي درجات الفوز ، فإنها تنهار نتيجة مخالفة المبادئ أو إهمالها "[4] .

(1) مكاتيب الشيخ محمد إلياس ص144 .
(2) الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية ص191 .
(3) المرجع السابق نفس الصفحة .
(4) المرجع السابق ص175 .

فالخلاصة أن الإنسان بفطرته يحتاج إلى قدوة يقتدي بها ، وما كانت حياة الأنبياء والرسل والصحابة والتابعين إلا الأسوة الحسنة المليئة بالنماذج العملية الفطرية ، مما أدي إلى تربية الشعوب والأجيال تربية حسنة لم يسبق لها مثيل .

فاليوم لا نحتاج إلا إلى قدوة حسنة على وجه كامل وشامل حتى يتم التوجيه السليم لأعمال الخير والسعادة .

******

الفصل الثاني

مبادئ الدعوة وغاياتها في منهج الشيخ محمد إلياس

تمهيد لمبادئ الشيخ محمد إلياس في الدعوة إلى الله :

لقد عرفنا فيما سبق مدي تأثر الشيخ محمد إلياس بالظروف المعاصرة له ، وما كان يجري للإسلام والمسلمين على التصعيد المحلي والعالمي .

وعرفنا ما قام به دراسة علمية دقيقة، لحقيقة المرض والفساد الذي لحق بالمسلمين منذ قرون، والذي زاد أثره المهلك آنذاك، ثم عرفنا وسائل علاج هذه الأمراض، حيث كانت نتيجة البحث أن الفساد الحقيقي والنقص الأساسي كان في عقيدة الإيمان ، وعدم تقوية الأسس الدينية في حياة المسلمين ، التي كشف لنا عنها الشيخ محمد إلياس، والتي لابد من تدعيمها في قلوب المسلمين بصورة حقيقة ثابتة، لا تتم إلا بالتعرف على تلك الأسس حق المعرفة.

ولا يتم هذا التعرف إلا بعمومية التعليم ، الذي لا يفيد إلا بإصلاح المعهد الأول للتربية ، وهو تربية الآباء والأمهات ، في أول الأمر ، على قواعد الدين السليمة ، وهذه كلها تحتاج إلى أن يبدأ هذا العمل بالترغيب ، لكي يصل هذا الطلب لغير الراغبين في معرفة الدين وأحكامه . وبذا يزداد حب الدين وتوقيره في قلوب المسلمين .

وكل هذا لا يتم إلا بعزم أفراد الأمة وتصميمهم على إصلاح أنفسهم بأنفسهم، وهذا العزم لا ينفع إلا بتحديد منهج قوى للقيام بهذا العمل ولا يمكن اختياره وتحديد خصائصه بغير الاسترشاد بالقيادة النبوية المطهرة ، والهادفة إلى تكوين مجتمع يحمل الخصائص المؤدية إلى إظهار دين الحق ، على مستوي العالم كله بصفة أبدية[1] .

ولكن كيف يمكن القيام لبلوغ هذا الهدف في زمننا المعاصر ؟ .

لقد بحث الشيخ محمد إلياس رحمه الله عن هذا الهدف العظيم وغاياته ، فلخص لنا دراسته ونتائجها ، التي أظهرتها بعد بحث دقيق ، وفكر عميق ، وخبرات نادرة ، وهي أنه لا علاج لهذا المرض بغير القيام بعمل جاد مستمر وغير مبتور .

وقد ظهرت للشيخ حقيقة جلية واضحة ، وهي أن هذا العمل لا ينال النجاح إلا أن يكون أساسه وحدة الأمة ، فقام يبحث عن تصور لوحدة النوع الإنساني ، والأسس التي تبني عليها تلك الوحدة ، فركز تفكيره على تكوين شخصية تقوم بهذا العمل ، فتكون تربيتها تربية روحية كاملة تصبح أساس الجماعة التي لا تخشي غير الله سبحانه وتعالى .

ثم بحث الشيخ عــن الخواص التي يحتاج إليها الفرد لإصلاحه ؟ وما هو تصوره لهذا الإصلاح ؟ وما هو الهدف الحقيقي ؟ وما هو أساس اليقين للوصول إلى الغاية المنشودة ؟

وقد ركز الشيخ تفكيره على اختيار لائحة العمل التي تؤدي إلى بلوغ النتيجة الحتمية المرموقة ، متسائلاً : ما هي المبادئ الأولية للقيام بهذا العمل ؟ وما هو الضمان والمعيار الأساسي لاختيار هذا الجهد ليكون صحيحاً ؟ وما هو النموذج

---

(1) هذه هي خلاصة ما اطلعنا عليه من جهود الشيخ وأهدافه بعد قراءة كل ما تيسر لنا من مكتوباته وأقواله ورسائله، وما روي عنه في هذا المجال.

المرجو في بداية تلك الجهود وبعد نجاحها ؟ وما هو التحرك الأصلي لهذا العمل الذي يشجع العامل باستمرار على القيام بعمله دون توقف ؟ .

هذه هي خلاصة ما ركز عليه الشيخ من أفكاره ، ولابد لكل إنسان أن يركز فكره فيها قبل أن يبدأ أي عمل للوصول إلى المقصود .

ونحن لا نستطيع ذكر هذه النقاط بالتفصيل نظراً لضيق المجال ، وإن كانت هي غايتنا المرجوة ، بل نلخصها بأسلوب ميسر مختصر قدر الإمكان ، حتى لا نتركها دون إيضاح ، ولا نخرج عن إطارها ، لأن البحث حول نفس النقاط المنهجية للبحث ، وهي :

1- أن تكون دعوته إلى العمل مبنية على الحق ، والوحي المنزل من الله على خاتم الأنبياء والمرسلين .

2- أن يكون معيار هذا العمل هو : الكتاب والسنة الشريفة .

3- أن يكون القيام على هذا العمل في مقدرة الإنسان ، وذلك بتقديم نماذج عملية من حياة الصحابة رضوان الله تعالى عنهم أجمعين .

4- أن نبين غاية العمل ، حتى يتشجع العامل إلى عمل جاد وترسخ حقائقه في ذهنه ، ليمكنه إعلاء كلمة الله .

5- أن يكون تصور الإصلاح بهذا العمل لكيان الفرد نفسه أولاً ، ثم للكون كله .

6- أن تقدم لائحة العمل وأسسه المتينة ، لتبيان أهميته وإيضاح المعيار السليم والنموذج الكامل للعمل .

7- أن تكون هناك عناية خاصة بالعوامل المحركة لهذ العمل الجاد ، ومنها الترغيب في الفضائل والأجر والثواب والدعاء، مع اليقين الكامل في نصرة الله، والتأكيد بحتمية الفشل التام في حالة عدم الانقياد الكامل للدين الحنيف .

المبـــادئ وغاياتهـــا :

من البديهي أن من وضع أي غاية معينة نصب عينيه فهو الذي يحدد المبادئ ، وطرق العمل للوصول إليها ، يقول الشيخ محمد عيسي : " إن الشيخ محمد إلياس قد آمن بأن الله سبحانه خلق كل شيء ثم هدى ، ومن هذا المنطلق هو الواحد الأحد الذي يحدد الطريق لبلوغ هذه الهداية ، فبعث الأنبياء ليسيروا على ما اختاره من طرق الهداية لقومهم فحدد طريق العمل لخاتم الأنبياء ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين ، حيث إنه لم ينزل أي حكم من الأحكام إلا وقد قام به عليه الصلاة والسلام كنموذج للبشرية كلها ، لأن المقصود الأول هو الدعوة ، والباقي كله هو متطلبات الدعوة ، فنزلت الأحكام الخاصة بالمقصود طوال عشرة أعوام ، أما المتطلبات الأخرى فقد نزلت خلال ثلاثة عشر عاماً .

وعلى هذا فقد أكد طريق العمل أن كل التعليمات الإلهية لابد أن تقام على منهجية العمل مع القول ، كما أكدها منهج النبي وأصحابه ، بقوله تعالى : " وأطيعوا الرسول " وقوله صلى الله عليه وسلم في حديثه : " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " .

وقد اختار الشيخ رحمه الله نفس الطريق الذي اختاره الرسول عليه الصلاة والسلام وآمن بأن الحكم والمعاملات والتجارة والزراعة والوظائف ليست إلا أشكالاً للأسباب التي تحتاج إليها البشرية ، فلابد أن يتبع فيها طريق الرسول صلى الله عليه وسلم حتى لا يحيق الخطر بالبشرية ، وحتى تأتي نصرة الله . وتلك الأشكال ليست هي مقصودة بعينها ، وإنما المقصود للأمة هو الدعوة إلى الإيمان والعمل ، واتباع منهج الرسول فيهما "[1] .

فالطريق الحقيقي للدعوة إلى الحق وفهم الدين ، هو نفس الطريق الذي اختاره الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهو طريق الفطرة التي فطر الله الناس عليها ،

---

(1) مقامي كام ص143 بتصرف .

وهذا المنهج في حاجة لأن يقوم به الأفراد والجماعات من كل مستويات الحياة ، وتفتح له المراكز في جميع أنحاء العالم .

ومن غير الممكن أن يعمل الأفراد والجماعات بمثل هذا المنهج العظيم الذي يسمو على كل الفلسفات العالمية ، ويحتضن في كيانه جوهر الهداية والإصلاح ، إذ لا يمكن ذلك إلا بإشراف كبار علماء الأمة وزعمائها مع اتخاذ مشورة كل ذي رأي وبصيرة .

وعن هذا يقول الشيخ محمد الثاني : " إن الشيخ محمد إلياس رحمه الله دعا الناس إلى منهج فطرى ، حيث كان يؤكد دائماً على اختيار الهدى النبوى لفهم الدين ، جاعلاً الرجال يقومون بالدعوة على كل مستويات الحياة في المجتمع ، وذلك تحت إشراف مراكز الدعوة والمدارس الدينية حتى يتحمل كل هؤلاء العاملين بالدعوة مسئولية هذه المراكز الدينية ، لتكوين جيل جديد يكون مستعداً للعمل الجاد مع الحركة والسعي في كل فج ، حتى يعم العلم وخدمة الدين ، بالتعليم والتعلم ، ونشرهما بين الناس ، ويكون كل هذا جزءاً من حياة المسلمين وخدمة الدين .

وقد قرر الشيخ ترك الوطن لمدة معينة، ليقوم بتربية المسنين والمشتغلين بالمجالات المادية ، ويعظهم بأن يتركوا أشغالهم المادية لفترة قصيرة للتعليم والتدريب على المبادئ الأساسية للدين ، والتي رتبها الشيخ في صورة سهلة مبسطة ، وقد نجح الشيخ في ذلك خلال حياته "[1] .

وفي إحدى رسائل الشيخ محمد إلياس التي أرسلها إلى رئيس دار العلوم ديوبند يقول : " لا يصلح العمل على أي أمر من الأمور ، إلا ويحتاج إلى أصول ومبادئ خاصة له ، فإن عمل الدعوة قد ازداد بقدر ملحوظ بفضل الله ، وان كل التفاصيل الظاهرة والباطنة مع كثرتها ، سارية على نظم وأصول معينة . ولكن فهم تلك الأمور البناءة الأساسية المترابطة في دقة ونظام ، لا يمكن أن يقوم عليها أي

---

(1) حياة يوسف ص151 .

جديد دفعة واحدة ، بل يتدرج طبقاً للنظام المرتب له، وأن الحاجة الماسة في تلك الظروف هي تكوين جماعة من علماء الدين والشريعة ، وشيوخ الطريقة، وسادة الزعماء السياسيين، لكي تشرف على هذا النظام العملي بمشورتها الصالحة "[1] .

ويقول : " فما هو المبدأ الرئيسي الذي يبدأ به العمل " ؟

إن خلاصة تفكير الشيخ في هذا المجال هو ما ذكره صاحب مفتاح التبليغ وهو : أن يقوم كل أفراد الأمة بالجهاد الحقيقي في سبيل الدين الحنيف بناء على قوله تعالى : "هو اجتباكم" وتأييداً لقوله تعالى : { كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ }[2] .

فالجهاد شامل جهاد اللسان والبدن والمال والنفس، والجهاد ضد الفساد والشيطان والكفار والبغاة والمفسدين[3] .

ثم قام الشيخ رحمه الله بترتيب قواعد أساسية للقائمين بهذا الجهد العظيم ، وأهمها أن يلتزم بالمبادئ الستة المعروفة – والتي سيرد الحديث عنها فيما بعد – وأن يترك ما لا يعنيه، وأن يخرج في سبيل الله قدر استطاعته، وأن يعرف طبائع الناس ، كما يتعرف على طبيعة البيئة وأحوالها بدقة بالغة ، وأن يتجنب المسائل الجدلية ، وأن يترك جمع المال وأشكاله من التبرعات وغيرها ، باسم الدين ، وأن تكون لديه الحماسة والحمية للدين مع اليقظة والوعي الكامل ، وأن يكون غير طامع في المادة لذاتها ، بل ينفق ماله في سبيل مصلحته ودينه فقط ، وأن يقوم بمناصرة الخارجين للدعوة ومرافقتهم ، وأن يدعو إلى المعروف ويتجنب المنكر ، ويحزن لأحوال الأمة ، ويكون شفوقاً رحيماً مع أهلها ، ويشارك في اختيار الأمير ويطيعه في أوامره ، طبقاً للكتاب والسنة ، وأن يبذل جهده لجمع كلمة الأمة ، ولا يغترب عنها ، وأن يلتزم بالدعاء إلى الله لنصرته ونصرة دينه .

---

(1) مكاتيب ص144 .

(1) سورة آل عمران : الآية 110 .

(2) راجع مفتاح التبليغ للشيخ محمد حسن خان من ص160 – 178 وما بعدها .

وكان يقول عن ذلك : " إن هذه المبادئ والأصول ما وضعتها من نفسي ، بل هي ثروة المسلمين وإرثهم ، ولست إلا مذكراً ومرشداً لكم إلى هذا التذكير فلا تنسبوا شيئاً إلى شخصي "[1] .

والأمر الذي يقودنا إلى الاعتراف بالحقيقة هو أن تلك المبادئ ليست غريبة على المسلمين، إلا أنها كانت مدونة على القراطي ، ولم تهتم بها أية جماعة خلال الآونة الأخيرة ، أما عمل الأفراد – وإن قاموا به – فلا قيمة له ، لأنه غير منظم وغير مثمر لإصلاح البشرية جميعها .

وقد اتفق مع الشيخ رحمه الله جميع علماء عصره في شبه القارة ، وأيدوه تأييداً عملياً بما أمكن لهم في مجال الكلمة والكتابة ، وقد ذكرت موقف هؤلاء العلماء وأراءهم في ذلك في كتاب مستقل ، سميته " الشيخ محمد إلياس بين مؤيديه ومعارضيه " .

ويكفى ها ما قاله رئيس أكبر مركز للعلم في شبه القارة ، وهو العلامة الحافظ محمد طيب القاسمي ، رئيس دار العلوم ديوبند حيث يقول : إن الإنسان يكتسب في حياته نوعين من الكمال : كمال علمي ، وكمال عملي .

فالكمال العلمي : يحصل من الكتب والمدارس والجامعات .

وأما الكمال العملي : فله طرقه ووسائله المختلفة ، كما ذكر الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين . وأول هذه الطرق : صحبة الخير ، فمثله كمثل حامل المسك ، طبقاً لما جاء في تفسير الآية : { وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِين }[2] .

أما الطريق الثاني فهو المؤاخاة في الله ، كما جاء في الحديث النبوي الشريف : "ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه .... إلخ الحديث[3] .

---

(3) بنيادي أصول ص56 إلى 57 وما بعدها .

(1) سورة التوبة : الآية 119 .

(2) رواه البخاري في باب الأذان : ص26 : ومسلم في باب الأذان : ص91 .

والثالث: هو أن يصلح نفسه بواسطة أعدائه ، وذلك بتجنب نقد الأعداء لأعماله التي تؤدي إلى سمعة سيئة فيتركها .

والرابع هو : طريق الاحتساب وهو محاسبة النفس، فإن اتبع أحد هذه الطرق نجح في إصلاح نفسه، ونال الكمال بالتدريج ، وإن وفقه الله في بلوغ جميع هذه الطرق ، فلا يمكن أن يحرم من الكمال ، بل يصل إلى أرقي درجات السعادة " .

ثم يقول الشيخ محمد طيب القاسمي : " إن هذه الطرق الأربعة قد اجتمعت بأكملها في " الدستور العملي " الذي قدمه الشيخ محمد إلياس "[1] .

أما الغاية من العمل ، فهي وإن تعددت أشكالها في قالب الألفاظ فهي لا تتعدد في معناها المنشود .

ولعلنا نستفيد بذكر نبذة عما قاله الشيخ في هذا الصدد ، لكي تتضح صورة المقصود بهذا العمل الذي لابد وأن يقوم به الإنسان ، وبدونه يخرج عن زمرة الإنسانية ويصبح كالحيوان .

لقد اهتم الشيخ محمد إلياس رحمه الله بشرح معني كلمة "المقصود" وأهميتها ، كما اهتم بشرح حقيقتها وهي : " أن المقصود بنفسه ليس هو المقصود بالذات ، بل يحدد على حسب الاحتياجات الأساسية للبشرية من أفراد أو جماعات ، سواء أكانت من احتياجات الروح أو الجسد " .

فهو يوضح تلك الحقيقة بأساليب شتي حيث يقول: " إن المقصود والضرورة هما جزءان متلازمان للحياة البشرية في كل زمان ومكان ، لأن الإنسان لو نسي المقصود أو تنحي عنه وتركه ، فيكون عمله عملاً عشوائياً . وكذلك إن غفل عن الضرورة وأهملها فستتحول عجلة النجاح إلي الخسران[2] .

(1) تعليم وتبليغ : من ص16 – 25 ملخص .

(2) مقامي كام ص138 .

ويقول : ما هو " المقصد " ؟ المقصد هو الذي تحل به مشاكل الحياة وضروراتها واحتياجاتها ، والشئ الذي لاتحل به مشاكل الحياة ليس بمقصد ، فإن الإنسان مركب من الجسم والروح ، ولهما متطلبات .

فمن هذا المنطلق يجب على الإنسان أن يركز أفكاره على احتياجات هذين الجزأين الأساسين في تركيب الإنسان لسعادة البشرية .

ولا معني لقيامه بجهود جبارة وسعي مستمر، دون أن يغطي بها حاجيات هذين الجزأين الأساسيين، لأن متطلبات الروح أكثر بمراحل من احتياجات الجسد، نظراً لفناء الجسم المادي وبقاء الروح، ونظراً للمقتضيات المعينة للجسم المادي والرغبات اللامتناهية لأهواء النفس وأغراضها .

فالروح هى الأهم ، وهى هالكة إذا لم يقم الإنسان ببذل الجهود لإسعادها وتمهيد طرق السعادة لها ، وكذلك الجسم ، وقد ثبت من الحقائق الدامغة أن الإنسان لم ولن يستطيع تحديد الطرق السليمة له إلا بالعودة إلى خالقه ، الذي يرشده إلى الصراط المستقيم ويحدد طريقه ، حيث أكد ذلك بالقسم[1] بقوله جل وعلا : { وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}[2] .

وإن تحديد الغاية من أهم الأمور في بداية رحلة العمل، وتتعدد الغايات بتعدد الاحتياجات، ومع ذلك فهي تؤدي إلى غاية لا غاية بعدها، ولابد أن تغطي تلك الاحتياجات غاياتها المبدئية للوصول إلى الغاية المنشودة ، حيث يأتي في أول الأمر ، وقبل كل شيء احتياجات الجسم البشرى .

والسؤال الملح هنا هو : ما هو السبيل لتغطية الاحتياجات المادية للبشر ، في حين أن غايته الوحيدة هي الدعوة إلى الله ؟

(1) مقامي كام ص141 وما بعدها .
(2) سورة العصر : الآية 1-3 .

فهل يمكن القيام بعمل الدعوة مع مراعاة الاحتياجات المادية للبشر ؟

أكد الشيخ محمد إلياس أن من أهم أهداف بعثة الأنبياء وقيامهم بتقديم النماذج العملية ، هو أن يتأكد الإنسان أن هذا الطريق هو الوحيد للوصول إلى سعادة البشرية ، وأنه قابل للعمل لكل من يريد القيام به ، حتى يجد الإنسان فيه سعادة الدارين ، حيث يرفع مكانته في المجالات المادية والروحية فيقول في ذلك : " لا شك أن المقصود الأول والأخير هو الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والبصيرة ، ولا يمكن القيام بهذه الدعوة إلا برعاية ومراعاة احتياجات البشرية وضروراتها ، ولذا وجب أن تؤتي تلك الدعوة بنماذج عملية – مع حياة واقعية في المجالات المادية حتى تثبت أن الحصول على هذا المقصد العظيم يمكن لكل إنسان ، وهذه هي الحكمة في أن سيد الأنبياء لم يقدم شيئاً من القول المحض إلا وقد قام بالعمل به "[1] .

ونرجع إلى صلب الموضوع هو " المنهج العملي " الذي رتبه الشيخ محمد إلياس رحمه الله ، فما هو الغايات التي يصل إليها المسلم بقيامه على هذا المنهج ؟

يشير الشيخ إلى غايته المنشودة في تعبيرات شتي ، تؤدي إلى هدف واحد ، ولعلنا ندرك غايته المنشودة من هذا المنهج العملي في ضوء بعض أقواله رحمه الله .

يقول الشيخ محمد إلياس رحمه الله: " إن القصد والغاية المنشودة من هذا العمل ليست إلا أن يعرف كل مسلم كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن ترتبط الأمة كلها بكل المبادئ العلمية والعملية في الإسلام[2] حيث إن الفرقة هي الداء ، والوحدة هي الدواء .

(1) مقامي كام : صـ138 وما بعدها .

(2) روا نكي كي هدايات ص49 وانظر ملفوظات الشيخ محمد إلياس ص31 .

ويقول : فإن الغرض الوحيد من هذا التبليغ هو الابتعاد الكلى عن الطاغوت ، والرجوع الكامل إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يحدث هذا إلا بالتضحية بالجسم والمال ، والجهد الشاق في سبيل الدعوة "[1].

ويقول الشيخ أيضاً : " إن الجهاد يحتاج إلى تضحية الجسد والروح والمال . وغايته أن : يظهر الإسلام على الدين كله ولو كره الكافرون " .

ثم يقول : " والدين هو الطريق المحمدي الذي يغلب على كل نظم العالم في جميع شئون الحياة "[2] .

وكان الشيخ يقول أيضاً : " إن المقصود هو " الدعاء " لأنه قوة منحها الله سبحانه وتعالى لعباده ، واتباع الأحكام هو غذاء للدعاء .

وتزيد قوة الدعاء بقدر الانقياد لأوامر الله سبحانه ، فالدعاء هو مخ العبادة .

وبذا انحصر الدعاء في العبادات ، في حين تنحصر العبادات في الدعوة فقط ، لأن الدعوة هي ما قام به الأنبياء جميعاً ، والتي جعلت الأمم "أمم العبادات" وترتيب ذلك بأن يكون الاهتمام بالدعاء منسحباً على كل أمور العبادة ، هادفاً إلى الدعوة ، وهذا هو السبب في أن الأنبياء قد وهب الله كلا منهم دعاء خاصاً ، لأنه حينما فشلت كل محاولات الدعوة والجهود الشاقة في سبيلها ، لجأوا إلى قوة الدعاء.

فالمقصود هو الدعوة ، ونهجها هو نهج محمد صلى الله عليه وسلم بالجهد والتضحية بكل ما يملكه الإنسان ، ثم الدعاء بالبكاء والتضرع لنفسه وللأمة ، وللبشرية كلها "[3] .

يقول الشيخ محمد ثاني : " قد تأكد الشيخ أنه لا يحدث التغيير بتربية الأولاد وحدهم كما لا يحدث شيئاً في إصلاح الخاصة والعامة فحسب ، بل الأمر يحتاج إلى حركة على مستوي المجموع ، حيث تستمر تلك الحركة الإيمانية في كل زمان

(3) روارنكي كي هدايات ص49 .

(3) مقامي كام ص145 .

(3) مقامي كام ص148 .

ومكان ، وقد تأكد أيضاً أن هذا هو العلاج الوحيد لما تعانيه الأمة من أنواع الفساد "[1] .

وقد اهتم كثير من أرباب النظر بالتعرف على هذا العمل وغاياته، والذي قدمه الشيخ محمد إلياس حيث كثر الكلام عنه في جميع المجالات النظرية والفكرية، وكان هذا لا يضايقه، بل كان يقوم بإفهام ما توصل إليه من مبادئ وغايات .

وكذلك كان رجال الصحافة يناقشونه ويسألون عن مقاصد وغايات البرنامج العملي الذي قدمه الشيخ كمرحلة أولي للإصلاح .

فحينما سئل الشيخ محمد إلياس رحمه الله من قبل بعض الصحفيين عن غاية هذا العمل قالوا له : ماذا تريد بهذا الجهد ؟

وما هي النتائج التي لو تحققت تكون قد نجحت في خطتك ؟ هل هي أن تصل إلى الغاية المنشودة بتحرير الهند من براثن الاستعمار ؟

فقال الشيخ : كلا . فقيل له : هل تريد أن تتحرر جميع المستعمرات المسلمة ، وأن تنفذ فيها حكم القرآن والسنة ، ثم ينتشر هذا النظام في جميع بقاع العالم ، ويصبح ظهر الأرض بلداً واحداً تحت نظام إسلامي واحد ؟ فإن حدث هذا تكون قد وصلت إلى غايتك ؟ فقال : كلا . قالوا : فماذا تريد إذن ؟!! فأجاب قائلاً : إن غايتنا هي : إحياء الدين في العالم كله ، وإحياء الجهد والتضحية لأجل الدين في الأمة ؟ حيث يكون هذا الجهد على منهج جهاد محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم ، وقال : " نريد أن تكون جامعة مؤمنة في كل أنحاء العالم تحمل في وجدانها حب نشر الدعوة مثل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم " ، ويقدم الشيخ المثال الموضح قوله بأن من أهم الاحتياجات المادية للبشرية هي الغذاء ، فإذا قام جميع أفراد العالم بزرع الأرض كلها لجمعوا الغلة بكميات وفيرة لا تعد ولا تحصي ، وإذا تركوا الاجتهاد في زراعتهم ، فسيتوقف

(1) حياة يوسف ص150 .

إنتاج الغلال ، ويقضي على ما قاموا بادخاره ، وستواجه البشرية مجاعة نتيجة هذا التوقف "[1] .

ومن الواضح أن الشيخ محمد إلياس رحمه الله يريد هنا استمرار الجهد دون انقطاع على مستوى الجميع ، متبعين طريق محمد – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

وأجمل ما لخصه الشيخ محمد يوسف بن محمد إلياس في هذا الباب قوله : " إن العمل هو إحياء السنة النبوية ، وتنفيذ المناهج النبوية على صاحبها الصلاة والسلام في جميع ميادين الحياة الإنسانية ، وذلك بإحياء اليقين وتجديده ، وإقامة العبادات بصورتها المرجوة ، وتعويد النفس على التخلق بالأخلاق النبوية ، وممارسة تلك الأخلاق في معاملة الناس مع إقامة حلقات الذكر والتعليم ، لترويج كل تلك الأمور المذكورة "[2] .

المرحلة الأولى في مجال العمل :

ذكرنا فيما سبق أهمية العمل وخصائصه وعلاقته بالإيمان ، كما ذكرنا عن الإصلاح بالعمل ، وأهمية الوقت ومبادئ الفوز، ومعيار تقدم الشعوب ، وعن الوسائل الأخرى التي تستخدم في الإصلاح، وعلاقتها بالعمل مثل العلم والحوار والكلمة والكتابة والدعاية، وعن المنهج التقليدي والتجريبي، وعن ظهور البركات والكرامات وعلاقتها بالعمل، ثم ذكرنا المبادئ والغايات في المنهج العلمي للشيخ من الدستور العملي له ، وعما أمر به تلاميذه بكتابة بعض المبادئ الهامة للحركة

(1) رواية الشيخ محمد بوستان خان المشرف العام لجمعية علماء الإسلام في بريطانيا – عن الشيخ عبدالوهاب تلميذ الشيخ محمد إلياس ، والمشرف الأعلى للجماعة في مدينة رائي وند من توابع مديرية " لاهو " بجمهورية باكستان الإسلامية.

(2) الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية للشيخ صدر الدين عامر الأنصاري ص41 .

الإيمانية ، فكان لزاماً أن نلقي الضوء على المبادئ التي قررها الشيخ محمد إلياس – من خلال منهجه – كمرحلة أولى في المجال العملي للدعوة إلى الله [(1)] .

وإذا أردنا الحديث عن أهمية العمل وخصائصه، وعلاقته بالإيمان ، فإنه يلزمنا في البدء إلقاء الضوء على تلك المبادئ وغاياتها ، وعن هذا يقول العلامة منظور أحمد النعماني مدير مجلة " الفرقان " : " إن الغاية والقصد بهذه الحركة الإيمانية ، للشيخ محمد إلياس ليس الهدف منها إلا أن تعم حياة الإيمان في أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولنيل هذه الغاية المنشودة لهذه الحياة الإيمانية قد الشيخ محمد إلياس رحمه الله منهجاً عملياً متكاملاً كمرحلة أولى وأساسية لدعوته .

وهذا المنهج يحتوى على ستة مبادئ هي :

1- الكلمة الطيبة ، أي الإيمان الكامل بالله وبما جاء به رسوله الكريم .
2- إقامة الصلاة .
3- العلم والذكر .
4- إكرام المسلم .
5- الإخلاص (تصحيح النية) .
6- التبليغ .

ويضاف إلى هذه المبادئ الستة مبدأ سابع كعامل مساعد لنيل المقصود وهو :

7- الاهتمام بترك ما لا يعني .

أولاً : ليست إلا أساس وبداية للوصول إلى الغاية ، حيث إن الكلمة الطيبة (أي لا إله إلا الله محمد رسول الله) هي البناء الأول للإسلام ، حيث يؤمن بها الإنسان إيماناً كاملاً ، حتى ترسخ عظمتها في القلب ، ويتمكن قلبه من فهم حقائقها ، ويتمتع بحلاوتها حتى تفرغ حياته في قالبها .

---

(1) تبليغي جماعت وجماعت إسلامي ص65 ، وراجع الشيخ محمد إلياس ودعوته لصدر الدين ص15.

ثانياً : يجب أن يجعل الإنسان الصلاة جزءاً من حياته ، فيهتم – قدر إمكانه – بأدائها بالطرق السليمة ، وأن يجتهد في أدائها بالتمسك بسنة خير الأنام ، وأن يستمر عاملاً على رفع مستواها في الظاهر والباطن ، والكم والكيف .

ثالثاً : اعتقاد الإنسان بضرورة الاجتهاد في فهم الدين قدر حاجته له في حياته ، وذلك بتعوده على الاشتغال بذكر الله والتفكر فيه ، مع المواظبة على الأدعية المأثورة ، والأذكار المسنونة ، وكثرة تلاوة القرآن ، والتزام الصلاة والتسليم على إمام الأنبياء صلى الله عليه وسلم .

رابعاً : التخلق بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في السلوك والمعاملة مع عباد الله، وخاصة في إكرام المسلم، وخلاصته هو خدمة عباد الله قدر الإمكان ، والعمل على توفير أسباب الراحة للغير، والنهي عن اغتصاب حقوق الناس حتى لا يصيب شخص الضرر من غيره .

خامساً : الإخلاص وتصحيح النية ، التي يجب أن يعتاد عليها الإنسان ، حتى تكون أعماله في سبيل رضا الله ، ونيل الأجر في الآخرة .

سادساً : التبليغ: والمراد به أن يجتهد الفرد في إرساء وترسيخ هذه المبادئ الخمسة في باطنه، ويتدرب عليها عملياً ، ثم يخرج في سبيل الله ، قدر ما أمكنه، في أوقات الفراغ سواء أكان قريباً أو بعيداً ، راجلاً أو راكباً، كما يقوم بترغيب الآخرين وتذكيرهم ، داعيا إياهم إلى هذا العمل، حتى تصير تلك الحركة مراكز متجولة للتربية والتبليغ ، وبهذا يعتاد الإنسان على تحمل الشدائد في سبيل الدين ، ولو بإنفاق ماله عن رغبته، وبذا ترسخ الأسس الدينية في باطن الإنسان [(1)] .

وعن هذا يقول الشيخ صدر الدين عامر الأنصارى : " حين اطمأن الشيخ محمد إلياس إلى فكره، حدد مرسوماً للعمل ، وقام بإذن الله داعياً الأمة إلى تنفيذه ، حيث حالفه النجاح .

(1) جماعة التبليغ وجماعت إسلامي ص65 وما بعدها .

وهذه المبادئ الستة ليست كلها ، كما ترون ، أركاناً أساسية للدين، كما أنها ليست من الأمور الكمالية ، بل إن المبدأين الأولين ، أي الكلمة والصلاة هما من الأركان الأساسية للدين، أما المبادئ الباقية فهي إما من الشروط اللازمة كالإخلاص ، أومن أهم الواجبات الأدبية والفضائل الخلقية كإكرام المسلم ، والقصد هو أن الاهتمام بالركنين المذكورين ، بمساعدة المبادئ الخمسة الأخرى ، من أسهل وأنفع الطرق إلى إدراك الدين والتمسك بجميع أركانه وفضائله .

وإن التجارب لتشهد أن الأفراد المشتغلين بالدعوة ، طبقاً لهذا البرنامج ، يجدون في قلوبهم شوقاً إلى تعليم الدين وإقامة صرحه الكامل .

كيف لا والبناء يقوم على العقيدة ، فبمجرد أن يدرك الفرد حقيقة الإيمان بالله وبرسوله يهرع إلى تنفيذها في حياته كلها، وينتهز أول فرصة لتعليم الدين وتطبيقه في حياته اليومية ، ويشعر بالخوف والخشية من تقصيره فيها ، فيحاول الاتصاف بجميع الصفات الواردة للمؤمن[1] .

ويقول العلامة وحيد الدين خان في توضيح تلك المبادئ الستة : إذا نظرنا إلى تلك المبادئ الستة نجد أنه في الإمكان اختيار ثلاثة مبادئ ، كمبادي أساسية منها، وهي: كلمة التوحيد، والصلاة، والخروج في سبيل الله ، أما الثلاثة الأخرى فهي التي تتولد بعد القيام بالثلاثة الأولى، لأن الثلاثة الأولى تحتاج إلى الثلاثة الأخريات ، أما بيان الثلاثة الأخيرة ، فما هو إلا لإيضاح وتجلية الثلاثة الأولى ، وليست كمثلها ، محددة في المنهج الأساسي "[2] .

ويقول وحيد الدين كذلك: لو نظرنا إلى منهج الأنبياء، لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل عليهم أسس الدين لتعليم الناس، فصار هو نفس المنهج في التعليم الابتدائي الأساسي للأمم ، حيث شد الأنبياء أزرهم لإبلاغ تلك التعاليم

(1) الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية ص15 وما بعدها .

(2) الشيخ محمد إلياس وحركته الدينية ص33 وما بعدها لوحيد الدين خان .

الأساسية، واستمروا عليها زمناً طويلاً ، حتى نزلت بمرور الزمن ، أحكام أخري جديدة على حسب احتياج الأمة وذلك بعد تدعيم بناء الأساس الديني [1] .

وبناء على هذا فلا معني إذن للسؤال الذي يقول : " لماذا لم يقم الشيخ محمد إلياس بإدخال بقية أركان الإسلام (الصيام والزكاة والحج) في منهجه ؟؟ .

إن المجال لا يتسع لهذا السؤال وأمثاله ، خاصة بعد أن أدرك الباحث قيمة هذا المنهج وأهميته في الترغيب ، وكونه من أهم أسس ومبادئ الإسلام ، سابقاً العبادات الأخرى .

ثانياً : كل تلك المبادئ ما هي إلا طريق مؤدية إلى باقي أركان الإسلام ، فإن فقد الإيمان والصلاة ، وحرم الإنسان من العلم والذكر ، وابتعد عن الأخلاق القويمة ، بما فيها إكرام المسلم ، والإنسانية ، وافتقد الإخلاص في أعماله ، بعدم اجتنابه أهواء النفس وشهواتها ، فلا تفيده العبادات الأخرى ، ولا ينفعه الحج والزكاة .

ثالثاً : ليس هنا مجال لأي قول ، خاصة بعد ما قال الإمام محمد إلياس بأن تلك المبادئ ليست إلا ألف وياء وتاء، وهي الأساس، والبداية المحضة للوصول إلى الغاية وهي الإيمان الكامل والتمسك بكل ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، ثم نشره بين المسلمين ، بكل ما أعطاه الله من قوة ، حتى تصير حياة المسلم سبب هداية الآخرين ، ومع هذا فلم يترك الإمام الآمر إلا بعد أن وضح سبب اختيار هذه المبادئ الأساسية، كما شرح أصحابه وزملاؤه وتلاميذه .

وعن سبب اختيار الشيخ لتلك المبادئ المعروفة له ، يقول : " إنه لما تأكد لديه أن مقصد الحياة هو عبادة الله ، وأن العبادة قوامها الحب والعظمة . فمدار الحياة الروحية للإنسان هو المحبة والعظمة لله، وبدونهما لا تكون حياة المسلم حياة الحقيقة، بل حياة الضلال والحرمان، وهذه المحبة والعظمة تزدادان وتموان بالأعمال

(2) وحيد الدين خان نفس المرجع ص43 .

الشريفة المطهرة التي أساسها الأركان الخمسة للإسلام وهي : الإيمان والإقرار بالتوحيد والرسالة ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

وبعد بيان أركان الإسلام وأهميتها يذكر الشيخ سبب اختيار بعضها في منهجه العملي كجزء أول ، من الشطر الأول ، من الخطة المرسومة التي رسمها للدعوة والإصلاح حيث قال : " إن الحج والزكاة للقادرين فقط ، أما الصوم فإنه فرض على كل غني وفقير ، ويأتي مرة واحدة في العام لشهر واحد ، أما الباقي ، أي الإيمان بالقلب وإعلانه بإقرار التوحيد والرسالة ، وأداء فريضة الصلاة ، فلا بد منهما لترقية المشاعر ونموها بحب الله الواحد القهار وعظمته ، وهي غذاء الحياة الروحية وبقاؤها ، حيث تحتاج اليهما الروح كما تحتاج الحياة المادية إلى الغذاء والماء والهواء .

أما باقي الأعمال فهي تحبب في الإيمان وروحانيته ومقامته ، التي تساعد على نمو تلك المحبة والعظمة ، التي يجب تبيان فضائلها ، حتى يرغب الإنسان إليها نفسه .

ومن أفضل وأهم تلك الأمور : كثرة ذكر الله ، وتلاوة القرآن ، وتحصيل العلم ، وبيان قيمة بذل الجهود في سبيل الله[1] فتتجلى تلك الحقائق الثابتة ، والمطالب الهامة ، والأعمال الصالحة وفضائلها وبركاتها وأجرها وجزاؤها كما حددها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم " .

---

(1) كان الشيخ يوجه الناس إلى جميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من خلال أقواله وحياته ، وقد أمر تلاميذه المقربين إليه بشرح فضائل جميع الأحكام ، وفعلاً قام تلاميذه بتناول فضائل كل ركن من أركان الإسلام في كتاب مستقل ، حتى اشتهرت هذه الحركة في ذلك الحين باسم حركة الفضائل ، ونالت شهرة عظيمة ، وقد طبعت تلك الكتب في أكثر من عشر لغات محلية وعالمية ، وسنذكرها في كتاب مستقل إن شاء الله .

ويؤكد الشيخ في أثناء كلماته : " لقد عرفنا أن الطريق الوحيد للوصول إلى محبة الإيمان ، وإدراك عظمته ، هو علاقة القلب بالله عن طريق تلك الأعمال ، حيث تأكد لنا أن هذه الأعمال ليست مقصودة بالذات ، بل هي وسيلة للوصول إلى المطلوب الحقيقي ، والمقصود الأصلي ، وليس في الإمكان أن يصل المؤمن إلى الهدف الحقيقي بدون هذه الوسائل ، فهذا محال ، وقد وجب العمل بتلك الوسائل الأساسية ، والالتزام بها ، بعناية بالغة ، للوصول إلى الغاية المنشودة "[1] .

يقول الشيخ محمد عيسي تلميذ الإمام محمد إلياس الدهلوي : " لقد بدأ الإمام في بداية الأمر عمله بمبدأين أساسيين[2] هما : كلمة التوحيد والصلاة ، أي الدعوة إلى الكلمة الطيبة ، والصلاة ، والاعتقاد فيهما ، وطريقة أداء الصلاة وأهميتها في حياة المسلم ، وأحكامها ومسائلها ومعانيها ، وروحها ، وكل ما يلزمها .

وكان الشيخ يأمر الناس بالخروج من أجل هذين المبدأين الأساسيين "[3] .

يقول الشيخ محمد عيسي : " قد تأكد الشيخ أن مجد الأمة الإسلامية لن يعود حتى يذهب اليأس والخوف ، وتعود الطمأنينة والأمل إلى قلوبهم ، ولن يحدث هذا التغيير بغير الإيمان الكامل ، بحيث يحدث انقلاباً عظيماً ضد هذه الأعمال السيئة ، التي تظلم مستقبلهم وتشين حياتهم فلابد أن تتحول هذه السيئات إلى حسنات ، ولا يمكن هذا إلا بالاهتمام بالصلاة في حركاتها وسكناتها ، حتى يبتعد المسلم عن الفحشاء والمنكر .

وعلى الإنسان أن يبذل جهداً كبيراً حتى لا تكون هذه الصلاة صورة فحسب ، بل تصل إلى يقين كامل حسبما جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم[4] .

---

(1) تبليغ كياهي ص9 وما بعدها . ملخص .

(2) يقصد فترة بداية حركته أي منذ عام 1927م .

(3) مقامي كام : ص77 .

(4) نفس المرجع .

وحينما بدأ الناس يخرجون معه أفواجاً أضاف لهما مبدأين : " العلم والذكر " و "إكرام العلماء" ، لأنه رحمه الله قد رأي أن التباعد بين الشعب والعلماء قد وصل إلى حد كبير ، لدرجة أن الناس قد بدأوا يكرهونهم ، بل ويسبونهم ، وكان ذلك لأسباب عديدة منها : جهود الهندوس ، والاستعمار ، وخونة بعض المسلمين لإقصاء عامة الناس عن أصحاب الدوائر العلمية الدينية .

وكان الشيخ – رحمه الله – حزيناً لأنه كان يتصور أن هذا الاغتراب هو غاية الفساد كما أنه بداية للقضاء على الإسلام والمسلمين .

وقد سار الشيخ على نهج هذه المبادئ الأربعة حتى نهاية رحلته إلى بيت الله الحرام في المرة الأخيرة ، وذلك في الثامن عشر من ذي القعدة عام 1356 هـ الموافق يناير عام 1938م .

وبعد عدوته رحمه الله في 20 ربيع الأول عام 1357 هـ أعلن عن مبادئه الستة في وضوح وتفصيل وترتيب ، فكانت هي : الكلمة الطيبة ، وإقامة الصلاة ، العلم والذكر ، وإكرام المسلم ، والإخلاص ، والتبليغ .

وقد قال الشيخ عنها: إذا قام الإنسان بهذه الأشياء فإنها تصلح حياته، حيث إن الكلمة الطيبة تقوي الروح، كما يصلح الجسد بالصلاة، والعلم والذكر، فهما كالأجنحة أو اليدين للإيمان والعمل، وإكرام المسلم يدفع إلى حب المسلم لأخيه المسلم، كما تحدث قوة الطيران بالإخلاص وتصحيح النية ، أما التبليغ فهو يولد الطاقة لهذا الهيكل الروحي .

فإذا اكتملت هذه القوى الروحية والبدنية في الإنسان، فكأنما تكون لهذا الجسم جناحان قويان للطيران ، وتوفر إمداد الطاقة في إرسال وقودها ، فلن يسابق الإنسان مخلوق من الطائرات أو السفن أو أية ألة تصنع فيما بعد في مجال التكنولوجيا الحديثة ، إذن فلابد أن ينجح هذا الإنسان في كل ميادين الحياة ،

وينال العزة والكرامة والسعادة بكل الوسائل الممكنة ، لأن السعادة ستكون له يقينية – إذا ما تمسك بهذه المبادئ الستة كتيقن الضوء بعد طلوع الشمس "[1] .

ويقول الشيخ محمد عيسي الفيروز بورى : " قد تيقن الشيخ بأن هذه المبادئ الستة ضرورة لكل فرد في كل زمان ومكان ، سواء أكانت في العبادات أو في المعاشرة أو المعاملة – فرادى أو جماعات – سواء للحاكم أو المحكوم ، وهي مقياس كل شيء وميزان كل أمر.

والأمر الهام هو أن تكون تلك المبادئ نصب الأعين ، وفي مسمع الآذان ، ونطق اللسان ، وفى إطعام الفم ، وحركة اليدين والرجلين ، وفكر الذهن ، وفي كل أعضاء الجسد وأعماله ، بحيث يلتزم بيقين الكلمة الطيبة ، والانقياد الكامل ، والمداومة على ما تقتضيه الصلاة بصورة كاملة تامة ، والعلم والذكر والإكرام في المعاملة ، والعمل بنية الإخلاص ، واستخدام كل مواهب الفكر والبدن لدواعي التبليغ .

وكذلك يجب أن تكون تلك المبادئ مستخدمة ومطبقة في التجارة والزراعة ، والمأكل والمشرب ، وكل ما يجري في ظاهر الإنسان وباطنه من روح أو مادة " .

ثم يقدم الشيخ أمثلة كثيرة لتطبيق هذه المبادئ في جميع شئون الحياة ، فهو مثلاً يقول : " إن اللسان أكثر استعمالاً في جسد الإنسان ، حيث تنطبق عليه هذه المبادئ الستة ، كما تطبق على جميع الأعضاء ، وكذلك الحال في الأعمال مثل المعاملة والتجارة وغيرها مما يفكر فيه الإنسان ويعمل به " .

ثم يضيف الإمام : " هذا هو العلاج الأساسي الذي وصلنا إليه ، بعد الكشف عن المرض ، حيث أهميته البالغة للوصول إلى الغاية ، برغم أن هناك

(1) بنادي أصول ص57 ما بعدها .

وقاية مــع هذا العلاج ألا وهي " ترك ما لا يعني " وليس هناك داع لأن نتحدث عــن أهمية الوقايــة في هذا المقام "[1] .

وقد كان الشيخ يمثل هذه المبادئ بشجرة الإسلام التي زرعها محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول : " إن الله سبحانه وتعالى أوجد السبب لبقاء الدين بواسطة محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى يخلد هذا الدين الحنيف إلى يوم القيامة دون أن يبعث نبياً آخر " .

ولهذا فقد اهتم الحق بإيجاد سبب أساسي هام هو : الإيمان وتعليمه ، لمن يريده وترسيخ عظمته وأهميته في قلوب المؤمنين ، وضرورة بذل الجهد فيه ، وقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم ، بهذه الرسالة الفريدة زهاء عشرة أعوام ، حتى رسخت تلك الحقيقة الإيمانية في قلوب المؤمنين ، ومن ثم بدأ يأخذ بالمبادئ والأحكام الأخرى للدين .

وطوال تلك السنوات العشر الأولي لم تنزل آيات لغير تعليم الإيمان وحقائقه ، وضرورة دعوته للإنسانية جمعاء ، ومن ثم يقدم الشيخ المثال فيقول : لأن الإيمان بمنزلة البذور ، والدعوة زراعتها ، أي واسطة لإنمائها ، ثم تخرج الصلاة من تلك البذور كشجرة حيث تسقيها أمطار العلم ، وتقوم بإزهارها وتلوينها بشمس الذكر، وتزينها بأوراق الأخلاق وتنميها وتقويها بسماد الإخلاص ، حتى تحمل تلك الشجرة ثمارها ، وهي العدل والحياء ، ورعاية المساكين ، والحب والمواساة والمناصرة والتواضع والخضوع ، وخدمة الخلق وعبادة الخالق وغيرها ، ثم يأتي الشراة لينالوا منها ، حيث توزع تلك الثمار في جميع الأسواق العالمية ويزداد ثمنها وطلبها .

ولهذا السبب بدأ النبي صلى الله عليه وسلم دعوته بالإيمان ، كي يصير كل مؤمن داعية لمنهجه الإيماني ، وقد استمر هذا العمل زهاء عشر سنوات ، حيث بذلت كل الجهود المادية والمعنوية لإبلاغ وترسيخ هذا المبدأ الأساسي ، مع احتمال

---

(1) بنيادي أصول : ص156 وما بعدها .

كل ألوان العذاب والشدائد ثم جاء حكم الصلاة وبعدها بدأت سلسلة الأحكام الأخرى التي اكتملت خلال ثلاثة عشر عاماً[1] .

يقول الشيخ محمد عيسي تلميذ الشيخ محمد إلياس : " قد تأكد الشيخ تماماً بأن سعادة الأمة موقوفة على الإيمان الكامل ، ولن يأتي الإيمان بثماره إلا بالعمل الصالح ، كما لن يأتي العمل بثماره إلا أن يصاحبه العلم .

ولا شك أن تلك الأمور قد تكون شاقة على كل من يكون في بداية أمره ، وقد تؤدي به إلى الفرار منها ، ولهذا فقد لزم تذوق حلاوة هذه الأعمال ، فيأتيه نورها بكثرة ذكر الله

ولن ينجح الإنسان في تلك الأمور إلا إذا تخلق بأخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام لأن الشعوب والأمم لن تحمد بإيمانها وأعمالها إلا إذا كانت متحلية بالأخلاق الفاضلة ، وأول دلائل هذه الأخلاق هو إكرام المسلم بقدر الإمكان ، لأن هذا يؤثر على طبيعة الفرد وكيان المجتمع ، حيث من البديهي أن القوانين الأخلاقية والدينية ليس لها قيمة إلا إذا خلصت فيها النوايا .

وإذا تعرف الإنسان على تلك الحقائق ، فقد ذاق حلاوتها ، وشاهد نتائجها ، ونال بركاتها بأكثر مما يتخيله إنسان ، وكذلك فعليه أن يترك صدقة جارية بإبلاغ تلك الحسنات إلى غيره ، وإلا فإنه لم يؤد واجبه الحقيقي الذي كلفه الله به

ومن غير الممكن أن يؤدي هذا الإنسان واجبه، أو ينال الدرجات العالية بالأعمال الصالحة فحسب ، بل عليه أن يجتنب الفحشاء والمنكر ، لأن الوقاية خير من العلاج ، ولذا ينبغي عليه أن يترك ما لا يعنيه[2] .

---

(1) بنادي أصول من ص138 إلى ص158 .

(2) مقامي كام ص 77 وما بعدها .

ويقول الشيخ : " هذه هي بعض الأعمال التي تعد كالجذور والبنيان لسعادة المسلمين وتقدمهم ، حيث يقول جل وعلا : { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُون }[1] .

وقوله تعالى : { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون }[2] .

وقال سبحانه : {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون }[3] .

وقد تأكد أن مدار الحياة الطيبة وحصول النعم في الآخرة موقوف على الإيمان بالله ورسوله ، والأعمال الصالحة في هذه الحياة ، كما تأكد أن الوصول إلى الحياة الطيبة ، ونيل خلافة الله في الأرض ، والفتح والنصر والعزة والكرامة ، لا تكون بغير الإيمان الكامل والانقياد التام لكل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك بإصلاح الحياة العملية ، وبذل كل جهد في هذا السبيل .

وهذا هو السر الكامن في أن الصالحين، من السلف، قد بذلوا الجهود المشكورة لإعلاء كلمة الله، وقاموا بالأعمال الطيبة ، متحملين كل الشدائد وبذلك نالوا قربة الله ورضاه "[4] .

(1) سورة النحل : الآية 97 .

(2) سورة الصف : آيتان 10 ، 11 .

(3) سورة النور : الآية 55 .

(3) تبليغ كياهي ص31 .

ومن هذا البحث تأكد لنا أن اختيار المنهج الأساسي للعمل إن هو إلا بداية له، لأنه يهدف إلى غايات لابد منها في بداية أي عمل جاد في مجال الإصلاح الحقيقي .

يقول الشيخ محمد إلياس: " إن الهدف الأساسي لمنهج دعوتنا هذه هو تعليم جميع المسلمين كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى تتمسك الأمة وترتبط بنظام إسلامي كامل علماً وعملاً .

أما الخروج في سبيل الله فهو وسيلة ابتدائية للوصول إلى هذا الهدف لأن المبادئ الستة بداية محضة كألف وباء وتاء هذا العمل، ولا شك أن قوافل التبليغ لا تستطيع القيام على هذا العمل بأكمله ، ولكنها تؤدي فريضة الترغيب والإيقاظ للغافلين، وهذا الأمر يتم بلقاء أهل المنطقة من أهل الدين وترابطهم معاً في هذا العمل ، لأنهم في بداية الأمر هم الذين يقومون بهذا الجهد ، حتى يستفيدوا من سبل وتجارب أصحابنا الذين استمروا في هذا العمل لفترة طويلة ، فأفادوا واستفادوا في التعليم والتعلم "[1] .

ويقول الشيخ : " ما ذكرته لكم لا يعادل إلا واحداً بالمائة ، أما ما قمتم به فعلاً ، فليس إلا واحداً في المائة مما وجهتكم إليه "[2] .

ولا شك أن مثل هذه الكلمات المأثورة تدل على أن الشيخ كان يقصد الإصلاح برمته ولكنه قد تدرج فيه بفكر حكيم ، وأما من قام بحصر منهجه في هذه المبادئ الستة ، ولا غير ، فإنه لم يفهم غايته ، فكيف به يفهم أسلوب بدايته في منهجه العملي في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ؟! وأحسن ما قيل في هذا الباب هو قول العلامة وحيد الدين خان حين يقول: " إن الألف والباء والتاء لا تختلف عن الهاء والواو والياء ، بل هي الأصل الحقيقي ، ولكن الشيخ قد اختار

(1) مقامي كام ص88 .

(2) مقامي كام ص19 .

هذا الأسلوب حتى يفهم أهل الظاهر ، أي الذين لم يتعمقوا في تلك الأمور ، لأنهم يحتاجون لتفسير كيف تصبح القطرة بحـراً عظيمـاً ؟ فـإن البحر هو مسمي القطرات في الحقيقة ، ولكـــن العامة قـد يفهمون أن القطـــرة شيء والبحر شيء آخر "[1] .

أما القول بأن تلك المبادئ غير قابلة للتغيير والتبديل في حد ذاتها أو ترتيبها، أو أن الإنسان لا يكون داعياً ولا مبلغاً إلا باختيار هذه المبادئ الستة التي قدمها الشيخ محمد إلياس رحمه الله، فلن تجد أية أقوال مؤكدة منه بهذه الكيفية ، إلا أنه اختارها لأسباب كثيرة كتحديد علاج للمرض الذي اكتشفه بعد خبرات نادرة وجهود شاقة في هذا السبيل .

أم التنبيه في قوله رحمه الله بعدم تغيير هذه المبادئ، فهذا للمبتدئين الذين تدربوا على تلك المبادئ مدة طويلة ، ويخرجون لإبلاغها، فعليهم ألا يتكلموا إلا بما تعلموا وتدربوا عليه، حتى لا يخطئوا في اختيارهم ، أو يخطئوا في أمور أخري لا يعرفونها .

أما التغيير اللفظي في هذه المبادئ الستة ، فمن غير المعقول أن يغيرها الداعية بتغيير ألفاظها أو أسمائها، ثم ينسبها إلى الشيخ ، لأن في ذلك تزويراً ، أما التغيير الذي يؤدي لنفس المعني فلا حاجه له، لأن وضع الألفاظ من قبل الشيخ له قيمة خاصة تؤدي إلى هدف معين، ومن الممكن أن تأتي بألفاظ متناظرة لا تؤدي المعني الذي قصده الشيخ أو تختلف عنها بصورة عامة أو خاصة ، أو تكون في إطار محدود للغاية نظيراً لما قرره الشيخ أو بالعكس .

ويشرح الشيخ محمد عيسي – تلميذ الشيخ إلياس – **هذه الحقيقة بقوله** : " إن الشيخ محمد إلياس كان يؤكد لأصحابه خطر تغيير هذه المبادئ خوفاً من حدوث الأمر الذي لا ينفع الناس ، أو غيره من الأمور الضارة بالمجتمع ، لأنه بمجرد تغيير

(1) حركة الشيخ محمد إلياس وحيد الدين خان ص43 .

الاصطلاح يتغير المعني المقصود ، مثلما غير بعض الناس عن جهل ما قرره الشيخ محمد إلياس رحمه الله ، فمثلاً المبدأ الخامس المسمى " تصحيح النية " – حيث يدخل الإخلاص في نطاقه – فقال البعض : إن المبدأ – الخامس – هو الإخلاص ، بينما الإخلاص هو حده النهائي وغايته القصوى ، التي لا يفهمها العامة في هذا الاصطلاح ، وهكذا أيضاً المبدأ السادس المسمى " التبليغ " فكتب بعض الإخوة أنه " النفر في سبيل الله " ، بينما الخروج في سبيل الله هو جزء من التبليغ[1] .

وهذا مع العلم بأنه مع إيمان مؤسس هذه الحركة وأصحابه بأن تلك المبادئ ليست الدين كله، بل هي وسيلة للوصول إلى الدين الحنيف، فلا مجال للاعتراض على ما اختاره الشيخ من المبادئ الستة كمرحلة ابتدائية لنشر التعليم بين عامة المسلمين، فإنها منهج كمنهج المدارس والجامعات والمراكز العلمية والدعوة .

ويقول الشيخ محمد إسحاق السندهلوي : " إن المبادئ الستة ليست ديناً كاملاً ، بل هي وسيلة هامة للوصول إلى غاية الدين بأكمله ، ولها دور فعال في ازدياد الرغبة عند غير المحبين له[2] " .

ويقول الشيخ محمد إلياس رحمه الله : " ان هذه المبادئ الستة مرشدة للإصلاح ، وهي القلعة والحصن للحفاظ على عقيدة المسلم وأعماله ، بمعني أنه لو اكتمل الإيمان في القلوب ، وتولدت بها حقيقة الصلاة ، ونال كل فرد من علوم الدين قدر حاجته في حياته ، وبدأ الاهتمام بذكر الله ، وزينت أعماله بالأخلاق الفاضلة بما فيها إكرام كل مسلم ، وتولدت خصائص الإخلاص في القلوب ، بحيث يقوم كل فرد بإبلاغ ما يعرفه عن الدين حق إبلاغه فلابد أن تكون تلك الأعمال

(1) مقامي كام : ص88 وما بعدها .
(2) حقيقة التبليغ ص53 .

المباركة مؤدية إلى تعريف الدين للأمة كلها ، وإلى القيام بعمل جاد لنشر هذا الدين ، وبهذا تتجلى صور كثيرة في مجال الدعوة .

وإذا فهمت تلك المبادئ الستة بهذا الأسلوب ، فلن يكون هناك خلاف أو اختلاف ، بل سيحدث الإيصال والاقتراب والتماسك بين أفراد الأمة ، ويتحد كل واحد مع الآخر .

فعلى الإخوة أن يتمسكوا بهذه المبادئ الستة، حتى لا تزيدها أو تنقصها التأويلات أو الأقاويل، لأنها بأسلوبها قلعة تصون العقيدة ، وتقضي على الخلاف والفتن والفساد[1] .

وتلك المبادئ ليست إلا لإبلاغ الأمانة ، لأنه من الممكن أن يخرج المبلغ عن الإطار الذي حدد له نظراً لقلة كفاءته العلمية .

وبناء على ذلك منع الشيخ الخروج عن حدودها، أثناء الخروج في مجال التبليغ هادفاً إلى إصلاح جميع شئون الحياة ، بمعني الكلمة ، معتقداً أنه ليس من الممكن أن يحدث هذا الإصلاح إلا بمعرفة كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم والعمل به .

وعلى هذا فالإجابة هي نفسها التي بدأنا الكلام بها ، بمعني أن هذه المبادئ ليست إلا "مرحلة أولى" للقائمين بهذا العمل والمتدربين عليه تدريباً خاصاً في إطار محدود ، وأن لها دوراً أساسياً ملموساً ، حيث بدأ الشيخ حركته بتدرج لا يفهمه إلا من عايشه هو وأصحابه، أو اضطلع به بأسلوب علمي ، حيث إن هذا المنهج العملي يحتضن في كيانه جميع أركان الإسلام، وتتبين تلك الحقيقة بعد الاطلاع على ما قاله هو وتلاميذه[2] أو من قام بشرحه بأساليب علمية[3]، أما العامة والبسطاء فلا داعى لهم أن يتعمقوا في مثل تلك المعرفة العلمية ، لأنهم يخرجون مع الجماعة

(1) روا نكي كي هدايت ص31 .

(2) من أشهرهم العلامة احتشام الحسن والشيخ محمد عيسي الفيروزنوي .

(3) خاصة الشيخ محمد زكريا والشيخ محمد يوسف الكاندهيلوي .

لمجرد فهم تلك المبادئ بأشكالها الظاهرة ، حيث لا يحتاجون لأكثر من ذلك، ومن ثم يرغبون في طلب الدين وعلى حسب حاجاتهم حتى يهديهم الله إلى الصراط المستقيم .

ولقد أمر الشيخ محمد إلياس خليفته الشيخ محمد احتشام الحسن الكاندهيلوي بشرح بعض الأمور في هذا المجال ، فقام العلامة – امتثالاً لهذا الأمر – بتأليف عدة كتب قيمة عن المبادئ الستة: " لا شك أن العودة إلى الصراط المستقيم مرحلة صعبة ، حيث يزعم المسلم أنه مؤمن ، ولا ينقصه شيء من الإيمان والعمل ، مع أنه لم يقم بأي عمل يؤدي فيه واجبه أداءاً كاملاً حتى يصير مسلماً حقيقياً ، ولذا فيلزم تحديد طريق العمل الذي يكون في مقدرة جميع مستويات البشرية ، بحيث يكون شاملاً وموجزاً للأسس الهامة التي لابد منها لأي مسلم كان .

وعلى هذا فقد رتبنا المنهج الابتدائي لهذا العمل ، وحددناه في النقاط التالية :

1- يجب أن يؤمن الإنسان بالله وبوحدانيته وحكمه ، وبأنه قادر مطلق ، ويدرك الإنسان بأنه عبد ذليل لهذا الخالق ، كما يقر هذا بلسانه ، حتى يرسخ هذا الإقرار في صميم قلبه ، وحتى تتجلى مشاعره بالعبودية والانقياد الكامل ، وذلك باختياره حياة محمد صلى الله عليه وسلم كدستور عملي ، فيجبر نفسه على الانقياد الكامل لهذه الإرشادات التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم .

2- وبعد هذا يأتي الاعتراف العملي (بعد الاعتراف بلسان القول) ، وذلك بأداء الصلاة ، بحيث لا يكون أداؤها روتينياً فحسب ، بل يكون بأسلوب يتجلى عنه الأمل المنشود بالنهي عن الفحشاء والمنكر .

أما الاعتراف العملي الثاني فهو الصيام ، والثالث هو إنفاق الأموال بالوسائل الشرعية وعلى رأسها الزكاة ، وكذلك فإنه يأتي دور بذل المال والنفس بأداء الحج والارتحال إلى بيت الله الحرام ، وكذلك الجهاد في سبيل الله .

3- وبعد ذلك يأتي دور التعلق بكتاب الله، أي الحصول على العلوم النبوية للرشد والهداية في الحياة البشرية ، والاستمرار في ذكر الله لازدياد الخشية .

4- وبعد هذا يأتي إكرام كل من يؤمن بالله ، أي إكرام كل مسلم ، وذلك بخدمة ، وخاصة إكرام العلماء الذين تخلقوا بأخلاق الله وزينوا أنفسهم بعلوم سيد الأنبياء .

5- وهنا يكون دور تبليغ العلوم والمعارف عن الكبار من الإخوة في الدين ، وذلك لتربية النفس ، فعلي المبلغ أن يخرج في سبيل الله مع من هو أكثر منه علماً وأحسن خلقاً ، وأفهم منه في أمور التربية ، لأن العمل بتلك الأمور الفردية ليس إلا الارتقاء والنمو الفردي ، بينما المقصود هنا هو : التقدم الاجتماعي ، لأن الارتقاء الفردي والاستمرار عليه يعتبر من الأمور الصعبة بسبب الفساد في البيئة وعدم استواء الحياة ، ولهذا فيلزم المبلغ أن يجتمع مع أصحاب العلم بعيداً عن هذا الجو المليء بالفساد ، وذلك بالخروج مع الجماعة على طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين "[1] .

ومما لا شك فيه أن الشيخ لم يبدأ منهجه إلا وهو مطمئن بأنه قد اختار له جميع ما تحتاج إليه الأمة لإصلاحها ، في كل مكان وزمان .

يقول الدكتور عمر ميتاً [2] " إن جماعة التبليغ مجتمع سيار يهدف إلى التدريب على أعظم أعمال القدوة النبوية[3] ، ولقد ركز الشيخ تفكيره في هذه المهمة الشاقة للإصلاح، ولم يتركها لأقاويل المتفوهين ، بل كان يدعو كبار رجال المنطقة في جميع المجالات المادية والروحية ، ويتباحث معهم ويناقشهم في جميع شئون الحياة

(1) تبليغ كيان : ص66 إلى 72 .

(2) هو مسلم ياباني ، دخل حديثاً في الإسلام .

(3) تذكرة امير تبليغ ص148 .

ومشاكلها ، ثم يقدم لهم ما أدركه من أنواع الفساد وخطورته، ويقدم مشورته في نوعية العلاج وكل ما يحتاج إليه مسلموا المنطقة من إصلاح للأمور الأساسية طبقاً للكتاب والسنة .

وقد سلك الشيخ هذا المنهج ، طوال حياته ، باحثاً عن أسس الفساد وعلاجه ، حتى صارت تلك التجارب والخبرات في صورتها المنسقة ، تتدرج طبقاً لحاجة المرض، بعد كشف اللثام عنه إلى العلاج الناجع، وهذه هي الأساليب المفيدة والأشكال المنتجة في هذا المجال وقد أسميناها بـ " المنهج العملي للشيخ محمد إلياس في الدعوة إلى الله [(1)]، وهذه الأمور تتضح في تلك المجالس واللجان التي كانت تعقد في هذا المجال ، على نحو ما ذكره الشيخ محمد عيسي تلميذ الشيخ محمد إلياس الدهلوي، حيث يقول: " حينما قرر الشيخ محمد إلياس الكلمة الطيبة وإقامة الصلاة كمنهج أول لدعوته ، بدأ يدعو الناس إلى تشكيل لجنة عليا ، لمنطقة ميوات، تدرس خطط الإصلاح للمنطقة التي يحضر إليها جميع أعيان المنطقة بما فيهم من الدهاقين وملاك الأراضي والمزارعين والأمراء، وجميع المسئولين والعاملين بالحكومة من المسلمين، والأئمة والخطباء وغيرهم من أهم رجال المنطقة .

وقد اجتمع مائة وسبعة أشخاص من أعيان المنطقة في قرية نوح [(2)] .

1- على كل فرد أن يتمسك بأحكام الكتاب والسنة في صورة جماعية اجتماعية .

2- أن يقوم كل فرد ببذل الجهود المتفانية لنشر الدين الحنيف .

3- يجب عقد الاجتماعات وتشكيل اللجان التي تدرس متطلبات هذا العمل .

(1) هذه المبادئ الستة قدمها الشيخ بهذا الترتيب في عام 1938م .

(5) تقع هذه القرية في نطاق مديرية جورجاوان .

وبهذا فقد التزم كل فرد من المجتمعين ، أمام الحاضرين بأنه ملتزم بتنفيذ هذه البنود والمبادئ التي حددت خلال الاجتماع ، وذلك نظراً للأحوال التي وصلت إليها البلاد ، وما حل بها من فساد في عقائد أهلها ، أما المبادئ التي اتفق عليها الأعضاء فهي كالآتي :

1- الكلمة الطيبة .
2- إقامة الصلاة .
3- تحصيل العلم ونشره .
4- التزام كل فرد بأن يجعل حياته وسيرته مطابقة للتعاليم الإسلامية .
5- تمسك الفرد بالتقاليد الإسلامية ، ونبذ تقاليد الشرك والوثنية .
6- الاهتمام بحجاب المرأة حجاباً شرعياً .
7- السير على المنهج الإسلامي في شروط الزواج والنكاح .
8- الالتزام المرأة بالزي الإسلامي .
9- ألا يترك المرء عقيدة من عقائد الإسلام ، ولا يقبل أي عقيدة من المذاهب الأخرى في جميع شئون الحياة .
10- أن يحافظ كل فرد على حقوق الجميع ، ويحرس كل واحد الآخر ويحميه .
11- يشارك كل فرد في الاجتماعات التي تعقد لإعطاء دفعة قوية لنشر هذه المبدئ .
12- لا يدرس الصبيان العلوم المادية الحديثة بغير تعلم العقائد الدينية وعلومها .
13- أن تكون هناك عناية خاصة بالطهارة .
14- يحافظ المرء على كرامة وعرض الآخرين .
15- اجتهاد المرء في أعمال التبليغ .

هذا وقد اتفق الأعضاء على أن التبليغ ليس فريضة العلماء فحسب ، بل هو فريضة كل مسلم ، وقد كتبت هذه البنود المتفق عليها في وثيقة ، ووقع عليها كل من حضر هذا الاجتماع .

وبهذا فقد بدأ العمل الحقيقي في المنطقة ، وبذل كل فرد جهوداً مشكورة ، واستمرت تحت إشراف اللجان المختصة بالاجتماعات والمشورة، وقد شارك مئات الآلاف في هذا العمل ، كما ازداد عدد الحاضرين في مثل تلك الاجتماعات وأخذوا يفكرون ويدرسون فيما يصلح أنفسهم ويصلح الآخرين .

وحينما زار المحدث الجليل الشيخ خليل أحمد السهارنفوري (أستاذ الشيخ محمد إلياس) تلك المنطقة في ربيع الأول عام 1344 هـ ، ومعه جماعة من كبار علماء شبه القارة ، رأي الناس مثل الأشجار في الغابات ، يغدون من أقصي أنحاء البلاد ليشاركوا في هذا العمل الجليل "(1) .

وبعد هذا البيان عن الظروف والحقائق الواقعية فليس هناك مجال للحديث عن منهج الشيخ إلياس ، بأنه لم يوف حقه ، بل تتضح لنا الحقيقة تماماً ، بأن الشيخ رحمه الله قد تدرج في دعوته تدرجاً حكيماً طبقاً لمقتضيات الظروف وطبيعة الأمراض ، ومقتضيات علاجها ، وذلك حيث بدأ رحلته في الدعوة ، بالكلمة الطيبة في عام 1927م ، ثم أضاف إليها الصلاة ، ثم احتاج الأمر إلى اختيار تلك المبادئ المذكورة في عام 1938م وتمسك بها هو وأصحابه إلى أن لقى ربه .

وأحسن ما قيل عن المبادئ الستة ، ومنهج الشيخ محمد إلياس العملي في الدعوة إلى الله ، هو ما قاله تلميذه وخليفته المحدث الكبير ، والداعي العظيم ، الشيخ محمد يوسف الكاندهلوى حيث يقول : " اعتقد الشيخ أن هذه المبادئ

(1) حياة الشيخ محمد يوسف الدهلوي ص150 - 151 .

الستة ليست إلا الأعمال الفاضلة التي نادى بها النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي ليست كما فهمها العامة ، بل هي السلوك الذي فهمناه وأفهمناكم إياه .

أما الأعمال التي يدعو إليها الإسلام ، فتنقسم إلى أربعة أقسام هي على مدار الأجر والثواب والجنة : وأولها : الأعمال التي يباشرها الإنسان ، كخليفة لخالقه ونيابة عنه مثل الرحمة والإحسان ، والسخاء والعدل ، وعقاب المجرمين ، وغيرها ، فإنها من صفات الله حيث أمر الناس بالقيام بها بأمره سبحانه ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : "تخلقوا بأخلاق الله" .

أما القسم الثاني : فهو أعمال الأنبياء ، التي يقوم بها أهل الأمة نيابة عن الأنبياء صلوات الله عيهم أجمعين مثل : الدعوة إلى الدين ، والتبليغ ، والتعليم والتربية ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإعلاء كلمة الله ، وبذل الجهود المتفانية ، والتضحية في سبيلها ، وغيرها من الأعمال الصالحة ، لأن رجال الأمة يخدمون بها مقصد النبوة ، ويجتهدون فيها ، ويضحون من أجلها لنصرة الدين نيابة عنهم وثواباً لهم .

أما القسم الثالث : من الأعمال : فهي التي يقوم بها الإنسان لإظهار عبوديته لله ، راغباً في قربه ورضاه ، وهذا الأمر من شأن العبادات مثل : الصلاة والزكاة والصوم والحج والأضحية ، والذكر والتلاوة وغيرها من العبادات .

أما القسم الرابع : من الأعمال فهو : الذي يدفع الإنسان إلى قضاء الحوائج البشرية ولكن الله سبحانه وتعالى أنزل بها أوامره التي تبلور محدوديتها وإطارها ، الذي يجعلها من أعمال الدين مثل : النكاح والنفقة ، وتربية الأولاد ، والأعمال الاقتصادية كالحرف والمهن التي تتعلق بحوائج البشرية ، وبذات الإنسان ، ولكنها مرتبطة بالثواب والعقاب طبقاً لمبدأ اتباعها أو رفضها .

ولكن إذا اتبعنا تلك البنود التي ذكرناها في القسم الرابع من الأعمال ، وترك الإنسان الثلاثة الأول بحجة الانشغال في الأعمال التي بالقسم الرابع ، فإن الأموال والأولاد تصير فتنة ولعنة للبشرية ، فإن الاجتهاد له مجالات :

مجال في الأرض وما ينبت فيها ، ومجال في الإيمان والأعمال الإيمانية .

فالجهد في المجال الأول يأتي بثماره في الدنيا بصورة لا يطمئن لها المجاهد ، لكونها غير كافية له .

أما الجهد في المجال الثاني فله ثمار في الدنيا والآخرة ، لاتعد ولا تحصى ، لأن نظرة الإنسان قاصرة عن رؤية حقائق الأشياء ، وأولها وآخرها ، بل هو قانع بصورتها الكائنة الموجودة التي لا تشفي الغليل لمعرفة حقائق الأشياء .

والمقصود من هذا المنهج العملي هو أن تأتي الأعمال الفاضلة في حياة المسلم بالمعني الحقيقي لها .

والالتزام بهذه المبادئ الستة يؤدي الى اختيار هذه الأعمال الفاضلة التي هي أحسن وسيلة للحصول على السعادة في الدنيا والآخرة[1] .

وبعد هذه النظرة السريعة إلى المنهج العملي للشيخ محمد إلياس رحمه الله ، يجب علينا أن نذكر المبادئ الستة (التي قدمها كأساس للمنهج العملي في المرحلة الأولي من دعوته رحمه الله) مع الشرح والبسط لأهميتها في حياة المسلم ، وأساليبه الحكيمة التي اختارها لإفهام تلك الأصول والمبادئ لعامة الناس ، حيث أجمع العلماء على أن أسلوب الشيخ محمد إلياس من أسهل الأساليب التي استخدمها الدعاة في القرون الأخيرة في شبه القارة على الأقل ، ولكن هذه الشروح المفصلة لمبادئ الشيخ محمد إلياس تحتاج منا إلى مزيد من الإيضاح لما تحدث عنه الشيخ . لذلك فقد قمنا بتأليف كتاب مستقل لكل مبدأ من مبادئ الشيخ محمد إلياس رحمه الله ، والتي سنقدمها في المرحلة القادمة إن شاء الله .

(1) تذكرة امير التبليغ : الشيخ عزيز الرحمن المفتي البجنوري ص334 إلى – 337 ،

المراجـــع

1) القــرآن الكريـم.

2) صحيح البخاري أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري _ ط: دار الشعب المصري

3) صحيح مسلم أبوالحسن مسلم بن الحجاج القشيرى ط: دار احياء التراث.بيروت.

4) جامع الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي ط: مصر

5) سنن أبي داود أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي ط: مصر.

6) مولانا محمد إلياس اوران كي ديني دعوت(الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية) أبو الحسن على الحسيني الندوي (أردو) ط: باكستان

7) ايك اهم ديني دعوت (الدعوات الدينية الهامة) أبو الحسن على الحسيني الندوي (أردو) ط:باكستان

8) مكاتيب مولانا شاه محمد إلياس(رسائل الشيخ محمد إلياس) أبو الحسن على الحسيني الندوي(أردو)ط: باكستان.

9) حالات مشايخ كاندهلة احتشام الحسن الكاند هيلوي (أردو) ط: الهند.

10) تاريخ مظاهر العلوم احتشام الحسن الكاند هيلوي (أردو) ط: الهند.

11) تذكرة الخليل احتشام الحسن الكاند هيلوي(أردو) ط:باكستان.

12) مذاهب عالم لأحمد عبدالله المسدوسي (أردو) ط: باكستان.

13) إرشادات ومكتوبات مولانا محمد إلياس لافتخار فريدي أردو) ط: باكستان.

14) نقش حيات حسين لأحمد المدني(أردو) ط: باكستان.

15) الشيخ محمد إلياس ودعوته الدينية لصدر الدين الأنصاري (عربى)ط:باكستان.
16) دي أور اندين مسلمذ دبليو لدبليو هنتر (انجليزي) ط: (إخواننا المسلمون في الهند).
17) ولى كامل لعزيز الرحمن (المفتي) (أردو) ط:باكستان.
18) تذكرة أمير التبليغ مولانا محمد يوسف عزيز الرحمن (المفتي) (أردو)ط:باكستان.
19) إرشادات جضرت جي عزيز الرحمن (المفتي) (أردو) ط:باكستان.
20) حياة سعيدية عبدالحليم المفتي(أردو) ط:باكستان.
21) كفاح المسلمين في تحرير الهند عبدالمنعم النمر (د) (عربي) ط:مصر.
22) السفينة الرحمانية لعبدالرحمن (الشيخ) (أردو) ط:باكستان.
23) تحريك باكستان مين علماء كاكر(دور علماء الدين في حركة تأسيس باكستان) لعبدالقادر آزاد (الشيخ) (أردو) ط:باكستان.
24) سر كذشت مجاهدين غلام رسول مهر (أردو)ط: باكستان(حياة المجاهدين).
25) سيد أحمد شهيد لغلام رسول مهر (أردو) ط: باكستان.
26) دعوت والتبليغ لغلام محمد (الشيخ) (أردو) ط: باكستان.
27) تحريك ارتداد كي مجمل تاريخ (التاريخ المختصر لحركة الارتداد) لغلام بهيك نيرنج (أردو) ط:باكستان.
28) مسلمانون كي موجودة بستي اوراس كاعلاج(انحطاط المسلمين وعلاجه الوحيد) محمد إلياس الدهلوي (أردو) ط:باكستان.
29) فضائل تبليغ الدعوة محمد زكريا (أردو) ط:باكستان.
30) ملفوظات مولانا محمد إلياس محمد منظور نعماني (أردو) ط:باكستان.

31) تبليغي جماعت جماعت إسلامي وبريلوي حضرات لمحمد منظور نعماني(أردو)ط:باكستان.

32) دعوت تبليغ محمد منظور نعماني (أردو) ط:باكستان.

33) سوانح مولانا محمد يوسف الكاندهيلوي لمحمد ثاني (أردو) ط: باكستان.

34) تبليغ كامقامي كام (العمل المحلي في التبليغ) محمد عيسي الفيروز بوري(أردو) ط:باكستان.

35) تبليغي تحريك كي ابتداء اوراس كي بنيادي أصول(بداية حركة التبليغ وقواعدها الأساسية) لمحمد عيسي الفيروز بوري(أردو) ط:باكستان.

36) تبليغي جماعت اوراس كا تارخي جائزة(جماعة التبليغ وفحصها التاريخي) محمد أيوب القادري(أردو)ط:باكستان.

37) تذكرة اكابر علماء ديوبند محمد أكبر شاه البخاري(أردو) ط:باكستان.

38) علماء هند كاشاندار ماضي (ماضي علماء الهند المجيد) محمد ميان(أردو)ط:باكستان.

39) تحريك شيخ الهند محمد ميان(أردو) ط: باكستان.

40) اكابر كي خطوط (رسائل الاكابر) محمد شاهد (المفتي) (أردو) ط: باكستان.

41) محمد يوسف البنورى وجماعة التبليغ محمد شاهد (المفتي) (أردو) ط:باكستان.

42) امام ابن حزم لمحمد أبو زهرة (الإمام) (عربي) ط:القاهرة.

43) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار محمد البهي (د) (عربي) ط: القاهرة.

44) موج كوثر محمد أكرام شيخ (د) (أردو) ط: باكستان.

45) دي فيت مومنت آف مولانا محمد إلياس لمحمد أنوار الحق (د) (انجليزي) ط:لندن.
46) مآثر الأجداد منظور الحق صديقي (أردو) ط:الهند.
47) أصول دعوت اسلام محمد طيب (القاري) (أردو) ط:باكستان.
48) مولانا محمد إلياس اوران كي ديني تحريك (الشيخ محمد إلياس وحركته الدينية) لوحيد الدين خان (أردو) ط: باكستان.
49) الأصوات المجهولة في الهند وزارة الإعلام الباكستانية (عربي) ط:باكستان.

المؤلف فى سطـــور

- هو عبدالخالق بيرزاده بن محمد سعيد بن احمد سيد بن شاه سيد .
- ينتمي إلى أسرة كريمة يصل نسبها إلى آل البيت (من جمة الأب) .
- أما من جمة الأم فينتسب إلى أسرة الدرانية الأفغانية والتي اشتهرت في مجال الجهاد والفتوح الإسلامية والقضاء والدعوة والإرشاد .
- حيث كان والد أمه كل من محمد شاه من كبار رجال الدعوة في شبه القارة وهو من أولاد السلطان الشاه أحمد شاه[1] الابدالى سلطان أفغانستان وفاتح الهند المعروف .
- كما كانت والدة أمه من أسرة قضاة جلال اباد (عاصمة أفغانستان في ذاك الحين) وكان عمها – القاضي محمد أمين القاسم – آخر قضاة جلال آباد .
- أما والده فهو الشيخ العارف بالله العلامة محمد سعيد المجددى الافغاني رحمه الله كان من كبار علماء عصره فتح أكثر من خمسين مدرسة دينية وبني أكثر من مائة مسجد في شبه القارة واشتهر في مجال الدعوة والتربية والسلوك بعد قضائه فترة طويلة في ميدان الجهاد ضد الاستعمار ثم التدريس في العلوم الدينية في أكبر مراكز البلاد .
- وبعد وفاته تولى خلافته ابنه الأكبر الشيخ محمد عبدالقادر آزاد الامام الأكبر لجمهورية باكستان ومفتي ولاية بنجاب ، ورئيس مجلس علماء باكستان ، الذي أسلم على يده أكثر من ثلاثين ألف كافر .

(1) فتح مدينة دهلى وباني بت في عام 1761 وقضي على مكائد الوثنيين والشيعة وقتل نادر شاه ملك ايران وهزم جيشه شر هزيمة راجع ستدى آف دي فريدم مومنت ج1 باب 9 وبر صغير باك وهندكي ملت اسلامية ص29 ، 801 – 234 – 254 وتاريخ المسلمين في شبه القارة .

- تلقى المؤلف العلوم الدينية على يد كبار علماء شبه القارة وتخرج من اشهر جامعات جمهورية باكستان الإسلامية ، وحصل على شهادة الماجستير في علوم الحديث والتفسير وشهادة الماجستير في الدراسات الإسلامية بتقدير ممتاز (دبلوم تخصص في الدعوة والإرشاد) ثم التحق بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر الشريف ونال شهادة (الماجستير) في الدعوة والثقافة الإسلامية بتقدير (ممتاز) .

- أشرف على المراكز الدينية التي أقامها والده – رحمه الله – في جمهورية باكستان الإسلامية كما قام بتدريس علوم التفسير والحديث والفقه ومناهج الدعوة في مختلف انحاء البلاد ، وكثرت مقالاته العلمية التي قدمها للجامعات في بلاده ونشرتها المجلات الدينية .

- حصل على عدة شهادات تقديرية من جمهورية باكستان الإسلامية وجمهورية مصر العربية

- ويقوم حاليا بتدريس اللغة الأردية بكلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر الشريف وذلك منذ 1985 .

- لقد عكف المؤلف – زهاء اثني عشر سنة متتالية على دراسة منهج الشيخ محمد إلياس حتى وفقه الله سبحانه إلى انتاج مادة علمية يعرف بها مسلمي العالم وخاصة العرب بالشيخ محمد الياس الدهلوي .

- ومنهجه العملي في الدعوة إلى الله ومبادئه وأهدافه ووسائله وأساليبه ومدي تطابقه بالكتاب والسنة وأثر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وهو عمل ضخم يمثل موسوعة غير مسبوقة حيث قام المؤلف باستيفاء جمع ما قام به الشيخ محمد إلياس في مجال الدعوة والتبليغ وإصلاح أمور الأمة الإسلامية بل البشرية جمعاء ، حيث خصص المؤلف كتاباً مستقلاً

لكل مبدأ من مبادئ منهج الشيخ وهي جديرة بان تتخذ لكل داعية في سبيل الله بل لكل من يقصد اصلاح الاخرين ويرجو أن يهتدي بهدي سيد المرسلين .

- نسأل الله أن يجزي المؤلف خيراً في الدنيا والأخرة وأن ينفعنا بعلمه وعمله وأن يجعله في ميزان حسناته ، وأن يمنحه الله المزيد من القوة والتأييد والتوفيق فيما ينفع الإسلام والمسلمين أنه نعم المولى ونعم المجيب .

كتـــب للمؤلـــف

1- دعوة الصحابة والأساليب المستجابة (عشر مجلدات) .
2- الشيخ محمد إلياس الدهلوي ، حياته ومنهجه في الدعوة إلى الله .
3- المدخل إلى منهج الدعوة والتبليغ .
(مختصر الصفات الستة للخارجين في سبيل الله)
4- الإنسان بين الكون والإيمان .
5- أهمية الصلاة في الإسلام ودورها في نشر الدعوة الإسلامية في العالم .
6- أهمية العلم والذكر في الإسلام ومدي احتياج الانسان إليهما .
7- مكانة الأخلاق في الإسلام ومدى احتياج البشرية إليها .
8- مكانة الإخلاص في الإسلام ومدي احتياج البشرية إليه .
9- أهمية الدعوة والتبليغ ومدى وجوب اهتمام المسلم بهما .
10- منهج الدعوة إلى الله للخارجين في سبيل الله .
11- كيف تنهي عن الفحشاء والمنكر .
12- إنجازات دعوة الشيخ محمد إلياس وأثرها على الصعيد المحلى والعالمي .
13- داعية القرن العشرين الشيخ محمد إلياس بين المؤيدين والمعارضين :(أراء علماء الإسلام في منهج الشيخ محمد إلياس وأفكار المعارضين والرد عليهم)
14- الرد البليغ على من يعترض على منهج الدعوة والتبليغ .
15- أديان العالم وقضية الألوهية والعبودية فيها .
16- الشيخ رحمه الله الهندي (حياته ومنهجه في مواجهة الحملات التنصيرية)
17- الصراع الفكري بين الهند والعرب والغرب (ثلاثة مجلدات) .

18- لماذا انحراف الغرب عن النصرانية .

19- الجزء الأول : تعليم اللغة الأردية للناطقين بالعربية (الصرف) الجزء الأول .

20- الجزء الثاني : تعليم اللغة الأردية للناطقين بالعربية (النحو) .

21- الجزء الثالث : تعال نتحدث اللغة الأردية (المحادثة) .

تم بحمد الله